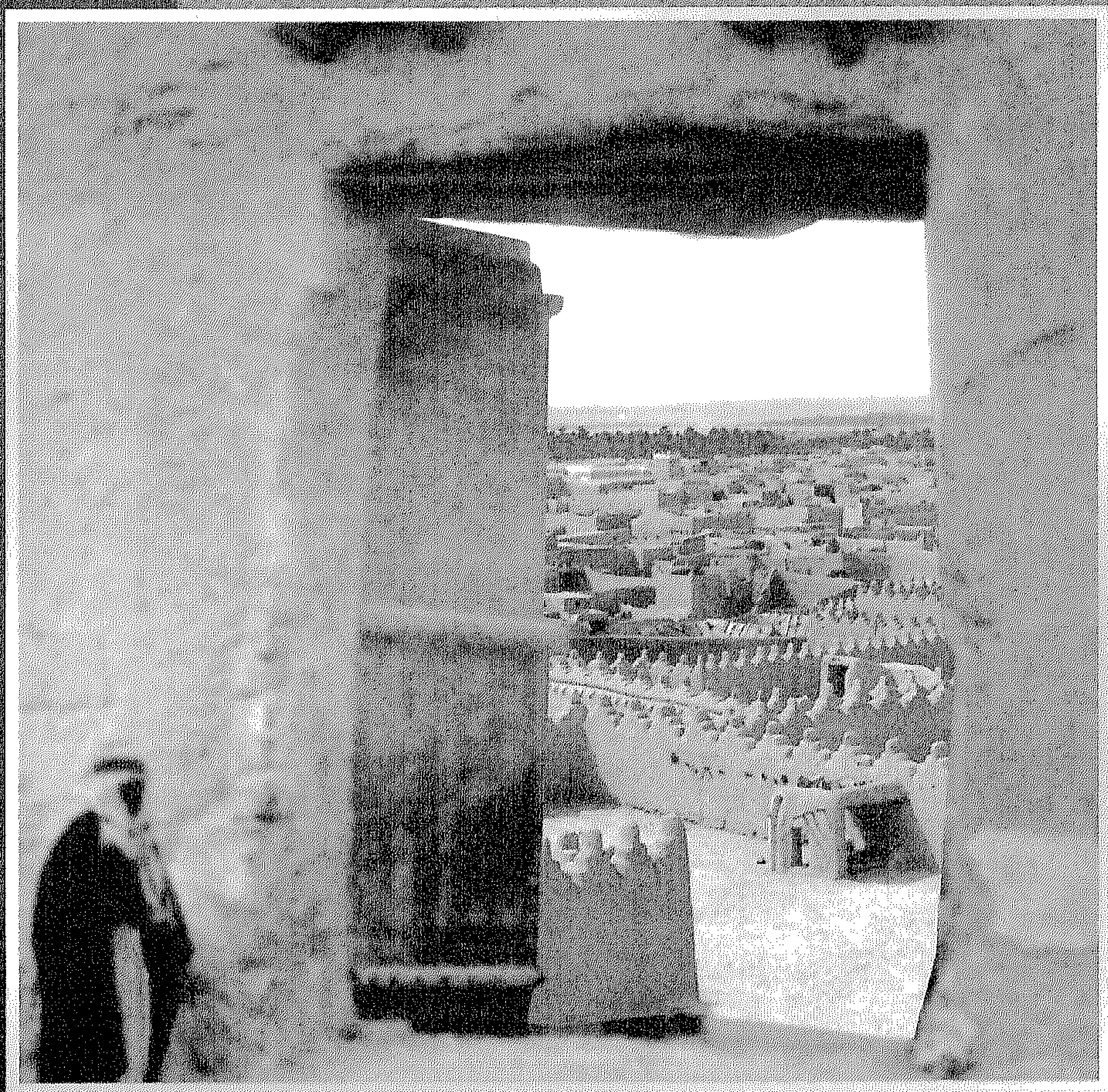
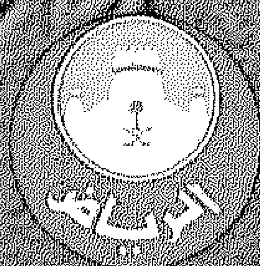
الرياض

في عيون الرحالة







الرياض
في عيون الرحالة

ⓒ أمانة مدينة الرياض، ١٤٢١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة التراث (الرياض)
الرياض في عيون الرحالة. – الرياض
٣٤٠ صفحة ، ٢٥X٢٥ سم
ردمك ١-٦-٩٢٣٠-٩٩٦٠
١- السعودية – وصف ورحلات ٢- الرياض – وصف ٣-المدن والقرى- السعودية أ- العنوان
ديوي ٩١٥,٣١١١ ٢٠/٣٨٠٣

رقم الإيداع: ٢٠/٣٨٠٣
ردمك ١-٦-٩٢٣٠-٩٩٦٠



قامت على الإصدار: مؤسسة التراث ص.ب: ٦٨٢٠٠-الرياض ١١٥٢٧، المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٨٠٧٧١٠ فاكس: ٤٨٠٧٧٠٨ بريد إلكتروني: al-turath@al-turath.com.
التراث

King Fahad National Library Registration no. 9960 - 9230 - 6 - 1

Issued by: Al-Turath, PO Box: 68200, Riyadh 11527 Kingdom of Saudi Arabia - Tel: 4807710 - Fax: 4807708
E-mail: al-turath@al-turath.com.

الرياض

في عيون الرحالة

أمانة مدينة الرياض




بسم الله الرحمن الرحيم



جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

رحمه الله



صاحب السمو الملكي
الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء
ورئيس الحرس الوطني



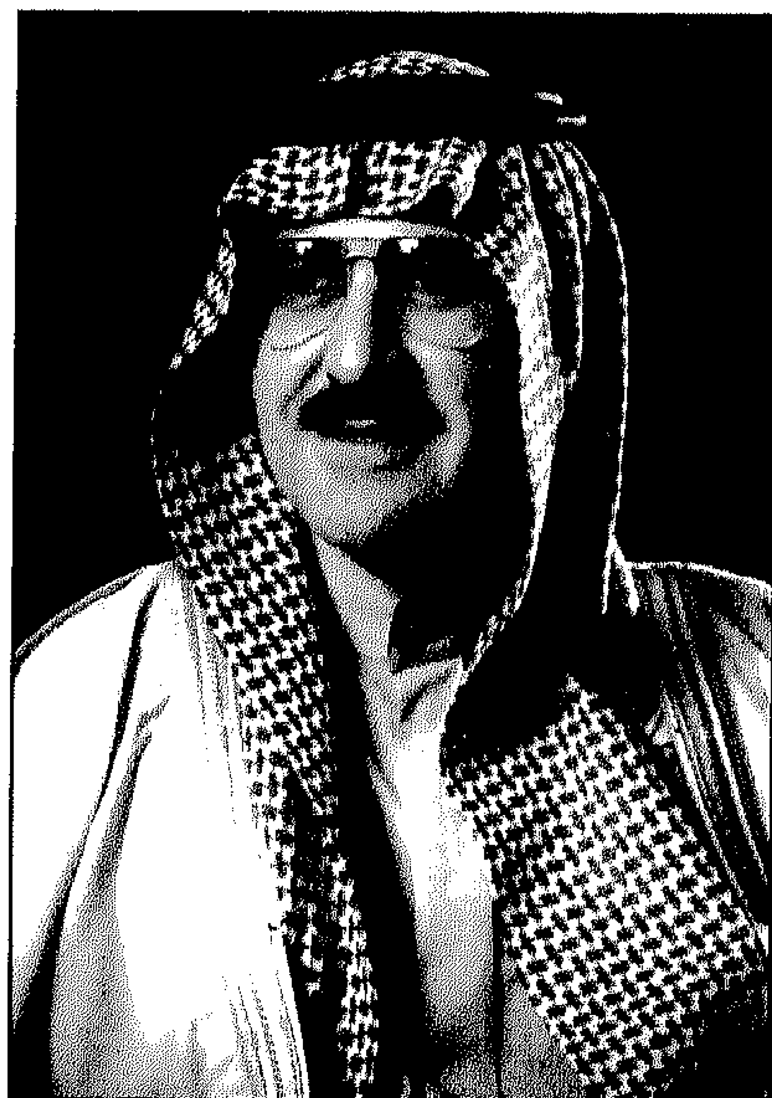
خادم الحرمين الشريفين
الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود



صاحب السمو الملكي
الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود
النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء
ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام



صاحب السمو الملكي
الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود
أمير منطقة الرياض



صاحب السمو الملكي
الأمير سطام بن عبد العزيز آل سعود
نائب أمير منطقة الرياض



تقديم

تشغل الرياض اليوم مساحة واسعة، بل تعد من أكبر مدن العالم مساحة، وقد ازداد عدد ساكنيها بصورة كبيرة، وتضاعفت المباني نتيجة لذلك، فخرجت الرياض المدينة عن نطاق سورها القديم وترامت أطرافها في كل الاتجاهات، ومن ينظر إليها اليوم لا يمكن أن يتخيل بأي شكل صورتها في الأمس، كما أنه لا يستطيع أن يضع لها عمراً زمنياً محدداً، فسنوات تطورها المحدودة نسبياً لا تتناسب مع حجم الإنجاز الضخم الذي تحقق لمدينة الرياض.

ومن هنا فقد جاءت أهمية هذا الكتاب من جانبين:

الأول: أنه يوضح لنا مقدار الجهود التي بذلت، متضافرة مع قوة الإرادة والعزيمة ليتحقق لنا هذا الإنجاز، ولنقدر البون الشاسع بين رياض الأمس واليوم.

والثاني: أن الرياض بعد أن استعادها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، ووحدها تحت راية التوحيد وأصبح الناس يتفيئون تحت ظل شجرة أمن وارفة الظلال، تقاطرت إليها أفواج الرحالة والمستكشفين وراحوا يسجلون مشاهداتهم عن الأبنية والناس والعادات والتقاليد، فكانت كتاباتهم إرثاً ثقافياً ضخماً لأجيالنا.

وأمانة مدينة الرياض إذ تسهم في تقديم هذا الكتاب لا يسعها إلا أن تثني وتسعد بالرعاية الكريمة والتوجيه السديد من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض ورئيس الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، وسمو نائبه صاحب السمو الملكي الأمير سطام بن عبد العزيز، اللذين يقفان وراء كل جهد مخلص لتقدم وازدهار عاصمتنا الحبيبة.

أمين مدينة الرياض

عبد العزيز بن محمد بن عياف آل مقرن

مقدمة

شهدت المناطق المختلفة في شبه الجزيرة العربية، خلال القرنين الماضيين توافد عدد كبير من الرحالة ..قدموا وكل منهم يسعى لتحقيق هدف أتى من أجله، وبغض النظر عن تلك الأهداف والدوافع فقد قدَّم هؤلاء الرحالة الكثير من المعلومات المستمدة من المشاهدات اليومية التي شملت الأوضاع الاجتماعية والسياسية للأماكن التي زاروها.. وكان ما دوَّنه هؤلاء الرحالة قد حفظ في مصادر مختلفة: فمنها ما أصدر في كتاب، أو قدم في صورة تقرير خاص للجهة التي أرسلت الرحالة ومولت رحلاتهم، أو بكتابة مقالات انطباعية عن تلك الزيارات في صحف بلادهم، أو بقيت تلك المدونات في سجلات يومية ضمن وثائق خاصة أخرجت للنور بعد وفاة أصحابها: إما بلغتها أو بترجمتها إلى لغات حية كاللغة العربية.

يؤرخ دارسو[1] أدب الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، في العصور المتأخرة بدايات الاهتمام بأخبارها برحلة فارثيما البولوني (Lodovico Varthema) إلى مكة والمدينة منطلقاً من سوريا سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٣م)، إلا أن التأريخ العلمي لاكتشاف تاريخ الجزيرة العربية الحديث يبدأ مع رحلة كارستن نيبور (Carstin Nebuhr) أحد أعضاء البعثة الدنماركية التي أرسلها ملك الدنمارك لاكتشاف اليمن عام ١١٧٥هـ (١٧٦١م). ففي عام ١١٨٦هـ (١٧٧٢م) ظهر العمل الأول لنيبور عن شبه الجزيرة العربية، وهو كتاب بعنوان "وصف جزيرة العرب".. وقد أهدي إلى ملك الدنمارك، وهو يحتوي على "وصف عام للبلاد العربية، من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية واللغوية، وفصول عن المناطق المختلفة للجزيرة: اليمن، وحضرموت، وعُمان، ومناطق الخليج، ونجد، والحجاز وصحراء سيناء"..

كما يُعد نيبور أول من حمل إلى أوروبا أخبار الدعوة السلفية التي كانت قد ظهرت في نجد[2] ، وقد كان نيبور يسعى لزيارة الدرعية ولقاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لكن الظروف التي تعرضت لها البعثة العلمية في اليمن حالت بينه وبين ذلك اللقاء؛ حيث توفي جميع أعضائها، ولم يتبق إلا نيبور الذي لم يتمكن من تحقيق هدفه؛ لهذا أخذ يتحرى أخبار هذه الدعوة في البصرة حتى كون عنها فكرة جعلته يعرض لها في

(١) ومن هؤلاء المؤرخين الذين درسوا تاريخ حركات اكتشاف الجزيرة العربية:
جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة، نقله إلى العربية قدري قلعجي قدم له حمد الجاسر، بيروت، الرياض: منشورات الفاخرية ودار الكاتب العربي، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م. ص٣٥-٣٧ و David George Hogarth. The Penetration of Arabia: Record of the Development of Western Knowledge concerning the Arabian Peninsula. New York: Frederick A. Stokes Co:, 1904. P31

(٢) توركيل هانس، من كوبنهاجن إلى صنعاء- ترجمة محمد أحمد الرعدي، ط٢، بيروت: دار العودة؛ مركز الدراسات والبحوث اليمني؛ صنعاء؛ ١٩٨٣م.

كتابه بما يقارب الحقيقة عن طبيعتها وحسب ما سمعه عنها[1].

لم تبق هذه الدعوة الجديدة حبيسة موقعها، (تُلتقط أخبارها نتفاً كما كانت أيام رحلة نيبور) بل قامت على أساسها دولة جديدة ما لبثت أن توسعت جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً حتى شملت قسماً كبيراً من بلاد العرب الطبيعية بما فيها الأماكن المقدسة في مكة والمدينة؛ فأصبحت انطلاقاً من عاصمتها الدرعية قوة إقليمية كبرى يحسب حسابها حتى انتهت في دورها الأول بغزو خارجي عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م.

ومع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) بدأ عدد من الرحالة الأوروبيين بالتوافد إلى مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، وهم لا يألون جهداً في محاولة معرفة ماذا كان يجري في منطقة وسط شبه الجزيرة العربية التي كانوا يعدونها مجهولة ومعزولة لا يمكن اختراقها، وشكلت كتابات بعض هؤلاء الرحالة مصدر المعرفة الغربية الأولى عن المناطق الأخرى التي تجوَّلوا في أرجائها، جغرافياً وسياسياً واجتماعياً وسكانياً، وكان من أهم هؤلاء الرحالة اولريخ سيتزن الألماني (Ulrich Seetzin)، وعلي بيك العباسي (دومينغو باديا) (Domingo Badea Yeblich) الأسباني، والرحالة جون لويس بوركهارت (J. K. Burckhardt).. السويسري. أما وسط شبه الجزيرة العربية فلم تكن معلوماتهم عنه تعتمد على الاتصال المباشر، بل تأتي عن طريق السماع؛ لأنه لم يتيسر لأي منهم زيارة هذه المنطقة كما حصل في المناطق الأخرى التي زاروها. لذا بقيت المعرفة عن هذه المنطقة في الربع الأول من القرن التاسع عشر رهينة للنقل والدراسة غير المباشرة.. وعلى سبيل المثال فأول كتاب صدر في أوروبا عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م وفي فرنسا بالتحديد، عن الدعوة السلفية: كان بعنوان "تاريخ الوهابيين"، من تأليف الكاتب الفرنسي أوليفييه دي كورانسيه (A. Corancez)، عضو البعثة العلمية التي رافقت نابليون بونابرت إلى مصر عندما غزاها عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م، وهو الذي أصبح قنصلاً لفرنسا في حلب.. وقد اعتمد هذا الكاتب في معلوماته على ما جمعه في حلب من أخبار وروايات طيلة ثمانية أعوام، عن ظهور الدعوة السلفية، وتطورها، وحالتها[2].. وكذلك فعل بوركهارت الذي لم تتجاوز رحلاته في شبه الجزيرة العربية منطقة الحجاز، اعتمد في معلوماته على ما سمعه من الرواة وشهود العيان عن المناطق التي لم يتمكن من زيارتها[3]، وكتب عن الدعوة السلفية وتاريخها وعن البدو وعاداتهم وتقاليدهم[4].

(١) محمد كامل ضاهر، الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث. بيروت: دار السلام ١٩٩٣م، ص٢٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٣٨.

(٣) جون لويس بوركهارت، رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبد العزيز بن صالح الهلابي وعبد الرحمن عبد الله الشيخ. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م، ص٦.

(٤) انظر: J. I. Burch hardt, Notes on the Bedouins and Wahabys london 1830.

لم تتحْ لأي أجنبي زيارة الرياض، وكتابة شيء عنها.. قبل سقوط الدرعية، إلا أن ضابطاً إنجليزياً هو جورج فورستر سادلير (George Forster Sadleir) جاء مكلفاً من حكومة الهند البريطانية عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م لمقابلة إبراهيم باشا في الدرعية؛ لتهنئته بالقضاء على الدولة السعودية الأولى، والدخول معه في مفاوضات للتعاون مع القوات البريطانية في الخليج بمحاربة القواسم. وقد وردت في هذا التقرير بعض المعلومات القليلة عن الرياض، وهو التقرير الذي قدمه إلى حكومته ونشر في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م[١].

بعد سقوط الدرعية ودمارها اتخذ مؤسس الدولة السعودية الثانية الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود الرياض عاصمة له في عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م، فأصبحت منذ ذلك الحين قاعدة الحكم والسياسة والإدارة للدولة الجديدة مجتذبة بذلك الاهتمام من جديد بأوضاع وسط شبه الجزيرة العربية؛ ففي الأربعينيات من القرن التاسع عشر بدأ الرحالة الغربيون يوجهون اهتمامهم إلى منطقة وسط شبه الجزيرة العربية التي كانت تموج بأحداث وتطورات سياسية مختلفة؛ لكونها المنطقة الوحيدة التي بقيت مجهولة لهم؛ وبذلك جذبت الرياض لأهميتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية العديد من الرحالة والمبعوثين والدبلوماسيين الذين زاروا الجزيرة العربية رغبة في التعرف على جوانبها الجغرافية والاجتماعية والسياسية ونتج عن هذه الزيارات ظهور العديد من المؤلفات التي وصفت جزءاً كبيراً من طبيعة الحياة في الرياض، ففي الأعوام ١٢٦٠هـ/١٨٤٥م و١٢٦٢هـ/١٨٤٧م نجد الرحالة الفنلندي جورج أوغست والن (George August Wallin) يقوم برحلتين لشبه الجزيرة العربية، كان الهدف النهائي منهما محاولة الوصول إلى الرياض ومقابلة الإمام فيصل بن تركي، ولكنه لم يتمكن من ذلك؛ فلم يذكر شيئاً عن الرياض وقد وُجد ضمن أوراق هذا الرحالة المحفوظة في جامعة هلسنكي بفنلندا رسالة توصية من الشيخ عبد الرحمن ابن عبد الله آل الشيخ الذي كان يقيم بالقاهرة، (وهي المكان الذي انطلق منه والن في رحلاته) موجهة إلى الإمام فيصل بن تركي تُعرّف بهذا الرحالة الذي اتخذ صفة رجل دين مسلم باسم عبد المولى (وفي رحلته الأولى ١٨٤٥م اتخذ اسم عبد الولي)، وتطلب مراعاته[٢] (ونص هذه الرسالة في الصفحة التالية).

لم يكن فشل والن في الوصول إلى الرياض نهاية المطاف للمحاولات المتكررة للوصول إلى قلب نجد؛ ففي عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م استطاع الرحالة البريطاني وليم جيفورد بالجريف (William Gifford Palgrave) الوصول إلى الرياض متخذاً صفة طبيب سوري باسم سليم أبو محمود إلياس، وفي عام ١٢٨١هـ/١٨٦٥م

(١) السيد أحمد مرسي، "مع الكابتن سادلير في رحلته من القطيف إلى ينبع عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م". مجلة الدارة، السنة العاشرة، العدد الثالث، ربيع الثاني ١٤٠٥هـ- ديسمبر ١٩٨٤م، ص١٦٩-١٨٨.

(٢) حول جورج أوغست والن ورحلاته انظر: عوض البادي، صفحات من الاستشراق الفنلندي، مجلة الفيصل، العدد ٢٦٦، شعبان ١٤١٩هـ/نوفمبر/ديسمبر ١٩٩٨م، ص٩٩-١٠٦.

ان شاء الله تعالى يصل الى حضرت الجناب العالي الامام فيصل دام سعده

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرت سعادت الجناب المكرم والهمام المفخم الامام فيصل ادام الله سعوده
واعلى جدوده سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فان تفضلتم
بالسؤال عن محبكم الداعي لكم بخير فبحمد الله الذي لا اله الا هو بخير
بخير وعافيه وغير ذلك حفظكم الله ورعاكم الواصل اليكم عبد [illegible]
متشوق لزيارتكم [illegible]
السامية مراعاته والله تعالى يحفظكم [illegible]

عبد الرحمن [illegible]

نشر بالجريف كتابه عن رحلته تلك، والتي عدت فتحاً في الاكتشافات الجغرافية لوسط الجزيرة في حينه؛ فهو أول من وصف الرياض وحياتها بشكل غير مسبوق.

شجعت رحلة بالجريف رحالة آخرين لتكرارها، ولكن لم يتم لهم ما أرادوا بسبب ظرف عدم الاستقرار السياسي وانعدام الأمن اللذين عاشتهما الرياض خلال المراحل الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري)، وانتقال مركز الثقل السياسي إلى أماكن أخرى، وانتشار الاضطرابات السياسية في وسط نجد، فركز الرحالة التقليديون على مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية في رحلاتهم على الرغم من تناولهم لأخبار وسط نجد وما يجري بها، ولم تتح الفرصة إلا لضابط بريطاني واحد هو لويس بلي (Lewis Pelly) الذي وصل إلى الرياض في عام ١٢٨١هـ/١٨٦٥م.

ومع إشراقة القرن العشرين الميلادي (الرابع عشر الهجري) افتتحت صفحة جديدة في تاريخ مدينة الرياض؛ فباستعادة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حكم الرياض في الخامس من شهر شوال ١٣١٩هـ/١٩٠٢م بدأت الرياض تنفض عن كاهلها عبء الماضي متطلعة إلى المستقبل؛ فمع كل خطوة يخطوها المؤسس في سبيل توحيد المملكة العربية السعودية تتجه الأنظار إليها وتزداد أهميتها، ومع كل نصر جديد ترتفع مكانتها حتى أصبحت القاعدة – لتحقيق وحدة شبه الجزيرة العربية.. وبهذه المكانة

الجديدة لم تعد الرياض بعيدة المنال للرحالة والمرتحلين الذين كانوا يخافون من الوصول إليها بسبب فقدان الأمن؛ بل توافدوا عليها من كل حدب وصوب، كما اتجه إليها الدبلوماسيون ومبعوثو الدول التي ترغب في كسب ود هذه العاصمة، وسنرى في سياق هذا الكتاب كيف تغيرت حال هذه العاصمة التي وصفها هؤلاء الذين توافدوا عليها ليطلعوا على عاصمة الملك عبدالعزيز الذي استحوذ على إعجابهم وتقديرهم. لقد سجل هؤلاء – عرباً وأجانب – الكثير من التفاصيل المهمة عن مدينة الرياض وأخبارها، كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة لحياة سكانها وأحوالهم الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك طريقة حكمها وإدارتها.

وكتابات هذه الرحلات رغم استنادها إلى مرئيات شخصية، فإنها تظل مصدراً مهماً للباحثين والدارسين لتاريخ المنطقة وجغرافيتها، لذلك فإن جمع هذه الكتابات في كتاب واحد يعطي صورة متكاملة عن وضع الرياض العاصمة خلال فترات تاريخية مختلفة، ويبين مراحل تطورها خلال ما يقارب القرنين من الزمان[1].

لقد نهج هذا الكتاب نهجاً ميسراً: حيث يُعرف بكل رحالة أو مبعوث، وهدف رحلته، والنصوص التي تم اختيارها من كامل النص المعرب، وبعض المشاهدات والانطباعات التي تم تسجيلها خلال هذه الرحلات؛ لذلك فإن ما تم اقتباسه في هذا الكتاب إنما هو مقتطفات مختارة بقدر ما يبين طبيعة التطور الذي شهدته هذه المدينة العزيزة.

ويغطي هذا الكتاب، في قسمه الأول، جملة إنتاج الرحالة والمبعوثين والصحفيين الذين زاروا مدينة الرياض خلال القرن الثالث عشر (التاسع عشر الميلادي)، ويتناول القسم الثاني الرحالة والمبعوثين والصحافيين والكتاب الذين زاروا الرياض خلال العقود الستة الأولى من القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي، والكتاب مع ذلك، لا يتسع لرحلات جميع من زاروا الرياض وكتبوا عنها، لكنه يذكر أبرز هذه الرحلات.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض النصوص المقدمة هنا ترجمت خصيصاً لهذا الكتاب، وبعضها كانت قد سبق ترجمتها تم الاعتماد عليها في النصوص المختارة.

وغني عن البيان أنه لا ينبغي أن يؤخذ كل ما يورده الرحالة من معلومات كحقائق لا تقبل المناقشة، أو أن يؤخذ ما يصدرونه من أحكام على إطلاقها؛ فكثيرون منهم يقيّمون الأشياء من خلال سياقاتهم الفكرية والثقافية والدينية، وليس من خلال السياقات الثقافية والفكرية والدينية للمعنيين بالأمر، ولكن تبقى حقيقة أن ما قدمه هؤلاء الرحالة من معلومات تعد مصدراً رئيساً من مصادر معرفتنا لما شهدته مدينة الرياض من

(١) حول ما شهدته الرياض من توسع وتطور عمراني انظر:
زاهر عبد الرحمن عثمان، وضع تاريخ العمران بمدينة الرياض، مجلة الدارة، السنة ٢٢، العدد الثاني، ١٤١٧هـ، ص٨٤–١٢٤.
ونوال محمد عبدالله، التغيير في المنطقة المركزية لمدينة الرياض، مجلة الدارة، السنة الثامنة، العدد الثاني، المحرم ١٤٠٣/أكتوبر ١٩٨٢م، ص٦–٦٠.

تطور خلال تاريخها المعاصر، ومراحل حدوث هذا التطور، ورصد الجهود المباركة التي قام بها القائد المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود – رحمه الله – وأبناؤه من بعده، لقد رعت أمانة مدينة الرياض إصدار هذا الكتاب بمناسبة مئوية التأسيس، كسجل لتطور هذه المدينة، خلال مراحل تاريخية متتابعة، حتى أصبحت اليوم تعد من المدن العالمية الكبرى بتطورها المعاصر الذي يخطط له ويتابعه صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير منطقة الرياض وسمو نائبه صاحب السمو الملكي الأمير سطام بن عبد العزيز والذي يوجهه ويرعاه خادم الحرمين الشريفين وولي عهده الأمين.

القسم الأول

الرياض

في القرن الثالث عشر
(التاسع عشر الميلادي)

الفصل الأول

١٢٣٤ - ١٢٨١ هـ
١٨١٩ - ١٨٦٥ م

جورج فورستر سادلير ١٢٣٤هـ/١٨١٩م

جورج فورستر سادلير*

George forster Sadlier

١٢٣٤هـ / ١٨١٩م

كان الوصول إليها (منفوحة) في اليوم الثالث من شهر آب (أغسطس) ١٨١٩م (١٢ شوال ١٢٣٤هـ)، والإقامة فيها إلى اليوم (الثالث عشر منه) (٢٢ شوال ١٢٣٤هـ)، انتظاراً لوصول الجند الذين في (السلمية)[١].. وكان النزول في مكان يبعد نحو الميل عنها حيث أحاط حطام واسع لأسوار وأبراج هذا المكان الذي كان في يوم من الأيام مزدهراً، وتقع (الدرعية) في واد ضيق شديد الانحدار إلى الشمال الغربي من (منفوحة)[٢] وعلى بعد عشرة أميال عنها، وهي الآن في حالة دمار كامل.. أما السكان الذين نجوا من القتل فقد بحثوا عن ملجأ لهم في هذا المكان.

كان لديَّ من الفراغ في هذه الفترة ما يسمح لي بزيارة (منفوحة) التي تحوي ما يقارب ألفي أسرة، وفيها بعض البيوت الجيدة مبنية بالطين والحجارة، وبعضها يتألف من طابقين، وسطوح منبسطة، وكان هذا المكان محاطاً بسور وخندق أمر الباشا بهدمهما.

أما قرية (الرياض) فواقعة إلى الشمال على بعد ميل تقريباً.. يفصلها عن (منفوحة) دمار الأسوار والبيوت، وسكان (الرياض) لا يعادلون سكان (منفوحة) وكل قرية محاطة بمساحات واسعة مزروعة نخيلاً تسقى من آبار عميقة، وفي فصل الشتاء تشكل السيول المندفعة من الجبال الجرداء جدولاً كبيراً يغمر الوادي، وقد كان السكان في تلك الفترة في حالة من البؤس تفوق أية فترة سبقت منذ تأسيس قوة (الوهابيين)؛ إذ محيت أسوارهم التي كانت تشكل الحماية الرئيسة لممتلكاتهم، وقد وجد كثير من سكان (الدرعية) ملاذاً لهم في بساتين النخيل، وكانت القوات التركية قد استهلكت محصول العام؛ فلم يبق لديهم قمح ولا شعير فيشترى، ولم يكن في هاتين القريتين جواد واحد.

أظهر هؤلاء السكان مقاومة على الرغم من حالة البؤس التي يعيشونها، ولم يسمحوا خلال اليوم الأول لأي فرد من مجموعتنا بدخول أي من القريتين؛ فوضعوا

---

* جورج فورستر سادلير (١٢٠٥ – ١٢٧٧هـ/ ١٧٨٩–١٨٥٩م) ولد ببلدة (كورك)، والتحق بالجيش البريطاني في عام ١٨٠٥م، وتقاعد برتبة (عقيد) عام ١٨٣٧، تنقل في عدد من البلاد ومنها الهند وإيران، وقام في سنة ١٨١٩م برحلته إلى بلاد العرب ليهنئ إبراهيم باشا على إسقاطه الدولة السعودية الأولى بتكليف من حاكم الهند البريطاني وللتعاون معه في القضاء على ما بقي للدولة السعودية من نفوذ.. ونص الرحلة عبارة عن تقرير قدمه سادلير إلى حكومة الهند البريطانية، وقد صدرت الرحلة مطبوعةً باللغة الإنجليزية في بومباي عام ١٩٦٦م حيث جمعها من سجلات حكومة بومباي ب. ريان اسك مساعد سكرتير الحكومة، وصدرت طبعة مترجمة إلى العربية في عام ١٩٨٣م.. والمواد المقتبسة في هذا الكتاب الخاصة بالرياض هي مما ورد في تلك الترجمة العربية المنشورة. حولها انظر: رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م، الكابتن ج. فورستر سادلير، ترجمة أنس الرفاعي، الناشر: سعود بن غانم الجمران العجمي، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م، ص ص ٨٠–٨٣.

(١) السلمية قرية من قرى الخرج معروفة بهذا الاسم منذ القدم حتى وقتنا هذا، ذات نخيل وزروع وسكان، اشتهرت خلال الدولة السعودية الأولى والثانية.

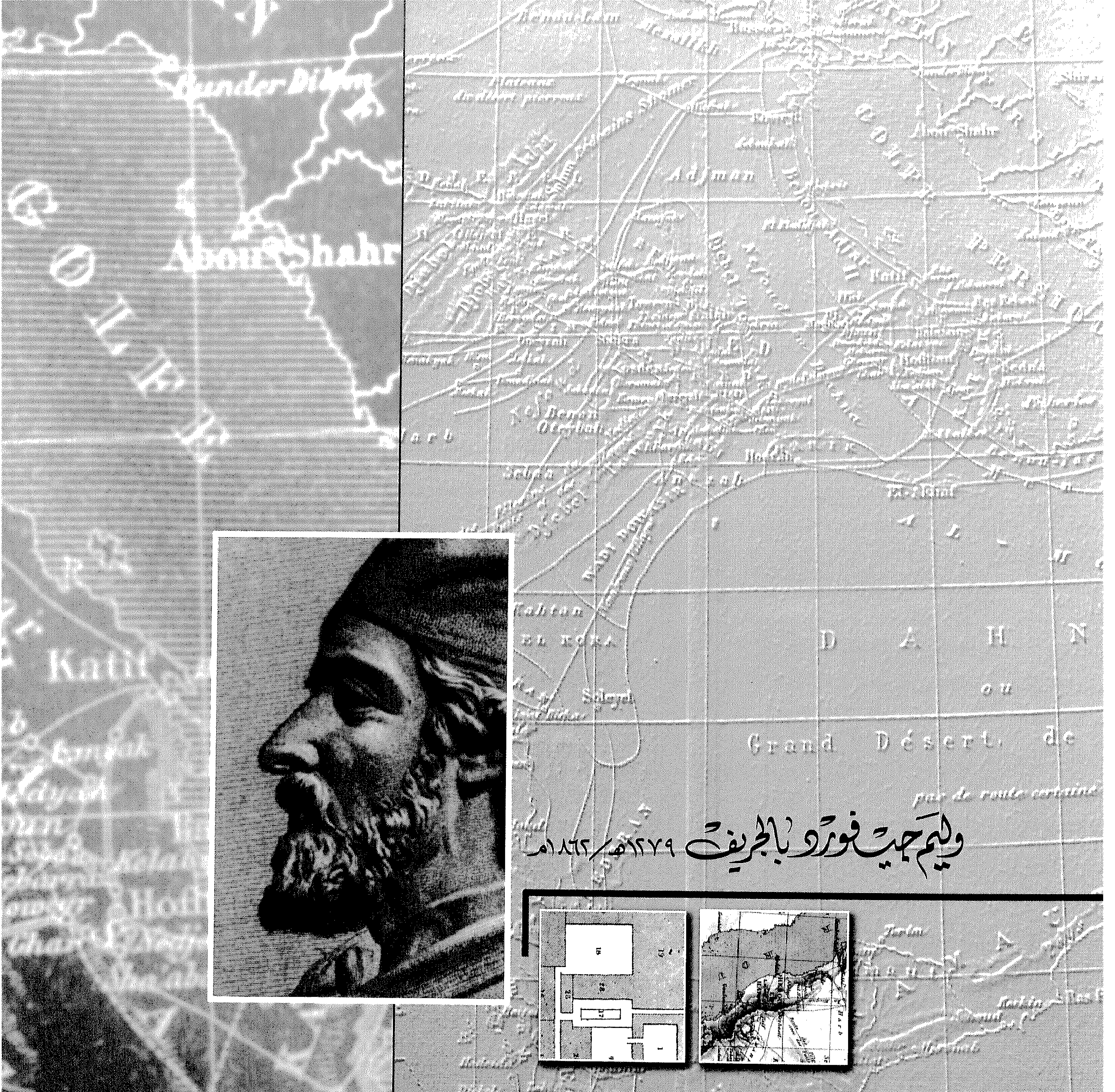
(٢) منفوحة قرية قديمة جداً أشهر من سكنها الشاعر العربي الأعشى، وهي الآن أحد أحياء الرياض الجنوبية.

المتاريس أمام بيوتهم، وخرجوا بأسلحتهم فوق السطوح المنبسطة، ورفض شيخهم أن يزور (الكاشف)[1]، وقد ابتزوا بالمؤن التي عرضوها فيما بعد ما يعادل أربعة (كراونات) ألمانية ثمناً لكل شاة، وطلبوا قرشاً ثمناً لكل ثلاث بيضات، والنسبة نفسها في سعر الخوخ الفاسد والتين، كما كان البطيخ الأحمر والشمام رديئين جداً، وكانت الخضراوات التي بصرت بها قليلاً من الباذنجان والبصل والسبانخ، وقد اشترينا بعض البرسيم والتبن من أجل الدواب.

وصلنا موقع حطام (الدرعية) بحيث تمتد إلى الغرب سلسلة طويلة من التلال بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي، كما ترى سلسلة أخرى إلى الشمال متجهة نحو الشمال الشرقي.. كان الدمار واسعاً جداً، ويدل على موقع مركز المدينة المدمرة بقايا الأسوار المؤلفة من تراب أصفر، وقد غطت الحجارة قسماً منه، وتماسكت معه؛ فالبناء في هذه المدينة كثيف ومتقارب، ومرتفع على بروز طبيعي، يحميه من أحد جوانبه وادٍ ضيق شديد الانحدار، وفي جهة الغرب سلسلة الأبراج موصولة فيما بينها بسور، ويسمى الجانب الغربي (الطريف).

كان الباشا (إبراهيم باشا) مصمماً على أن يعامل هذا البلد بوحشية، وقبل مغادرته أمر بمزروعات النخيل والحدائق أن تتلف، ولا يوجد في الوقت الحاضر عائلة واحدة تسكن في البلدة.. أما الذين حالفهم الحظ ونجوا بأرواحهم من تدمير الحرب: فقد كانت (منفوحة) ملجأهم الرئيس الذي يحوي ما يقرب من ألفي أسرة منهم، وفي هذه البلدة البيوت الجيدة، وقد ظهر العرب فوق أسطحها المنبسطة مسلحين، ومستعدين لمواجهتنا لدى دخولنا، وقد سبق أن دمر الباشا أسوارها وأبراجها التي كانت تحمي ممتلكات السكان من أية هجمات.. ويفصل قرية (الرياض) عن هذه القرية دمار واسع جردها من تحصيناتها، لكن مزروعات النخيل المجاورة للقريتين قد استبقيت.

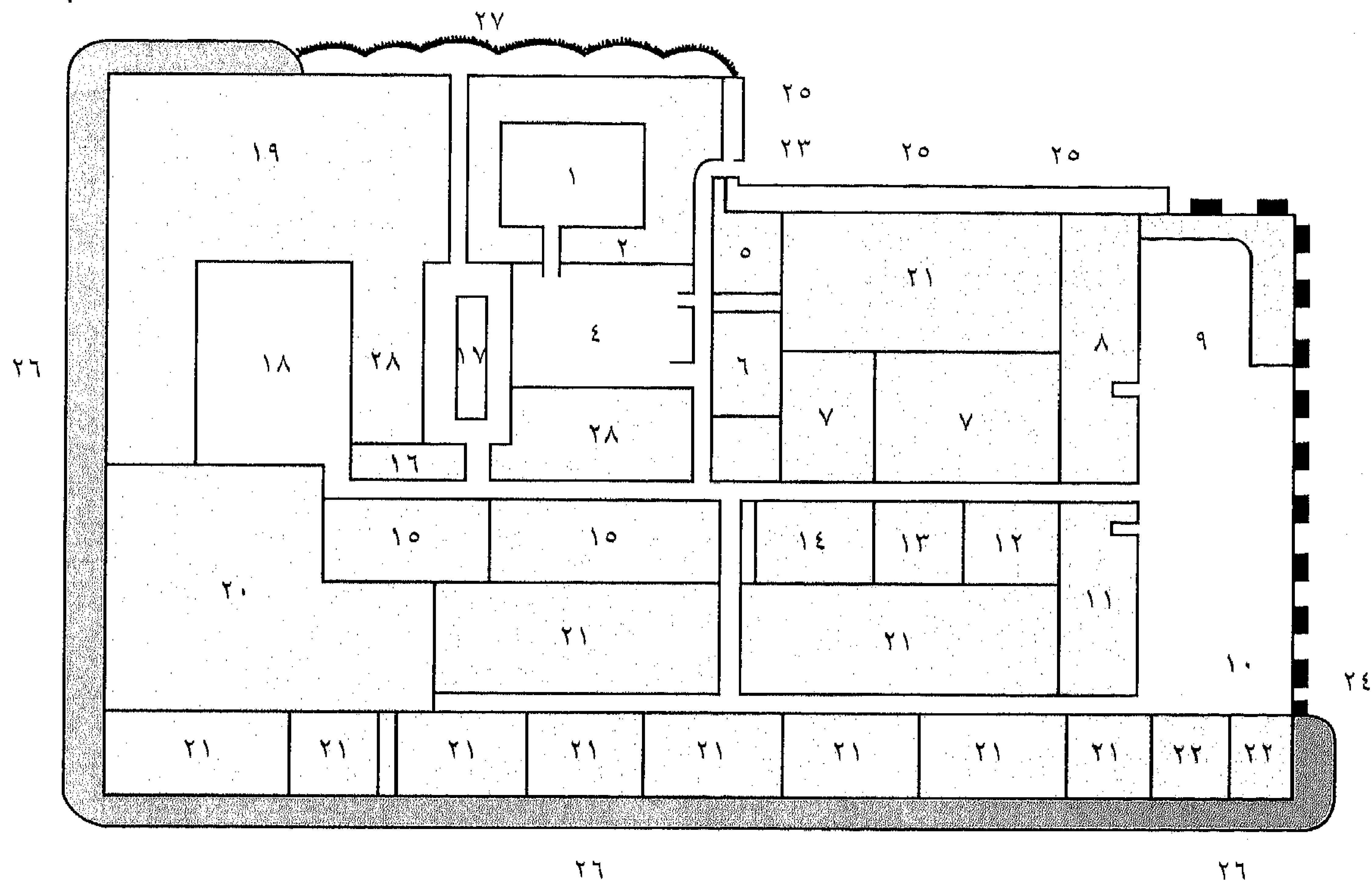
(١) الحاكم المنصب من لدن إبراهيم باشا.



وليم جيفورد بالجريف ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م
Abou Shahr
Adjman
Katif
Kahtan
D A H N
ou
Grand Désert de

مخطط بالجريف لقصر الإمام فيصل حوالي سنة ١٢٧٩هـ– ١٨٦٢م.

الشمال



١ – فناء الحريم
٢– ديوان فيصل
٣– أجنحة الحريم
٤– قاعة الاستقبال الداخلية
٥– غرفة القهوة
٦ – السجون
٧– جناح محبوب
٨– جناح سعود
٩، ١٠– الفناء الأمامي به غرفةصغيرة

١١– جناح جوهر
١٢– جناح المطوع عبدالرحمن
١٣– جناح مطوع آخر
١٤– جناح عبد الحميد
١٥– المطبخ
١٦– جناح عبدالعزيز
١٧– المسجد الخاص
١٨– غرفة الخدم
١٩– استراحة الخدم

٢٠– مخزن السلاح
٢١– غرف للخدم
٢٢– جناح أبو شمس
٢٣– مدخل عادي
٢٤– باب السور أو مدخل خاص
٢٥– مقاعد لقاصدي القصر
٢٦– خندق يحيط بسور القصر
٢٧– صخرة يصل ارتفاعها الى ١٤ قدماً
٢٨– غرف يسكنها الحاشية



وليم جيفورد بالجريف*

William Gifford Palgrave

١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م

انبسط أمامنا وادٍ فسيح، وقبل هذا الوادي مباشرة تحت المنحدر المليء بالحصى الذي وقفنا فوق قمته لاحت لنا العاصمة طويلة ومرتفعة تتوجها أبراج عالية، وأسوار دفاعية قوية، ومساحات من السقوف والشرفات.. يطل عليها جميعها قصر فيصل الملكي الكبير، وهو عبارة عن مبنى مهيب غير منتظم، وبجانبه يرتفع قصر نادر أقل اتساعاً، بناه وسكنه ابنه الأكبر عبد الله.. وكانت تبدو لنا أيضاً من هنا وهناك صروح تلفت الأنظار بسقوفها الرمادية المدهشة.. وعلى مدى المكان كله، وعلى مسافة ثلاثة أميال من السهول المحيطة، (وخاصة من الغرب والجنوب) لاح لنا بحر من النخيل التي ترتفع وسط حدائق خضراء حسنة الري، فيما بلغت مسامعنا أصوات السواقي الشجية ونحن على بعد مسافة ربع ميل من أقرب أسوار المدينة.. من الجهة المقابلة إلى الجنوب انفتح الوادي على سهول اليمامة الواسعة الخصبة تتخللها البساتين والقرى الكثيفة. من بين تلك القرى تتميز منفوحة الكبيرة والتي لا تقل من حيث الحجم عن الرياض ذاتها إلا قليلاً.. وفي الأفق ظهرت لنا سلسلة جبال اليمامة[1] التي شبهها الشاعر عمرو بن كلثوم بسيوف مشهرة في ساحة الوغى[2] وتختفي خلف تلك الجبال صحراء الدهناء، وإلى الغرب ينغلق الوادي ويضيق في امتداده شمالاً نحو الدرعية، بينما تقع روابي الأفلاج المنخفضة إلى الجنوب الغربي الفاصل بينها وبين وادي الدواسر. وشرقاً بدا لنا خط طويل أزرق يشكل أقصى مرتفعات طويق، ويُخفي عن الأنظار أرض الأحساء المنخفضة وشواطئ الخليج العربي.. ويندر في كل البلدان التي زرتها -وما أكثرها- أن أشاهد طبيعة تضاهي هذه في الجمال والمحتوى التاريخي.. ثَرَّة وزاخرة بما يمتع العين

---

* وليم جيفورد بالجريف بريطاني من أصل يهودي من مواليد عام ١٨٢٦م/١٢٤٢هـ.. تحول مع عائلته للمسيحية، وتلقى تعليمه الجامعي في جامعة اكسفورد وبعد ذلك التحق بالعمل في الجيش البريطاني بالهند، ثم ترك الجيش البريطاني وأصبح رجل دين، وارتحل إلى لبنان واستوطن بها عدة سنوات وعمل منصراً لصالح جماعته الدينية حتى أصبح المسؤول الأول عن البعثات التنصيرية التي تنطلق من لبنان، وبعد تركه للبنان استمر يحاضر في بريطانيا وفرنسا وأيرلندا عن المسيحية بالشرق داعياً إلى العمل على التنصير في شبه الجزيرة العربية.. لقيت دعواته تجاوباً من فرنسا التي شجعه إمبراطورها وقدم له منحة مالية للقيام برحلة لشبه الجزيرة العربية، قام برحلته متخفياً تحت اسم سليم أبو محمود إلياس وبمهنة طبيب؛ فزار مناطق مختلفة في الجزيرة العربية ومنها الرياض. شكك كثيرون برحلته إلا أن ما كتبه عنها حاز شهرة عالمية، وبعد انتهاء رحلاته التحق بالجريف بالعمل الدبلوماسي في وزارة الخارجية البريطانية، وتنقل في عدة بلدان حتى توفي عام ١٨٨٨م/١٣٠٦هـ. نشر بالجريف كتاباً عن رحلاته منه اقتبسنا بعض الأجزاء الخاصة بالرياض وردت في كتابه المعنون بـ: W. G. Palgrave, Personal Narrative of A Year's Journey Through Central and Eastern Arabia. 1862-1863,London:Darf Publishers Limited,1985, PP. 227-338

(١) المقصود جبال طويق.

(٢) يقصد قول عمرو بن كلثوم: وأقبلت اليمامة واشمخرت كأسياف بأيدي مصلتينا

والعقل معاً.. ولو أن أحد القراء قد شاهد دمشق من الجانب المقابل للبنان، وشاهد الغوطة من المرتفعات التي فوق المزة: فعندها ربما تكون لديه فكرة قريبة جداً عن وادي الرياض عندما يراه من الشمال، ولكن هذا الوادي أوسع وأكثر تنوعاً، ومدى الرؤية يتسع ليشمل سهولاً أرحب وجبالاً أكثر شموخاً.. أما اختلاط الجفاف بالخضرة الوارفة وكثافة السكان والطرق الصحراوية فهو أحد الملامح التي تستطيع شبه الجزيرة العربية وحدها تقديمها، وبالمقارنة به تبدو سوريا عادية، وإيطاليا رتيبة.

" ثمة ضبابٌ صباحيٌ " خفيف يحوم فوق المدينة فجراً،وهو شيء نراه للمرة الأولى لعله يُسْفِر عن كثرة الحدائق، إلا أن الشمس الحارة ما لبثت أن طردت الغطاء الشفاف، فيما أشار ازدياد الحرارة الملموس إلى أننا في منطقة جنوبية المناخ أكثر منها شمالية. وفوق ذلك تتعرض للرياح الحارقة القادمة من الصحراء المجاورة الواقعة خلف المحور الداخلي لليمامة مثل فرن كبير يمتد حتى سواحل المحيط الهندي.

أوقفت أنا وبركات (رفيق بالجريف في الرحلة وهو من زحلة بلبنان)، رواحلنا لبضع دقائق فوق ذلك المرتفع؛ لنتأمل وندرس ذلك المشهد النبيل، ولكي ننسى المخاوف التي تساور الإنسان حين يقترب للمرة الأولى من عرين الأسد.. شاركنا التأمل أيضاً أبو عيسى (دليل بالجريف) على الرغم من أن المشهد مألوف لديه، ثم بدأ يشرح ويسمي المعالم الرئيسة للمشهد.. بعد ذلك هبطنا من على المنحدر، ورحنا ندور حول أسوار أول البساتين التي تحيط بالمدينة. هنا أكثر من رجل ألقى تحية تنم عن معرفة لدليلنا... وفي حلقة صغيرة من الرفاق الذين كانوا يسيرون بجنبنا وهم يضحكون ويتحدثون دخلنا طريقاً فرعية قادتنا بين الإسطبلات الملكية وحديقة واسعة تخص عبد اللطيف[1] قاضي المدينة، وبعد برهةٍ أصبحنا قرب المقبرة الكبرى التي تمتد على طول السور الشمالي الغربي، وتضم رفات سكان سنين عديدة ماضية، وهي قبور منخفضة بدون نصب تذكارية أو شواهد أو تاريخ، ومن بينها قبر تركي والد الملك الحالي[2] ، وبجانبه يرقد منافسوه مشاري وابن ثنيان وآخرون من مشاهير زمانهم، والآن لا يمكن تمييزهم عن أدنى وأفقر أتباعهم من الرجال. وتتقاطع في هذه المقبرة دروب كثيرة تؤدي إلى بوابات المدينة المختلفة. أما نحن فقد سلكنا ممراً ينتهي عند المدخل الشمالي الشرقي[3].. مدخل مرتفع واسع تقف على جانبيه أبراج ضخمة مربعة الشكل.

(١) هو القاضي عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب.. ولد عام ١٢٢٥هـ في مدينة الدرعية، ورحل مع من رحل إلى مصر بعد تدمير الدرعية عام ١٢٣٣هـ.. أقام في مصر حوالي إحدى وثلاثين سنة، ودرس على علمائها، وعاد إلى نجد عام ١٢٦٤هـ.. كان ملازماً للإمام فيصل بن تركي في جميع غزواته، وتوفي عام ١٢٩٣هـ في مدينة الرياض. (انظر عبد الله البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، الطبعة الثانية، الرياض- دار العاصمة، الجزء الأول، ١٤١٩هـ، ص ٢٠٢-٢١٤).

(٢) الملك الحالي يعني الإمام فيصلاً والقبر لتركي بن عبد الله.

(٣) المقصود بوابة الثميري.



ويجلس في الممر حراس كثيرون مسلحون بالسيوف.. أجاب أبو عيسى على أسئلتهم، وقادنا داخل المدينة. وجدنا أنفسنا في شارع عريض[1] يؤدي مباشرة إلى القصر تقف المنازل الكبيرة على جانبيه، وقد كانت عموماً ذات طابقين. كما توجد أحواض للوضوء، ومساجد بأحجام مختلفة، وأشجار فاكهة قليلة مزروعة هنا وهناك في الساحات.. بعد تقدمنا مئتي ياردة أو أكثر كان على يميننا قصر عبد الله مبنىً حديث متجانس مربع الشكل ببوابات منحوتة بصورة جيدة وثلاثة طوابق من النوافذ الواحدة فوق الأخرى.. تأملنا المكان فيما راحت تتأمل فينا أعين مجموعات من العبيد والخدم الجالسين قرب الأبواب، أو على المقاعد الخارجية في ظل الصباح البارد.. وعلى اليسار بقليل مررنا بقصر جلوي[2] شقيق فيصل الذي كان غائباً بمهمة في بيشة.

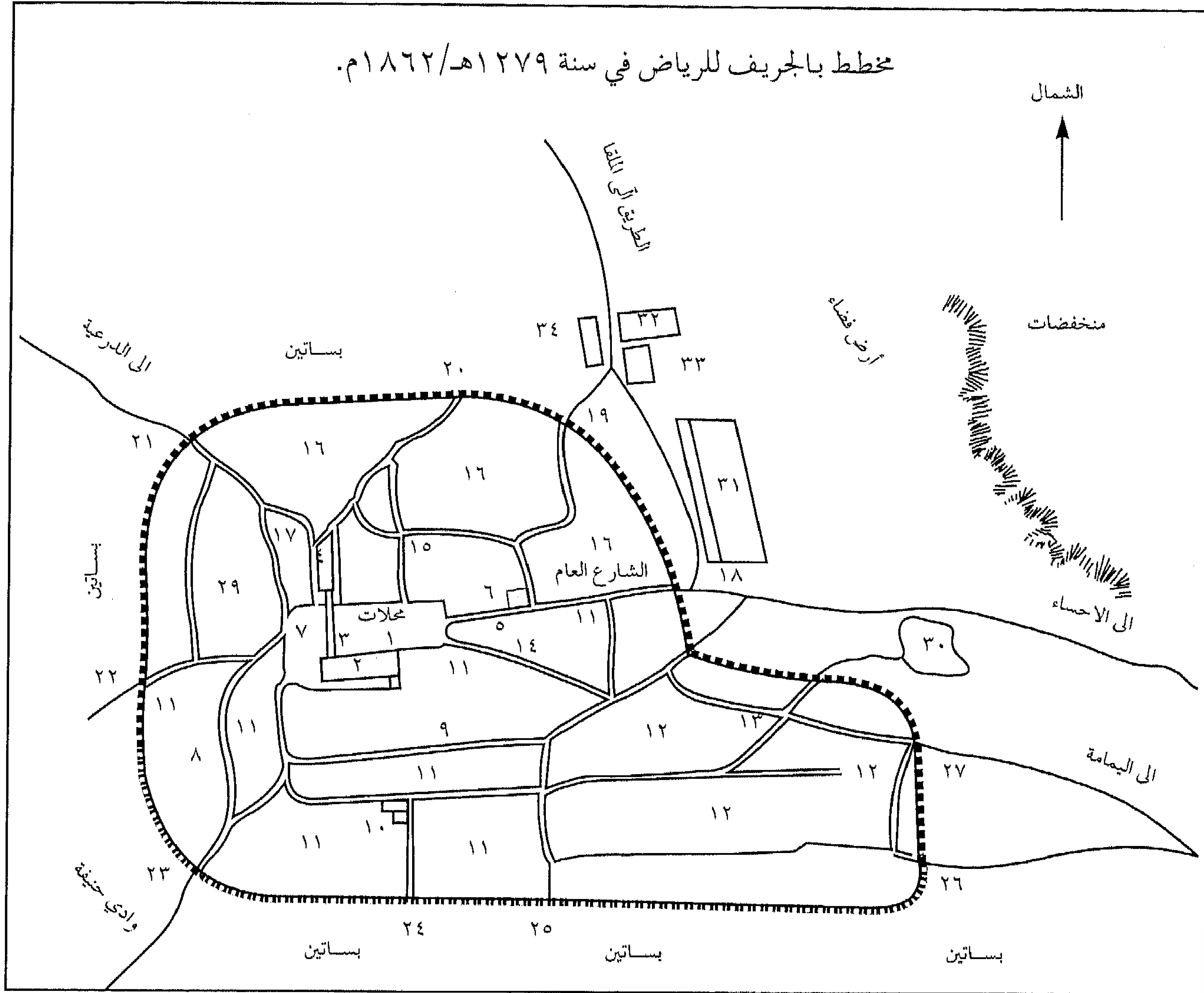
وأخيراً وصلنا إلى ميدان فسيح على الجزء الشمالي من جانبه الأيمن دكاكين ومخازن، بينما يشغل جانبه الأيسر المقر الضخم للأسرة المالكة.. وأمامنا في الجهة الغربية ممرٌ طويل مسقوف يستند إلى صفوف من أعمدة غير منتظمة تشق عرض الميدان، ويصل ما بين القصر والجامع الكبير؛ مما يمكن للإمام فيصل المسن ممراً خاصاً يربط ما بين قصره[3] إلى مكانه في صلاة الجمعة دون أن يعرض نفسه للفضوليين أو الخائنين؛ وذلك أن المصير الذي لقيه والده[4] وعم أبيه[5] (سلفاه على العرش) جعل فيصلاً حذراً.. وكان الرجلان قد قتلا طعناً بالخناجر وهما يؤديان الصلاة[6].

خلف تلك الأعمدة تشكل الدكاكين والمخازن الأخرى نهاية الساحة المربعة، أو بالأحرى متوازي الأضلاع الذي يبلغ طوله مئتي خطوة وعرضه أكثر من نصف ذلك الطول.. وسط تلك الساحة، وتحت ظلال الأسوار العالية.. تجلس نحو خمسين أو ستين امرأة[7]، وكل واحدة تضع أمامها كمية من الخبز والتمر والحليب والخضراوات أو الحطب للبيع، وفي الجوار حشود من المتجولين والنوق والجمال والأكياس المتراكمة وكل متطلبات السوق العربية.

لم نعد الآن نندهش، ولا نبدي كبير اهتمام لكل ذلك؛ لأن أفكارنا كانت مأخوذة بلقاء الإمام فيصل بن تركي..

---

(١) شارع الشميري الحالي المفضي إلى ميدان الساعة، ثم ساحة الصفاة.
(٢) هو جلوي بن تركي.. ولد عقب سقوط الدرعية وخروج تركي بن عبد الله منها حيث أقام عند آل شامر من العجمان وتزوج منهم، وولد هذا الابن وسمي جلوياً نسبة لهذه الجلوة. (انظر ابن بشر، عنوان المجد، الجزء الثاني، ص١١٠).
(٣) الواقع أن الممر يربط بين قصر الحكم والجامع الكبير، وعندما أعيد بناؤهما ضمن تطوير منطقة قصر الحكم وسط مدينة الرياض تم الإبقاء على الممر وفق ما هو معمول به في عهد الإمام فيصل بن تركي.
(٤) الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود.
(٥) الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود.
(٦) الصحيح أن الإمام تركي بن عبد الله قتل بعد خروجه من المسجد الجامع بعد صلاة الجمعة، وقد قتل بين القصر والمسجد.
(٧) هو السوق المعروف في ذلك الوقت بسوق النساء.



مخطط بالجريف للرياض في سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م.

١– الميدان الكبير والسوق
٢– قصر فيصل
٣– الممر العلوي المسقوف
٤– الجامع
٥– قصر جلوي
٦– قصر عبدالله
٧– السوق: دكاكين الجزارين
٨– منزل عبدالكريم

٩– منزل سويلين (سويلم)
١٠– منزل عبداللطيف
١١– حي المطاوعة
١٢– حي خازق
١٣– منزل رجل مريض
١٤– منزل محمد أخي عبداللطيف
١٥– قصر ابن عم فيصل
١٦– الحي الثاني في المدينة

١٧– منزلنا
١٨– البوابة الرئيسة
١٩– ٢٨ أبواب أخرى
٢٩– حي القصر
٣٠– بستان عبدالرحمن
٣١– مقبرة
٣٢– الاصطبلات الملكية
٣٣– بساتين تملكها أسرة آل سعود



وهكذا سرنا بمحاذاة الجدار الطويل الممتد من البرج الأوسط ويبدو كجدار حصن حتى أتينا قرب بوابة صغيرة منخفضة هي المدخل الوحيد إلى القصر، وعندما يتوغل المرء بين نتوءات ذلك المبنى الحصين ذي الأبواب الحديدية الضخمة -على الرغم من أنها مفتوحة على مصراعيها في هذه الساعة من اليوم- تستوعبه هيبة المكان.. وكان يوجد عدد من الحراس بيض وسود، والكل موشح بسيفه، ويكاد جمعهم يسد الطريق ولا يبدو مظهرهم مريحاً للآخرين خاصة الغرباء.. وتصطف مقاعد طينية طويلة[1] مع الجدران المجاورة، وتهيئ مكان انتظار مناسباً للزوار.. لكننا لم ننتظر طويلاً؛ لأن أبا عيسى دخل على الفور، وأعلن عن وصولنا عندما تجاوزت الساعة الثامنة صباحاً بقليل. كانت أعداد المارة كثيرة تلك الساعة؛ لأن السوق المجاورة قد فتحت أبوابها والكل في مجيء ورواح إلى أعمالهم اليومية. وعموماً لم يقترب أحد ليسألنا، مع أن الكثيرين كانوا يحملقون بنا؛ مما أثار استغرابي حول هذه المألوفية التي لم نعرف سببها، وخلال نصف ساعة زالت جميع الحواجز ومشاعر الارتياب.

كان أول من تقدم نحونا وسلم علينا شخص نحيل فارع الطول ذو ملامح تجمع بين الذكاء والغلظة، وقد كان يرتدي ملابس أنيقة على الرغم من خلوها من الحرير غير الشرعي. وقد كان يبدو عليه شيء من الشعور بالذات تلطفه دماثة ذوقه... كان ذلك الرجل هو عبد العزيز، وقد فضلت أن أدعوه بلقب وزير الشئون الخارجية؛ لأنني لا أجد لقباً أنسب يليق به، وتشمل مسؤولياته في القصر كل شيء لا يطول الإدارة الداخلية مباشرة من شؤون سياسية ومالية وعسكرية. لذا فهو يقوم بتنظيم استقبال السفراء الأجانب، أو إيفاد المبعوثين من الرياض.. ويتبع دائرته نقل الرسائل الحكومية والخطابات وكل التفاصيل الدقيقة عمّا يتعلق بالحلفاء أو الجيران، لا سيما ما يخص القبائل البدوية في نجد، وفي حوزته سجل المدن والمناطق، وأخيراً يمارس الإشراف التنفيذي على رسوم الصادرات والواردات (وهي وظيفة مربحة إذا كانت في يدي رجل غير معروف بضمير ملتزم!) وفي الحقيقة فإن صفاته شائعة في أهل العارض، وهو رجل متحفظ وثابت، ذو حلاوة في اللسان، طيع ودود وإنما بهيبة.. ولكنها تخفي تحتها صفات الكراهية، والحسد، والجشع، وعدم الالتزام.. وكلها صفات كافية لجعل القرب منه خطراً، وعداوته مهلكة، وصداقته مشوبة بالحذر.

جاء عبد العزيز يصحبه بعض الحاضرين من القصر وجلس بجوارنا، ثم بدأ الأسئلة المعتادة مبتسماً بلطف جم ومُرحباً بنا.. بعد سماعه لإجاباتنا التي اعتدنا أن نعطيها في بلدان أخرى: دعانا لندخل الصالة، ونتناول قهوة الإمام، ونحظى بكرمه، ثم وعدنا بأن نلتقي الإمام خلال اليوم نفسه.. وبناءً على ذلك تبعناه عبر البوابة مروراً بملحقها الطويل الذي قادنا إلى ممر داخلي أو

---

(١) للمصاطب (الحبوس) وظيفتان إحداهما أن تكون دعامة للجدار تقيه أثر الماء إبان الأيام المطيرة، والوظيفة الأخرى أن تكون مكاناً مهيئاً للجلوس والانتظار.

دهليز غير مسقوف تقع على أحد جانبيه الأقسام التي يشغلها الإمام: غرفته الخاصة المعدة لاستقبال الجمهور، ومصلاه الخاص.. وخلف تلك الغرف حجرات نسائه، وابنته غير المتزوجة التي تعمل سكرتيرة لأبيها في الأمور المهمة؛ وهذا الجناح من القصر يتميز باتساعه وارتفاعه حيث يبلغ ارتفاعه ثلاثة طوابق بين الخمسين والستين قدماً من قاعدته حتى قمة سقفه، وفي تلك الغرف قتل مشاري[1] (الذي أخذ السلطة مؤقتاً بالقوة) قتل بيد عبد الله والد طلال بن رشيد.. أمام تلك الكتلة من المباني (على الجانب الداخلي، وعلى يمين الممر المذكور) يوجد ديوان غير مسقوف محاط بالمقاعد، وهنا كان فيصل يعقد لقاءاته شبه العامة. وهناك باب صغير محروس بصورةٍ جيدة يقود من ذلك الديوان إلى الأجنحة التي وصفتها.. ويمكن القول: إن تلك الأجنحة تشكل قصراً منفصلاً داخل القصر الكبير. وكان هناك طريق أخرى للاتصال ببقية المبنى بواسطة ممر خفي يمتد من الطابق الثاني من خلال الممر الذي نقف فيه الآن، وممر ثالث يشكله الرواق الذي يقود إلى المسجد على مسافة مئة ياردة تقريباً.. أما من الجوانب الأخرى فإن أي اتصال من الخارج لم يكن ممكناً.. وينبغي أن أضيف هنا أن كل النوافذ كانت مسيجة بالحديد بصورة متينة، والأبواب صلبة ومزودة بأقفال ومزالج ضخمة، بينما يوجد على الجانب الخارجي منحدر يحيط بالجزء الأسفل من الجدران؛ فتزداد به سماكة، ويظهرها وكأنها محصنة. وأخيراً فإن الطابق الأرضي لم تكن له نوافذ مطلة على الخارج بفتحات كبيرة ولا صغيرة.

كان أول باب نراه على الجانب الآخر من الممر هو باب القهوة (مكان شرب القهوة)، وكان الدخول إلى ذلك المكان عبر ردهة يخلع الزوار فيها أحذيتهم أو سيوفهم أو كليهما إن كانت بحوزتهم. أما القهوة ذاتها فقد كانت كبيرة يبلغ طولها حوالي أربعين قدماً، وعرضها قريباً من ذلك، لكن إضاءتها كانت ضعيفة جداً. ويوجد بعد ذلك باب يقود إلى السجن، وقد زرت اثنتين من غرف السجن، لكنها لا تكاد تجلب نقداً أو سخطاً؛ لأنها واسعة جيدة التهوية ومجهزة بكل ما هو مطلوب لراحة ساكنيها. أما " حبس الدم " الذي يعني حرفياً "سجن الدم" فهو لأكابر المجرمين من الدرجة الأولى، وكان تحت الأرض، وربما كان مأوى سيئاً، وقد رأيت من الحكمة ألا أطلب رؤيته.

خلف ذلك السجن مباشرةً، وفي مقابل الديوان المكشوف الذي ورد ذكره سابقاً يوجد درج طويل يؤدي عبر فضاء مفتوح إلى الطابق الثاني.. هنا توجد غرفة الضيافة[2] التي تتسع لأربعين شخصاً في آن واحد، وهي باردة بصورة طيبة، وخلفها مباشرة يقال: ان هناك في عرض الجدار غرفة صغيرة تتصل بممر سري يؤدي إلى غرف الحريم.. وفي هذه الكوة التي لا يأبه بها أحد كان يحتجب فيصل الذي يستطيع أن يسمع خلال الحاجز

(١) هو مشاري بن عبد الرحمن الذي قتل الإمام تركي بن عبد الله غدراً، وقتل عام ١٢٤٩هـ. (انظر ابن بشر، عنوان المجد، الجزء الثاني، ص١٠٤).
(٢) وهي مايعرف في العمارة النجدية بغرفة الروشن.

الرقيق كل ما يصدر من ضيوفه الغافلين... وفي الخلف تقع الغرف التي يسكنها الخدم المرافقون.

يقود الممر إلى مبنى القصر، ويمتد من تحت الطابق الثاني متفرعاً إلى جزأين: الجزء الأول الذي يكون إلى اليمين يصل إلى المطبخ الفخم بجانب المصلى الداخلي المخصص لسكان القصر عدا فيصل ومحارمه، وينتهي إلى فناء آخر واسع.. في أحد جوانبه تقع الأسلحة ومخزن للبارود،وعلى الجانب الآخر ورش مختلفة من بينها ورشة لتصليح الساعات، وكلها في خدمة الإمام مباشرة. ويوجد بجانب المطبخ غرف عبد الحميد – مواطن من بلخ، شخصية مريبة، ويفترض أنه طالب دراسات دينية، لكن حقيقة الأمر أنه يعمل في مهن مختلفة جداً، وسنعود إليه لاحقا –.. على ذات الجانب يقطن صديقنا عبد العزيز وزير الشؤون الخارجية، لكنني لم أدخل مجلسه أبداً مرضياً نفسي بتحديد الباب والموقع للعلم فقط.

أما الفرع الذي على اليسار فيؤدي إلى الأجنحة الجميلة الواسعة التي يقطنها محبوب وزير الإمام.. وفي الجهة المقابلة له مباشرة يعيش المطوع أو المرشد الديني في القصر.. بعد ذلك توجد الأجنحة الواسعة الخاصة بجوهر وزير المالية، واسمه مناسب لوظيفته.. وفي الجهة المقابلة لهذه الأجنحة يوجد صف طويل من الغرف حيث يسكن ناصر، وهو يعمل حاجباً للديوان، ويسكنها أيضاً سعود الابن الثاني لفيصل عندما يزور أباه في الرياض.. أخيراً وليس آخراً فإن أبا شمس قائداً في مدفعية الجيش يقطن نفس الجزء من القصر، وبجانب هذه الشخصيات البارزة يسكن في المكان مجموعة من العاملين يبلغ عددهم ستين أو سبعين رجلاً أغلبهم من ذوي البشرة السوداء، وكل واحد من هؤلاء من أعلاهم إلى أدناهم يمتلك منازل منفصلة لنسائه العديدات، ثم إن كل منزل منفصل تماماً عن بقية المنازل.. وعليه فيمكن للقارئ أن يتصور مدى كبر حجم تلك الكتلة من المباني.. أخيراً توجد ساحة طويلة على اليسار تطابق تلك التي على اليمين، وهنا أيضاً يقع باب سري أنشئ ليخدم في حالات الحصار أو الخيانة أو حالات الطوارئ. والخلية كلها محاطة بأسوار عالية، وأبراج مستديرة جوفاء للأغراض الدفاعية، كما أن ثلاثة أرباع الدائرة لها حماية إضافية عبارة عن خندق عميق ولكن بدون ماء.

أما من الخارج فيمكن أن يضحى بأي اعتبار من أجل المحافظة على الأمن والقوة.. والنظرة الخارجية للبوابة الجديدة تحمل الكثير من أوجه الشبه للمشهد العام لقصر فيصل.. وعموماً فإن هذا الأخير مؤثث بصورة جيدة ومتناسقة، ولاسيما الأجزاء المخصصة لأعضاء الأسرة المالكة، ولمحبوب وجوهر.. أما الغرف التي في الطابق الثاني فهي مضاءة بصورة جيدة، على عكس الغرف الأرضية.

ويمكن القول: أن القسم المخصص للأسرة المالكة (وهو رباعي الشكل بفناء داخلي، ولكن لم يسمح لي بالدخول إليه): عبارة عن شقق عائلية لا يمكن لعين فضولية أن تراها.. أما المجلس المخصص لاستقبال الشخصيات المهمة فهي الغرفة الوحيدة التي يمكن للغريب أن يدخلها، وهي كبيرة ومريحة.. طولها يقارب

خمسين قدماً، وعرضها نحو عشرين قدماً أو أكثر وبنسبة عالية من الاتساق.

وتوجد في الفناء الأول على اليسار (حيث يسكن أبو شمس) عينات كثيرة من المدافع الصدئة كانت قد قذفت بالرعب في القلوب.. وقد عددت حوالي العشرين من القطع الميدانية وستة منها لا تزال ممكنة الاستعمال، وقد أخبروني أنه توجد قطع أخرى لم أرها.. وفي الأحساء والقطيف توجد حوالي الثلاثين؛ لذلك فربما يبلغ ما لدى فيصل ستين من تلك الآلات الحربية. وحسب فحصي لها فإن ربعها صالح للاستعمال، والبقية معطلة.

هذا هو القصر كما عرفته سابقاً بالتفصيل، وهذه هي محتوياته.. أما الآن فلنتوقف قليلاً عند زيارتنا للقهوة.. كان المشرف على صنع القهوة شخص طيب الأخلاق، ومن الغريب أنه ليس زنجياً، وليس من العارض، لكنه من الحريق.. جلس حولنا عدد من الضيوف، ثم بدأ الحديث، لكن الكل كان متحفظاً بصورة واضحة ... القهوة التي شربناها كانت ممتازة، وفي هذه النقطة فإن الرياض تمتاز بقهوة لا تضاهى، وقد ظللنا لفترة من الزمن نستمتع برشفها، وننتظر أوامر أخرى من عبد العزيز أو أي شخص آخر في الديوان.

وعندما حل منتصف النهار كنا لا نزال نجلس في القهوة، ولا أحد تقريباً يكترث بنا؛ لأن وصولنا تصادف مع وصول النائب الفارسي للرياض.. وبينما كانت أغراضنا وجمالنا تنتظر بفارغ الصبر تحت أشعة الشمس بالخارج: أخيراً جاء عبد زنجي ودعانا باسم الإمام أن نتناول الغداء في غرفة الضيافة بالطابق العلوي، وهناك تناولنا الأرز مع لحم الضأن، ثم كمية من التمر، وعند نهوضنا عن طاولة الطعام قام ساقي القهوة ذو البشرة الداكنة بتذكيرنا أن ندعو الله بطول العمر والعهد لمضيفنا فيصل....

كان دليلنا يدرك تماماً مداخل ومخارج القصر، وقد استطاع في لحظات وجيزة أن يجد عبد العزيز، وأن يرتب معه الأمور لصالحنا، وأصر وزير الشؤون الخارجية أن يأتي شخصياً.. وببسمة حلوة أخبرنا أن سكننا المؤقت كان جاهزاً، وأن أبا عيسى سيقودنا إليه دون تأخير، ومن ثم طلبنا إن كان من الممكن معرفة رغبة ورضى الملك في بقائنا وممارسة عملنا في البلدة: لقد كنا أبلغنا عند استقبالنا أول مرة وبأسلوب صحيح أننا جئنا إلى الرياض نطمع في رضى الله ثم «رضى» فيصل، وندعو الله، ثم «نطلب من» فيصل أن يمكننا من ممارسة مهمتنا الطبية في المدينة، تحت حماية الله ثم فيصل.

رفس أبو عيسى جمالنا فنهضت، وسرنا خلفها إلى مقرنا الجديد. وهذا المقر كان جزءاً من قصر جلوي، وقد كان خالياً كما أوضحت سابقاً؛ لأن الأمير كان غائباً في مهمة شبه عسكرية وشبه مالية.. وقد خصصت لنا غرفة قهوة واسعة، وبجوارها غرفتان أخريان، وغرفة علوية.. أدخلنا الجمال في ساحة البيت واستقررنا في غرفة القهوة.

لقد كان الزوار يجيئون ويذهبون، وكذلك أبو عيسى وكأنه ملتزم بواجب.. كان يزورنا عند حلول المساء؛ ليعرف إن كنا جميعاً بخير، وكيف هي حياتنا في

سكننا.. لكن الموقع لم يرق لنا؛ لأنه كان قريباً جداً من القصر الملكي، بل ويتبع له تقريباً.. فضلاً عن أن الغرف كانت كبيرة جداً؛ فلم نستطع تنظيمها نسبة لحجمها؛ فقد كان أثاثنا محدوداً جداً لا يفي بالغرض، وكذلك كانت وسائلنا؛ لذلك فقد طلبنا من أبي عيسى أن يبحث لنا عن مأوى آخر يناسب ظروفنا وطبيعة مهمتنا؛ لأن الكثيرين في الحقيقة كانوا يحتاجون المشورة والمساعدة الطبية، ولا تناسبنا أي وظيفة أخرى أحسن منها في هذه المدينة. وعدنا صديقنا بالبحث عن المأوى الجديد، ووفى بوعده في نهار اليوم التالي.

وبينما كنا نتجول في السوق قابلنا الوزير عبد العزيز الذي عاد إلى العاصمة في ذلك الصباح بوجه باسم وملامح ذات تباشير عظيمة.. أخذنا جانباً وأخبرنا أن الملك لا يعتقد أن الرياض مكان مناسب بالنسبة لمهنتنا الطبية، وأنه من الأفضل أن نواصل رحلتنا على الفور إلى الهفوف حيث سيدلنا أبو عيسى على الطريق، وأن الملك سيجهز لكل واحدٍ منا جملاً ومجموعة جديدة من الملابس وبعض النقود. لقد أوضحنا لعبد العزيز أن بقاءنا في الرياض سيكون نافعاً لأجساد سكان المدينة، ولجيوبنا نفعه في الهفوف، بينما يبدو الرحيل المتعجل غير سليم، ويشكك في قدراتنا عند أهل الهفوف.. وعدنا عبد العزيز بأن يستشير فيصلاً مرة أخرى في الموضوع، ولكن يجب أن ندرك أن الأمل ضئيل جداً في تعديل ذلك القرار الملكي.. وبالطبع فإن إصرارنا على البقاء في الرياض لم يكن له تأثير إلا إثبات الشكوك حولنا، الأمر الذي لم نكن نعرفه.

وجاء دورنا، وكان موقف العاهل هو الرفض البات، وقد كان يبدو أن محبوباً يشاركه القلق.. وفي الحقيقة فقد كان فيصل يميل لطردنا ليس إلى الأحساء، بل إعادتنا من الطريق نفسه الذي جئنا منه.. إن ذلك نذير شؤم بالنسبة لنا؛ فمن الممكن أن ينتهي بتقييدنا على حصان البريد أكثر من نقلنا على مهل إلى القصيم أو شمر.. وأخيراً هدأ الملك، واختتم بقوله: إنه يمكننا الذهاب إلى الأحساء.. وعرض علينا المساعدة الكبيرة التي ذكرها عبد العزيز سابقاً.. لكنه ومستشاريه يعارضون بشدة بقاءنا في الرياض.

كان وضعنا حرجاً، ولا ندري كيفية إصلاحه؛ فقد كنا نصر ألا نغادر الرياض إلا بعد أن نشبع فضولنا عن كل ما تحويه، ولكن كيف لنا أن نزيد من مدة إقامتنا فيها؟ ..فإن نُصر من جانبنا على البقاء بعد تكرار الأمر بالمغادرة مرتين سيعد جنوناً فاضحاً، وبالتأكيد سيقود إلى أسوأ النتائج.. أما التستر والاختفاء فهو خارج الحسبان، ولم يكن أبو عيسى أقل قلقاً منا؛ لأنه عندما بدأت صداقتنا في بريدة تطورت إلى إخاءٍ حقيقي باللقاءات المتكررة هناك، وأكثر منه بالرحلة التي قمنا بها سوياً من القصيم إلى الرياض.. وعلى الرغم من أنه لم يدرك هدفنا بالتحديد على الرغم من تلك الرغبة الجامحة في طول بقائنا في العاصمة: لكنه شاركنا الغضب على تلك العقبة الكئود التي حالت دون قصدنا..

أخيراً وبعد تفكير ونقاش مستفيض اقترح أن يجرب وسيلة فعالة جربها طويلاً فأطلعته على الأمور كلها؛ فالملك على الرغم من إصراره يمكن أن يستجيب لمشورة



وزرائه، فلو استطعنا إقناع محبوب وعبد العزيز لأمكننا الوصول لهدفنا.

حل المساء وأبو عيسى ليس بالرجل الذي يؤجل الأمور المهمة.. ذهب للبحث، فمكنته معرفته بأهل المدينة من توفير العطر المطلوب، وعاد ليرينا إياه، ثم غادر إلى بيت محبوب وعبد العزيز، وترك العود هناك باسمنا.. عاد إلينا في المساء، وطلب منا الانتظار بأمل كبير وبنتيجة طيبة صباح اليوم التالي.. لم تخب آماله، فقبل حلول منتصف النهار استدعي إلى مقر الملك، وهنالك أخبر أنه وبعد دراسة الأمور بتأنٍ تام فإن مدينة الرياض تحتاج أطباء فيها؛ لذلك فسوف يسمح لنا بالبقاء بتلك الصفة ونمارس مهنتنا بحرية تحت رعاية فيصل الشخصية دون خوف من اعتراض أو إزعاج.

وذكرت فيما مضى أنني لاحظت وكذلك بركات أن قصر جلوي لم يكن مناسباً لممارسة مهامنا الطبية.. بالإضافة إلى أنه كان قريباً جداً من مقر فيصل وهو وضع لا يناسب أشخاصاً غرباء وكفاراً مثلنا، ولذلك فقد وعدنا أبو عيسى بالبحث عن مقر آخر أكثر ملاءمة.

وفي صباح اليوم التالي (وقبل أن نقابل عبد العزيز) زارنا مرشدنا، وأبلغنا أن داراً مريحة أعدت لنا بالمجان.. وجد أبو عيسى ذلك المأوى بواسطة أحد أصدقائه من البلاط، وحتى دون أن يستشير فيصلاً أو وزراءه.. عندها ذهبنا على عجل لنعاين المبنى الممنوح.

وعند مغادرتنا قصر جلوي سرنا في الشارع المؤدي إلى السوق، وقد عبرناه فيما بعد، فأصبحنا في مواجهة بوابة القصر على الطرف الآخر، ثم تسللنا من شارع جانبي، ومشينا مدة ثماني دقائق حتى وصلنا مدخلاً عالياً مسقوفاً دخلنا من خلاله طريقاً غير نافذة واسعة حيث تقوم منازل صغيرة مأهولة على جانبي الطريق، بينما يسد نهايتها القصوى منزل كبير يتكون من طابقين.. بعد مسافة من القصر وعلى اليمين هناك باب جانبي يقود إلى مبنى متواضع يتبع مثله مثل غيره من منازل المدينة التي حوله للقصر ومؤجر بعقد، وقد كان مناسباً لطبيعة حياتنا من كل الجوانب.

هنا كانت لدينا ثلاث غرف على الأقل: الأولى غرفة الاستقبال أو القهوة بالقرب من المدخل ولها باب مناسب ومكان خصص للنار.. كانت تلك الغرفة طويلة الشكل ومظلمة نوعاً ما، مثل معظم أماكن القهوة في الرياض[1] حيث يحتم المناخ الجنوبي والحرارة الزائدة تشييد الغرف بصورة تساعد على توفير أكبر حماية ممكنة من حرارة الشمس أكثر مما هو مطلوب في حائل أو حتى في القصيم وسدير.. وبالداخل وخلف القهوة يوجد فناء تتوسطه شجيرة جميلة فواحة من فصيلة الأشجار المزهرة. (يؤكد ذلك الطبيعة الريفية المشوبة بالعواطف لسكان نجد؛ فالعناية بالشجرة بغرض إضفاء لمسة ريفية للمنازل الحضرية لا تقتصر على لندن ومزهريات شرفاتها).. كما يوجد في الفناء أيضاً مطبخ منفصل عن بقية المبنى، وعلى الجانب الآخر كانت لدينا

(١) تعرف أماكن القهوة هذه بالديوانية.

غرفة ذات حجم معقول كنت أمزج فيها الأدوية كما أستعملها للكشف على المرضى، وقد كان سقفها مسطحاً كغرفة القهوة، وكلا السطحين كان محاطاً بحاجز سقف عالٍ، وهناك سلم خشبي يقود إلى أحد السطوح، بينما تقود مدرجاتُ حجرية إلى السطح الآخر.. وتوجد غرفة صغيرة حوّلها المستأجرون السابقون مخزناً لمفروشاتهم والمواد التي لا يحتاجون إليها بشكل مباشر، وقد احتفظوا بمفاتيحها حتى موعد رحيلنا.. وفي مقرنا الجديد لا نبعد كثيراً عن السوق لكننا على بعد مناسب من القصر، وبالتحديد في الجزء الذي يقطنه نفرٌ قليل من المطاوعة المتعصبين.

وكان الدقيق والأرز واللحم والقهوة تجهز لنا جميعها من القصر الذي كنا نعد ضيوفه، ولكن عندما شعرنا أننا لم نعد في حاجة للسخاء الملكي، وأن قليلاً من إظهار الاعتماد على النفس لا يضر: لم نُلح في طلب أو استقبال المؤن، لكنها كانت تصل في أغلب الأحيان وبتغاض للمتعهدين بإحضارها لنا، وكنا نُصر فقط وبشدة على حصتنا من القهوة؛ لأنها كانت ممتازة. واستهلاكنا لها لم يعد محدوداً.

وبالنسبة لنا (وقد سكنا بالطريقة التي وصفتها من قبل لمدة شهر أو تزيد في ذلك المقر الهادئ الذي هو أمامنا الآن) فقد صنفنا ترتيباتنا المنزلية، واتفقنا على نوعٍ من تقسيم العمل؛ فكان مناطاً بأبي عيسى ما أسميه بعلاقاتنا الخارجية: يجلب لنا الأخبار من البلاط، ويثلج صدور الكبار نحونا، ويذيع سمعتنا الطيبة في كل مكان.. أما بركات فقد وَكَلْتُ إليه الأعمال المنزلية: يشتري احتياجاتنا اليومية، ويطبخ عندما تدعو الضرورة.. وباختصار كل شيء ماعدا صنع القهوة الذي احتفظ به أبو عيسى لنفسه.. أما أنا فقد لزمني أن أكون الطبيب المثقف ذا الشأن العظيم: أخلط الأدوية، وأعالج الحالات، وأبدو أكثر رزانة من أي شخص آخر.. ويجب أن تكون طريقة كلامي تتطابق مع تلك الصفات.

بالتأكيد لم نضطر أن نشكو من البطالة، ولكن قبل أن أصف الحشد المتعدد الألوان الذي يحاصر بابنا الآن: دعنا نأخذ جولة صباحية لنتعرف من خلالها على الرياض وسكانها.

كان الوقت عند الشروق، وجماعات قليلة من الناس مثلنا كانت قد خرجت لأعمالها.. أما الكبار فقد خلدوا للنوم، وأي نوم؟.. فالجميع هنا يصحون عند بزوغ نجمة الفجر؛ لينتظروا الصلاة بالتسبيح وتلاوة القرآن، ثم يسرعون في أداء الصلاة.. بعد ذلك ينتظر المطاوعة زمناً ليس بالقصير، وبعده يأخذون قسطاً من النوم لمدة ساعتين حتى يوقظهم ارتفاع الشمس في السماء؛ لأداء صلاة الضحى التطوعية، وبعدها ينصرفون لأعمالهم اليومية.. أما الأقل تديناً مثلنا فيصبحون ويخرجون لأعمالهم يستمتعون بهواء الصبح البارد والأشعة الأولى من الصباح التي يتخللها ضباب خفيف، وهذا ما يحدث في هذا الوادي خلال الشتاء.

وكنا نرغب في شراء بعض التمر والبصل والزبد– وكلها من الدرجة الأولى في العارض– والتمر هنا أنواع



عديدة، فالأحمر هو أجودها.. ولكن هناك نوع آخر أصفر طويل بدون نوى رخيص جداً وبطعم لذيذ. أما البصل فلم أر مثله في أي بلد آخر سواءً في الحجم أو النوعية.. لكن الصالحين من أهل البلد لا يأكلونه إلا وقد احتاطوا بالسواك بعناية وبغسل الأيدي بعد أكله خاصة إذا قرب موعد الصلاة.. وإن لم يفعلوا ذلك فالرائحة الكريهة تطرد الملائكة التي تحفهم. ولحسن الحظ فإن الصابون يوجد هنا بوفرة. أما الزبد فهو أبيض اللون، ويباع في شكل كيك صغير مدور، والكثير منه يوجد في القصيم.

وجبنا الشوارع الضيقة التي تفصل بين بيتنا والسوق بخطىً بطيئة..أخيراً وصلنا الى السوق، وقد كان مليئاً بالنساء والفلاحين الذين يبيعون ما نبحث عنه بالتحديد، وذلك بجانب اللحم، وحطب الوقود، والحليب.. الخ، وحولهم الزبائن يأتون لأغراض مثلنا.. كان نصف المحلات التي تحوي الأغذية والأواني المنزلية والأحذية قد فتحت أبوابها؛ ولأنها العاصمة فقد كانت دائماً مليئة بالغرباء الذين يأتون لأغراض مختلفة.. لكن حشدا كبيرا من الناس يجتمع حول محلات اللحم؛ فالنجديون يأكلون اللحم بكثرة، ولا غرو في ذلك؛ لأن أسعار اللحم كانت رخيصة.. كان الخروف السمين يكلف خمسة شلنات أو أقل بالعملة الإنجليزية، وقد كنت أتمنى أن تفرض قوانين الشرطة نظافة أكثر في تلك المحلات الكثيرة.

دعنا قبل أن نواصل سيرنا نقترب قليلاً من الأشخاص المتجمعين في الساحة التي تطل عليها جدران الحصن العالية، وتحدهم أعمدة بهو فيصل الكثيرة، والمحلات والمنازل التي تكمل الميدان غير المنتظم.. كان من بين الحضور بعض رجال ذوو مظهر لائق ولا يختلف شكلهم الخارجي عمن يأتون من شمر أو القصيم إلا بالبساطة المتناهية في لبسهم والقامة الأقصر والسحنة السمراء.. أما الاختلاف الأكثر وضوحاً فهو في غياب خصلة الشعر الطويلة التي كانت سائدة فوق كتوف رجال المنطقتين المذكورتين، ولكن يوجد كثير من الغرباء هنا: ذلك الشخص النحيف ذو البشرة الداكنة الذي يرتدي ملابس مصبوغة أضيق من الثوب النجدي الفضفاض، وفي وسطه خنجر، وعصاً قصيرةٌ صفراء في يده، وهو مواطن من ضواحي عُمان.. وهذه المنطقة أصبح للسعوديين فيها علاقات صداقة كثيرة، وذاك الآخر ذو الملابس الملونة جزئياً بعمامة كبيرة زرقاء يتخللها الأحمر والأصفر، وله ملامح لا تشبه أهل أواسط شبه الجزيرة العربية وإنما أهل فارس وهو من البحرين.. قادته التجارة أو الطريق إلى هنا، وهو مثل أخيه العماني الذي جمعته به أُلْفَة كبيرة، لا يفكر في الخروج بأحسن ما في المساومة ثم يبتعد بأسرع ما يمكن.. ولكن الآن يصل موكب رجل عظيم من المدينة، وكان ذلك الرجل يتفحص الجميع من حوله، ويتفحصه الجميع.. رجل يتبعه جمعٌ كبير وقد كان يرتدي ثياباً تنم عن الثراء.. لابد أنه قد جاء إلى الرياض في مهمة عالية الشأن.

كانت توجد عناصر كثيرة في الحشد غريبة على الرياض، لكنها ليست غائبة عنها تماماً؛ فهناك حداة الإبل من الزلفي الذين كانوا على اتصال دائم بالزبير

والبصرة.. جمعوا بين رزانة السعوديين والحشمة النجدية.. ويمني جاء عن طريق وادي نجران والدواسر كالذين رافقونا قبل شهر مضى إلى بريدة، وكان ينتظر مرافقين ليعبر معهم طرف الصحراء الجنوبي في طريقه إلى الخليج.. وبالقرب منا جاء طالبٌ ليدرس في الرياض ويحفظ القرآن.

وقررت أنا وبركات أن نواصل سيرنا عبر المدينة.. كانت الرياض تنقسم إلى أربعة أحياء أولها الشمالي الشرقي الذي يضم قصور العائلة المالكة، ومنازل الضباط و الطبقة الغنية وموظفي الدولة.. هنا المنازل بشكل عام عالية، والشوارع مستقيمة بصورة مرضية وليست ضيقة، لكن مستواها الأرضي منخفض، وربما تكون أقل مناطق هذه المحلة من الناحية الصحية. والثاني الحي الشمالي الغربي حيث كنا نقيم.. كتلة كبيرة غير منتظمة من المباني، هنا يقطن الأجانب والشخصيات الغريبة الذين يوجدون كالعادة في المدن الكبيرة.. بالإضافة لأولئك الغرباء يقطن الحي جماعة من البدو وشيوخهم وجماعة من الزلفي وضواحي المدينة.. كما يوجد عدد من المطاوعة الاتقياء مثل الأنوار التي تشع في الظلام.

ولنحول أنظارنا بسرور من تلك المشاهد لننعشها بمسح للحي الجنوبي الغربي المقر الذي اختير لسكن الملتزمين المتدينين؛ ففي هذا الحي من الرياض يسكن أكثر المطاوعة حيوية ومن يؤدون الصلوات الخمس في المسجد من النجديين[1]، ويسكن هنا أيضاً المتبقون من عائلة المؤسس عبد الوهاب (محمد بن عبد الوهاب) الذين نجوا من السيف المصري؛ فطراز بناء المساجد بسيط، ومساحتها واسعة، وفيها يقوم الخطباء بوعظ الحاضرين وتوضيح الخطأ والصواب، كما توجد المساجد الأصغر.. ويسمى الواحد منها مصلى، وأحواض الوضوء والمحراب المتجه نحو الكعبة الذي يشغل حيزاً من جدران المنازل والمساجد.. وشوارع هذا الحي مفتوحة، والهواء نقي.. وهذا الجزء من المدينة واسع ومزدحم بالسكان ومنتعش ويعد معقل الحماس الوطني والديني.. وأخيراً الحي الجنوبي الشرقي المسمى بالخازق[2]، وهو أيضاً يمتاز بالاتساع ومزدحم بالسكان أكثر من أي حي آخر، ولكن سكانه يعانون من الضعف المالي والصحي. هنا تجد الطبقات الفقيرة من السكان مأواها بشكل عام، كما يجد فيه الفلاحون والقادمون من القرى المجاورة سكناً لهم، وبطبيعة الحال فبنيان هذا الحي هو الأسوأ كما أنه منفصل عن المدينة.. والأرض منخفضة جداً، والهواء غير صحي، وقد أخبرت أن انتشار الكوليرا هنا في عامي ١٢٧١-١٢٧٢هـ (١٨٥٤-١٨٥٥م) كان مخيفاً، وقد صدقت الخبر.. لم تكن هناك مساحات واضحة تفصل تلك الأحياء إلا الشوارع الواسعة بينها، كما لم تكن توجد بوابات ولا جدران فاصلة.. وعلى كلٍ كان يعد كل منها مجمعاً منفصلاً أو دائرة كما يسميه الباريسيون.. وكل حي له

(١) هذه وجهة نظر الرحالة لأن غالب من وجب عليه التكليف يؤدي الصلاة جماعة في اليوم خمس مرات.

(٢) لا يعرف حي بهذا الاسم أو قريباً منه وربما يكون صفة له وضعها بالجريف أو أحد المرافقين له. وقد يكون من صفة المخزق أي المزدحم كما زعم ذلك بالجريف بعد أسطر.

اسمه الخاص به لكنني نسيت أسماء الأحياء الثلاثة الأولى.. أما الاسم " خازق " الذي أطلق على الحي الرابع فيعني " مزدحم "، ولا تكاد تقابلنا حدائق منزلية أو أشجار في الحيين الثاني والرابع.. بينما يوجد القليل منها في الأول وأكثر منه في الثالث، لكن المتعارف عليه في نجد عموماً أن الحدائق ينبغي أن تكون خارج نطاق المدينة، وينطبق ذلك أيضاً على الرياض.

أما النقطة أو المركز الذي تتلاقى فيه تلك الأحياء وتتداخل فهو السوق الذي يجاور القصر الملكي من جانب، والجامع الكبير على الجانب الآخر.. وهذه الكلمة (جامع)[1] تعني حرفياً (الجمع) أو (التوحيد)؛ لأن المصلين يحضرون هنا لأداء صلاة الجمعة بصورة جماعية مكتملة.. أما في بعض المناطق الأخرى فقد ينقصون، وتلك الصلاة ذاتها تسمى الجمعة؛ لتدل على الجمع.. ولا يوجد في أي مدينة نجدية أكثر من جامع واحد.. أما الأخرى فتسمى مساجد، ولو كانت أصغر من ذلك فتسمى مصلى.. أما جامع الرياض فهو مبنى كبير بسقف مسطح مدعوم بأعمدة خشبية مربعة ويغطيها الطين بكثافة، والمبنى منخفض، وليس فيه من مظاهر الفن المعماري إلا القليل، وقد قمت أنا وبركات بحساب الفراغ بين صفوف الأعمدة الطويلة فوجدناه يتسع لألفي شخص في آن واحد، بالإضافة إلى أنه من الممكن أن يجد عدد مماثل أماكنهم دون عناء في الفناء الخارجي أمامه.. والمسلمون في الصلاة يتركون مساحة مقدرة بين الصفوف ليوفروا مكاناً للسجود دون أن تمس رؤوسهم أعقاب من في الصفوف التي أمامهم. ومن ثم يستطيع القراء أن يستنتجوا حجم ذلك المبنى الكبير.. ولا توجد مئذنة للجامع، ويوجد بدلاً عنها مصطبة صغيرة ترتفع قليلاً عن مستوى السطح فوق المحراب، المكان المخصص للإمام أثناء الصلاة، كما توجد غرفة صغيرة فوق السطح يخرج منها فيصل لأداء شعائر الجمعة عبر البهو المسقوف.. كما لا توجد فرش ولا سجاد، ويستعاض عنها بفرش الأرض بحصىً صغير.. وبالإضافة إلى ذلك الجامع الكبير الرئيس في المدينة يوجد ثلاثون أو أكثر من المساجد الصغيرة في الأحياء المختلفة، وبعضها له مساحات واسعة خاصةً الذي إمامه القاضي عبد اللطيف[2]، والذي يشهد حضور عبد الله الوريث الشرعي.. وهذا الأخير يقع في الحي الأول من المدينة، والآخر في الحي الثالث. وكلاهما كان يجذب الانتباه بكبر حجمه ونظافته، لكنهما كما هي حال المساجد الأخرى غير مزخرفين، وأسماء الحضور الملزمين بارتياد تلك المساجد تقرأ كل صباح ومساء، وهذه الطريقة كانت كفيلة بتأمين الحضور واستقصاء المخالفين.

وتقوم الأسوار حول المدينة كلها، وارتفاعها ما بين العشرين إلى ثلاثين قدماً، وقد كانت متينة يعززها خندق

(١) يطلق لفظ الجامع على المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة، أما المسجد الذي لا تقام فيه صلاة الجمعة فيعبر عنه بالمسجد مجرداً أو بمسجد الخمسة أي الخمسة فروض. أما لفظ المصلى فهو المكان الذي تقام فيه أكثر من صلاة وأقل من خمسة فروض.

(٢) يقع هذا المسجد في الحي المعروف بحي الدحو في وسط الرياض القديمة.

عميق وسد مرتفع.. خلف ذلك السد توجد البساتين التي تشابه تلك التي في القصيم في التنظيم والإنتاج بالرغم من اختلاف موقعها الجغرافي وبرودة طقس القصيم.. يعوض عنها هنا بتعلية منسوب الأرض، ولكن مباشرة إلى الجنوب من ذلك (في اليمامة) تلحظ العين تغييراً في المنتجات الزراعية.

أما بالنسبة للزراعة والبستنة فهي في رواج متزايد؛ فكل فرد يمتلك قطعة صغيرة من الأرض حيث يستخرج منها مؤونته الرئيسة ومؤونة أسرته.. والإمام نفسه ليس استثناءً من ذلك العرف؛ لأن حصة مقدرة من الدخل الملكي تستثمر في الزراعة والحقول، وليس النجديون بالفلاحين الذين تعوزهم المهارة فالإنتاج الوفير لنخيلهم وقمحهم وشعيرهم وأرضهم تشهد ربما ليس على دراساتهم النظرية ولكن على مهارتهم العملية.. صحيح أن المحراث لديهم آلة بسيطة التركيب، لكن التربة الخفيفة والجو اللطيف لا تتطلب الضغط الشديد والأخاديد العميقة التي تحتاج إلى آلات الشمال الأكثر تعقيداً؛ فأداة بسيطة تؤدي جميع المهام التي تؤديها مساحٍ مسننة ومجرفة كبيرة خشبية تؤدي عمل المساحي الحديدية.. والري لا غنى عنه في أي مكان؛ إذ لا يمكن توفير إنتاج يسد الرمق بدونه، وقد ذكرت قبلاً أن ماكينة صغيرة يمكن إدخالها بصورة مفيدة على بكراتهم وآبارهم وأوعيتها.. وعلى كل حال فباعتبار عدد السكان وحاجاتهم وبالمقارنة مع معظم أجزاء أوروبا التي تحتل مساحة مماثلة وتحت ظروف مشابهة فإن ما ينتجونه يكفيهم.. والنجديون إن لم يكونوا نشطين فإنهم أبعد ما يكونون عن الكسل.

لدي الآن نموذج محبب للطبقة المثقفة أو شبة المثقفة.. ذلك هو عبد الرحمن المطوع شيخ القصر.. كان يسكن في غرفة تقع مقابل منزل محبوب، وقد كانت واسعة ومؤثثة بصورة جيدة، وتضم بالإضافة إلى أشياء أخرى حوالي الأربعين مجلداً مخطوطاً عن مواضيع متنوعة، وقد كانت مكتبة معقولة في شبه الجزيرة العربية.. وهنا (وكأنه مركز ثقافي عام) كان يجتمع كثير من الشباب، طلاب القانون والشريعة الذين أشرت إليهم سابقاً، وكانوا يناقشون أمامي القضايا الأخلاقية أو الجوانب العقدية حسب طريقتهم؛ لأن عبد الرحمن لم يكن متعلماً فحسب، لكنه اجتماعي مقبول، ومتحدث بليغ؛ ولذلك فقد اجتمع حوله أولئك الفتيان ذوو الأجساد النحيفة واللون الشاحب حتى ظنه معظم الناس مرشدهم وقائدهم.

وعلى كل فلن أستطيع أن أغادر عبد اللطيف الحفيد العظيم للشيخ الشهير (محمد بن عبد الوهاب) الذي يشغل الآن منصب قاضي العاصمة .. وغني عن القول أن بيته كان قصراً، وحدائقه واسعة، وخدمه حشدٌ من البشر. وقد كنت أحضر خطبه ومحاضراته بكثرة.. سواء أكانت في مسجده الأنيق بجوار بيته في الحي الثالث من المدينة.. أم في جامع المدينة. وفي تلك المناسبات كان يحيط به عددٌ كبير من الحضور بالإضافة إلى نخبة من



الأتباع الخاصين. ويلزمني أن أنوه بالصفات التي يستحقها؛ فقد كان متحدثاً بارعاً وفصيحاً، ويمتلك مؤهلات علمية مناسبة لمنصبه.

لم يكن عبد اللطيف الممثل الوحيد لأسرته؛ فهو الأكبر من بين عدة إخوان أصغرهم "محمد"[1] الذي كان شخصية أصيلة ، وقد عاد لتوه من مصر، حيث التحق بالقصر العيني لمدة سنتين بين طلاب الطب، لكنه لم يستمر بعد أن التحق بالمحاضرات التمهيدية في كلية الطب، وذلك بعد أن حان الوقت ليحضر درس التشريح، وليشاهد الأسرار التي تكتنف غرفة التشريح.. عندها قال: إن تدينه يمنعه من تلك الممارسات، فغادر الكلية والعاصمة المصرية.

وخلال ثلاثة أو أربعة أعوام أخيرة من حياة فيصل (ملك هذه البلاد) وكل لابنه عبد الله تصريف شئون الحكم كلها تقريباً، وقسم ما بقي من زمنه بين مصلاه وأهل بيته، وكان لا يخرج أمام الجموع من المواطنين إلا في الزيارات الصباحية التي كان يقوم بها كل يوم جمعة إلى قبر والده، أو عندما يجبره حدث مهم على لقاء مواطنيه لمدة وجيزة من الزمن خارج جدران القصر؛ فكان من يقوم بإدارة شؤون الحكم هو عبد الله.

ذهبنا إلى قصر عبد الله، وعبرنا ساحتين خارجيتين قبل أن نصل إلى بهوٍ تقع غرفة القهوة التي تخص الأمير عند نهايته.. كان الصباح قد تقدم، والحرارة بالداخل لا تحتمل.. أخذ عبد الله مقعده على بساط مفروش في البهو، وكان بجانبه ثلاثة أو أربعة من الحضور.. بعد ذلك بدأ سلسلة من الأسئلة العلمية الطبية عن الأمراض المختلفة كأمراض الدم والليمفاوية وغيرها.. وأخيراً طلب منا (أو بالأحرى أمرنا بالحضور في ساعة مبكرة صباح اليوم التالي)، وتمنى أن نحضر معنا كتبنا الطبية مقدماً نفسه كشخص شغوف بالتعرف على مهنة الطب.. وقد كان جاداً في طلبه؛ فعندما أدخلنا في اليوم التالي إلى غرفة القهوة الصغيرة أو الخاصة عوملنا باحترام، وقدمت لنا القهوة والبخور، ثم أبقانا لمدة ساعة كاملة نقرأ ويقرأ علينا أحياناً من مجلدي الخاص، وأحياناً من مخطوطةٍ قديمة من مقتنيات مكتبة سموه.

وشاهدت في تلك الأيام الإسطبلات الملكية؛ فكانت مناسبة سررت بها كثيراً، واستقبلتها بترحاب حار؛ لأن الحصان النجدي يعد متفوقاً على الأنواع الأخرى في شبه الجزيرة العربية كتفوق خيول الإنتاج العربية مجتمعة على الخيول الفارسية، وخيول رأس الرجاء الصالح، والخيول الهندية؛ فنجد هي الموطن الأصلي لإنتاج الحصان العربي الأصيل الذي يعدّ أنموذجاً.. هذا ما سمعته، وهذا ما ظهر لي من واقع تجربتي الشخصية على الأقل، على الرغم من أن بعض الأوساط المرموقة ترى غير ذلك حسب علمي.. وخيول فيصل هي الأحسن من بين جميع الخيول التي في المزارع الأخرى وعلى كافة المستويات.. تلك حقيقة لا جدال فيها، من يرى

(١) توفي محمد الأخ الأكبر للشيخ عبد اللطيف في حصار الدرعية عام ١٢٣٣هـ وليس له عقب وله ثلاثة إخوة هم إسماعيل (ليس له عقب) وإسحاق، وعبدالله (انظر عبدالله البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، الجزء الأول، ص١٩٤).

تلك الخيول فقد رأى خيرة الأنواع في شبه الجزيرة العربية، وربما في العالم.

كانت تلك الإسطبلات تقع خارج المدينة إلى الشمال الشرقي قليلاً إلى اليسار من الطريق التي سلكناها عند أول وصولنا الرياض، وليست بعيدة عن بساتين القاضي عبد الرحمن، وتغطي مساحة واسعة مربعة يبلغ ضلعها ١٥٠ ياردة، وقد كانت مفتوحة، وخالية في وسطها بمظلة دائرية على طول السور من الداخل.. وتحت تلك المظلة تعيش ثلاثمائة من الخيول حين رأيتها، وقد كانت تربط بأوتاد في الليل.. أما أثناء النهار فيمكنها أن تطلق أرجلها بمرح في الساحة الوسطى؛ فكانت الغالبية منها طليقة عند زيارتي لها، وقليل منها لا يزال مربوطاً إلى أوتاده، وبعضها لها أغطية على ظهورها. وكثافة الندى الذي يسقط على وادي حنيفة لم تكن تسمح ببقائها لمدة طويلة في هواء الليل البارد الرطب.. وقد أخبرت كذلك أن الرياح الشمالية أحياناً تؤذي هذه الحيوانات مثلما تؤذي الرياح الجبلية مثيلاتها في الهند. كان أمامي نصف عدد خيول الإسطبل الملكي، والبقية كانت قد خرجت لترعى العشب، والعدد الكامل لخيول فيصل كان يقدر بستمائة رأس أو أكثر.

ويحتفظ كلٌ من عبد الله، وسعود ومحمد بخيولهم في إسطبلات منفصلة، وكل واحد من تلك الإسطبلات يضم مئة أو أكثر.. وبعد تساؤل كثير وملاحظات استنتجنا (أنا ومرافقي) أن مجموع الخيول النجدية لا يتعدى الخمسة آلاف، وربما ينقص عن ذلك العدد، وعدد الخيالة في الجيش يُعد ضئيلاً عند مقارنته بعدد راكبي الجمال، وبالتأكيد فإن الجياد في نجد خاصة لا تستخدم إلا في أغراض الحرب أو العرض، بينما تستخدم الإبل في كل أعمال الترحيل والسفر.

وبعد تلك المقابلة الأولى في دار القهوة الخاصة بجوهر فتح لي محبوب داره، وهناك كنت أقضي الساعات الطوال.. كانت مكتبته الأغزر من بين المكتبات التي رأيتها في شبه الجزيرة العربية وقتذاك، وتضم أعمال عدة شعراء مشهورين كان من بينهم أبو العتاهية، والمتنبي، وأبو العلاء المعري، بالإضافة لديوان الحريري، والحماسة، وأعمال أخرى من الأدب العربي، مع رسائل في الفقه والدين لأئمة مالكيين وحنابلة، وتفسير القرآن الكريم، وكتب الرحلات التي يعاد تصحيحها بين الحين والآخر، وبحوث جغرافية تقسم العالم إلى سبع مناطق، وبالطبع فالجزيرة العربية هي أولها وأهمها.

كان أهم عمل لي هو مخطوطة تاريخية، وقد كانت مقدمتها وصفاً عاماً للأحداث العربية للحقبة الجاهلية، وبما يشابه ما ذكره أبو الفداء[1]، ربما تكون قد نسخت منه، والفترة التي تفصل بين حروب خالد بن الوليد وقيام حكم سعود التي تخص نجد وحدها.. وكتب حسابات وسجلات مراسلات رسمية وما شابهها.. كل

(١) لعل المقصود أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، صاحب "البداية والنهاية" المتوفي في عام ٧٧٤هـ.

تلك الأعمال كانت مخزونة في دولاب جانبي كبير، وقد تركت أبوابه مفتوحة، وقد اطلعت على الوثائق التي استقيت منها الإحصاء الذي تضمنه الفصل الأخير من عملي هذا، و لم يعترض محبوب على أخذ تلك المعلومات، أو نسخ الرسائل ولاسيما الأعمال غير الأدبية. وقد ندمت كثيراً على أن بعض الأوراق التي كتبت آنذاك قد فقدتها في الأحداث التالية لرحلتي.

أرسل فيصل أوامره لابنه الثاني سعود بإحضار قوات الحريق وتسليم قيادتها لعبد الله شقيقه الأكبر في الرياض، وتولي إمارة العاصمة نيابة عن الأخير عند سفره لعنيزة.. وصل سعود على الفور وبصحبته مائتا فارس تقريباً.. وبقية رجاله الذين يتجاوز عددهم الألفين كانوا يمتطون الجمال.. وعند دخولهم الرياض قام فيصل الأول (ولآخر مرة أثناء إقامتنا فيها) بحشد عام للمواطنين عند بوابة القصر، وقد كان المشهد يتطلب رساماً. هناك كان الملك يجلس بلحيته البيضاء ممعناً في التفكير، ومرتدياً ثياباً بسيطة، ومتوشحاً سيفاً ذا مقبض مذهب.. وقد كان الشيء الوحيد الذي يزينه أو يميزه.. وبجانبه يقف الوزراء، ضباط بلاطه، وجمهور من الشخصيات البارزة والمواطنين الأثرياء. وقد غاب عبد الله ولي العهد عن الحشد.. جاء سعود بمظهر الضابط الفارس في بزة فاخرة من الملامح الكشميرية وعباءة مذهبة، بينما تبعه خيالته في زيهم الأحمر ورماحهم فوق الأكتاف وتتدلى السيوف على جنوبهم، كما علقت البنادق خلف سرج كل مقاتل، وخنجر الحريق الحاد يلمع في كل منطقة أو حزام، ثم أتى عامة الجنود على النوق والجمال وبعضهم لا يحمل إلا الرماح والبعض الآخر الرماح والبنادق حتى امتلأت الساحة الفسيحة بالرجال المدججين بالسلاح وسط إعجاب المشاهدين، وبينما تقدمت القوة كلها أمام فيصل أخذ سعود بالانحناء، وقبّل يد والده قائلاً: الله يحفظك، وينصر جيوش المسلمين.. انطلقت تلك العبارات من جميع الجهات، ونهض فيصل من كرسيه، وأوقف ابنه بجانبه، وبعد لحظات دخلا سوياً إلى الحصن، بينما تفرقت القوات ودخلت ثكناتها الكائنة في الخازق.

وكنا في إحدى الأمسيات في القصر، وقد اعتاد عبد الله أن يبقيني عنده حتى منتصف الليل.. يشغلني بالتساؤلات العلمية الطبية، وقد كان يهدف إلى الحصول على محاضرات في الصيدلة.. في نهار اليوم التالي استدعاني عبد الله. وبعد أن أفاض في الثناء والوعود، أعلن أنه لا يمكن أن يدع الرياض تفقد طبيباً مقدراً مثلي؛ ولذلك فلابد أن أتخذ مأوى دائماً في العاصمة حيث يمكنني على رعايته.. وعلى الأشياء الجيدة التي قرر أن يمنحني إياها مسبقاً، وهي عبارة عن منزل وحديقة، وقد وصفها بمنزل مناسب ورفقة أستأنس بها، واختتم حديثه بدعوتي للذهاب دون تأخير لمعاينة المأوى الجديد وتسلمه، وقد وافقت على أن أذهب وأعاين المنزل، وقد أمر أحد تابعيه أن يريني المقر الجديد، وأنا بدوري وعدته بإجابة شافية صباح الغد.

وفي الحقيقة فقد كان المنزل رائعاً في موقع جيد، وتجاوره حديقة صغيرة، ولا يوجد فيه عيب مقنع برفضه.. في اجتماعنا التالي أخبرت عبد الله أننا نقدر



بوعي تام المعروف الذي أسداه إلينا، لكننا قد اتخذنا تدابيرنا مسبقاً للذهاب للأحساء، وأننا لا نستطيع إلغاءها، وأن عودتنا للرياض في الربيع التالي سيكون فيها متسع ما دمنا سنستقر في ذلك المنزل المعد في العاصمة؛ حيث يمكن أن تحدث المشاكل أثناء غيبته.. وباختصار إننا لا نستطيع أن نمضي الشتاء في نجد، لكننا نأمل في زيارة ثانية تكون أطول من هذه في السنة القادمة.. ومهما كانت المبررات جزئية فلابد من الموافقة على ذلك الرفض، وقد قبله عبد الله بتردد واضح وشكٍ خفي.

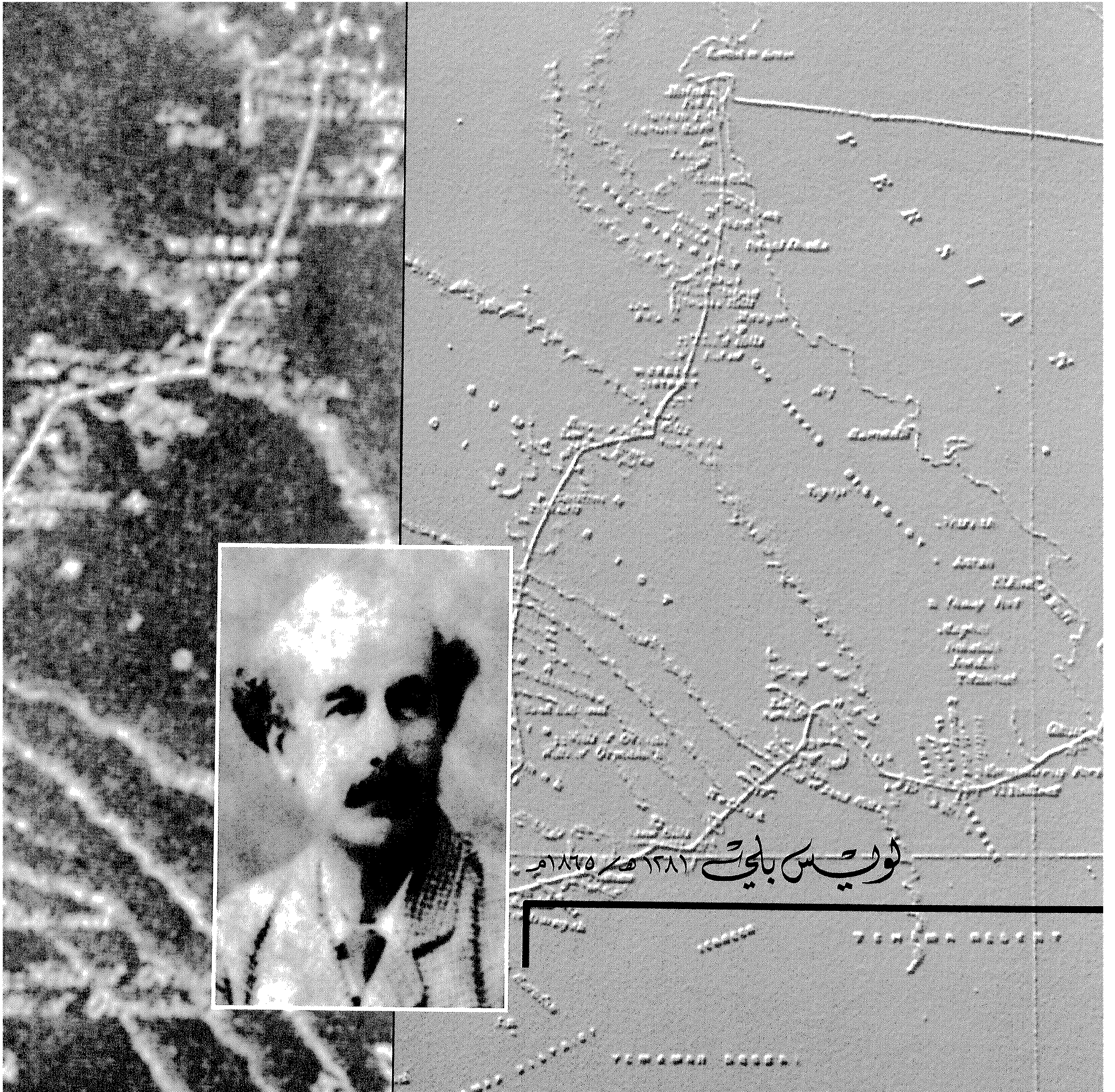
دخل الآن فصل الشتاء (الأسبوع الثالث من نوفمبر ١٨٦٢م/١٢٧٩هـ)، وبدأت عاصفة رعدية، (الأولى من نوعها التي شهدناها في أواسط شبه الجزيرة العربية)، وقد صحبها تغير ملموس في درجة الحرارة؛ إذ انخفضت في وادي حنيفة، وسقط المطر بغزارة، فملأ شعاب الوادي الجافة، وحول أحواضه الكبيرة إلى خزانات موسمية.. ولكن لا يصل أي من تلك الشعاب إلى البحر؛ لأن ذلك الجزء من نجد محصور تماماً إلى الشرق بسلسلة جبال طويق.. استبشر الأهالي بذلك المطر الوفير الذي يعد بشارة رخاء للسنة القادمة.

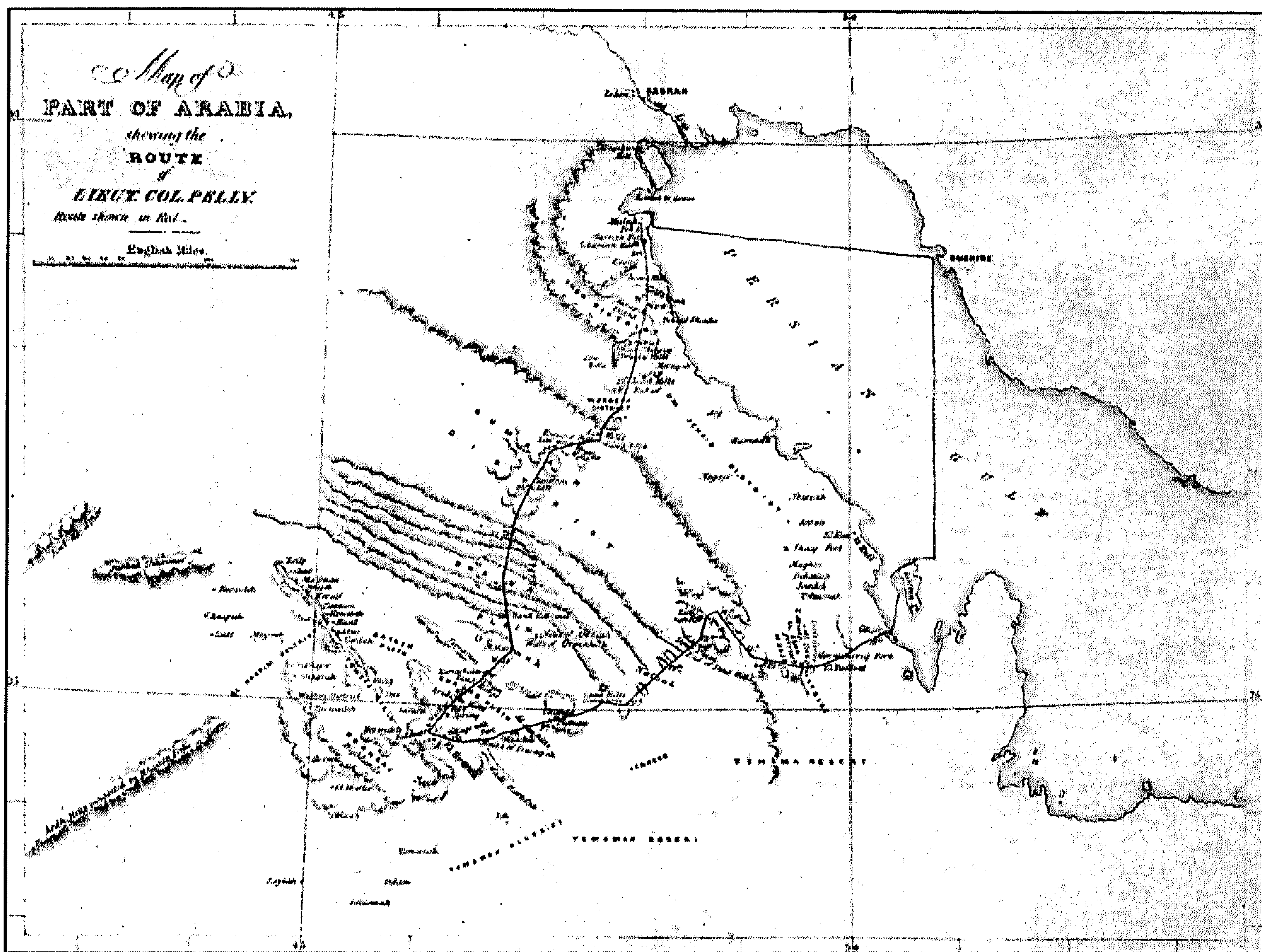
وغادرت ومبعوث الإمام المنزل، وتقدمنا بصمت في الظلام خلال الأزقة المتعرجة إلى قصر عبد الله، وقد تركني لدقيقة أو اثنتين في الفناء لألطف نفسي بهواء الليل..كانت الغرفة مظلمة، فلم يكن هناك ضوء إلا ما جاء به توهج الحطب الذي يحترق.. كان عبد الله يجلس في نهاية الغرفة في صمت وعبوس، وفي المقابل كان عبد اللطيف وقلة من الآخرين والمطاوعة أو من ينتمي لفرقتهم. وكان محبوب جالساً بجانب عبد اللطيف.. وفي الجانب الآخر للصالة الطويلة، كان يوجد اثنا عشر رجلاً مسلحاً..عندما دخلت ظل الجميع دون حراك، ولم يردوا السلام.. حييت عبد الله؛ فأجاب بصوت خفي، وأشار عليّ بالجلوس على مسافة قصيرة منه.. استمر الحديث لفترة من الزمن، وغادرت القصر وحيداً.. كان الوقت آنذاك يقترب من منتصف الليل، ولا يبدو أي ضوءٍ في المنازل، ولا يسمع صوت في الشوارع.. والسماء أيضاً مظلمة وملبدة بالغيوم.. وصلت للممر الهادئ والباب المنخفض حيث كان ينساب شعاع خلال الشقوق مبيناً انتظار صحبي القلقين الذين قاموا بفتح الباب تغمرهم الفرحة برؤيتي.

وفي نهار اليوم الرابع والعشرين من الشهر أحضرنا ثلاثة من جمال أبي عيسى إلى ساحتنا، وأغلقنا الباب الخارجي، وقمنا بحزم متاعنا وتحميله، ثم انتظرنا وقت صلاة المغرب، وعندما حان نادى المؤذنون كل الصالحين ليؤموا المساجد المختلفة دون استثناء لحرس المدينة.. وبعد مرور عشر دقائق حيث يفترض أن يكون الجميع في الصلاة قمنا بفتح الباب.. نظر مبيريك في الشارع يمنة ويسرة ليتأكد من خلوه من المارة، وقاد الجمال إلى الخارج، وقد كان أبو عيسى بصحبتنا.. تجنبنا الشوارع الكبيرة، وسلكنا أزقة وممرات جانبية نحو بوابة صغيرة للمدينة كانت الأقرب إلى دارنا وتفتح في اتجاه الشمال. ظهر أمامنا شخص تأخر عن الصلاة في طريقه إلى المسجد، وعند مروره بنا دعانا لأداء الفريضة الجماعية؛ فأجاب أبو عيسى بلا تردد أتينا من الصلاة للتو.. خاف

محدثنا من أن يكون هو نفسه قد تأخر أكثر من اللازم مما قد يوقعه تحت طائلة اللوم والعقوبة، فاندفع لأقرب مسجد وأخلى الشارع.. لم يوجد مراقب عند البوابة؛ فعبرناها، واتجهنا نحو الجنوب الشرقي، وتحت ضوء الشفق وصلنا سلسلة من التلال التي احتمينا خلفها.

عند انبلاج الفجر استأذن أبو عيسى بالانصراف فركبنا نحن الثلاثة، (بركات ومبيريك، وأنا) جمالنا، وأدرنا رؤوسها نحو الجنوب الشرقي جاعلين سلسلة التلال بيننا وبين الرياض التي لم نرها بعد ذلك. سرنا فوق أرض منخفضة مموجة كانت امتداداً لوادي حنيفة، وبعد أربع ساعات من المسير كنا أمام بوابات منفوحة، وهي مدينة معتبرة تحيط بها حدائق لا تقل في مساحاتها وخصوبتها عن حدائق الرياض، لكن دفاعاتها التي كانت متينة يوماً ما قد دمرت منذ زمن بعيد.. أما من ناحية المناخ فهذه المدينة تفضل الرياض؛ لأنها تقع على أرض مرتفعة فوق الضباب الرطب الذي يتجمع عادة في أعماق الوادي.. لكن من وجهة النظر العسكرية فهي أقل شأناً من العاصمة؛ لأنها في موقع مكشوف ليس من السهل حراسته.. مررنا بمنفوحة دون أن ندخلها، فانخفضت الطريق مرة أخرى، ووجدنا أنفسنا في وادي السلي، وهو وادٍ طويل نشأ في الصحراء التي بين الحريق واليمامة ويسير بعيداً نحو الشمال.


لويس بلي ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م



خريطة تبين جانب شبه الجزيرة العربية الذي مر الكولونيل بلي عبره في رحلته.

لويس بلي*

Lewis Pelly

١٢٨١هـ / ١٨٦٥م

قبل وصولنا للرياض بحوالي ساعة واحدة مررنا بمنزل ريفي ومزرعة للأمير وأعقب ذلك مباشرة (بعد أن سرنا منحدرين) رؤيتنا لمدينة الرياض أمامنا على اليمين منا.. لقد بنيت على مرتفع من الأرض لا يبعد كثيراً عن وادي حنيفة، وقد بدت البلدة فسيحة ولطيفة دون زخرف أو تجمل؛ فقد كانت بناياتها باللبن.. أما ضواحي البلدة فقد أنعشتها حدائق النخيل القليلة والبهيجة.. إن كلمة رياض تعني بصيغة الجمع الحدائق أو الأراضي المزروعة، وكان ثمة أراضٍ مزروعة في المناطق المجاورة للرياض حيث كانت تسقى زروعها من آبار يبلغ غور مياهها ٤٧ قدماً، وعلى العموم فإن البلدة وضواحيها تبدوان في حالة جيدة، كما يبدو أن هناك من يرعاها.

قابلني خارج البلدة مبعوث من قبل الأمير، وأبدى ترحيباً مقتضباً وإن كان كافياً، ومن ثم قادني إلى منزل معزول وسط مزرعة أقيم خصيصاً للأتراك والأجانب الآخرين، وبعد قليل جاءنا سكرتير الأمير الشخصي محبوب، وأوضح لي أنه من الأفضل أن نظل خارج المدينة؛ لأننا نتعاطى التدخين والناس قد تضايقنا، وسألته متى أستطيع مقابلة الإمام؟.. فقال: إنه غير واثق تماماً متى.. انتظرت موفداً من سموه في اليوم السادس من شهر مارس ١٨٦٥م/١٢٨١هـ لكن أحداً لم يأت، لكن وبعد الظهر بقليل أرسل الإمام من يقول: إنه سوف يكون مسروراً بمقابلتي في المكان الذي يصلي به في قصره.. وبدون أدنى تأخير ذهبت إليه مصطحباً موظفي معي. لم يكن القصر بعيداً؛ إذ كان يقع في وسط البلدة. وأمام القصر كان ثمة ميدان واسع، وبعد بوابة القصر الخارجية مباشرة كان ثمة عدد قليل من المدافع القديمة تعوق المرور.. لم يكن أي جزء من المبنى متسماً بالتعقيد، وكان مكان الاستقبال عبارة عن قاعة سفلية طويلة ذات أعمدة خشبية كانت قد قطِّعت بطريقة بدائية، وكان الدخول للقاعة عن طريق سلم معتم، وقد وجدت الإمام يجلس في صدر الغرفة على سجادة جميلة، وقد أسند ظهره إلى مسند ضخم، وكان ابنه الأصغر يجلس إلى جانبه، وعلى مسافة بعيدة كان يجلس محبوب سكرتيره الخاص.. وحين اقتربت وقف الإمام في صعوبة، ومد لي يده يصافحني، ثم دعاني للجلوس إلى جانبه.. كان الإمام ضعيف النظر تماماً لكن وجهه كان رائعاً، وبدا

*لويس بلي (١٢٤١-١٣١٣هـ/١٨٢٥-١٨٩٥م) ضابط بريطاني عمل في القوات المسلحة لحكومة الهند البريطانية في بومباي، وقام بأدوار سياسية مختلفة.. عمل كمقيم بريطاني في بوشهر حتى سنة ١٨٩٥م، وقام بزيارة الرياض عندما كان مقيماً في بوشهر الإيرانية؛ لدراسة الوضع السياسي بوسط الجزيرة العربية، وتوطيد العلاقة مع الدولة السعودية الثانية والتي كان يحكمها الإمام فيصل بن تركي.. وقد جاء نص رحلة بلي على شكل تقرير رسمي قدمه إلى حكومته، وقد صدر التقرير باللغة الإنجليزية في بومباي عام ١٨٦٦م، وصدرت ترجمة عربية له بالرياض عام ١٤١١هـ-١٩٩١م. والمعلومات الخاصة بالرياض مقتبسة من هذه الترجمة، انظر:

الليفتنانت كولونيل لويس بلي، رحلة إلى الرياض، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ وعويضة بن متيريك الجهني. الرياض: جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ص ٧٣-٨٩.

عليه أنه جاوز السبعين، وكانت ثيابه تدل على ذوق رفيع جداً، وكان صوته منسجم النبرة، وكلماته هادئة ومحسوبة.. كان رجلاً جليلاً ولطيفاً، وبعد تبادل المجاملات قدمت أعضاء الوفد، وأعربت عن تشرفي بمعرفته، ورد قائلاً: إن الرياض مدينة غريبة على الأجانب، وإنه لم يسمح لأحد من قبلي بالدخول إليها، لكنه واثق من أن كل شيء سوف يسير على مايرام.

وفي صباح اليوم التالي بكَّرت بزيارة الإمام بعد تحديد موعد معه.. تحدث الإمام بإدراك عظيم عن الأحوال الطبيعية والسياسية لشبه الجزيرة العربية موضحاً حاجتها الشديدة للأمطار، وقال: لو هطلت الأمطار بكثرة لأصبحت الزراعة ممكنة، وعندها قد تتحول القبائل الرُحَّل إلى حياة الاستقرار.. وفيما بعد أمر بإجراء نقاشات معي عن طريق سكرتيره مفادها: أنه سيكون مسروراً إذا أمكن جلب بعض الآلات إلى ضواحي العاصمة لرفع الماء بحيث تكون من نوعية أفضل من آلة الدولاب الفارسي الشائعة وأقوى منها.. وقد أكدت له أنني سأكون سعيداً في أن أساهم في عمل حكيم كهذا، وقد تم الاتفاق في النهاية على أن أقيس عمق الماء في الآبار، وأن أحصل على زوج من المضخات المطورة أو أية آلات أخرى من إنجلترا؛ وبناء على هذا قمت ببعض التحريات عندما وصلت إلى إنجلترا، وبناءً على الموافقة الكريمة للسيد ليارد Mr. Layard فُوِّضْت من قبل وزارة خارجية جلالتها[1] برصد مبلغ ١٥٠ جنيهاً لشراء مضخات لتقديمها للإمام.. لقد بينت الأحداث اللاحقة أنه لم يكن من المستحسن أن أقوم بإهداء المضخات في ذلك الوقت، لكن قد تبقى حقيقة الفوائد العظيمة ممثلة في إدخال الطاقة المائية المطورة إلى نجد.. وفي الطريق إلى بوشهر الآن مضخة مطورة تعمل بطاقة الحيوان وقادرة على استخراج مئتي جالون من الماء في الدقيقة من عمق حوالي خمسين قدماً.

عندما عدت إلى المنزل زارني سكرتير الإمام، فتحدثت معه عن زيارتي المقترحة إلى المنطقة الغنية بالمراعي والمياه بالخرج المعروفة باسم السيح.. في الوقت الذي بدأت المغادرة قدم رجل ومعه ساعة الإمام من نوع frying - pan-(class)، وقال: إن الساعة تعطلت، وإن الإمام سيكون ممتناً إذا ما تمكنت من إصلاحها له.. فوافقت على ذلك، وقد تم إصلاح الساعة في إنجلترا، وأعيدت إلى الرياض.

كانت الليلة الأولى بعد وصولنا للرياض ليلة غائمة، وقد استطعنا في صباح أحد الأيام تحديد خط الطول عن طريق خمس ملاحظات شمسية من فوق سطح منزلنا، لكننا قوطعنا قبل الظهر، فبقي خط العرض دون تعيين؛ ولذلك كان علينا أن نحدد خط العرض في الليلة التي غادرنا فيها الرياض، وذلك في أقرب فرصة ممكنة؛ فتوقفنا لهذا الغرض بعد أن اجتزنا ضواحي (الرياض) بقليل وكان سيرنا نحو الشمال تقريباً، فنصبنا خيمتنا في ذلك الاتجاه.

(١) الملكة فكتوريا.. ولدت عام ١٨١٩م، وأصبحت ملكة عام ١٨٣٧م حتى عام ١٩٠١م، وتقلدت إمبراطورية الهند عام ١٨٧٦م حتى وفاتها عام ١٩٠١م، وفي عهدها ازدهرت بريطانيا العظمى إلى درجة كبيرة..

القسم الثاني

الرياض

في القرن الرابع عشر
(العشرين الميلادي)

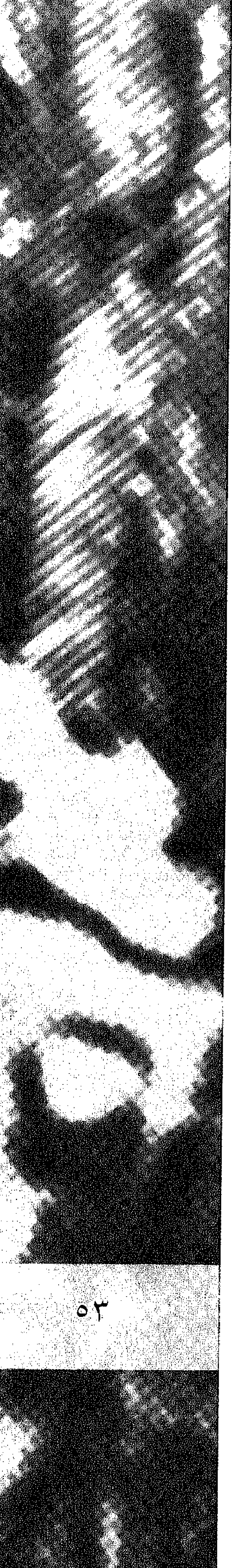
الفصل الأول

١٣٣٠ - ١٣٣٧هـ
١٩١٢ - ١٩١٨م



باركلي رونكير ١٣٣٠هـ/١٩١٢م





باركلي رونكير*

Barcaly Raunkiaer

١٣٣٠هـ / ١٩١٢م

في ٨ ربيع الآخر ١٣٣٠هـ الموافق ٢٧ مارس ١٩١٢م سرنا عبر وادي حنيفة الذي امتلأ مجراه بالأشجار والشجيرات الصغيرة التي يبلغ ارتفاع بعضها خمسة أمتار، وبعد ثلاث ساعات من سيرنا وصلنا في جانبنا الأيسر إلى واحة تعرف باسم "ملقى"[١]، وهنا يأخذ مجرى الوادي اتجاه الجنوب الشرقي.. وبتتبعنا للمجرى الصخري بقاع الوادي مررنا بعد ساعة بواحة غنية تعرف باسم العِلْب[٢] بها أشجار نخيل جميلة، وبعد أن غادرناها مباشرة وصلنا إلى مدينة الدرعية التي هي الآن ليست أكثر من مجرد اسم، وهي بلدة ريفية غير مهمة، وهذا كل ما بقي ليعيد للأذهان دورها كمدينة عندما كان الجيش الوهابي تحت قيادة عائلة آل سعود ينطلق للسيطرة على شبه الجزيرة العربية، وسرنا عبر البلدة، وعندما غادرنا وادي حنيفة وصلنا إلى هضبة بها بعض التعرجات البسيطة. وصرير وأنين السواقي الخشبية وخرير المياه المنسابة فيها التي هي الأصوات الوحيدة التي تُسمع في الوادي بدأت تخفت عند مغادرتنا مرة أخرى إلى الصحراء المجدبة. وهنا وهناك يمكن مشاهدة قمم أشجار النخيل في أسفل الوادي، وعند منتصف النهار أشرفنا على واحة عرقة[٣] الصغيرة.

مررنا بمزيد من الأطلال التي كانت بالتأكيد جزءاً من مدينة الدرعية القديمة. وفي هذا الوقت لم نكن بعيدين عن مدينة الرياض، وتقدمنا فهد نحو المدينة لكي يخبر الإمام بوصولنا.

---

* باركلي رونكيير رحالة دانماركي.. كان والده عالماً بالنبات والزراعة، ووالدته كاتبة روائية ذات شهرة.. كان رونكيير مغرماً بالرحلات منذ صغره، فاختص في دراسته الجامعية بالجغرافيا الاقتصادية.. كان يبحث عن مكان لم يكتشفه أحد من قبله من الغربيين؛ فعلم أن هناك مثلثاً كبيراً في شرق الجزيرة العربية لم يكتشف بعد؛ فأقنع الجمعية الجغرافية الدانماركية في عام ١٩١١م بارساله إلى تلك المنطقة؛ لإعادة مسحها وتقدير الإمكانيات لإرسال بعثة دانماركية كبيرة لدراسة المنطقة.. وصل باركلي رونكيير إلى البصرة، ومنها انطلق إلى الكويت التي مكث بها بعض الوقت في بداية عام ١٩١٢م. ومنها قام بزيارته إلى أواسط الجزيرة العربية حيث وصل الرياض في شهر مارس ١٣٣٠هـ/١٩١٢م، وصف رونكيير رحلته والمناطق التي زارها، وما تكبده من عذاب في رحلته في كتاب أصدره عن هذه الرحلة: «عبر بلاد الوهابيين على ظهر جمل».

Barclay Raunkiaer, through Wahhabi Land on Camelback. London: Routedge and: Kegan Poul, 1969, pp. 117- 123.

ترجم مؤخراً وقام بترجمته منصور محمد الخريجي، تحت عنوان «عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل»، ونشر عن طريق مكتبة العبيكان، عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.توفي رونكيير بعد انتهاء رحلته بفترة قصيرة، و لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين بسبب مرض السل الذي أصابه في عام ١٩١٥م.

(١) الملقى: و الأصل في التسمية هو الملتقى من التقاء عدة أودية في منطقة واحدة، وهي تقع بعد تجاوز وادي حنيفة منطقة الوصيل وهي الآن تقع ضمن أحياء شمال الرياض، به مواقع أثرية ظاهرة على السطح.

(٢) قرية من قرى وادي حنيفة دخلت الآن في مدينة الدرعية بها سد يعرف باسمها، وأصل كلمة علب الأرض الغليظة التي لو مطرت لم تنبت، وكل موضع صلب خشن من الأرض فهو علب. (انظر محمد بن عبد الله بن بليهد، صحيح الأخبار، الجزء الرابع، ص٢٣٧).

(٣) مدينة قديمة تعرف بهذا الاسم الآن أما اسمها القديم فهو العوقة، يجري وادي حنيفة في وسطها، ودخلت الآن ضمن أحياء مدينة الرياض.

نلنا قسطاً من الراحة يقارب نصف الساعة في وادٍ صخري صغير، وبعد ذلك استأنفنا سيرنا عبر الصحراء الصخرية حيث مررنا مرة أخرى بأطلال، وفي باكورة الظهيرة وصلنا إلى مرتفع حيث يوجد منظر بعيد ممتد. وإذا عُد هذا المنظر معلماً طبيعياً فإنه يشابه مناطق شرقية كثيرة جداً، ولكن رغم ذلك فإن المشهد يؤثر في الناظر، ويدخل فيه أحاسيس جارفة عارمة.

ويمتد أمامنا في الوادي جدار أخضر داكن من بساتين النخيل، وعلى هذه الخلفية المنمقة الخضراء من الواحة تظهر الأسوار والأبراج عندما تسطع عليها أشعة شمس الظهيرة الشديدة الضياء.. هذه هي مدينة الرياض المدينة الرئيسة لمملكة السلفيين التي استقرت بها عائلة سعود، وهي التي هزت قبضتها الحديدية قبل قرن من الزمان أرجاء العالم الإسلامي.

أين الإمام نفسه؟.. هذا هو السؤال الذي شغلنا منذ أن كنا في الزلفي، وجعلنا نثير كثيراً من التخمينات، وأفادت الأخبار بأن الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن سعود الذي يبلغ الثانية والثلاثين من عمره قد غادر الرياض قبل يومين، وزحف بمحاربيه لمهاجمة قبيلة عتيبة التي قام بعض رجالها مؤخراً بنهب بعض قوافل الإمام وغير ميالين للاعتراف بسيادة الرياض. وطبقاً للمعلومات التي زودني بها أصدقاء الإمام الطيبون: فهو رجل قوي، ورجل حرب، ولكنه في الوقت نفسه رجل سعيد طيب القلب يستمتع بطيبات الحياة كما يعيشها السلفيون.. وكنت أتوق لمقابلته خاصة أنني وضعت خططاً معينة لإطالة رحلتي في اتجاه معين، ولكن قائد جملي يعتقد أن الإمام قد لا يكون موجوداً بالرياض.. والسبب الآخر لانزعاجي من عدم وجود عبد العزيز بن سعود بالرياض هو والده الكبير عبد الرحمن بن سعود الذي يتولى الحكم بمفرده في غياب ابنه، ويعدّ من السلفيين المتشددين، ولذلك لا يسرني التعامل معه.

سرنا نحو الواحة التي كانت حدائقها وأسوارها في وقت الظهيرة ترقد في سلام يشبه الموت، و لم يُشاهد أي شخص آخر في أي مكان بها.. وعندما ظهر راكب عربي يرتدي ملابس أنيقة، ويتجه نحونا على صهوة جواد كنا على بعد مئتي ياردة من البساتين الخارجية، وعند اقترابه منا اتضح أنه أحد تابعي الإمام الموثوق بهم، فحيانا باحترام، وقادنا إلى حديقة تقع في شمال مدينة الرياض.. تم اقتيادنا عبر بوابة لها جدران طينية متينة، ووصلنا إلى مدخل مسقوف يطل على بستان نخيل به بئر كبيرة يعمل فيها بالتتابع ما لا يقل عن ثمانية حمير لسحب الماء من البئر، وإلى اليسار يوجد منزل به العديد من كوات الإنارة المربعة أو المستطيلة الشكل، وأنخنا نياقنا أمام المنزل وحمل اثنان من خدم الإمام حقائبنا إلى داخل المنزل.. وهذه البقعة بأكملها حالمة، وتمثل الحديقة خلوة جيدة من المدينة؛ إذ إن بها أشجار نخيل ضخمة وخضرة زاهية، كما أن بها السواني الخشبية التي تحدث أنيناً وصريراً لا ينقطع بينما تتموج المياه في تدفقها عبر القناة.

وفي ظهيرة الثامن والعشرين من مارس كان عليَّ مقابلة الإمام (الذي لم يكن عبد العزيز، إذْ خرج في غارة على عتيبة، وإنما كان والده عبد الرحمن).. وقد ذهبت

برفقة حراس مدججين بالسلاح عبر منحنى كبير حول الحدائق الخارجية للواحة بينما قام رجال مسلحون بإجراء استطلاع في المقدمة وعلى الجانبين؛ لإبعاد أي عابر سبيل.. وبعد السير عبر وديان رملية وفوق تلال حجرية وصلنا إلى بستان نخيل منعزل محاط بجدران محافظ عليها بصورة جيدة، وهي تقع بعد حوالي نصف كيلومتر شرق سور مدينة الرياض.. ونحن هنا في حديقة أخرى من حدائق الإمام وهي أكبر وأكثر رعاية من تلك التي أعيش فيها بنفسي، وتم اقتيادنا عبر أشجار النخيل حتى وصلنا إلى أرض خالية مفروشة بالسجاد الفارسي بينما كان الزنوج مشغولين في إعداد القهوة والشاي، وأخذت مكاني على السجاد، وبعد لحظة حضر عبد الرحمن مع حاشيته من وسط النخيل، وبعد التحيات أخذنا أماكننا وجلسنا سوياً على السجاد متكئين على الوسائد، بينما جلس علي أمامنا على الأرض، وأخذ أفراد الحاشية أماكنهم بعيداً عنا.

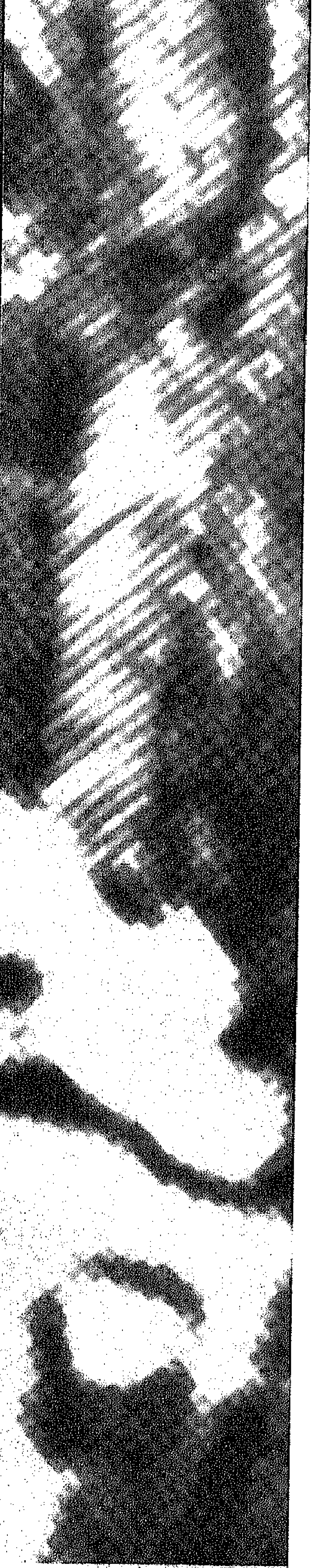
والإمام عبد الرحمن بن فيصل رجل مسن وسيم ورائع، وتحمل قسماته سمات الخبرة والفخامة، وهو لطيف وودود، ولكنه رجل كبير السن صارم، وله عين صقر ولحية بيضاء.. وبينما كنا نحتسي القهوة والشاي بالتتابع تناولنا في نقاش حي حديثاً عن الكويت، وعن حملة الإمام، وعن مصالح بريطانيا وتركيا في شبه الجزيرة العربية، وعن الحرب التركية الإيطالية، وأخيراً عن القوة النسبية للأقطار الأوروبية.

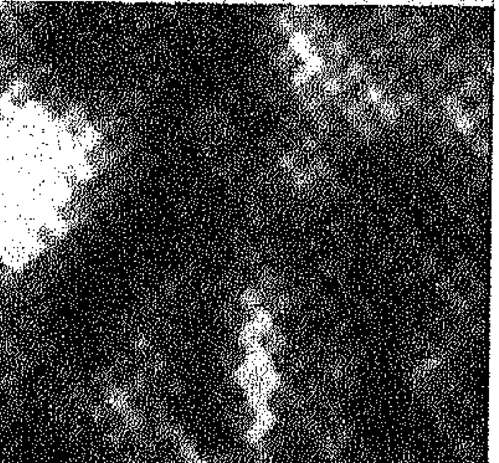
وتعهد عبد الرحمن باتخاذ الإجراءات لأتمكن من مرافقة القافلة التي ستغادر في الصباح إلى الأحساء، واستأذنت بعد ذلك الإمام عبد الرحمن الذي ذهب وحاشيته في غياهب بستان النخيل بينما رجعت ورفقائي إلى مقرنا، وحال وصولي إلى هناك زارني قائد القافلة التي ستتجه إلى الهفوف، وقد أفاد الإمام عبد الرحمن قائد القافلة بأن يحضر خطاباً مني إليه عند عودته إلى الرياض وإلا فإنه سيحدث له ما لا يحمد عقباه.

وأحضرت في المساء كميات كافية من الدقيق والسمن والأرز من منزل الإمام، وكانت هذه الكمية بالنسبة للجزء الخاص بي في القافلة تكفي على الأقل لأربع رحلات إلى الهفوف. وبعد أن تأكدت بأن كل شيء قد تم إعداده على أكمل وجه استسلمت لآخر نوم هادىء قبل رحلتي الصحراوية الجديدة، وقد أعادت إلي هذه الإقامة القصيرة بالرياض شيئاً من قوتي، وشعرت برغبة وشوق للذهاب لمناطق أكثر بعداً.

وفي التاسع والعشرين من مارس تم إيقاظنا في وقت مبكر، وقضينا الساعة الأولى من النهار في تحزيم العفش وتحميل الجمال؛ وبعد ذلك سرنا بجمالنا إلى الصحراء بعيداً عن البستان، ووقفنا قرب بعض التلال الصخرية التي تقع على بعد كيلومتر واحد شرق سور المدينة، انتظاراً لمجيء القافلة التي ستتوجه إلى الأحساء.

وبدأت القافلة تخرج عبر بوابة المدينة في جماعات صغيرة متبوعين بأعداد من الأصدقاء والمعارف من الرياض، وبينما كنت مضطجعاً بجانب جملي لابساً عباءتي الممزقة ووسط الغبار ولم يكن أحد بجانبي:





رسمت مخططين لمنظر يطل على الرياض، و لم يلاحظ أحد من رجال القافلة أنني فعلت شيئاً غير عادي؛ وكان الرجال الذين يحرسونني أثناء إقامتي بالرياض قد عادوا إلى الواحة.

جيرارد ليتشمان ١٣٣٠هـ/١٩١٢م







جيرارد ليتشمان*

G. E. Leachman

١٣٣٠هـ / ١٩١٢م

وبعد أن وصلنا بريدة أرحنا إبلنا عند بوابة منزل الأمير(ابن معمر)(١)، وهو رجل من الرياض عينه ابن سعود أميراً لها، وسرعان ما أحاطنا عدد من العبيد الزنوج المسلحين الذين أتوا من القلعة وتجمعوا حولنا، ومنهم تبينت أن ابن سعود قد سافر هذا الصباح وعاد إلى الرياض.

عاد المراسل الذي كلفه الأمير لأخذ رأي ابن سعود في أمره وفي جعبته تعليمات من الأمير تفيد إرسالي إليه بعد وصوله إلى الرياض، كما اكتشفت أيضاً أثناء طريقي مدى لطف ابن سعود وعطفه من خلال إصداره الأوامر الخاصة براحتي في كل قرية تقع على الطريق، وهذه التعليمات ساهمت في تسهيل أموري بشكل كبير، وبذلك فقد منحت فرصة للسفر من بريدة عبر الطريق المباشر إلى الرياض من خلال عبوري شقراء بالوشم.

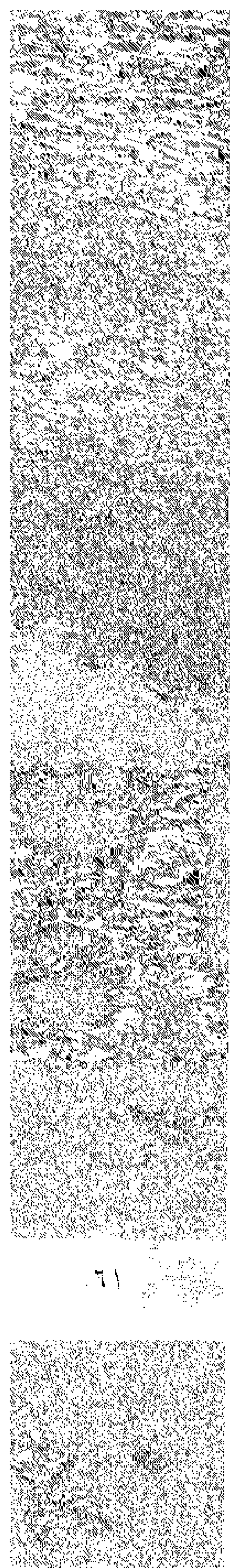
باتجاهنا إلى نهاية الرمال على الجانب الأيسر نكون قد تركنا حدود (الوشم)، وفي الوقت نفسه نكون قد دخلنا إلى أول مقاطعة لنجد الجنوبية المعروفة باسم العارض وهذه المقاطعة تضم (الرياض) عاصمة كل نجد، وعدة أماكن مهمة كالدرعية ومنفوحة علاوة على عرقة... وفي هذا الموضع التحم طريقنا بطريق الحج الممتد فيما بين مكة والرياض ثم دخلنا في خانق جبل طويق، وكان مليئاً بأشجار السدر والطلح. وبعد هبوطنا من هذه الجبال وعلى امتداد عشرة أميال وصلنا لمجمع الماء، ثم دخلنا أول وادي حنيفة ويعرف بوادي الحيسية.. ينحدر هذا الوادي إلى الشرق من أعلى برفق إلى أسفل مرة أخرى، ويأخذ اتساعه، وهو ثمانمائة ياردة، وتنخفض جوانبه تدريجياً كلما تقدمنا، ويلتحم الطريق من الزلفي وسدوس بالوادي من الشمال. وبعد ذلك يصبح قاع الوادي محدداً بوضوح.. وعند العيينة التي تبعد عدة أميال وجدنا بقايا سدود صخرية كبيرة بنيت للتحكم في اندفاع الماء في الوادي الذي يحصل

---

* جيرارد ليتشمان ضابط إنجليزي عمل في الجيش البريطاني بالهند، اشتهر بحبه للمغامرات والسفر.. رحل في بلدان كثيرة، وبدأ مغامراته في الجزيرة العربية عام ١٩١٠م عندما زار حائل موفداً من قبل المقيم البريطاني في الخليج العربي السير بيرسي كوكس، وكانت مهمته المعلنة دراسة طبوغرافية المنطقة، ورسم الخرائط لها لحساب الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، ثم رحل ثانية إلى وسط الجزيرة العربية في عام ١٩١٢م بهدف الاجتماع بعبد العزيز آل سعود، وإجراء مسح جغرافي للقصيم والرياض لحساب الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية.. عمل ليتشمان بعد ذلك في العراق مكلفاً بالعلاقات بين القبائل العربية حتى عام ١٩٢٠م حيث قتله أحد العرب. حول رحلته إلى الرياض انظر:

Leachman, G. E. A Journey Through Central Arabia. Journal of the Royal Geographical Society, no. 43, PP. 500-520.

(١) اسمه فهد بن عبد العزيز بن ناصر بن معمر.. ولد في الرياض عام ١٢٨٣هـ.. كان من ضمن الرجال الذين دخلوا الرياض مع الملك عبد العزيز عام ١٣١٩هـ، كما تأمر في الدلم من بلدان الخرج، واستشهد في حصار حائل في ١٦/١٠/١٣٣٩هـ. (عبد المحسن بن محمد بن معمر، إمارة العيينة وتاريخ آل معمر، ص٤٥٧، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).



الحاشية الملكية بقصر الحكم بالرياض ويقف في الوسط الأمير سعد بن عبدالرحمن آل سعود أخو الملك عبدالعزيز.
شكسبير، ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.

بعد هطول الأمطار.. إن قرية العيينة مع الدرعية كانتا قد عانتا من رعب إبراهيم باشا أثناء الغزو المصري لها عام ١٢٣٣هـ/١٨١٨م، ولا بد أنها كانت كبيرة نوعاً ما؛ لأن خرائبها تمتد لما يقرب من ثلاثة أميال في مجرى الوادي، وعلى بعد قليل توجد قرية الملقى حيث اكتشف هنا بالجريف أن الوادي يتشعب إلى جزأين أو فرعين.. إلا أن هذين الفرعين يلتحمان مرة أخرى على بعد نصف ميل في المناطق الأدنى منسوباً، بحيث يطوقان بكتلة رملية كبيرة تتوسطهما.. ومن هذا المكان تمتد الزراعات بشكل مستمر، وكذلك بساتين النخيل بطول قاع الوادي بينما تبدو خرائب الدرعية القديمة واضحة على الضفة اليمنى للوادي، ويقابلها في الوقت نفسه القرية الجديدة على ضفته اليسرى. هذه القرية هي العاصمة القديمة لنجد الجنوبية، وتدل الخرائب المتجمعة على الحجم السابق للبلدة والتي ربما كانت أكبر بكثير من الرياض العاصمة الحالية.. وبصعودنا للوادي الذي تركناه جنوباً، وبعبورنا هضبة صخرية بعرض عشرين ميلاً تبرز أمام أعيننا الرياض العاصمة الكبرى لنجد والتي كانت قبل ذلك مختفية في منحدر من الأرض، وتقع هذه البلدة التي أضحت عاصمة لنجد الجنوبية، ومقراً لحكم الدولة السعودية بعد انهيار الدرعية على يد المصريين عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م[١] في منخفض يهبط منسوبه بمقدار مئة قدم عمّا يحيط به من أرض سهلية، وكلاهما معاً إضافة إلى ضواحيها وبساتين نخيلها تمتد قرابة ميلين بين الشمال والجنوب بينما يلامس طرفها الجنوبي وادي حنيفة الذي يعرف هنا باسم (الباطن).. وهذه البلدة تحيط بجوانبها الثلاثة بساتين النخيل الكثيفة. وهي تحاط بدورها بسور ضخم حديث البناء، وله أبراج يتباعد بعضها عن بعض بمئات قليلة من الياردات، وللسور بوابات ذات مداخل مختلفة. ويقع في شمالها الشرقي مقبرة[٢] كبيرة تقطعها عدة طرق تؤدي أغلبها إلى مكة والأحساء.

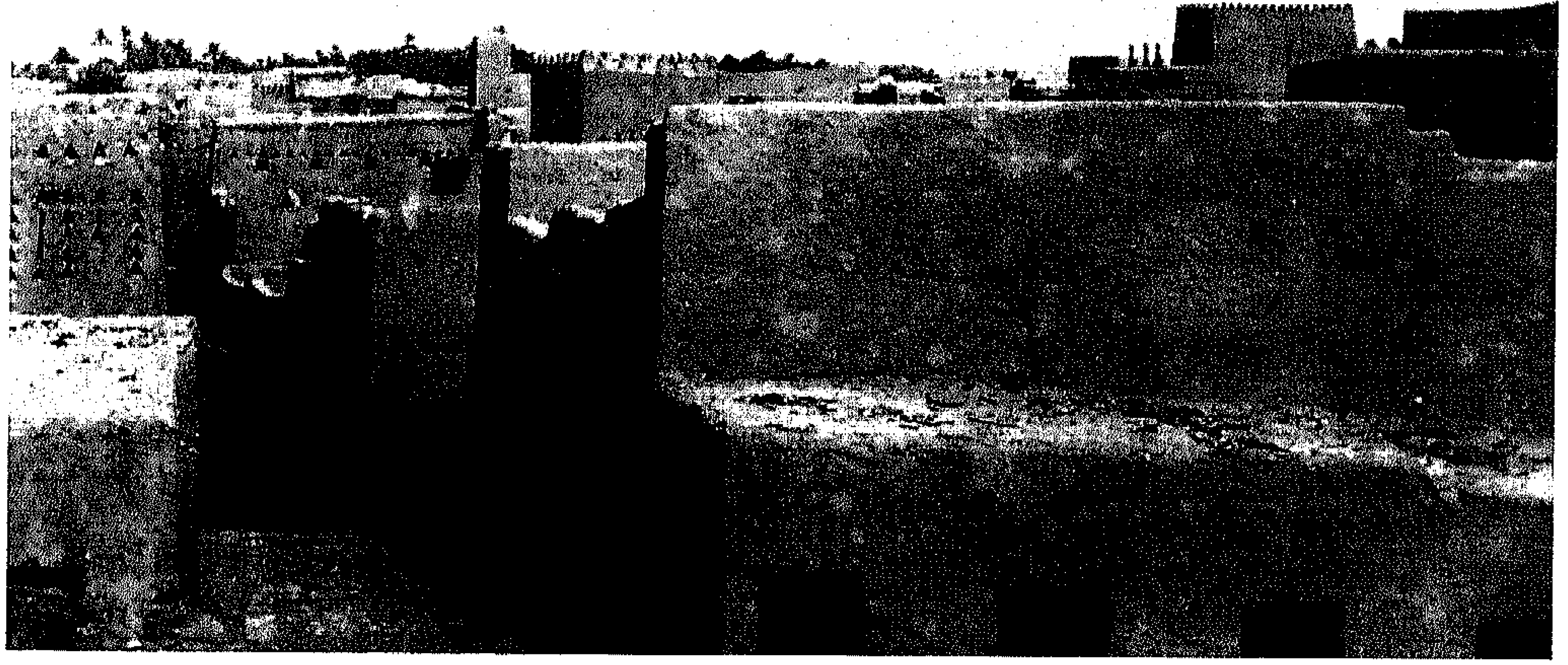
انطلقنا عبر السهل المفتوح في طريقنا ونحن في شك مما سوف نلقاه في استقبالنا في مركز الوهابية القوي، ودخلنا البلدة عبر بوابة مرتفعة بها أبواب خشبية مسمرة بمسامير حديدية، ولقد طفنا عبر عدد من الشوارع الجانبية الهادئة، وبعد ذلك ظهر لنا فجأة ميدان واسع[٣]، وبه سوق يعج بالحركة التجارية عند تلك الساعة من ساعات الظهيرة من ذلك اليوم. وكلما تجولنا حملقت فينا الأعين الفضولية المتعددة، وبعد ذلك وصلت إلى مكان متسع ومفتوح يقع على الجانب الأيمن من قلعة عالية والتي تبينا أنها قصر عبد العزيز بن سعود، وقمنا بربط إبلنا، وجلسنا على مصطبة طينية تمتد بطول السور، وعندئذ تجمع حولنا زحام من رجال البلدة وعبيدها يسألوننا عن عودة حجاج مكة والمنتظر وصولهم خلال بضعة أيام؛ حيث اعتقدوا بأننا مجموعة

(١) اختيرت عاصمة بعد ذلك بفترة على يد الإمام تركي بن عبد الله في بداية تكوين الدولة السعودية الثانية عام ١٢٤٠هـ-١٨٢٤م.

(٢) هي المقبرة المعروفة بمقبرة شلقا، وهي التي تقع الآن بين شارع البطحاء وشارع الملك فيصل.

(٣) هو الميدان المعروف بميدان الصفاة، والسوق هو سوق الرياض القديم الذي يقع بين الجامع وقصر الحكم.

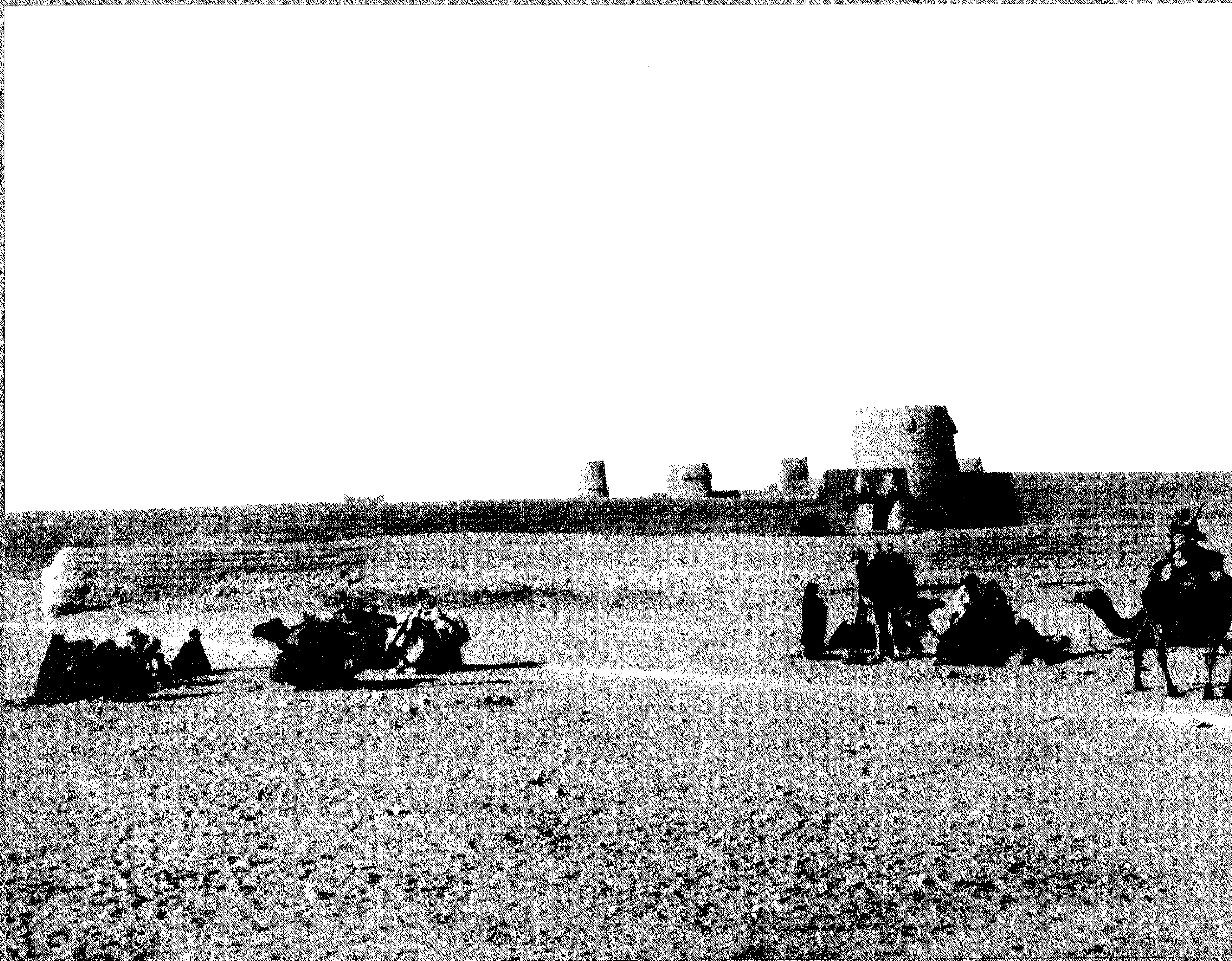
مبان وسط الرياض.
ليتشمان، ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.



متقدمة منهم، ولقد وفد إلينا العديد، وصافحونا بالأيدي في مكان انتظارنا، لكن أخيراً وصل إلينا موظف من قبل الأمير ودفع عنا التزاحم البشري بعيداً، ثم وجهنا إلى القصر مع محادثتنا بطريقة استفسارية مهذبة عن أحوالنا الصحية وعن طبيعة رحلتنا.. وكانت أولى المراسم تتمثل في شرب القهوة في غرفة بهو القهوة التي كان يمر عبرها باستمرار موظفو وعبيد القصر، ويعبرونها جيئة وذهاباً، وجميعهم يتألقون في عباءات مطرزة وبسيوف ذات مقابض فضية. وما لبثنا لحظات حتى اصطحبونا إلى قاعة عليا تطل على السوق والمدينة وهناك رحب بنا عبد العزيز بنفسه.

كان عبد العزيز يناهز الأربعين من العمر، طوله ستة أقدام، وعريض المنكبين، ووجهه يوحي بالقوة وبالطيبة في آن واحد،وسلوكه بالغ التواضع والبساطة لقد صافحني ورحب بي بود وبشاشة فشعرت فوراً بالإرتياح والطمأنينة وخضنا في حديث طويل حول أخبار العالم الخارجي، وقد عبّر (الملك) عبدالعزيز عن أسفه لأن قصره لم يوفر لنا مسكناً أفضل أو رفاهية أرفع، وقال إنه منذ وصل الرياض قبل عشرة أعوام وهو منشغل بلا انقطاع في التنقل عبر المناطق الصحراوية ضمن الأراضي التابعة له... ويجتهد في ضم مختلف القبائل تحت جناح حكمه، ولذلك لم تتح له الفرصة لتوسيع القصر أو تحسينه.

وشرح لي تاريخ نهوض قوته؛ إذ يبدو أنه منذ عدة سنوات مضت (وخلال حكم محمد بن رشيد، حاكم حائل الذي كان أقوى أمراء شمر) تم انتزاع معظم جنوبي نجد من أيادي ابن سعود، واتخذ عبد الرحمن ابن سعود والد الأمير الحالي من الكويت ملجأ، وعاش في حماية مبارك شيخ الكويت، وبعد أن توفي محمد بن رشيد ازداد ضعف قوة شمر، ومن هنا ترك عبد العزيز



أسوار الرياض وبوابة الأحساء (المعروفة أيضاً ببوابة الثميري). ليتشمان، ١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م.

الكويت وتبعه (أربعون رجلاً فقط)[١]، وبعيران واخترقوا الصحراء بهدف الإمساك بزمام القوة مرة أخرى في الرياض، ووصل إلى القصر تاركاً الإبل في حماية رجلين خارج أسوار البلدة[٢]. أما باقي المجموعة فقد دخلت البلدة ليلاً، وصبوا غضبهم على قلعة أمير البلدة الرشيدي، وصادفوا امرأة عجوزاً في الميدان[٣]، وتبينوا منها أن الحاكم لا يسكن القلعة في الليل[٤]، لكنه عادة ما يأتي هنا في بواكير كل صباح، ونجحوا عندئذ في السيطرة على المدخل المؤدي إلى القلعة[٥]، وقاموا بإغلاق البوابة الكبرى، لكنهم تركوا باباً صغيراً في الخلف مفتوحاً. وفي الصباح حضر الحاكم مع حارس مرافق له، وانقضوا عليه بمجرد مروره عبر الباب الخلفي الصغير*، وكانت العملية ناجحة تقاسم معه فيها بعض اتباعه التنفيذ، وعندئذ اتجه عبد العزيز إلى برج من أبراج القلعة، وأعلن بأن الأمير التابع لابن رشيد الحاكم تم قتله بالفعل، وأن ابن سعود عاد مرة أخرى.. وفي الحال انضمَّ أهل البلدة إلى جانب ابن سعود، وخلال السنوات المتتالية للنضال أجبروا رجال ابن رشيد على الانسحاب نحو الشمال بالتدريج حتى عُقِد عام ١٩١٠م اتفاق للسلام بين كلتا القوتين[٦].

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن والد عبد العزيز ما زال حياً، وما يزال يعيش في الرياض، إلا أن أتباعه دائماً ما يتحدثون عن عبد العزيز باعتباره الإمام أو الأمير، بينما يتحدث عبد العزيز نفسه عن والده عبد الرحمن ويعتبره إماماً. وفي الواقع فإن معظم القوى الوزارية تتركز في يد عبد العزيز، بينما يتولى عبد الرحمن الشئون الدينية.

وحصلت على مكان إقامة أثناء استقراري بالرياض داخل القصر، طول اليوم كان يدخل نهر متدفق من الزوار، ويجلسون في حجرتي، وبدون استثناء؛ فقد أحاطوني جميعا بكرم كبير.. وفي بعض الأوقات كنت أذهب إلى البلدة إما بصحبة الأمير أو مع أحد الخدم الذي قد أوصاه هو بالعناية بي، وفي أغلب الأوقات ظهر أن أهل البلدة متحضرون وبدون تعصب.

إن الحركة التجارية في البلدة ضعيفة في الوقت الحاضر، فالبلدة وضواحيها يقال إنها تضم ٢٥٠٠٠ نسمة[٧]، وهذا العدد يبدو كبيراً،وقد تم التأكيد لي أن ٧٠٠٠ رجل أدوا الصلاة في الجامع الكبير في آخر عيد مر بالبلدة؛ الأمر الذي يجعل إجمالي عدد السكان يصل

(١) قامت دارة الملك عبد العزيز مؤخراً بالتحري التاريخي لعدد من أحفاد الذين شاركوا الملك عبدالعزيز دخول الرياض وتوصلت إلى أن الرجال كان عددهم ٦٣ رجلاً.

(٢) الصواب ثلاثة وعشرون رجلاً.

(٣) يقصد زوجة عجلان وقد كان ذلك في منزلها وليس في الميدان.

(٤) العكس هو الصحيح حيث أن مبيت الأمير في حصن المصمك ثم يخرج إلى بيته بعد شروق الشمس.

(٥) المقصود بالقلعة حصن المصمك.

(*) بدأ الإنقضاض وهو خارج الحصن متجه إلى منزله.

(٦) لم يعقد أي سلام كما يزعم الرحالة.

(٧) يرى فيلبي الذي زار الرياض بعد زيارة ليتشمان بخمس سنوات تقريباً أن عدد السكان في الرياض في حدود ١٨٠٠٠ألف نسمة.



٦٦

إحدى الآبار التي كانت تستخدم الدواب لرفع المياه بالقرب من الرياض. ليتشمان، ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.

للرقم المذكور لعدد السكان(١).. وعلى الرغم من ذلك فالسوق بالمقارنة صغير، بينما يقل الطعام وغيره من السلع الغذائية، وتتمثل السلع الغذائية الرئيسة في التمور التي تعد من نوعية جيدة، وتزرع هنا فواكه أخرى مثل التين والمشمش والبطيخ، بينما يزرع البرسيم فيما بين أشجار النخيل، ويوجد بالرياض قليل من الخيول بينما لا توجد أبقار أو ماعز(٢)، ويحتفظ الأمير بمئات من الخيول بالخرج تلك الضاحية التي تبعد عن جنوبي الرياض بيومين حيث تتوافر فيها المراعي والمياه الجارية، وهي من الأشياء التي لا توجد بالرياض.. والمياه في الخرج كما فهمت من المعلومات التي أمدني بها العرب تستخرج من عيون مائية، ولا توجد في الرياض عيون ماء على الإطلاق.. ومياه الري ترفع إليها من الآبار التي في أغلب الأحوال لا يزيد عمقها عن ثمانين قدماً.. وعن المناخ فهو صحي جداً، ولم نجد بها برودة كبيرة والدليل واضح في ملابس أهل البلدة، فهي ملابس مميزة، وتتكون من ثوب أبيض طويل يصل إلى الأقدام، وله أكمام طويلة تتخطى الكفين وأسفلهما يضيق الثوب، وفوق هذا توجد عباءة رقيقة من ملابس داكنة ومزينة بنمط ذهبي، وعادة ما تلبس عندما يكون لصاحبها كوفية أو غطاء رأس مصنوع من منديل يوضع فوق الرأس، وغالباً يغلب عليه اللون الأحمر، ويثبت عادة في مكانه بعقال ذهبي أو حلقة من شعر الجمل زينت بضفيرة مذهبة عند الطبقات الغنية مع وجود سيوف فضية وصنادل تكمل أو يكتمل بها الزي أو الملبس.

وما زالت أغلب المساجد متواضعة المظهر.. لها مآذن من النادر أن يتجاوز ارتفاعها بضعة أقدام.. إن حضور الصلوات الخمس اليومية إجباري، ويعاقب من لا يواظب عليها، كما يغلق السوق في أوقاتها، وعادة ما يكون الأمير بنفسه حاضراً أثناء هذه الصلوات، علاوة على قيام إمام المسجد بقراءة بعض سور من القرآن الكريم عليه وفي منزله الخاص.

ولقد قابلت في الرياض (أحمد بن ثنيان) ابن أحد شخصياتها، وهو شخص تلقى علومه في إسطنبول، ويتحدث الفرنسية بطريقة متقنة، وكان يتطوع هو وغيره من العرب دائماً في إمدادي بالمعلومات التي تدور حول المواضع الجغرافية في الجنوب، وكثيراً ما كانوا يتناقشون في بعضها داخل حجرتي، ومثال ذلك ما ذكروه عن امتداد واتساع بعض الأودية الكبيرة بهذه المنطقة.. عندئذ لم يكن هناك شك في مرور واقتراب وادي حنيفة من ضاحية الرياض، وبعدها يتجه جنوباً إلى الخرج، ومنها يتفرع بحيث نجد فرعه الأيسر أو الشمالي يتجه شرقاً إلى حيث توجد الدهناء، ويفقد أثره هناك، بينما نجد فرعه الأيمن أو الجنوبي يحافظ على

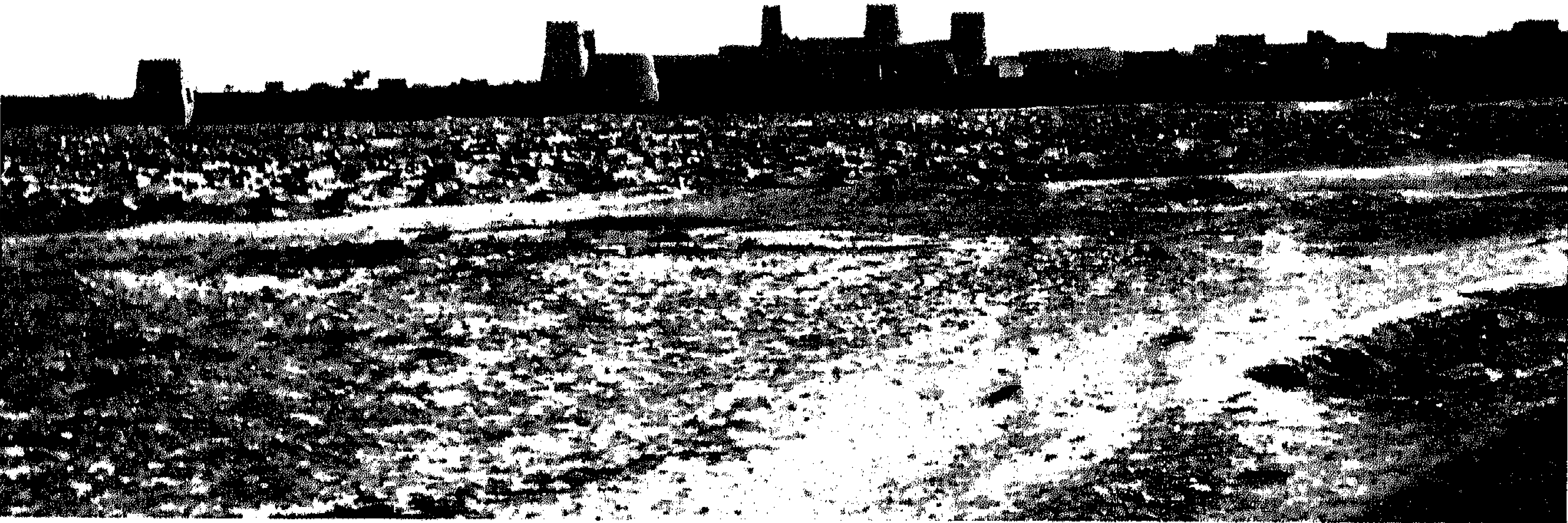
(١) كثرة المصلين أثناء صلاة العيد ليس دليلاً على عدد سكان المدينة، إذ كما هو معلوم فإن عددا كبيرا من زعماء القبائل والمواطنين يفدون على المدينة ويكثرون أثناء صلاة العيد لأجل السلام على الإمام عبد الرحمن وابنه الملك عبد العزيز.

(٢) من المستغرب أن لا يكون قد رأى الماعز والبقر مع أنها منتشرة بشكل كبير خصوصاً الماعز، وهناك وثيقة مؤرخة بعام ١٣٦١هـ بها بيان بعدد الحيوانات التي في الرياض العائدة فقط للملك عبد العزيز نفسه بها بقر وثيران وجمال وغيرها.

اتجاهه شمالاً إلى واحة يبرين حيث يحمل هنا اسم وادي (السهباء)، وبعدها يصل الخليج العربي بجوار (قطر)[1].

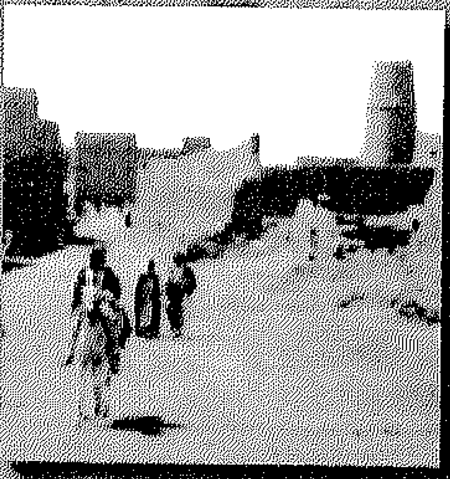
لم يوافق ابن سعود على رغباتي في استمرار الرحلة إلى يبرين، وإلى الجنوب، لذا بعد أن مكثت أسبوعاً فإنني تركت الرياض إلى الأحساء والساحل الشرقي..

الرياض من جهة الشمال، ويظهر حصن المصمك وتبدو المقبرة الرئيسية في مقدمة الصورة. ليتشمان، ١٣٣٠هـ/١٩١٢م.



(١) لا يصل وادي حنيفة البتة إلى ما ذكر الرحالة وإنما ينتهي في صحراء البياض في شرق منطقة الخرج.

وليم شكسبير ١٣٣٢هـ/١٩١٤م







وليم شكسبير*

William Shakespear

١٣٣٢هـ / ١٩١٤م

الاثنين ١١ ربيع الآخر ١٣٣٢هـ الموافق ٩ مارس ١٩١٤م عند الساعة الثالثة والنصف تقريباً لاحت لنا لأول مرة أشجار نخيل الرياض، ولكننا لم نر أي شيء من البلدة.. أقمنا خيامنا بجانب قاع سيل ومزارع نخيل تسمى الشمسية يملكها الشيوخ في الشمال.. أرسلت ماضي إلى ابن سعود ليعلمه بوصولي. وقبل أن أنتهي من الاغتسال وأرتدي ملابسي وصلت الخيول والرجال ليقولوا: إن ابن سعود لا يستطيع أن يأتي بنفسه، لكونه مصاباً ببرد، ولكن إذا ما كنت راغباً بالذهاب إليه فإنني أستطيع ذلك.. ذهبت إليه تحت ضوء القمر بموازاة الشعيب حتى اجتزنا أرضاً مرتفعة، فبدا سور الرياض الشرقي بأبراجه أمامنا بأكمله دخلنا المدينة عبر البوابة الشرقية، ثم مشينا في طريق واسع إلى القصر مجتازين كثيراً من المباني المتهدمة وبعض المنازل الكبيرة والجديدة المبنية على طراز القصور. تم الترحيب بي بأشد ما يمكن من حرارة في القاعة من قبل عبد العزيز وسعد، وبعد ذلك دخلنا المكتب.

تحدثنا سوياً حتى صلاة العشاء، وبعد الانتهاء منها عاودنا التحدث حتى الساعة التاسعة والنصف تقريباً حيث عدت إلى مكان مخيمي يرافقني الحرس نفسه الذي رافقني عندما دخلت المدينة.

الثلاثاء ١٢ ربيع الآخر ١٣٣٢هـ ١٠ مارس ١٩١٤م.

وصلت الخيول صباح ذلك اليوم لأخذي إلى البلدة، إلا أنني وصلت متأخراً قليلاً لمجلس عبد العزيز، ومبكراً بما فيه الكفاية لرؤية مسعود السويلم وعدد من الأولاد، وبعض الذين كنت أعرفهم من قبل. بعد ذلك ذهبت

* ضابط بريطاني من مواليد الهند ١٨٨٠م تلقى تعليمه العسكري في الكلية الحربية في ساندرهرست، فأصبح ضابطاً.. عمل في الجيش البريطاني بالهند، ثم ألحق بالخدمات السياسية، في عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، وأصبح مساعداً للمقيم السياسي البريطاني العام في بيشاور، وقنصلاً في بندر عباس، وبعدها نقل إلى مسقط، وفي عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٧م أعيد إلى حيدر آباد، وفي عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٩م، عين شكسبير المعتمد السياسي لبريطانيا في الكويت، وبقي في هذا المنصب لمدة ست سنوات متتالية.. تعرف شكسبير على الملك عبد العزيز في الكويت ١٩١٠م فبدأت صداقة شخصية بينهما؛ فدعاه إلى زيارة الرياض.. قام شكسبير بعدة زيارات إلى مناطق مختلفة في الجزيرة العربية، وفي عام ١٣٣٢هـ/١٩١٤م قام برحلة طويلة استغرقت ثلاثة أشهر بدأها من الكويت وانتهت في مصر.. زار شكسبير الرياض خلال هذه الرحلة، والتقط صوراً عديدة عن الرياض، كما أن أول صورة معروفة للملك عبد العزيز هي من تصويره، ولم يكتب شيئاً كثيراً عنها؛ نظراً لمقتله في معركة جراب في عام ١٣٣٣هـ/١٩١٥م عندما كان في مهمة رسمية إلى الملك عبد العزيز من حكومته. وصل شكسبير الرياض يوم ٩ مارس ١٩١٤م، وبقي بها ثلاثة أيام، وغادرها في اليوم الرابع برفقة حملة كان يقودها الملك عبد العزيز إلى الشمال، فافترقا بعد يومين حيث أكمل شكسبير رحلته الطويلة.

وهنا نورد ما تركه شكسبير من معلومات عن الرياض من دفتر يومياته الشخصية التي لم تنشر بعد، وما تزال مخطوطة، انظر حول هذا الجزء من المخطوطة:

William Facey, Riyadh: The old city From its origins until the 1950.London: IMMEL Publishing, 1992, pp205-208

وترجم هذا الكتاب الدكتور عبد العزيز الهلابي، ونشرته مكتبة الملك عبد العزيز العامة، عام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، وهذا الجزء يقابل من هذه النسخة من ص ٣٢٥-٣٣٢.

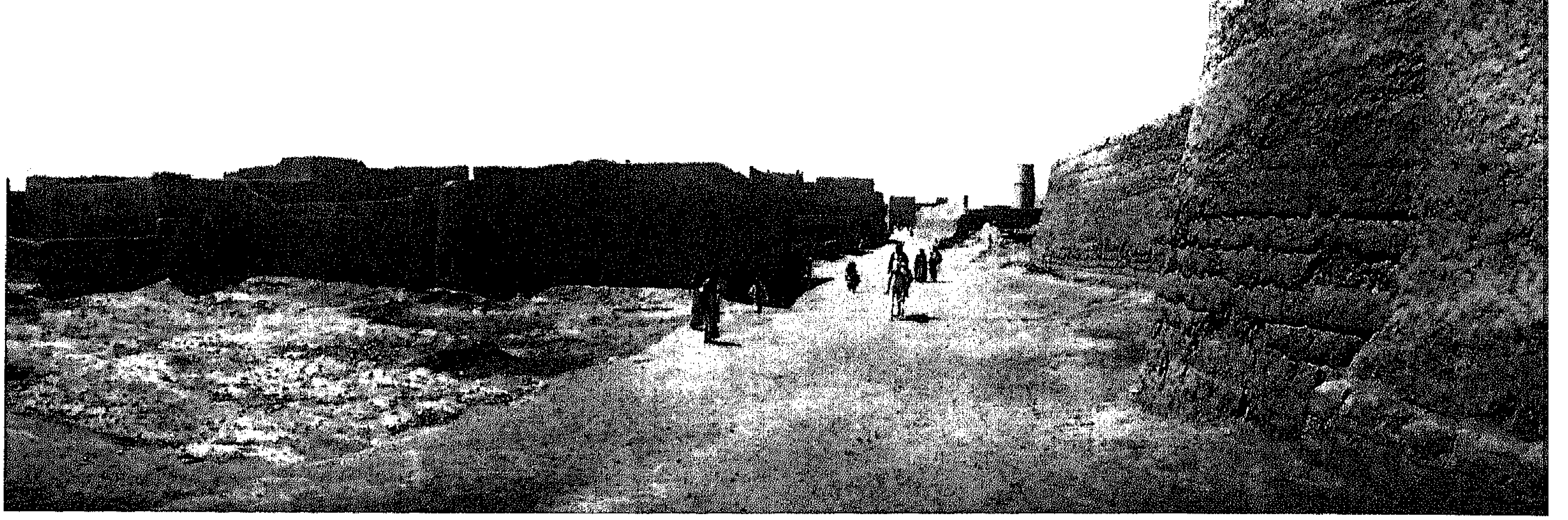


عدد من أفراد عائلة آل سعود عند
بئر كبيرة في بساتين الشمسية،
ويعتقد أن الملك عبدالعزيز ووالده
يظهران في هذه الصورة.
شكسبير، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.



عدد من سكان الرياض المجتمعين
خارج أسوار المدينة للترفيه.
شكسبير، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.





شارع الثميري بمدينة الرياض. شكسبير، ١٣٣٢هـ-١٩١٤م.

لرؤية (الإمام) عبد الرحمن حيث لحق بنا عبد العزيز فيما بعد، ثم عدت إلى القصر، فجلست قليلاً مع سعد، ثم ركبت عائداً إلى مخيمي، فبقيت حتى صلاة العصر، وعند الساعة الرابعة عدت إلى القصر حيث وجدت عبد العزيز يتألم من الصداع، لذلك تحادثت مع سعد وعبد الله وتناولت العشاء معهم.. بقيت حتى بعد غروب الشمس حيث تحدثت مرة أخرى مع عبد العزيز، ثم عدت إلى مخيمي.

إن مخطط الرياض الذي أعده بالجريف جيد للغاية، ولكن قصور آل سعود دمرها ابن رشيد جميعاً ما عدا حصناً ذا شكل شبه رباعي في قصر عبد الله والذي أصبح منزلاً لعجلان حتى مقتله على يد عبد العزيز، ويقوم الشيوخ الآن بإعادة بناء القصور؛ فقصر الإمام فيصل أصبح الآن قصر عبد العزيز، بينما قصر عبد الله لا يسكنه أحد، وأخذ محمد قصر جلوي... وهكذا.

إن ثلث البلدة تقريباً تشغله منازل عائلة آل سعود، والمنازل مبنية بالطين، ولكن هذا الطين يبدو من نوعية جيدة جداً، فالسطوح عالية، وأغلب البيوت تتكون من طابقين.

الأربعاء ١٣ ربيع الآخر ١٣٣٢هـ، ١١ مارس ١٩١٤م.

بقيت في المخيم أكتب بعض الرسائل إلى أن جاء سعد وتركي وعبد الله[1]، وركبنا، ثم ذهبنا إلى بستان النخيل الذي تسقيه بئر رائعة لها ١٢ دلواً بناها وزرعها محبوب مملوك فيصل الذي ذكره بالجريف وبلي. التقطت صوراً هناك، وبعد ذلك تركني الشيوخ.. البئر مطوية بالحجارة، وتبلغ مساحتها عشرين قدماً مربعاً، وكل الحجارة متداخلة بعضها ببعض دون مؤونة.. كتبت رسائل أخرى، حينها جاء عبد العزيز ومحمد، ثم عدد من الصغار منهم محمد وفهد.

(١) سعد وعبدالله أخوا الملك عبد العزيز، أما تركي فهو أكبر أبناء الملك عبد العزيز ويسمى تركي الأول، وقد توفي بعد خمس سنوات من زيارة شكسبير بسبب الحمى الأسبانية المعروفة في نجد بسنة الرحمة سنة ١٣٣٧هـ.



مجموعة من الجمال وقد حشدت قبل توزيعها على الرجال استعداداً لغزوة.
شكسبير، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.

مجموعة من سكان الرياض مخيمون
خارج أسوارها للتنزه.
شكسبير، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.



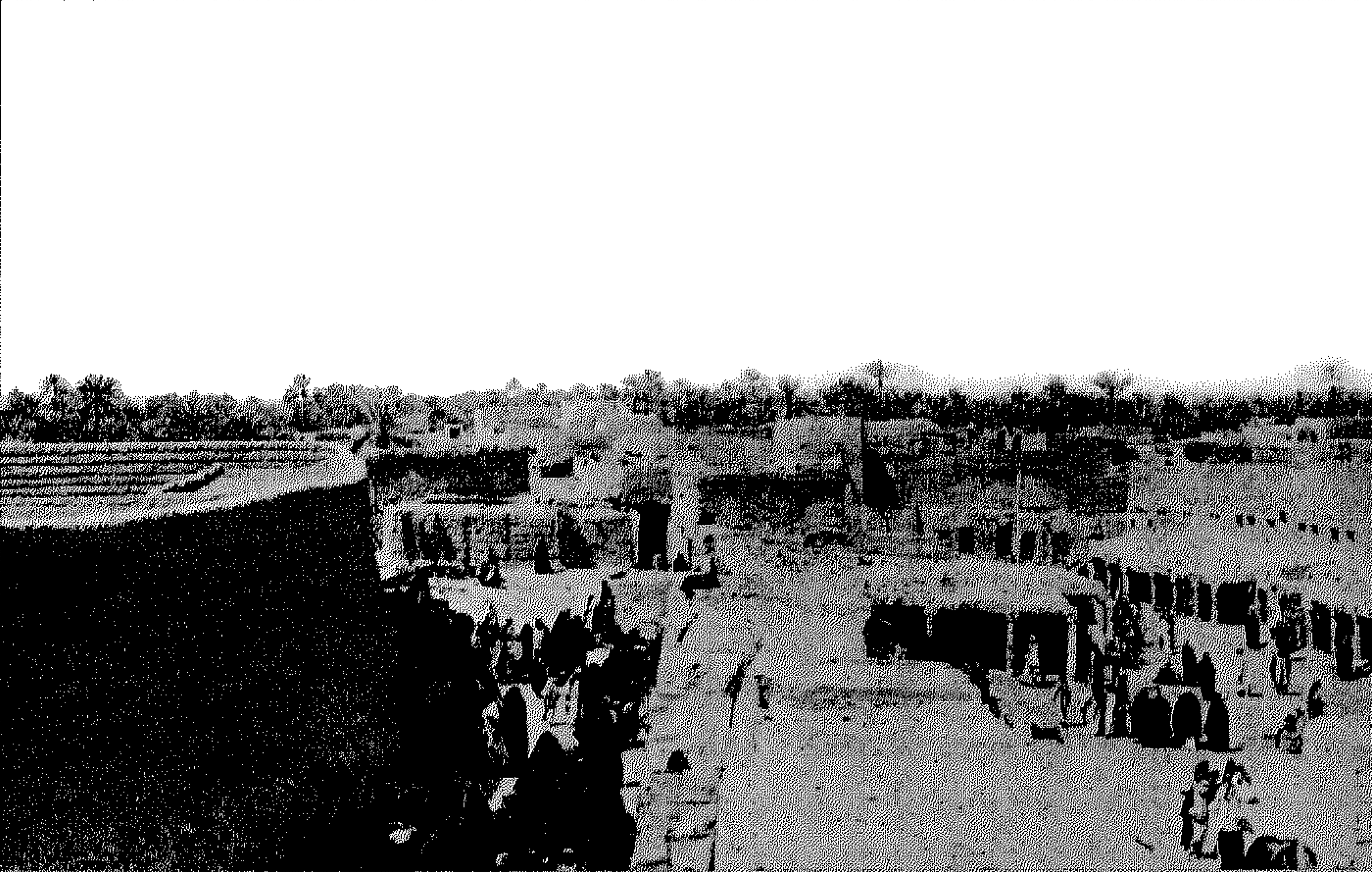
في الوقت نفسه وصلت حشود من الرجال و الجمال التي يجب تقسيمها على أفراد الحملة العسكرية التي كان عبد العزيز يستعد للقيام بها.. التقطت بعض الصور، كما رأيت عبد العزيز وهو يغضب أكثر من مرة.. فجأة نودي للصلاة في وسط الجمع، فالتأم الجميع مشكلين ثلاثة صفوف؛ فأم عبد العزيز المصلين. وكان الحضور على الأقل ٣٠٠ فرد أو أكثر.

تناولت العشاء مبكراً، ثم ركبت إلى داخل البلدة لتوديع بعض الأشخاص؛ فاكتشفت أن علي أن أسير مع البيارق صباح الغد.. عرجت على محمد، وقضيت عدة دقائق مع عبد العزيز في منزل سكرتيره حيث توارى عن الزحام؛ لمعرفة برنامج يوم غد.

وعدت إلى مخيمي وأعطيت الأوامر بالاستعداد للمغادرة صباح الغد، وأرسلت إلى سعد بندقيتي وخراطيش الذخيرة، وبدا أنه فرح بها. لم أدون ملاحظات هذا اليوم، وذهبت إلى النوم متأخراً.

الخميس ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٢هـ، ١٢ مارس ١٩١٤م.

استيقظت مبكراً، وتناولت الإفطار، وفككنا المخيم، فانطلقت مع ماضي لزيارة الإمام عبد الرحمن، فوصلنا هناك في الوقت الذي كان فيه ميدان وسط البلدة يكتظ بالجمال.. كان علي الانتظار نصف ساعة، ولكن عندما أتى الشيخ العجوز كان مسروراً أكثر من الزيارة السابقة.. تحادثنا طويلاً عن العلاقات فيما بين الحكومات الأجنبية وبينهم.. كان عبد العزيز في الميدان ينظم حملته، فأرسلني لأنتظره في الديوانية في الطابق العلوي.. راقبت السوق وهو يعج بالحركة، ولفت اهتمامي رجال يجهزون رماحهم، وأطناب خيام .. إلخ.. أخيراً بدأت الحملة بالتحرك بعد أن اشترى عبدالعزيز صفيحة من زيت النخيل وسجادة وتمراً.



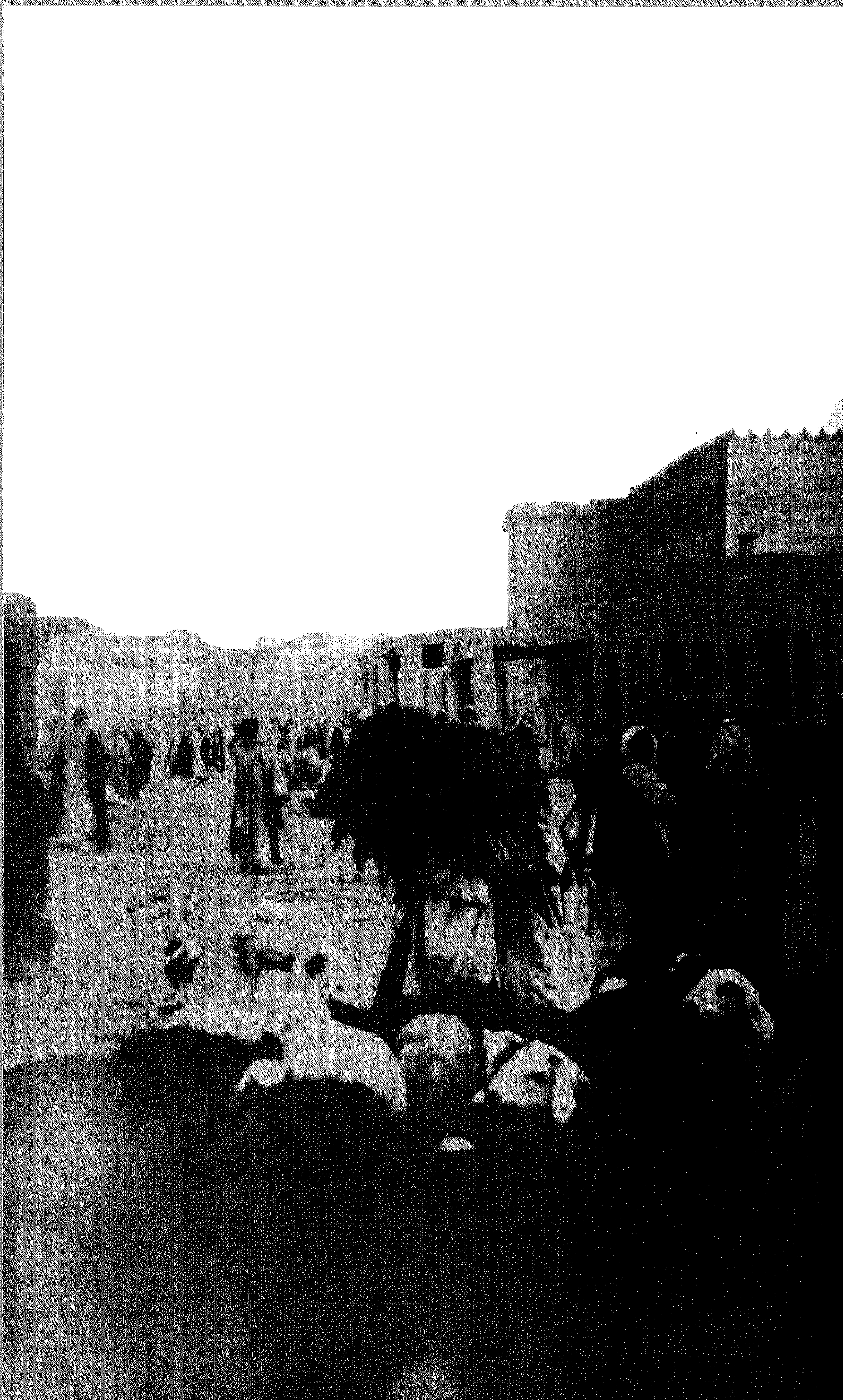
السوق الرئيسة بالرياض، وكان واضحاً الفصل بين مكان تسوق الرجال عن مكان تسوق النساء. شكسبير، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.



بول هاريسون ١٣٣٦هـ/١٩١٧م



سوق الرياض باتجاه الشرق حيث ميدان قصر الحكم الذي يبدو جزء منه على اليمين.
فيلبي، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م.



بـول هـاريسـون*

Paul W. Harrison

١٣٣٦هـ / ١٩١٧م

وصلنا إلى الرياض منتصف الليل تقريباً وبتنا طبقاً لعادة العرب خارج المدينة، ودخلناها في الصباح الباكر.. الهواء لطيف في تلك الأرض الصحراوية الجافة، وجولة في الصباح الباكر قبل أن ترفع الشمس حرارة الأرض أفضل من أي دواء.. سرنا عبر بوابات المدينة.. إنها قواعد تشريفات خطيرة ليسير الإنسان العادي تحت مثل تلك الظروف.. لم يوقفنا أحد وفي دقائق قليلة وصلنا إلى من اسمه في كل منزل في جميع الجزيرة العربية.. الرياض مدينة صغيرة يسكنها حوالي عشرة آلاف نسمة، وتحيط بها بساتين النخيل، ولكن الماء لهذه البساتين لا بد أن يسحب من الآبار التي يبلغ عمقها حوالي تسعين قدماً؛ ولذا فالعائد قليل.. إن ابن سعود يخطط أن يجلب محركات زيتية بعد أن تنتهي الحرب على أمل أن يتسع امتداد تلك البساتين بدرجة كبيرة.. يعيش الناس في هذه المدينة من أجل الآخرة.. المئات يدرسون في المساجد؛ ليعملوا مدرسين بين القبائل البدوية. إنه قلب نظام التعليم الديني الذي يقدم في كل قرية في وسط شبه الجزيرة العربية، وتنتشر مبادئ التعليم إلى حدٍّ كبير في الجزء الأعظم من السكان (الرجال) في البلدان المختلفة.. مجهودات عظيمة تبذل الآن لتعليم البدو.. الرجال يصلون خمس مرات يومياً في الرياض، وفي الشتاء تقرأ قائمة الأسماء في صلاة الفجر، وفي صلاة العشاء أيضاً، ويجازى المتغيبون بعشرين جلدة في اليوم القادم.. العَشاء المتأخر غير معروف، وتؤخذ وجبة المساء قبل ساعة من غروب الشمس، ولذا يمكن أن يكون هناك وقت للقراءة الدينية والراحة قبل الذهاب إلى النوم، وهذا هو البرنامج المعتاد في بيت الرئيس العظيم نفسه.. أقمنا في الرياض مدة عشرين يوماً، ودعينا لنقيم مدة أطول، ولكن مخزوننا من الأدوية استهلك أبكر كثيراً مما توقعنا.. جاء الناس في تجمعات كبيرة، وفي بعض الأيام يتعارك أكثر من ثلاثمائة من أجل الدخول، وكان مستحيلاً المحافظة على النظام، وكانت النتائج أحياناً ممتعة.. ومع ذلك، عالجنا من استطعنا، وفي وقت لاحق نأمل أن نأخذ مساعدة أخرى، وننجز أكثر.

* بول هاريسون طبيب أمريكي رأس بعثة تنصيرية مقيمة في البحرين لعدد من السنين، وكان يحاول منذ عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م الحصول على الموافقة البريطانية على زيارة الرياض و لم يسمحوا له إلا في عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م بناء على دعوة من الملك عبد العزيز لمعالجة الأمراض المنتشرة في نجد، وقد وصلها في منتصف الشهر السابع من عام ١٩١٧م. وقد زار نجداً عدة مرات بعد ذلك. كتب هاريسون عن زيارته إلى الرياض مقالة نقتبس منها ما خص به الرياض.. حول زيارته انظر: Paul W. Harrison, al- Riadh, the Captial of Nejd. The Moslem World, Vol. 8, 1918, PP. 417-419



آر. إي. إيه. هاميلتون ١٣٣٦هـ/١٩١٧م





آر. إي. إيه. هاميلتون*

R. E. A. Hamilton

١٣٣٦هـ / ١٩١٧م

في ٢٧ محرم ١٣٣٦هـ الموافق الثالث عشر من نوفمبر ١٩١٧م بلغنا مشارف الرياض عند الساعة التاسعة إلا الربع صباحاً، وعلى بعد ميلين خارج الرياض وبجوار شجرة ضخمة قابلنا عبد العزيز الربيعي وخمسة فرسان حيث قاموا باستعراض فروسية أمامنا لكن دون إطلاق أعيرة البنادق.

عندما وصلنا إلى الرياض جرى استقبالنا عند بوابات القصر، واتجهنا إلى المجلس حيث يجتمع كبار الشيوخ.. بعدئذ جرى حديث خاص في مكتب ابن سعود ثم تناولنا طعام الإفطار، وفي الساعة الثانية بعد الظهر توجهت لزيارة الإمام عبد الرحمن بن سعود، وهذا هو لقبه، وهو شيخ ذو لحية بلون الزعفران يناهز السبعين من عمره، وله شخصية جذابة.. أرشدنا البعض إلى غرفة استقبال مضيئة ذات سقف عال يرتكز على ثلاثة أعمدة والأبواب في نهايتها بزوايا مستطيلة عكسية.. أما النوافذ فكانت مثلثة الشكل في أعلى الجدران، وهي تسمح بدخول الضوء الكافي.. الأرضية مغطاة بالسجاد الجيد كما تمتد الوسائد بطول الجدران.

جرى حديث طويل تناول بصفة أساسية الأمور السياسية العامة..والإمام عبد الرحمن شاحب اللون له عينان سوداوان صافيتان تنطقان بالصدق والحكمة..لقد سحرتني دماثة الإمام، وكان ذلك نفس شعور كل المرافقين لي الذين أجمعوا على شدة براعته.. عدنا إلى القصر عبر الحصن[١] الذي تمكن عبد العزيز ورفاقه المخلصون من بسط السيطرة عليه عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م. وشاهدنا آثار طلقات نارية[٢] في إطار الباب الضخم.. كان يكمن في الحصن سبعون من المدافعين الذين استسلموا بعد سقوط عشرين منهم ما بين قتيل وجريح.. دار حديث طويل مع الأمير في حجرته الخاصة، وقدم لنا الشاي صبي لطيف. قدم علينا عبد الله الحكيم طبيب شاب من الموصل حصل على درجته العلمية من القسطنطينية، وهو شاب وسيم يشبه الفرنسيين يبلغ الثلاثين من عمره.. يتحدث الفرنسية بطلاقة.. حضر كذلك أحمد بن ثنيان من أسرة آل سعود، وهو شاب يبدو في طلعته أكبر سناً من عمره

*آر. إي. إيه. هاميلتون الوكيل السياسي لبريطانيا في الكويت في عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م. زار الرياض بتكليف من المندوب السامي البريطاني بالعراق لمناقشة العلاقات السعودية الكويتية، والمعلومات الواردة عن الرياض مقتبسة من يومياته المنشورة باللغة العربية، انظر حولها:
يوميات هاميلتون عن رحلته إلى نجد ١٣٣٥هـ - ١٩١٧م، ترجمة: عصام ضياء الدين السيد علي، الرياض: دارة الملك عبد العزيز - ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(١) حصن المصمك.

(٢) أهم أثر في باب المصمك رأس الحربة التي مازالت باقية فيه حتى وقتنا الحاضر، ولا يستبعد مشاهدته لآثار طلقات نارية لأنه قريب العهد باسترداد الرياض بينما في الوقت الحاضر لا نتبين أي أثر لما ذكر.



الرحالة البريطاني هاميلتون.
١٣٣٦هـ/١٩١٧م.

الحقيقي، وتطل من عينيه مودة، ويتقن الفرنسية جيداً، وكان مولده في القسطنطينية.

خرجنا بعدئذ للمدينة وزرنا بعض المحلات التجارية.. ولم تكن نوعية البضاعة جيدة، قمنا بمعاينة الجمال وقصدنا حملة القافلة، ثم إلى عبد العزيز الذي يملك بيتاً في نهاية السوق.. تناولنا القهوة، وبعد تناول طعام الفطور خلوت إلى العمل حتى الواحدة بعد الظهر، ثم امتطيت جواداً إلى إحدى حدائق الأمير في صحبة عبد العزيز الربيعي وفارسين آخرين، وتناولنا القهوة في الحديقة، وشاهدت بئراً ضخمة لكن المياه فيه على مسافة ١٠٠ قدم تحت السطح، ويجري رفعها بواسطة حمير كبيرة تتقدم تدريجياً فوق وأسفل المنحدر على كلا الجانبين، وتُكلِّف صيانة البئر مائتي دولار شهرياً.. توجد أشجار الفاكهة من كل نوع، وكذلك الفلفل الحار والباذنجان.

وفي الخامس عشر من نوفمبر حضرت مجلساً في مكتب ابن سعود.. وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر انطلقت مع ابن سعود ومعظم عائلته على ظهور الخيول، وأدى ابن سعود من على ظهر جواده أسلوباً من رقصات الحرب وبعد العدْو بالخيول في حلقة دائرية لمدة نصف ساعة عمدنا للجلوس مستندين على جدار من الطين للتعرض قليلاً لأشعة الشمس بينما نزعت السروج من على ظهر الجياد، وأخذت في الدوران على الرمال.. صوَّب ابن سعود رصاصتين من مسدسه وعشر طلقات من بندقيته على علامة بعد أن وضع حجراً على مسافة ١٥٠ ياردة. ثم عدنا في موكب بعدئذ إلى المدينة.. بعد تناول العشاء ذهبنا حوالي الثامنة مساءً إلى الأمير كالمعتاد ..ومكثنا حتى العاشرة والنصف مساء ثم آوينا إلى الفراش.

في السادس عشر من نوفمبر توجهت للمجلس الساعة الثامنة و النصف صباحاً حيث وجدت الأمير بمفرده، ثم انطلقنا بالجياد حول الرياض التي تعد صغيرة نسبياً، واجتزنا إلى خارج قرية منفوحة، ولوحظ أن مجرى سيل وادي حنيفة صخري للغاية.. هنا من غير الممكن أن تكون الرياض أكبر من شقراء ولو أنهم يقولون خلاف ذلك.

في السابع عشر من نوفمبر في الساعة الثامنة انطلقت مع ابن سعود راكبين الخيول لملاقاة تركي[1] الذي أطلق مع فرسانه أعيرة بنادقهم ومسدساتهم لدى مرورهم أمام ابن سعود الذي كان جالساً على حافة بئر في ظل جدار، وقد تكرر هذا العَدْو بالخيول أمام ابن سعود ثلاث مرات، ثم تبودلت التحيات والعناق تبعاً لحرارة اللقاء، بعد ذلك عدت إلى المدينة حيث كان لدى مقابلة الثامنة مساء كالعادة مع ابن سعود الذي شبّه طبيعة العرب ببلادهم؛ فبين حين وآخر تحدث سيول عارمة تكتسح أمامها كل شيء، الأبنية والحدائق والمنازل إلى أسفل الوادي.

(١) هو تركي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن.. ويعرف بتركي الأول، ولد عام ١٩٠٠م في الكويت وتوفي عام ١٩١٩م/١٣٣٧هـ في السنة المعروفة بسنة الرحمة.

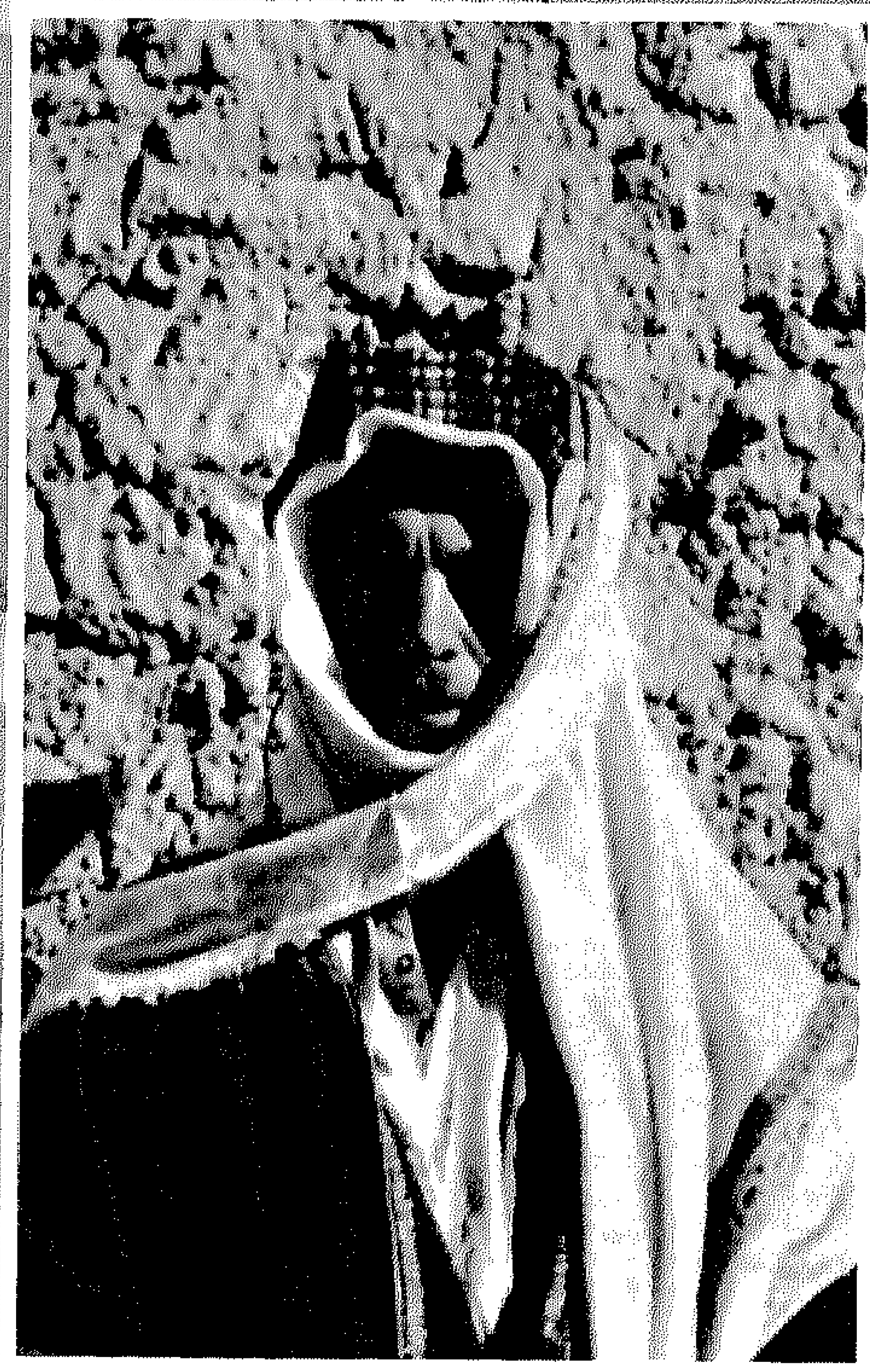
في التاسع عشر من نوفمبر امتطينا الجمال إلى منفوحة، والتقطنا بعض الصور الفوتوغرافية.. الحدائق بهيجة في الرياض. تناولت القهوة مع ابن حسين والرفاق في منزل أعطاناه ابن سعود في نهاية السوق، وفي العشرين انطلقنا راكبين إلى منفوحة، والتقطنا بعض الصور لنهاية الجزء الشرقي من المدينة.. لوحظ أن الخرائب الواسعة والأسوار القديمة من المدينة السابقة آخذة في الانحسار تدريجياً.

في الحادي والعشرين من نوفمبر قمت بنزهة خلوية في معية ابن سعود تكريماً لي في منخفض بوادي حنيفة جنوبي الرياض[١]، وفي الرابع والعشرين ركبنا في الصباح إلى منفوحة. التقطنا بعض الصور، وبعد الفطور احتسينا القهوة مع الرجال في منزل بالمدينة، وبحثنا عن الأشياء الغريبة في السوق.. بعد ظهر الخامس والعشرين اصطحبني إبراهيم وخضير وانطلقا راكبين نحو الشمال إلى شعب صخري على تل يسمى الحريقة[٢].

في الخامس من ديسمبر، غادرت الرياض الساعة السابعة وعشر دقائق صباحاً؛ وتناولت الفطور في العاشرة، ثم استأنفنا السير بعد نصف ساعة باتجاه الشمال الغربي. الأرض مكشوفة خالية من الشجر، صلبة وطَفْلِيَّة.

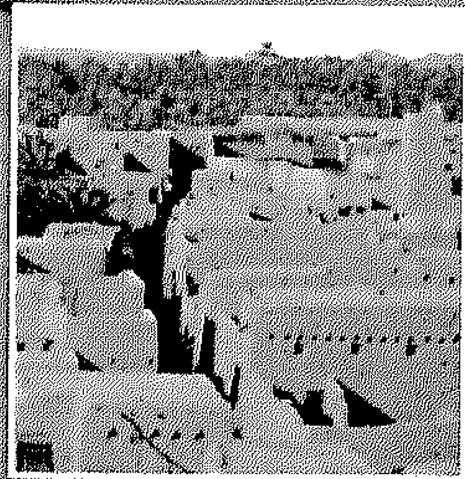
(١) لعل هذا المنخفض هو ما يعرف بمنطقة المصانع الحالية.

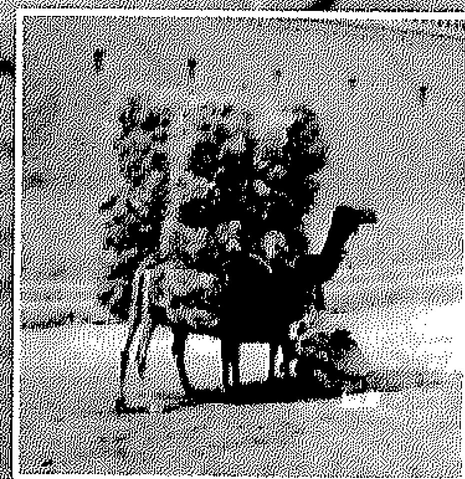
(٢) شعب من روافد وادي حنيفة يقع بين قريتي (العلب) و(العودة) وفي شعب الحريقة هذا جرت المعارك الأولى بين أهل الدرعية وجيش إبراهيم باشا الغازي وتكبد فيه جيش الغزاة خسائر كبيرة. ولا يزال يعرف بهذا الاسم وهو الآن مليء بالمزارع الحديثة ويقع في مدينة الدرعية.



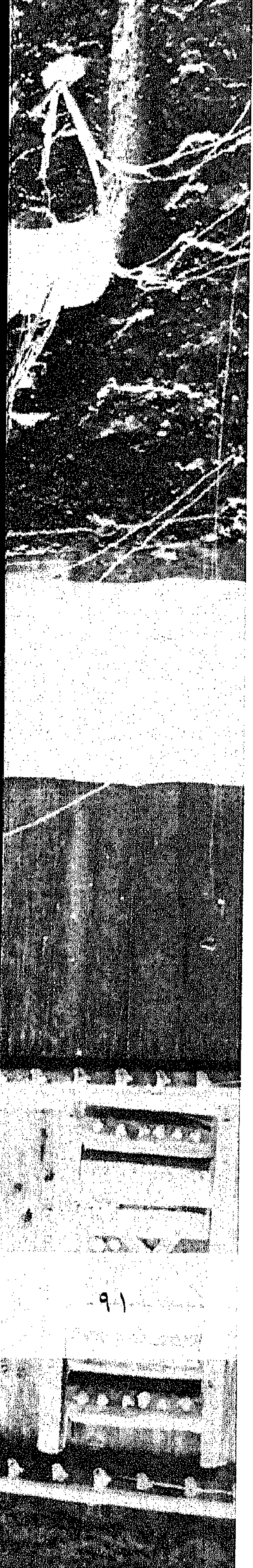
هاري سانت جون فيلبي

٣٦-١٣٣٧هـ / ١٧-١٩١٨م









هاري سانت جون فيلبي*

(عبدالله فيلبي)

H. st. J. B. Philby

١٣٣٧-٣٦هـ / ١٧-١٩١٨م

عندما نزلنا من على ظهور رواحلنا ووقفنا على قمة السلسلة الجبلية مستمتعين بالمشاهد الواقعة أمامنا ومغمورين بتفاصيلها، قدم نحونا ثلاثة فرسان ممتطين خيولهم.. بعد تبادل السلام والتحية المعتادة، بدأنا جميعاً بركوب مطايانا والتحرك ببطء من خلال انحدار سفح الجبل متجهين نحو بساتين النخيل...وفي منتصف الطريق المنحدر تبين لنا وجود مجموعة من الأعراب، منتظرين وصولنا. وعند الاقتراب من هذه المجموعة برز إلينا رئيسهم مرحباً بمقدمنا، وبالحال اتضح لنا أنه الكولونيل هاميلتون، المندوب السياسي في الكويت، الذي وصل إلى الرياض عن طريق القصيم قبل ثلاثة أسابيع من وصولنا. بهذا الجمع توجهنا جميعاً إلى أطراف المدينة حيث يوجد حزام من أشجار النخيل حولها، وهنا توقفنا انتظاراً لفتح بوابات المدينة المغلقة، إذ كان لا يسمح بالدخول أو الخروج من المدينة في وقت الظهيرة لكون اليوم هو يوم الجمعة وجميع السكان من الرجال كانوا مجتمعين في الجامع الكبير لأداء صلاة الجمعة. ترجلنا على طريق ترابي يوصل ما بين بساتين النخيل المسورة، وجلسنا منتظرين في ظلال جدار عال من جدران أحد البساتين حتى تفتح الأبواب. وأثناء ذلك كانت هناك أصوات منبعثة بفعل جلب الماء من أحد الآبار المجاورة، وهذه الأصوات المشابهة لصوت العويل المخيف كسرت حدة السكون المطبق والمشهد الجامد.. وفجأة كانت هناك حركة بدت كالأوراق المتساقطة من الأشجار، وتبين لنا بعدئذ أن البوابات تم فتحها، وبدأت الحياة تدب من جديد بعد أن كانت تبدو شبه ميتة، وعلى اثر ذلك قمنا من مقامنا وتمت تسوية سروج دوابنا، فامتطيناها متوجهين مرة أخرى إلى الأمام من خلال ممر ضيق يخترق البساتين المسورة، وبنهايته وصلنا إلى ساحة متسعة ومفتوحة لنجد أنفسنا ونحن ننظر من فوق أسوار الرياض، وقبل الوصول إلى المدينة كانت تنتشر خيام البدو السوداء المتناثرة هنا وهناك، وهي التي شققنا طريقنا وسطها باتجاه البوابة الشمالية، وعبرنا البوابة، وواصلنا سيرنا عبر طريق ترابي بالقرب من الحصن

---

* هاري سانت جون فيلبي موظف حكومي بريطاني بدأ حياته الوظيفية في الخدمة المدنية البريطانية بالهند.. عمل في الإدارات البريطانية في العراق وشرق الأردن، واختار المملكة العربية السعودية موطناً له بعد تركه الخدمة الحكومية البريطانية، وأعلن إسلامه، وتسمى باسم عبدالله ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م. ترحل كثيراً في الجزيرة العربية، وكتب كثيراً عن رحلاته وتجاربه في المملكة من خلال كتب أصدرها أو مقالات نشرها.. توفي في بيروت عام ١٩٦٠م، وزار الرياض لأول مرة عام ١٩١٧م/١٣٣٦هـ على رأس بعثة سياسية بريطانية إلى الملك عبد العزيز.. وما أورده عن الرياض في هذا الجزء من الكتاب هو ما كتبه عن رحلته تلك التي امتدت إلى عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م في المملكة، وزار الرياض بعد ذلك عدة مرات، وأخيراً استوطنها.. انظر حول ما كتبه عن الرياض في زيارته الأولى: H. St.J. B. Philby, the Heart of Arabia: A Record of Travel and Exploration, Vol. 1. London and New York: G. P. Putnam's Sons, 1923, PP. 62- 107.

والأبـراج، وكـانـت جـمـوع مـن المارة الـقـادمين للتو خارجين من الجامع يرمقوننا بنظراتهم ونحن نتابع سيرنا ببطء نحو ساحة القصر المكتظة بالناس، وهناك أنخنا مطايانا بالقرب من بوابة القصر، ومن ثم دلفنا إلى داخله، وبدخولنا إلى القصر بصحبة إبراهيم مررنا عبر ممر مزدحم يؤدي إلى ساحة داخلية، من ثم صعدنا درجاً يقف على جانبيه العبيد المسلحون ورجال الحرس.. بعدئذ مررنا عبر دهليز ضيق أفضى بنا إلى ردهة مفتوحة مؤدية إلى الديوان الملكي.

ولجنا بعد خلع أحذيتنا عند عتبة المجلس، إلى داخل غرفة واسعة مربعة الشكل؛ وكان في استقبالنا رجل مسن يتصف بقوة البنية وقصر القامة، حاد الملامح، ذو عينين براقتين.. وحيانا بحرارة ومودة، وأشار لنا بأخذ أماكننا على تلك المجالس الوثيرة في زاوية من زوايا الغرفة وبالقرب من نافذة مفتوحة.

وقد أدركت بعامل الغريزة وجود شخص آخر بالغرفة كان يقف بعيداً خلف العمود الأوسط، عند دخولنا الغرفة، كان جليل المظهر، معتدلاً، طويل القامة، مرتدياً ثياباً بيضاء فضفاضة وعباءة باللون البني الفاتح، وذا وجه رجولي معبر، إن هذا الرجل هو ابن سعود (عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود) إمام الدعوة الوهابية وحاكم بلاد الوهابيين.. أما الرجل الأول فإنه أبوه الإمام عبد الرحمن.. إنها المرة الأولى والأخيرة التي أرى الابن مع أبيه بموقف واحد.. ولحسن الطالع صادف وصولنا إلى الرياض يوم الجمعة؛ فتم لنا مشاهدة اثنين من الأنظمة المرعية من قبل النظام الوهابي، وهذان النظامان هما إغلاق بوابات المدينة وقت الصلاة، والتقيد الدقيق بمبادئ الأسرة وتقاليدها على نحو يصعب أن نجد له مثيلاً؛ فكان الإمام العجوز قد درج في أيامه الأخيرة وبعد أن تقدم به العمر على أن يقوم كل يوم جمعة بعد أداء الصلاة بزيارة رسمية إلى ابنه بالقصر، وفي هذا اليوم صادف وصولنا لحظة زيارة الإمام.. ونظراً لقدومنا إلى هذه البلاد كبعثة من الحكومة البريطانية فقد تم استقبالنا وإكرامنا في المجلس الرسمي وبين يدي الإمام الأب، بينما كان ابن سعود جالساً في ركن قصي وهو يذل نفسه ويتواضع طاعة لما أمر به الله.. وفي هذه البلاد لا يتعمد الابن الدخول إلى الغرفة العلوية بينما أبوه موجود في الغرفة السفلية.. وفي الحياة العامة عند مقابلة المواطنين فإن الابن بحضرة أبيه يجلس في مكان منخفض، وهذا ينطبق على الأمير والتابع على السواء.

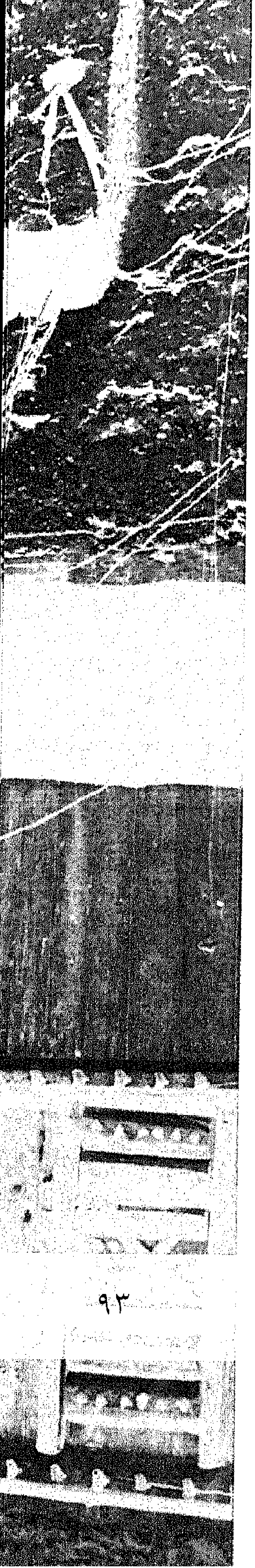
اتخذ الإمام عبد الرحمن مجلسه بالقرب من النافذة مشيراً لنا بالجلوس على المقاعد التي بجانبه، وأحضر خادم الشاي ثم القهوة، وكان الخادم يقوم بخدمة الإمام في كل مرة أولاً، ومن بعده خدمتنا نحن، ثم يذهب بعد ذلك ليصب لابن سعود، وكانت المحادثة في مثل هذه الظروف ذات طابع شكلي، وتطغى عليها صبغة المجاملة.. وبعد دقائق قليلة نهض الإمام عبد الرحمن من مجلسه مودعاً لنا وهو يعلق بأننا لا بد أن نكون مجهدين بعد رحلتنا الطويلة والمضنية، ثم سار إلى خارج الغرفة بهدوء تام.. ونهض ابن سعود وجلس في مجلس والده، وبدأت أكواب الشاي والقهوة تدور من جديد،

وقدمت بالبداية لابن سعود، ثم قدمت لنا، وتبادلنا المحادثات الثنائية؛ فشكرته على الترتيبات التي أمر بها من أجل تسهيل رحلتنا، كما باركت له حُسن إدارته لمملكته ونجاحه في توفير الأمن والاستقرار بها.. ومن جانبه أبدى لنا شعوره بالسعادة لاستقبال بعثات الحكومة البريطانية، وسأل عن حال وصحة العديد من الأصدقاء الذين قابلوه وتعرف عليهم خلال رحلته إلى البصرة في العام الماضي، وفي نهاية حديثه اقترح علينا أن نخلد إلى الراحة بعد عناء رحلتنا.

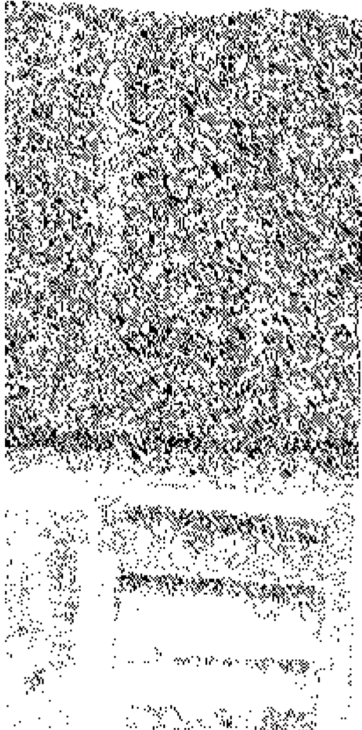
وبعد الاستئذان منه صاحبنا إبراهيم إلى مقر إقامتنا الذي كان الكولونيل هاميلتون [الذي ورد ذكره سابقاً] يقيم به قبل وصولنا، وهو جناح يتكون من ثلاث غرف وحمام وكانت بالدور العلوي من فناء واسع يشكل جزءاً من الجناح الشرقي للقصر، ويفصله عن المجلس العام فناء مكشوف رباعي الشكل، وفي هذا الفناء يوجد سلم يقود إلى بابنا الخاص. أما بقية الغرف المطلة على الفناء فيقطنها خدم القصر بعوائلهم.. والأبواب التي تؤدي إلى مكان إقامتنا مغلقة بإحكام تام.. أما السلم الخارجي فيعد مدخلاً خاصاً لابن سعود شخصياً، والأبواب الداخلية تستخدم لدخول الخادمات، ويتكون سكننا من غرفة رئيسة واسعة يحمل سقفها ثلاثة أعمدة، بها حاجز أو فاصل يمتد ليشمل ثلثي عرض الغرفة المجاورة للباب الداخلي، ويستخدم لعزل الداخل عن أنظار العامة عندما يفتح الباب لدخول الخدم.. يبدو أن هذه الغرفة كانت بمثابة صالة استقبال؛ إذ يوجد داخلها باب يؤدي إلى غرفة نوم مربعة وصغيرة .. والغرفة الثالثة كانت صغيرة ومستطيلة الشكل، وتبدو غير ضرورية، وتؤدي (شأنها شأن الحمام) إلى صالة صغيرة عند الطرف الأعلى للسلالم الخارجية. والحمام يتكون من ردهة صغيرة تؤدي إلى غرفة الاستحمام، وخلفها المرحاض الذي هو غرفة صغيرة بها برج لقضاء الحاجة، ومصطبة طينية مرتفعة قليلاً تخرج منها قناة تنحدر إلى أسفل حتى تنتهي إلى حفرة في الوسط.. ويحتوي الحمام على آنية نحاسية للماء، أما بقية الغرف فهي مفروشة بالسجاد والبسط والمساند مع وجود بعض الكراسي المهترئة والمكسوة بقماش المخمل وربما جلبت تلك الكراسي بقصد راحتنا.. هذا المسكن هو ما يمكن أن أطلق عليه بالجناح الفاخر في الرياض، وهو الذي سوف أمكث به لمدة تصل إلى سبعين يوماً خلال الأشهر المقبلة.

وعلى أثر وصولنا أقيمت مأدبة سخية تناولناها على الأرض، جلسنا بشكل دائري حول بساط وضعت فوقه الصحون المتعددة الأصناف والمملوءة بالخضراوات الشهية، وفي الوسط وضع صحن مليء بالأرز واللحم.

ومنذ اليوم الأول لوصولي كنت قد ألقيت نظرة من مكان مرتفع باتجاه كل جانب من جنبات سهل الرياض، وقد كان هو نفسه من كافة النواحي عبارة عن مشهد قاتم اللون لأشجار النخيل بخلفية صحراوية ما عدا الجهة الجنوبية؛ فنتيجة لانحدار الوادي في ذلك الاتجاه كان يمكن رؤية امتداد الواحتين المخضرتين، وكأنها على









سوق الرياض، وظهر ركن الجامع
الكبير الذي يعلو فوق المتاجر.
فيلبي، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م.

شكل معين واسع في بطن وادي حنيفة، وهما منفوحة والباطن.

أما واحة الرياض التي يفصلها عن منفوحة الحزام الصحراوي الذي سبق ذكره، وعن الباطن منحدر طويق، فتمتد من الضفة اليسرى لوادي حنيفة عند نقطة بالوسط ما بين الاتجاهين الشماليين من أعلى خليج أو مجرى ضحل يشكل جزءاً من مجرى الشمسية، وهو تقريباً ذو شكل منحرف بزوايا متجهة نحو الجهات الأربع الأصلية، وطوله من آخر الطرف الجنوبي إلى حديقة الشمسية في الشمال يبلغ ثلاثة أميال تقريباً، وعرضه في أوسع جزء منه يقل عن ميل واحد، وتنتشر بساتين النخيل بكثافة في كافة جنباتها، ما عدا الجانب الشمالي الشرقي حيث توجد أعداد قليلة من البساتين المتناثرة التي يظهر جبل أبو مخروق من خلالها، ويجري شعيب الشمسية (وهو الشريان الرئيس للواحة) إلى الأسفل نحو الحديقة التي تحمل نفس الاسم، ومن ثم يستمر مجرى الوادي مروراً بالسور الشرقي للمدينة ومتجهاً نحو منفوحة.

لقد شُيِّدتْ مدينة الرياض على لوح منخفض من الصخور الجيرية المنحدرة من أطرافها كافة من هضبة مركزية ينتصب عليها بشموخ، وعلى ما حوله من المنازل كالقصر الملكي.. كانت خريطة بالجريف للرياض– وهي خريطة تعني أكثر من رسم كروكي تقريبي من الذاكرة – يعطي المدينة شكلاً متوازي الأضلاع تقريباً مع انبعاج ظاهر إلى الداخل من الزاوية الشمالية الشرقية، ويمتد من الشرق إلى الغرب بطول يزيد بمقدار الضعف عما عليه امتدادها من الشمال إلى الجنوب.. وربما كانت هناك بعض التغيرات في مخطط المدينة خلال نصف قرن شهد الكثير من النزاعات والاضطرابات– إلا أن المخطط يظل غامضاً وتنقصه التعاريف، وعلى الرغم من وجود بعض التفاصيل الداخلية الممتازة، إلا أنها في أغلب الحالات تبدو تخيلاً للرياض الحديثة أكثر منها وصفاً واقعياً قام به رحالة جعل المدينة على شكل "L" ووضع القصر في زاوية هذا الحرف.

لقد أمضيت الكثير من الساعات السارة بصحبة بوصلتي ودفتر مذكراتي في قياس أسوار المدينة، محاولاً الوصول إلى الشكل الصحيح لها واتجاهها وأبعادها، وكانت حصيلة عملي، الذي أعيق كثيراً بسبب الشكوك التي أثارها بعض السكان، إنجاز تلك الخريطة المرفقة للرياض، التي توضح بأن الرياض ذات شكل غير منتظم له أضلاع عديدة، وبالقليل من الخيال فإنها تقترب من شكل مثلث متساوي الأضلاع، بقاعدة يزيد طولها على ستمائة ياردة من الجهة الشمالية ورأسه الى الجنوب، وبمساحة تبلغ حوالي مائة هكتار، وبشوارع تتقاطع باتجاه وسط المدينة، الذي يشكل منطقة دائرية أوشبه دائرية، يقع القصر في وسطها.

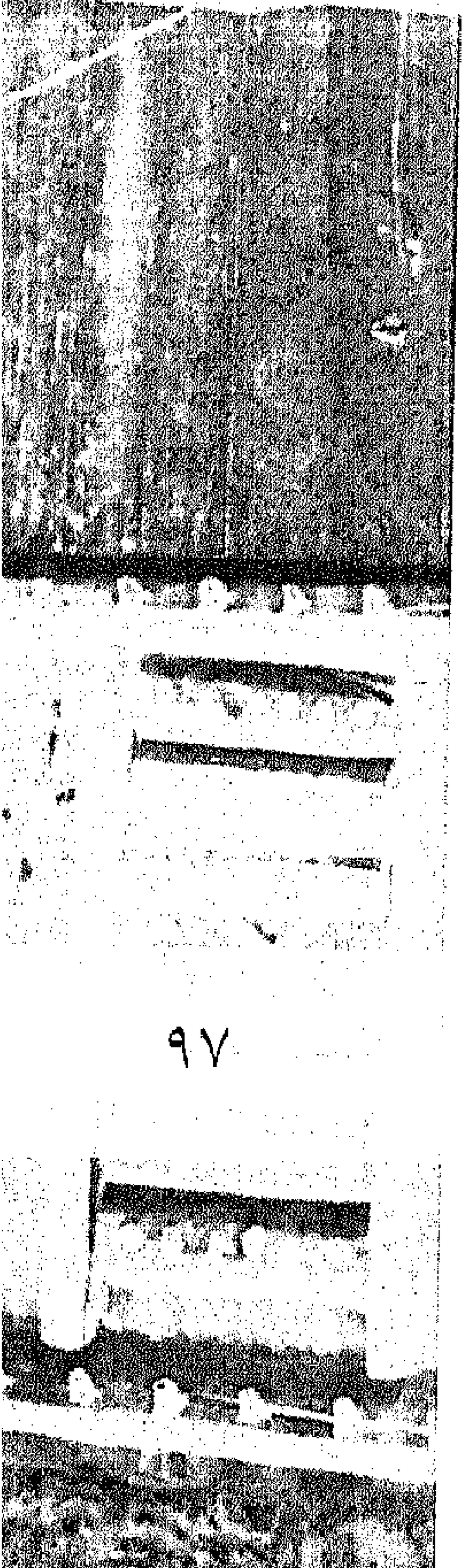
ويحيط بالمدينة سور سميك من الطوب الطيني يبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين قدماً تقريباً، وتعلوه حافة ذات تصميم شبيه بأسنان الحوت.. وتوجد أبراج ضخمة على امتداد السور على مسافات متفاوتة، وأبراج أخرى للحراسة أقل حجماً.. وتأخذ هذه الأبراج الشكل الدائري في غالبيتها، وتتناقص أقطارها تدريجياً كلما



ارتفعت إلى الأعلى، وهناك البعض الآخر منها يأخذ الشكل المربع أو المستطيل، وتتراوح ارتفاعاتها من ثلاثين إلى أربعين قدماً، وهي عامة تبرز قليلاً من خارج مسار السور للتمكين من عمليات الدفاع... ويغلب على الكثير من الأسوار وتحصيناتها الدفاعية أنها حديثة التصميم، وخاصة أجزاؤها الشمالية والشرقية؛ حيث أن احتلال ابن رشيد للعاصمة تميز بتدمير دفاعاتها، وهي حقيقة أثبتت أخيراً أنها مكنت ابن سعود من الدخول إلى المدينة عبر ركامات سورها دون أن يلاحظه أحد. ويبدو من ملاحظة ضخامة وصلابة السور وتحصيناته، وخاصة في أطرافه الغربية والجنوبية، وأيضاً من وجود أحواض تشبه الخنادق: أنه جزء من التحصينات الأصلية التي يمكن تأريخها بعصر التنافس المتكافئ بين منفوحة والرياض، ومن الممكن تعزيز هذا الانطباع بوجود تلك المجموعات من الخرائب التي يمكن أن تكون هِجَراً أو مراكز أمامية محصنة والواقعة في الجهة الجنوبية والغربية من أطراف الواحة.. وأثناء القيام بتشييد هذه المجموعات البنائية تم استخدام الكثير من الأحجار الجيرية المجلوبة من المنحدرات المجاورة، وذلك دون استخدام مونة طينية.. ومن الملاحظ أيضاً أن معظم بساتين النخيل بالمستوطنة (وخاصة المنظمة والمثمرة منها) تعانق الأجزاء العلوية من السور؛ مما يبدو معه أن الأسوار كما هي الآن تحدد اتساع المدينة في هذا الاتجاه.

وتشير الدلائل إلى وجود مجموعة ضئيلة من الخرائب يطلق عليها اسم حَجْر اليمامة تبعد حوالي ربع ميل إلى الشمال الشرقي للمدينة الحديثة باتجاه حديقة الشمسية؛ بوصفها الموقع الأصلي للرياض إلا أن قلة امتداد هذه الخرائب قد يبرر الاستنتاج القائل بأن الموقع لم يكن أكثر من تلك القرية الصغيرة التي يعود تاريخها إلى الأيام التي سبقت نشوء الرياض، عندما كانت منفوحة سيدة هذا السهل بأكمله دون منازع.

ويحتوي سور المدينة على تسع بوابات[1] توقف استخدام بعضها بصورة منتظمة، وبعضها يستخدم فقط للدخول والخروج إلى بساتين النخيل المسورة الواقعة في محيطها.. أما البوابات الأخرى فأهمها بوابتا الثميري والظهيرة، وتقع الأولى على الجانب الشرقي من المدينة، وتعد المنفذ الرئيس للدروب المتجهة إلى الشمال والشرق، وأيضاً للدرب الجنوبي المتجه إلى منفوحة، بينما تقع الثانية في الزاوية الشمالية الغربية وهي منفذ للدرب المتجه نحو الوشم والقصيم إلى درب الحج الغربي المتجه إلى مكة المكرمة.. وتأتي في الدرجة الثانية من ناحية الأهمية بوابتا دخنة والمريقب، وبوابة ثالثة تقع بينهما لا تحمل اسماً.. وهذه البوابات الواقعة في الجنوب الغربي تعد منفذاً لجميع الدروب الجنوبية والجنوبية الغربية.. وهناك أيضا بوابة البديعة المؤدية إلى الباطن، وبوابة الشمسية المؤدية إلى الدرب الشمالي.. والشوارع الداخلية للمدينة تفتقد التنسيق والتنظيم بينها ما عدا ذلك الالتقاء الطبيعي لها الذي سبق ذكره عند وسط المدينة.. أما الشارع الرئيس بها فهو ذلك الذي يربط بوابة الثميري بالقصر، ومن القصر يعبر إلى



(١) هي الثميري، آل سويلم، الظهيرة، المريقب، سلام، دخنة، منفوحة، القري، البديعة، وبوابة أخرى هي بوابة المذبح وتقع بين بوابتي القري ودخنة.

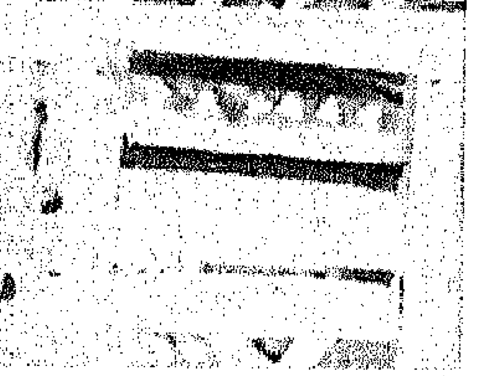
السوق، ومن ثم إلى بوابة البديعة، ولهذا الشارع تفريع ينطلق بزاوية قائمة من الطرف الغربي للسوق حتى يصل إلى بوابة الظهيرة.

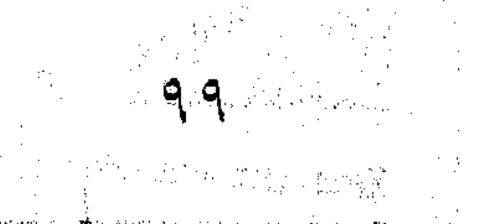
ويحتل السوق تلك الساحة المكشوفة الواقعة إلى الشمال من القصر، وللسوق انحدار خفيف بالاتجاه الغربي، وتزداد حدة انحداره بالأسفل.. تم تقسيم السوق إلى قسمين عن طريق جدار فاصل بينهما؛ فالقسم الواقع ما بين هذا الجدار الفاصل والقصر مخصص للنساء إذ يوجد به بائعات الخضراوات والأغراض المنزلية وما شابهها.. أما القسم الثاني (وهو أكبر مساحة) فيحتوي على ما لا يقل عن ١٢٠ محلاً متواضعاً رتب البعض منها على جانبي الطريق العام العريض، والبعض الآخر يقع على جزيرة ضيقة وغير طويلة بوسط السوق.. ويستند جزء من المحلات الواقعة شمال السوق إلى الجدران الخارجية لبعض المساكن، بينما بعض المحلات الأخرى تستند إلى الجدار الجنوبي للجامع الكبير.. ويظهر السوق بشكل حيوي خلال أيام التسوق، وخلال ساعات الذروة في الأيام العادية، وتعرض محلاته مختلف أنواع البضائع والأدوات اليدوية التي تختلف عن البضائع المستوردة، والبضائع الخاصة بالصناعات الجلدية والسروج وما إليها بالإضافة إلى الشاي والبن والسكر والبهارات واللحم والأرز و غيرها من الضروريات، وكذلك بعض السلع الكمالية مثل البنادق والذخيرة والساعات والمناظير وهلم جرا.. وتسد قطعان الماشية ممر السوق وهي معروضة للمساومة بين الملاك والمشترين الذين يتجولون متنقلين من حيوان إلى آخر بغية الحصول على أقل الأسعار.. وعادة ما يقوم هؤلاء المشترون بالتحسس بأصابعهم الخبيرة للأجزاء السمينة في تلك الحيوانات غير المحظوظة، وما بين وقت وآخر يمر أحد التجار أو الباعة المتجولين وسط الزحام وهو يحمل بندقية أو مناظير (درابيل) أو عباءة من صنع الأحساء معلناً السعر الأخير للبضاعة، ومحاولاً بذلك الحصول على عرض أفضل.. وبين الحين والآخر ترى جملاً أو جملين، يشق طريقه متثاقلاً بالسوق بصورة معاكسة وهو محمل بالأعلاف أو حطب الوقود ومسبِّبٌ تدافعاً وزحمة للناس وللحيوانات ومضايقة بسبب ما يحمل من بضائع.. ويتغير هذا المشهد بصورة فجائية عند أوقات أداء الصلوات؛ إذ حالما يؤذن المؤذن للصلاة تقفل المحلات، ويحتجب الجمهور من أجل الوضوء، ويبدأ المحتسبون بالتجوال عبر الشوارع الفارغة.. وبعد لحظات تمتلئ الشوارع مرة أخرى بالناس، وهم يمشون باحتشام وبتشامخ وأنظارهم متجهة إلى الأسفل بطريقهم إلى المساجد.. عندئذ يخيم السكون إلا من الأصوات الجهورية للمصلين المستجيبة للإمام، ثم تفتح المحلات أبوابها عقب كل صلاة، ومن ثم يزدحم السوق مرة أخرى بصخب الناس.. وهكذا دواليك ما بين سكينة وصخب طوال اليوم.

وجامع الرياض مستطيل الشكل.. أبعاده حوالي ستين ياردة في خمسين ياردة، ويواجه مدخله الرئيس السوق عبر ممر يتخلل المحلات القائمة على الجدار الجنوبي للجامع.. أما القبلة الواقعة في الواجهة الغربية للجامع فلها بروز خفيف (محراب) يتجه نحو الجنوب











الغربي، ومن الناحية الشرقية يقع مدخل آخر ثانوي.. ويتألف الجامع من ثلاثة أقسام، فالقسم المركزي عبارة عن صحن مكشوف يحتل تقريباً ربع مساحة المبنى، والقسمان الآخران كلاهما مغطى بسقف منخفض ومستوٍ مرتكزٍ على عدة صفوف من الأعمدة الحجرية الضخمة مشكلة بذلك رواقاً لراحة المصلين أثناء ساعات النهار الشديدة الحرارة.. وتطل واجهة الرواق على الفناء بصف من الأقواس المسننة حسب العمارة التقليدية التي تتسم بالخشونة والبساطة، ويحتل الرواق الواقع على جانب القبلة حوالي نصف مساحة الجامع، والربع المتبقي يحتله الرواق الآخر... ولا تحمل سقوف الجامع أي نوع من الزخارف، بل إنها مطوقة بحاجز منخفض، وبالقرب من منتصف الجانب الشمالي توجد وحدة معمارية مدرجة قليلة الارتفاع وليست ذات مظهر جميل تستخدم كمنارة؛ لأن أصناف وأنواع المنارات المعروفة في الأقطار الإسلامية غير مستحبة من قبل السلفيين الذين يرون أن زخرفة وتزيين أماكن الصلاة من عمل الشيطان[1].. كما أن هناك بروزاً صغيراً يجمِّل الزاوية الجنوبية الشرقية للجامع، بينما يبرز محراب القبلة بقليل فوق مستوى السقف.

ولا توجد بجانب الجامع الكبير والقصر مبانٍ ذات عمارة مميزة سوى الحصن[2]، وهو مبنى مربع الشكل ذو أسوار ضخمة وأبراج غير رشيقة البناء تحتل زواياه الأربع، ويقع إلى الشمال من الشارع الرئيس، في منتصف المسافة بين القصر وبوابة الثميري، ويمكن إرجاع تاريخه بصورته الراهنة[3] إلى أيام حكم فيصل أو بداية فترة حكم عبد الله بن فيصل الذي خلف والده بالحكم، ويستخدم الحصن في الوقت الحاضر كمستودع للأسلحة وسجناً ومخزناً من لدن ابن سعود الذي وجد بعد استتباب الأمن على يديه عقب رجوعه من المنفى أن القصر الضخم لِجَدِّه أكثر وجاهة لسكناه.

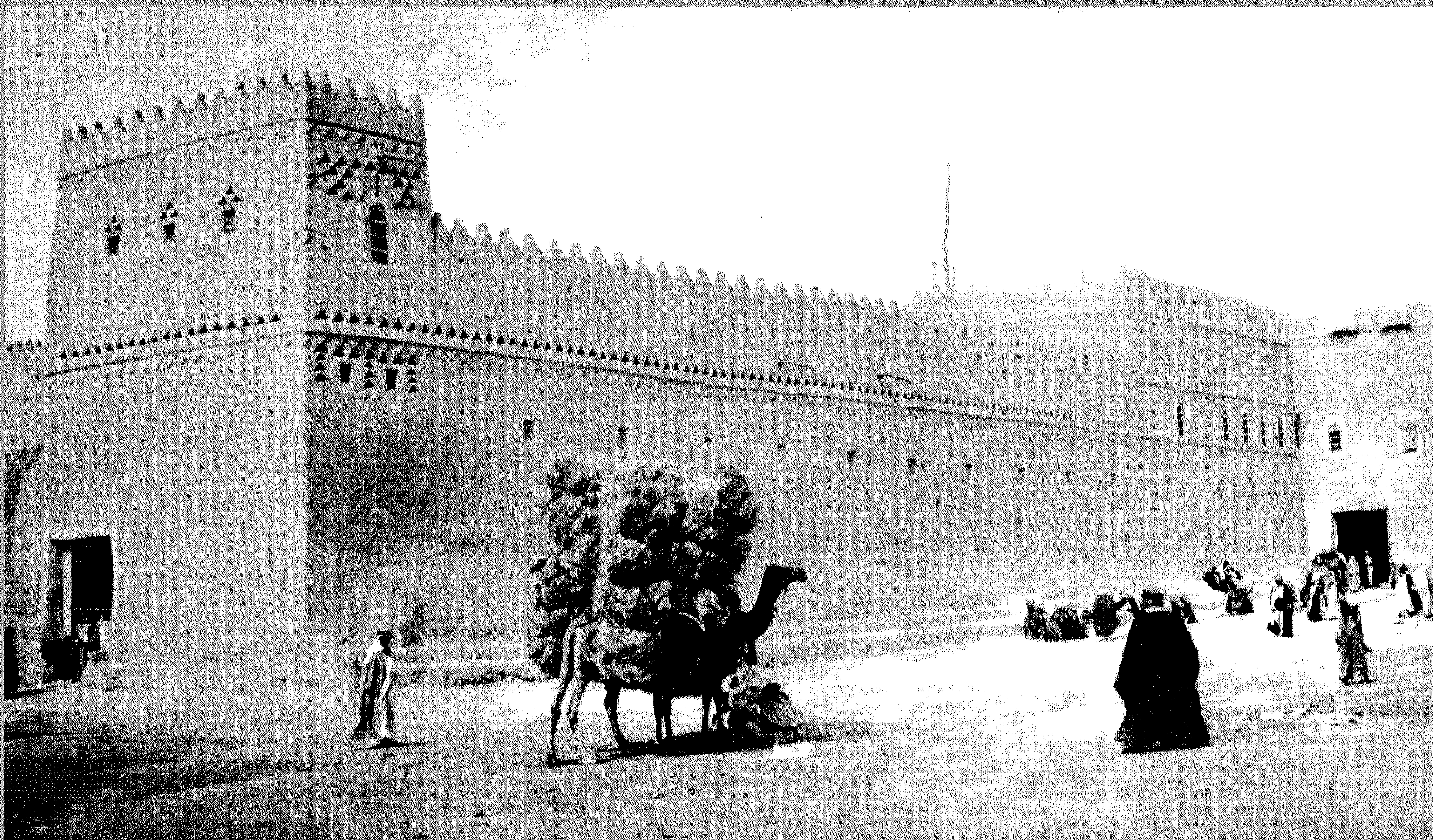
وأياً كان الأمر فباستثناء الحصن الموجود في بريدة فإنه لا يوجد مبنى في جميع أنحاء مملكة ابن سعود أعظم فخامة في تخطيطه ولا أجمل في هيئته بعمارة شبه الجزيرة العربية الحديثة من القصر الملكي لابن سعود، وذلك يكمن في تصميمه الرائع والبسيط، وفي الغياب التام للزخرفة والزينة، وهي عناصر مناسبة لهذا الصرح الشامخ الذي قصد منه (ليس فقط السكن المريح بل أيضاً) الأمن لمن يسكنه.. وخلال زيارتي كان معظم الجناح الغربي للقصر في حالة تهدم، وكان يخضع للبناء، وصاحَبَ ذلك العمل توسعة للمساكن الداخلية بقصد استيعاب العائلة المتزايدة العدد والعاملين بالقصر من خدم وحرس ابن سعود الذي كان جناحه الخاص يحتل موقعاً متمركزاً بجوار السور الجنوبي.. وكانت أقسام القصر يتصل بعضها مع البعض، كما تتصل بمبنى القصر الواقع وسط السور الشمالي والذي توجد فيه المجالس

(١) المانع ليس بهذه الصيغة، ولكنه التمشي مع النهي الشرعي الذي ورد عن النبي ﷺ عن زخرفة المساجد.

(٢) حصن المصمك.

(٣) تم بناء المصمك في عام ١٣١٢هـ ووجد هذا التاريخ مثبتاً على إحدى جدران المصمك عند ترميمه، والذي بناه رجل لابن رشيد اسمه ابن نعام.

قصر الحكم بمدينة الرياض. فيلبي، ١٣٣٥هـ/ ١٩١٦٠م.



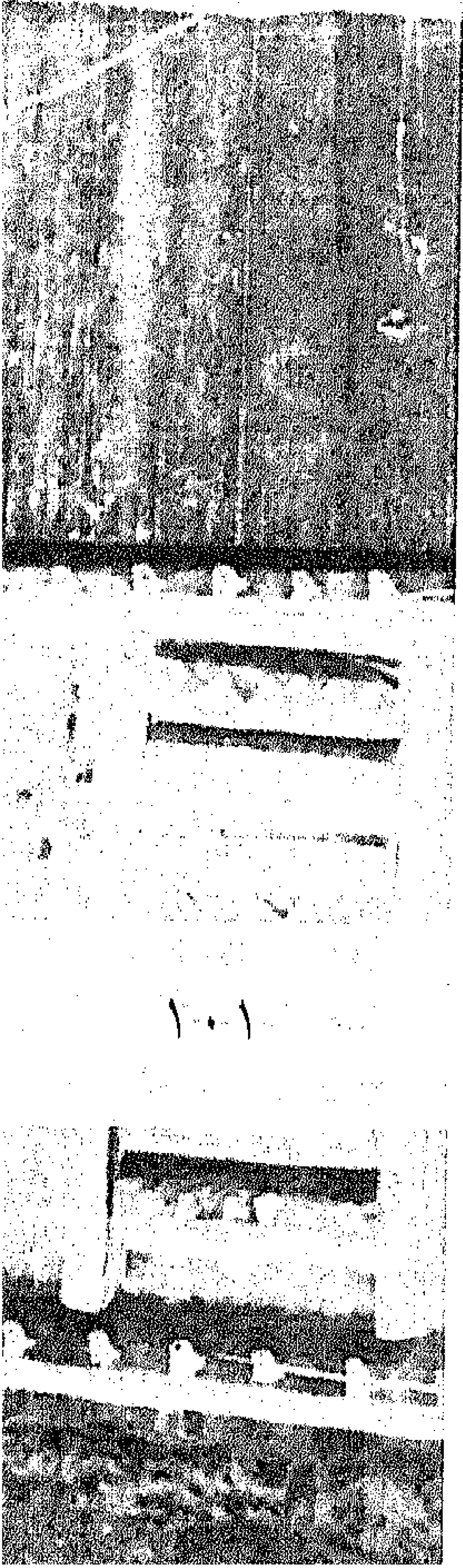


العامة والمكاتب الخاصة بالإدارة.. ويقع الباب الرئيس المؤدي لهذه المجالس والمكاتب مواجهاً للشرق، وهو عبارة عن هيكل بنائي بارز مزود بكوات تفضي إلى ازدحام وجمهرة الناس الذين عادة ما يقضون الوقت محاصرين للمدخل.. ويمكن بسهولة رؤية هذا الزحام من خلال النوافذ العديدة المشبكة للمكتب الخاص لابن سعود الواقع مباشرة فوق الجزء البارز للمدخل.. أما القسم الشرقي من القصر الذي يتم الدخول إليه عن طريق مدخلين منفصلين وواقعين بالجانب الشرقي فجزء كبير منه يسكنه العاملون بالداخل مثل العبيد والخدم من كلا الجنسين، وهم الذين يقطنون بفناء واقع بالزاوية الشمالية الشرقية، وفي بقية الجزء توجد المطابخ وإسطبلات الخيول التي تنتشر على امتداد القسم الجنوبي الشرقي.. وتؤدي الأبراج الكائنة على مسافات متباعدة حول محيط المبنى وظيفة الحماية للقصر، ولكن من أجمل الوحدات المعمارية بالمبنى ذلك البرج الضخم الذي بالزاوية، وهو يقابل المرء القادم نحو القصر من الشارع الرئيس الممتد من البوابة الشرقية للمدينة.. بالإضافة إلى الامتداد الواسع للأسوار الطينية المزينة بصفوف من المثلثات الصغيرة المثقبة والشرفات المدرجة المنتهية بزاوية تشكلت عن طريق بروز البرج وارتفاع الكتلة المعمارية الوسطى الممتدة إلى الداخل والمرتبطة بالبرج والمتساوية بالارتفاع حتى القمة.. إن هذه العناصر جميعاً تشكل لوحة معبرة وبديعة للغاية لواجهة القصر المقابلة للميدان المكشوف وللسوق.. وعندما يكون الطقس حاراً كان سطح الوحدة الوسطى المرتفعة يخصص لاستعماله خلال الليل، ومن هذا الموقع الاستراتيجي الذي يعد أعلى نقطة بالمدينة كنت أمعن النظر ليس فقط بالسطوح المجاورة بل للبلد من جميع الاتجاهات.. ويرتكز على هذا السطح عمود طويل يشبه الصاري الذي يحمل العلم.. إنه بالحقيقة عمود للإنارة حيث تم الحصول على مصباح ضخم ومنحني الشكل من بومباي، يتم عادة رفعه إلى قمة العمود كل ليلة بقصد إنارة السطوح المتعددة للقصر التي يفترشها نزلاء القصر للاستمتاع بنسيم هواء المساء البارد.

وجرت العادة على إنزال المصباح وإطفائه قبل منتصف الليل أو عندما يأوي ابن سعود إلى مرقده.. وخلال شهر رمضان يترك المصباح بمكانه مضاء طوال الليل لينير للمصلين، ويطفأ قبيل الفجر؛ لإعطاء الإشارة لسكان المدينة بقرب بداية صيام اليوم.

ويشمل القصر بوحداته المعمارية غير المنتظمة الجزء الأعظم من وسط المدينة. أما منازل أفراد العائلة المالكة -حسب تقديراتي- فتحتل ربع المساحة الكلية للمدينة.. والمساجد يتراوح عددها بالإضافة إلى الجامع الكبير بين خمسة عشر إلى عشرين مسجداً، وجميعها لا تحمل أي رموز معمارية أنيقة، وربما شغلت هي الأخرى تقريباً المساحة نفسها، بينما يظل النصف المتبقي من مساحة المدينة الواقع داخل أسوارها مكتظاً بالدور السكنية العادية، لا تستحق أن نخصها بالذكر.

وفيما حول المدينة -عدا الاتجاه الشمالي الشرقي- تقع بساتين النخيل، ويحتوي العديد منها على مبانٍ تستخدم مساكن ريفية عندما يريد ملاكها الانزواء بها



طلباً للراحة وبعداً عن روتين حياة المدينة.. وتوجد بهذه البساتين الآبار (القلبان) العميقة والواسعة التي لا يتوقف طنين بكرات استخراج المياه منها ليلاً أو نهاراً.. وتتشابه هذه الآبار في تفاصيل معمارها، ولكن هناك بئراً تقع بوسط بستان يدعى الوسيطى[1]، وهو بستان بديع واقع في الجانب الجنوبي الشرقي من المدينة ويخص الإمام عبد الرحمن، وتمثل نموذجاً لبقية الآبار.. تبلغ فتحة هذه البئر العظيمة تقريباً عشرة أقدام مربعة من الأعلى، وتضيق تدريجياً حتى الوصول إلى مستوى الماء الواقع على عمق أربعين إلى خمسين قدماً من مستوى سطح الأرض. حفرت في أرضية صخرية من الحجر الجيري.. أما جزؤها العلوي المكوّن تقريباً ثلث عمقها فتم طيه[2] بألواح حجرية[3]، وتم الربط فيما بينها بمادة الأسمنت، وطوقت فوهة البئر بكتلة معمارية ضخمة مثلثة الشكل تدعى "عداً[4]"، ونفذت باستخدام جذوع النخل وخشب الأثل لتكون دعامة وأجزاء مساندة.. أما العمود العلوي[5] الأفقي للعد فيحتوي على ست بكرات (محالات) في كل جانب من الجانبين؛ إذ تكون جميعاً اثنتي عشرة بكرة، بينما يبقى العمود القاعدي مثبتاً بتجاويف صخرية واقعة بالتمام فوق فوهة البئر، وتحتوي على عدد مماثل من البكرات. أما تلك الحبال القوية المصنوعة من خيوط القنب فيتم ربط نهاياتها بدلاء جلدية مصنوعة عامة من جلود الماعز[6].. تجري هذه الحبال على تلك البكرات، ويتم شدها بهذه الحالة إلى حمير حساوية، وفي حالة بعض الآبار الأخرى تشد الحبال إلى البغال والحمير معاً.. أما تلك الحبال الأقل سمكاً فتجري على البكرات الصغيرات وتشد بطرفها إلى الحمير، أما الطرف الآخر فإنها تربط برقاب الدلاء الجلدية التي يتم تثقيلها بواسطة ربط بعض الأحجار بأجزائها السميكة.. يقع على جانبي فوهة البئر منحدر حاد طوله مساوٍ لعمق وجود الماء بالبئر.. تبدأ الحمير (وهي ستة في كل جانب، وكل منها مربوط بالدلو وبالحبال السميكة والرفيعة) في السير بالمنحدر على شكل طابور، وفي انحدارها ترتفع الدلاء إلى الأعلى وهي مليئة بالماء، وعند وصولها إلى نهاية المنحدر فإن النهايات الطرفية لأجسام الدلاء تصل إلى مستوى البكرات المربوطة بالعمود العلوي، وأثناءها فإن الأجزاء الرفيعة للدلاء أو رقابها تسحب في الوقت نفسه من فوق البكرات الصغيرة مفرغة المياه إلى حوض حجري واقع أسفلهن بالتمام.. ومن هنا ينساب الماء عبر قنوات،

(١) تقع في قلب دخنة، وكانت في الأصل نخلاً مزدهراً ملكها دهام بن دواس في منصف القرن الثاني عشر الهجري. وفي عهد الملك عبد العزيز قطع نخلها وأصبحت حياً سكنياً.

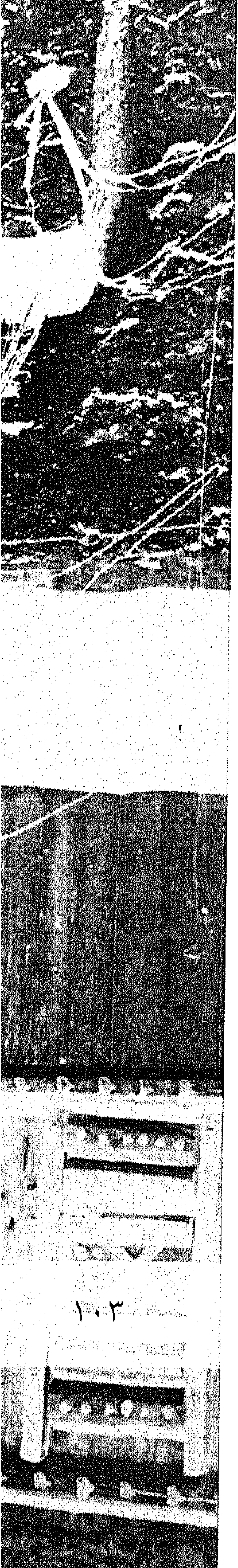
(٢) الطوي هو البناء بحجر الطوي ويسمى المذيل، ويجلب من مقاطع الحصى على الجمال في ذلك الوقت ويتم بناء الحجر أو طيه إلى أن يصل إلى ما يعرف باللزا (أي شفة البئر) عندها يؤتى بحجر آخر اسمه القرون وطوله ثلاثة أمتار.

(٣) هي ما يعرف بالقرون.

(٤) العد اسم من أسماء البئر ذات الماء الكثير الذي لا يصمد ولا يغيض لكل الوُرّاد وتقابل ما يعرف في مصطلح بنائي الآبار بالمقدمات والمؤخرات وهي مصنوعة من جذوع النخل وشجر الأثل كما قال بذلك فيلبي.

(٥) يعرف هذا العمود بالأنباع وهو الذي تركب فيه المحايل، جمع محالة.

(٦) الغالب أن هذه التي تعرف بالغروب تصنع من جلد الإبل وليس الماعز.



ويتم عن طريقها توزيع المياه وري البستان.. هذا؛ وبوصول الحيوانات إلى نهاية المنحدر فإنها تقف لبرهة من الزمن، ثم تدور مرة أخرى، وكل منها يدور على مركزه، وبعد ذلك يصعد طابور الحمير كما نزل، وتنخفض القرب المثقلة بالحجارة إلى ماء البئر، وتتكرر هذه الإجراءات دون انقطاع.. وعلى الرغم من أن هذا النظام المبسط المستعمل يبدو بدائياً وغير متقن إلا أنه يعمل بكفاءة وبسلاسة تامة.. وقد تحتاج أرضية المنحدر أو الدعامات الخشبية أحياناً إلى بعض الإصلاحات، ولكن أسوأ ما يحدث خلال مجريات هذا العمل هو انقطاع الحبل نتيجة احتكاكه بالبكرة، وعندها تسقط الدلاء المثقلة بالحجارة بقاع البئر، وفي هذه الحالة يقوم أحد المشرفين على البئر بالنزول إلى البئر مصطحباً معه حبلاً إضافياً لإصلاح الخلل ومن ثم يسحب الشخص مع الدلاء إلى الأعلى حتى يصل إلى مستوى البكرات، ومن هنا (بحركة استعراضية رشيقة ورياضية) يقفز الشخص إلى الأرض اليابسة.. ومعظم البغال المستخدمة في بساتين الرياض هي من أملاك ابن سعود الخاصة التي حصل عليها بالقوة من آخر حامية تركية في الأحساء.

وعلى الرغم من أن عمارة وبناء بئر الوسيطى يعد نمطاً تقليدياً للآبار في الواحة، وفي وسط شبه الجزيرة العربية، إلا أنها ليست الأكبر؛ فعلى سبيل المثال يوجد بئر في بستان يدعى الحوطة[1] يعمل عليه أربعة عشر حماراً، كل سبعة في صف، بينما تعمل على بئر عتيقة[2] ثمانية حمير جنباً إلى جنب.. كما أنني علمت (ولكنني لا أتذكر رؤيته) بأن هناك قليباً يعمل عليه عشرون حماراً كل عشرة حمير بصف.. وبمناسبة معينة تحدث إليّ ابن سعود عن فن السباحة عند العرب على الرغم أنه شيء فوق العادة أن تجد هذا الجنس من البشر يسكنون في بلاد شحيحة بالماء وتجد عندهم القدرة على السباحة، ويعدون خبراء في هذا المجال... وتختلف أعماق المياه في هذه الآبار حسب فصول السنة، وربما كان من النادر أن يزيد العمق على عشرين إلى ثلاثين قدماً.

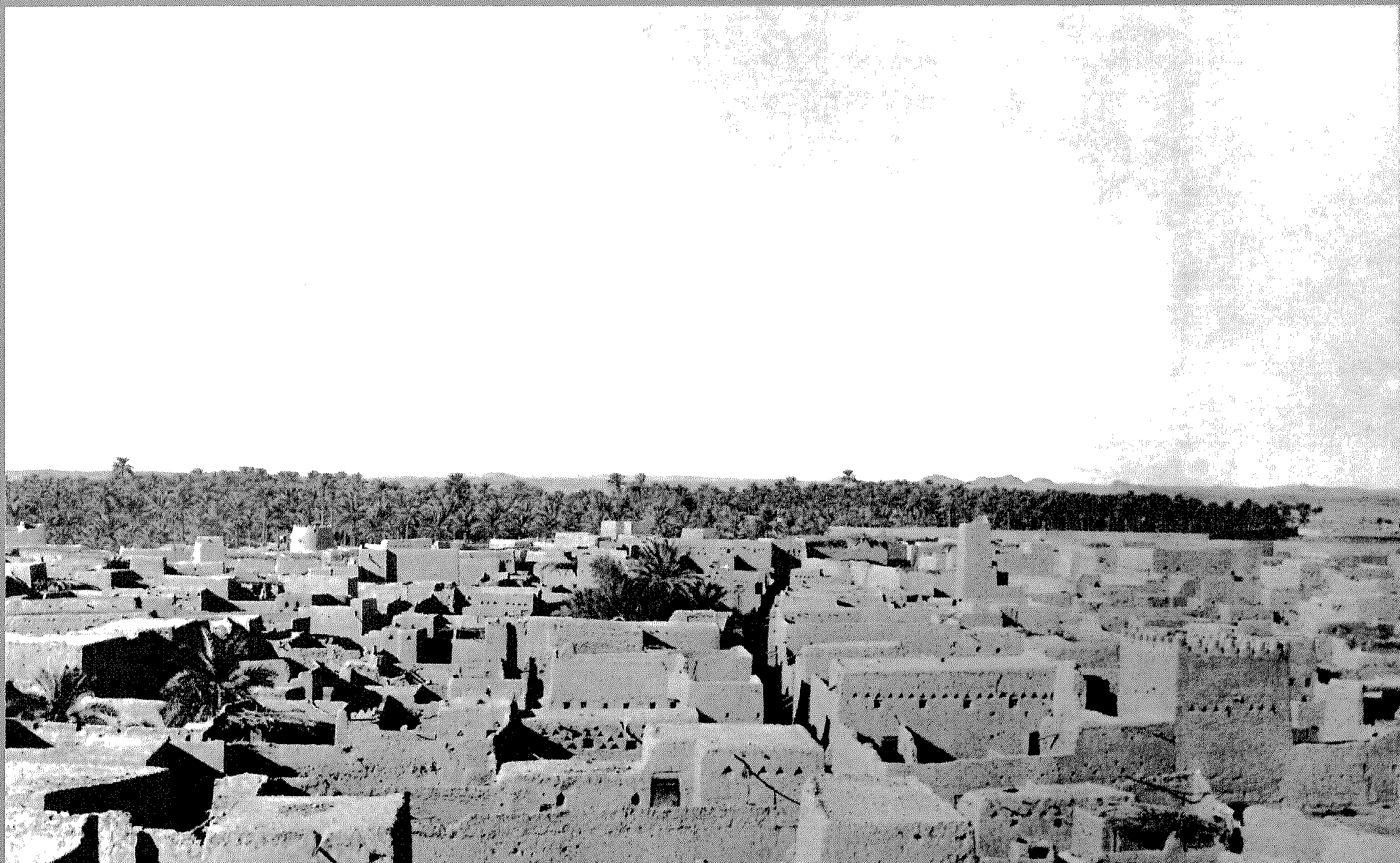
وتقع إحدى المقبرتين الكبيرتين[3] اللتين تضمان رفات الموتى من سكان العاصمة في تلك الأرض المكشوفة الكائنة ما بين بوابة الشمسية وبساتين النخيل الواقعة على ذلك الجانب، وتضم بستان الحوطة الممتد للاتجاه الشمالي حتى الشمسية.. والمقبرة عبارة عن صحراء تتخللها التلال المنخفضة والركامات الردمية، وهي شاخصة لتذكير هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون هذه الحياة بتفاهة الحياة البشرية.. هنا في تلك التلال الترابية يرقد الأمير والفلاح جنباً إلى جنب دون تمييز، وعلى الرغم من أن الكثير يذكر مكان قبور أعزائهم وأحبابهم ويقومون بزيارتها من حين إلى حين للدعاء لهم إلا أنني لم أجد شخصاً يستطيع أو عنده الإرادة بتمكيني من

(١) قد تكون هذه الحوطة ما يعرف بحوطة آل بتال، وهي تقع جنوب حلة آل ريس ويحدها من الشرق الحيش (جمع حوش) ومن الغرب أم قرو وهي المكان المقام عليه الآن أسواق مكة على طريق الملك فهد.

(٢) عتيقة اسم لحي عامر بالسكان كانت ملكاً لأسرة من أسر الرياض تعرف بآل عتيق، اشتراها منهم الأمير محمد بن عبد الرحمن أخو جلالة الملك عبد العزيز فشهرها وبنى فيها قصره وهدم هذا القصر مؤخراً.

(٣) هي المعروفة بمقبرة شلقا وهي التي تقع الآن بين شارع البطحاء وشارع الملك فيصل.

أسطح بعض مباني الرياض من سطح قصر الحكم بالاتجاه الشمالي الغربي. فيلبي، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م.



معرفة قبر فيصل العظيم وقبور أسلافه.. إنني مع ذلك غير متأكد من أن قبورهم واقعة هنا أو في تلك المقبرة الصغيرة المسماة المقبرة الملكية؛ حيث تستخدم في الوقت الحاضر من قبل أفراد العائلة المالكة، وهي الواقعة إلى الشرق من المقبرة الكبرى الكائنة على الضفة اليسرى من مسيل وادي الشمسية.

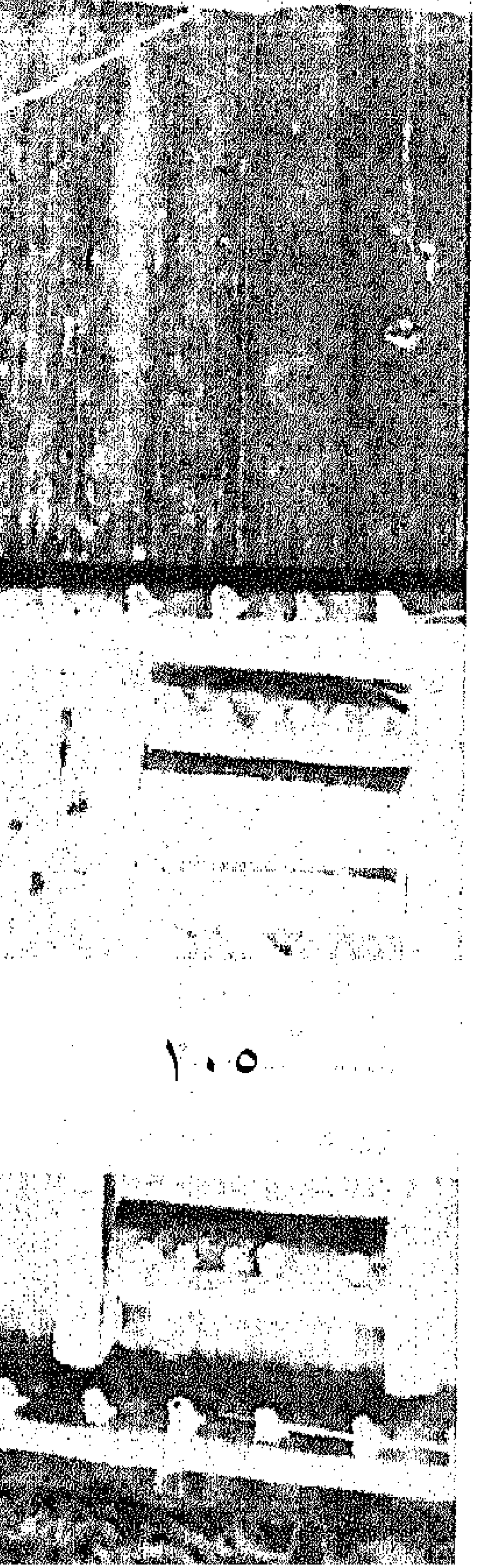
ويتكون مسجد العيد، من مساحة واسعة مستطيلة الشكل فارغةٍ تماماً ومحاطة بسور طيني قصير، وقبلة في منتصف الجانب الغربي تقريباً.. وهو يقع في المنتصف ما بين المقبرتين والبوابة الشرقية الرئيسة، ولايستخدم هذا المسجد إلا للصلوات الجماعية في أيام الأعياد، ويعتقد بأن سعته كافية لاحتواء كافة السكان الذكور البالغين. أما النساء اللاتي يرغبن في تأدية صلوات العيد، فإنهن يقمن بالصلاة في أرض مكشوفة في مؤخرة المسجد..

هذه هي الملامح الرئيسة للرياض عاصمة الوهابيين، ومملكة الصحراء الجالسة على عرش من الصخور، والمحاطة بأشجار النخيل التي تعزلها عن الصحراء المحيطة بها.

ويقوم ابن سعود أثناء فترات إقامته في عاصمته بالترويح عن نفسه من خلال قيامه بجولات من حين لآخر على الأقدام أو ركوباً على الخيل في مواقع ملائمة داخل الواحة أوفي أطرافها.. إحدى تلك الجولات التي شهدتها في تلك الأيام كانت قد نظمت بمناسبة وداع الكولونيل هاميلتون، وقد حدثت في عصر اليوم السابق لرحيله؛ ولتسهيل سفره مبكراً في اليوم التالي فقد نقلت خيامه ومتاعه من المدينة لأرض المخيم بالقرب من حديقة الشمسية، وهناك كان لي شرف اللقاء بابن سعود وأعضاء كثيرين من أسرته وبلاطه، وقد كانوا جميعاً على ظهور الخيل، وقد كان موكباً رائعاً عندما خرجنا من المدينة وصعدنا الوادي الرملي بقيادة ابن سعود وثلاثتنا بالقرب منه مع أطفال الأسرة المالكة.. كل على مهر يناسب حجمه، ويرافقه بعض العبيد، وعندما شاهدنا أسوار الحديقة بدأ ابن سعود يقف شامخ القامة مع قفزات حصانه، ويلتفت من فوق سرج حصانه إلى مرافقيه مردداً أبيات قصيدة حماسية، وسرعان ما يرددها من هم في المؤخرة، ثم استأنف الموكب الخبب، وانتشر عند عبوره السهل الفسيح، واصطف الفرسان في مجموعتين لأداء العرض العسكري، وبإشارة واحدة بدأت المسابقة بتقدم الفرسان بعضهم نحو بعض، وتتخلل بعضهم صفوف بعض، ثم رجعوا وأعادوا الكرة مع صيحات التحدي، والسيوف والبنادق تهتز في الأكف كما هو الحال في المبارزة العربية، لكن لم يكن هناك إطلاق للنار؛ لأن البارود يعد في الجزيرة العربية وأواسطها خاصة ذا قيمة عالية، ولا يهدر في قتال وهمي.

وعندما نال الجميع كفايتهم رجعنا جميعاً إلى ظلال أسوار حديقة الشمسية حيث جلسنا على ربوة فسيحة، وتحادثنا لمدة من الزمن حتى حان وقت ذهابنا إلى مخيم الكولونيل هاميلتون حيث جهزت القهوة لنا.. دخل وقت صلاة المغرب، واصطف الجميع خلف ابن سعود.. وبختام الصلاة انتهت النزهة.. غادرنا ابن سعود





وجماعته عائدين إلى المدينة بينما بقينا لنتناول الشاي في مخيم الكولونيل هاميلتون حيث ظل معنا عبد الله أفندي الذي أحضر معه بأمر من سيده زوجاً من بقر الوحش، تلك الحيوانات الرائعة ساكنة الصحاري الرملية الواسعة، نوعيات مكتملة النمو، بجلودها البيضاء وقرونها الطويلة المستقيمة، وكانت هدية لملك إنجلترا. وقبل حلول الظلام رجعنا للمدينة تاركين الكولونيل هاميلتون في مخيمه الذي سوف يزال قبل الفجر.

وتشرفنا في اليوم التالي بدعوتنا إلى مقابلة الإمام عبد الرحمن الذي لم نره منذ لقائنا الأول به في مكتب ابن سعود.. سرت والكولونيل كنلف أوين خلف حامل الدعوة إلى منزل الشيخ الكبير، وكان مبنى كبيراً لكنه غير مزخرف، ويقع في الشارع الرئيس[1] مقابل الحصن[2].. مررنا خلال الباب الخارجي، ونفذنا إلى فناء محاط بجدران طينية عليها زخارف جصية، ثم صعدنا سلماً ضيقاً متعرجاً إلى الطابق الأول، ودخلنا المجلس، وقد كان عبارة عن صالة طويلة عارية الجدران، ويبلغ طولها أربعين قدماً، وعرضها نصف ذلك الطول، وارتفاعها حوالي ثمانية عشر قدماً، وفي وسطها صف من الأعمدة الملساء تسند السقف.. كانت الأرض مغطاة بالسجاد، وإحدى زوايا الغرفة مؤثثة بمتكأين على جانبي مكان جلوس الإمام، ومساند قليلة أخرى ليتكئ عليها الزوار.. ظهر الإمام حالاً بعد وصولنا، وقدمت القهوة أثناء حديثنا مع مضيفنا. ..وفي أيامه الأخيرة كان الإمام نادراً ما يغادر بيته إلا ليلحق بصلاة الجماعة في الجامع الكبير في أيام الجمع، أو ليزور ابنه عند عودته، ويقضي معظم وقته في الصلاة في مسجد داخل منزله، أو في القراءة والتأمل..

كانت وجباتنا خلال إقامتنا تأتي مباشرة من المطبخ الملكي حيث يعمل طاقم من الطهاة المحترفين، فيقومون بتجهيز الكميات الكبيرة من الأرز واللحم للعائلة وضيوفها.. بينما وُكِلَتْ مهمة إعداد الأطباق الجانبية الخفيفة للخادمات الخبيرات في صنع الخبز وتجهيز الفطائر، والحلوى، والمخللات، والتوابل، وأطباق البيض، وما شابهها.. في الصباح وقبل أن ننهض من الفراش كانوا يحضرون لنا الشاي والفطائر مع عسل الطائف إن وجد، وبعد ساعة أو اثنتين تأتي قاطرة من الخدم بالإفطار؛ فتفرش سفرة كبيرة مستديرة ومصنوعة من الخوص على الأرض، ويملأ طبق معدني كبير بالأرز الذي تتصاعد منه الأبخرة، ويتوج بقطع من اللحم السمين، وحول ذلك الطبق توضع الأطباق الجانبية وأوعية من الحساء الشهي أو المرق الذي تقوم فيه قطع صغيرة من اللحم وتوضع تلك الأصناف الحارة حسب مذاقها على أو بجانب الأرز.. كاسات من حليب الإبل الطازج أو حليب الضأن المقشوط.. أطباق التمر، وآنية الماء، ودوائر من الخبز بعضها محمر وبعضها ليس كذلك.. أطباق من المهلبية المصنوعة من الحليب والسكر والنكهات، وأطباق من الفطائر المحمرة دائرية الشكل تسمى 'لقيمات.. سم، ..ابدؤوا.. قال ذلك ابن مسلم

(١) شارع الثميري حالياً.
(٢) حصن المصمك.



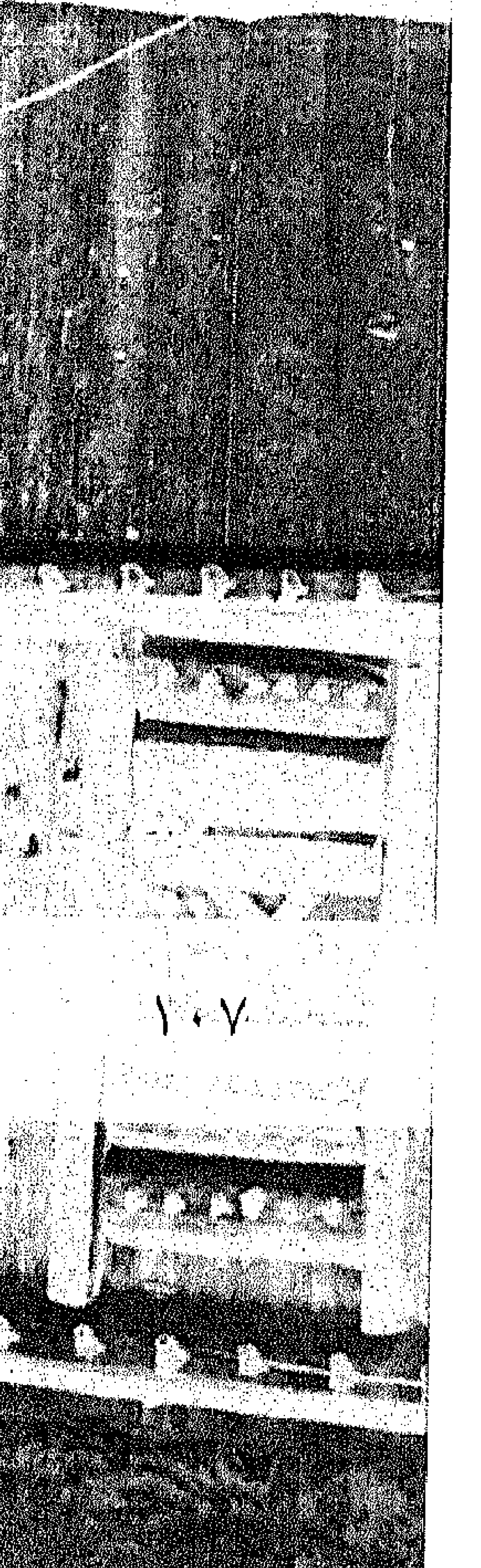
رئيس الطباخين الذي نادراً ما يفوته الإشراف على تجهيز مائدتنا، فكنا ننهض ويأتي خادم بالإبريق والحوض والمنشفة والصابون؛ فيقوم كل منا بغسل يديه، ثم نأخذ أماكننا حول السفرة على الأرض مع الضيوف الحاضرين، ثم نشرع في التهام الأطعمة التي أمامنا.. وعند الانتهاء من الأكل يقوم كل منا بغسل يديه بالماء والصابون في الحوض الذي يحمله الخادم وينتظر حتى ينتهي الجميع فتقدم القهوة.. كان الشاي جاهزاً لنا إذا رغبنا فيه في أوقات المساء، أما القهوة فهي جاهزة في كل الأوقات، والعشاء وهو عموماً يماثل الإفطار الذي جرى وصفه من قبل كان يقدم لنا بعد ساعتين من غروب الشمس، ولكن العائلة المالكة كانت تتناول عشاءها كما هو معتاد بعد مغيب الشمس مباشرة.

أمضينا يوماً من فترة إقامتنا في زيارة للحصن (المصمك)، وقد حصلنا على إذن له بحجة أن الكولونيل كنلف أوين كضابط مدفعية سيسر بفرصة تفحص مدفعية ابن سعود، وربما يكون في وضع يسمح له بإعطاء المشورة فيما يتعلق بصيانتها.. في أحد جوانب الميدان المفتوح أمام الحصن وفي مقابل بوابته الوحيدة أشاروا إلى مبنى مربع صغير معروف باسم «بيت عجلان» المقر الرسمي للحاكم الرشيدي أيام احتلال ابن رشيد للرياض، وفي أعلى جداره الأمامي يوجد باب خشبي صغير انتظر عنده ابن سعود وصحبه الشجعان ليلة كاملة حتى حلول الفجر الذي شهد آخر صراع مع القوات الرشيدية، واستعادة عائلة آل سعود لعرش الرياض.

وبينما كنا في بوابة الحصن وجدنا أنفسنا في فناء ذي أبعاد ضيقة تحيط به جدران عالية، وبقية المساحة الداخلية للمبنى كانت تشغلها مخازن وغرف الحراس وغيرها لم نُدع لتفحصها، لكننا قد رأينا خلال باب يفتح على الفناء رجلين يبدو أنهما يمضيان فترة سجن.. وهنالك باب آخر مماثل يقود للترسانة ذاتها التي لم نر ما بداخلها؛ لأن كل المدفعية التي تتكون من قطعتي ميدان قديمتين قد سحبت للفناء الخارجي؛ ليتم فحصهما من قبلنا.. وقد كانت كلتا القطعتين عبارة عن مدفع قذيفته زنة سبعة أرطال، وأحد المدفعين وهو تركي الصنع لم يزل يعمل لكنه قديم، بينما كان الآخر ألمانياً ويحمل ماركة ١٨٧٢ Von Broadwell Karlsruhe والذخيرة التي بالمخزن يبدو أنها تخص الأخير، وتتكون من قذائف قديمة.. قذائف شظايا، وكلها قد أصبحت بحالة سيئة بسبب الصدأ.

وحرمتني المهام الرسمية الموكلة لي من الاستفادة من دعوة وجهها لي مضيفي لحضور أحد لقاءاته الجماهيرية، وقد كانت مناسبة سارة أجلت الذهاب إليها حتى زيارة لاحقة، وقد كانت المناسبة الاجتماعية الوحيدة التي شاركت فيها غير مناسبة خروجنا للشمسية، هي حفل أقامه ابن سعود احتفاء بزواج أحد أعضاء الأسرة المالكة.

وبعد أن تغيبت عن الرياض لمدة خمسة أشهر بعد زيارتي لها في نهاية عام ١٩١٧م عدت إليها في شهر رجب ١٣٣٦هـ الموافق شهر مايو ١٩١٨م، وعند الاقتراب من أسوار الرياض سارت بنا الطريق نحو



مزرعة المربع القصية، وعبر غابات نخيل الشمسية، ومنها لمدخل المدينة الذي سبق أن دخلت منه الرياض في زيارتي الأولى قبل خمسة شهور.. كان المدخل مفتوحاً، وعبرت من خلال الطريق المعروف إلى ساحة القصر.

ساقوني في الحال إلى ابن سعود الذي وجدته مشغولاً كعادته في غرفة أعماله بالطابق الأول.. قيل لي عندما نهضت للخروج بعد دقائق من الحديث أثناء تناول فناجين القهوة، ليؤخروني قليلاً: "انتظر لحظة".

بقيت هذه المرة بالرياض حتى ٢٤ رجب ١٣٣٦هـ الموافق السادس من مايو١٩١٨م. حيث قضيت سبعة عشر يوماً حظيت خلالها بفرص أفضل في مشاهدة أنماط الحياة العادية فيها وفي محيطها، مقارنة بالأوقات التي قضيتها في تأدية مهام رسمية في الزيارة الفائتة.. كانت تلك الأيام آخر أيام موسم الربيع، لقد كانت أياماً مثالية من ناحية إشراق الشمس وهبوب الرياح حيث كانت تتابع بإحكام ونظام ليلاً ونهاراً؛ فالفجر يشرق ليسبح في فيض من الأشعة الممزوجة بنسمة شمالية، ويتلاشى هذا النسيم بانتهاء ساعات الضحى عندما تنهمر أشعة الشمس اللاهبة من السماء الصافية على الشوارع، ثم تتحول حركة الرياح إلى نسمة جنوبية خفيفة عندما تبدأ الشمس بالغروب، ثم تمر سحابة أو سحابتان فوق رؤوسنا منذرة بقدوم عاصفة عاتية.. وبعيداً ناحية الأفق الجنوبي تظهر سحابة سوداء معلنة اقتراب العاصفة نحونا؛ حيث تصاعدت ذرات الرمال في الهواء، والشمس على وشك أن تغيب وراء سلسلة صخرية، ليختفي وهجها المتألق، ولكن أشعتها كانت في الرمق الأخير تخترق الأعمدة المتقدمة من العاصفة.. بعدئذ هبت العاصفة على جميع أنحاء المدينة، وسارت السحابة السوداء عبر طويق مباشرة، وبدأت الأمطار تهطل ناحية الشمال وبرقها يضيء عتمة الأفق بتألق زخات أو رشات اجتاحت المدينة لتبطل فاعلية العاصفة، وتثبت ذرات الرمل التي بسكونها تجلت لناظرنا فجأة كوكبة من النجوم الساطعة في سماء صافية.. والليل يمر هادئاً حالماً، وهذا مثال من الأيام التي عشناها في أواخر فترة الربيع.. وبعض الأيام كانت أجمل من ذلك، ولكنها قليلة، حيث كانت العواصف

مشهد عام لمدينة الرياض التقط بالاتجاه الشمالي الشرقي من على سطح قصر الحكم. فيلبي، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م.

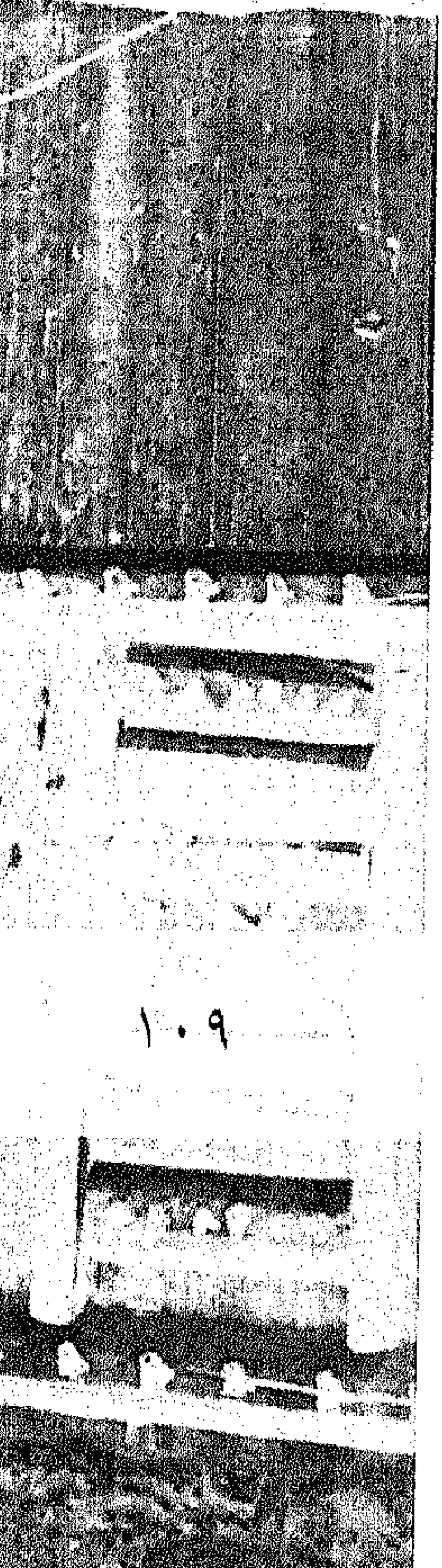




تجتاح المدينة بمعدل يومين كل ثلاثة أيام. فالرياض تقع خارج نطاق المرتفعات المحيطة بها، ولكنها تتقاسمها مناخها.. وربما لا تزيد كمية الأمطار الساقطة عليها مباشرة عن بوصة واحدة خلال أسبوعين، لكن التقارير التي ترد من محافظة الخرج تتحدث عن أمطار غزيرة، كما تشير السيول الجارفة التي تصب في وادي حنيفة من وقت لآخر إلى غزارة الأمطار في الناحية الشمالية.. محصول القمح والشعير وصلا لمرحلة متقدمة من مراحل النمو، وعمليات الحصاد تنتشر في كل أرجاء الواحة.. حقول القمح في انتظار المنجل وجذامة الجذور حيث قام عمال الحصاد بتأدية واجب تجميع السنابل في أكوام دائرية من أجل درسها بالثيران قبل الغربلة.

يبدو أن العمالة المحلية لا تستطيع أن تؤدي حجم العمل الواقع بين يديها، كما أن الظروف المناخية غير المناسبة توجب اتباع نظام الدورة بحيث يتم قطع محصول كل حقل وتجميعه ودرسه وغربلته في ساحة معينة قبل بداية العمل في الحقل الذي يليه خشية أن يتعرض لطوفان مطر يتلف كل المحصول المكوم في أرض المدق.. المحاصيل القائمة ربما كانت في مأمن من التعرض لمخاطر غير متوقعة كالعواصف البردية، إذ لا كوارث من هذا القبيل تحدث خلال هذه الفترة، وإذا حدثت سيكون التأثير محدوداً كتساقط الحبوب من السنابل... والنساء يلعبن دوراً جوهرياً في عملية الحصاد، وأجرهن مقابل عمل يوم شاق يقتصر على حزمة قمح، وتكبر حزمة الأجرة حسب قدرتها على الحمل، ولا غرابة في أن ترى في المساء المجموعات العائدة من حقول القمح وعلى رأس كل واحدة حمولة توازي أجر يوم... ذات مرة كنت أتجول على طريق الدرعية ومرت مجموعة منهن على مقربة منا في طريق عودتهن من الحصاد في مزرعة ميضار Maidhar الواقعة على بعد أميال قليلة. ..واللون السائد لعباءات النساء في الرياض وضواحيها هو البني إلا أن هذا اللون ربما كان غير مفضل في المناطق الأخرى.. لكنه ما دام يفي ويحقق الالتزام بالتقاليد فلا ضير في اختلاف اللون (اللون الأحمر هو السائد في المناطق الأخرى مع خمار أسود من قماش الموصلين لتغطية الرأس والأجزاء العليا من الجسد).. وتحت العباءة تلبس سراويل بألوان سوداء أو حمراء.

والمحصول الذي يلي القمح والشعير أهمية بين المحاصيل الزراعية في الرياض أو ربما في سائر أرجاء نجد هو محصول البرسيم، وربما كان المحصول الوحيد الذي يزرع لتوفير العلف المطلوب بمراكز الثقل الرعوي دون الاعتماد على أعشاب الصحراء التي تجلب يومياً على ظهور الجمال للأسواق، وأيضاً توفير الغذاء للجمال والخيول وتقويتها بعد أن أنهكتها الرحلات الطويلة في أعماق الصحاري القاحلة.. وقد خصصت بضواحي الرياض مساحات واسعة لزراعة هذا المحصول، الذي ليس فقط لأنه يحقق الربح الأكيد للفلاح، بل أيضاً لحب الفلاح الفطري للمحاصيل السريعة النمو، والتي لا تحتاج إلا إلى الري بالمياه، حسبما يقولون.. فبمجرد زراعة الحقل بالبرسيم يظل ينتج محصولاً عقب محصول على مدار العام ولمدة تصل إلى سبع سنوات؛ حيث أنه يزدهر من جديد بعد ري الجذور التي قطعت سيقانها..



ولأسباب لم أتمكن من تفسيرها ينمو الذكر والأنثى من هذا المحصول بصورة منفصلة في أحزمة متناوبة؛ مما يعطي الحقول ميزة الاخضرار.. الذكر عادة يكون أكبر حجماً وأغمق لوناً من أنثاه.. لم أعرف هل الفصل بين الذكر والأنثى يبدأ عند الزراعة أم يتم لاحقاً بنقل الغرسة..؟

وتحت ظل أشجار النخيل شاهدت وفرة الخضراوات المزروعة: البصل والباميا، والزعفران، والأخير يسمى الخريرية Khiriryya عند أهل المدينة.. والبدو يسمونه الصمنا Samna ومن الأشياء البارزة زراعة شجيرات القطن على جداول وقنوات الري.. أما أشجار الفواكه فيزرع منها حسبما شاهدت التوت، ونوع من التفاح البري، والعنب، والرمان، والتين، والخوخ، والمشمش وأمثالها.. إن التربة الخصبة تعطي ثمارها بوفرة بعد التسميد وانتظام الري سواء كان من الآبار أم من الأمطار المباشرة التي تسقط على الحقول أم بانسياب السيول فيها عن طريق الجداول المنتشرة التي تربطها شبكات حفرت بمهارة حول الحقول.

أقام ابن سعود في الأمسية التالية من عودتي وليمة ضخمة بالقصر ترحيباً واحتفاءً بالنفر الذين رافقوه في رحلة العودة للعاصمة.. كان مقر الضيافة في الساحة الرباعية الضخمة حيث وضع نحو ستين أو سبعين صينية مليئة باللحم والأرز البخاري، وكانت الصينية ترتفع بضع بوصات عن سطح الأرض، وحول كل مجموعة من هذه الصواني سبعة أو ثمانية من الرجال.. جلس جمع من البدو يأكلون بشراهة لا تشير إلا إلى حرمانهم الطويل، وعلى طول الجدران يجلس آخرون في حالة من الاستعداد ليحلوا مكان هؤلاء الذين شبعوا.. كان عدد الذين حضروا الغداء ذلك اليوم لا يقل عن خمسمائة رجل، ومضيفهم بجميع أفراد عائلته كان جالساً في الوليمة معهم في ركن من الساحة، بينما كان كل رجل ينتهي من الأكل ينهض وكلمات الشكر على شفتيه: «أنعم الله عليك يا أبو تركي». ثم يمر إلى الساحة الصغيرة التي تطل عليها غرف إقامتي.. وفي منتصف تلك الساحة كانت توجد مجموعة من قدور الماء حيث يتم غسل اليدين وشطف الفم قبل أن يغادر المكان.

وفي خارج المنزل قابلت حمداني الذي اقترحت عليه أن نزور الجنيفي[1] الذي يقع منزله في الشارع الذي يقود من مكان إقامة الإمام نحو الحصن وإلى مدخل الشمسية في شمال المدينة.. الباب كان مفتوحاً جزئياً، ودخلنا وأعلن حمداني عن وصولنا بندائه على اسم المضيف الذي ظهر حالاً في الصالة ليلتقي بنا في قاعة الاستقبال التي كانت ضيقة بلا شباك أو أية وسيلة تهوية غير الباب، ولكنها مريحة ومفروشة بالسجاد مع المساند، وفي أحد الأركان كان يوجد موقد ملصق على الأرضية والجدار ودولاب[2] إلى جواره مبنيٌّ داخل الجدار لتخزين وحفظ فناجين القهوة والأدوات الأخرى مع مخزون من القهوة

(١) هو إبراهيم بن محمد بن معمر.. عرف بالجنيفي لأن والده كان مقيماً في الجنيفي القرية الواقعة في منطقة سدير، وكان رئيسا للديوان الملكي عام ١٣٧٧هـ. شارك في بعض معارك الملك عبد العزيز مثل معركة السبلة عام ١٣٤٧، وتوفي في بيروت عام ١٣٧٨هـ.
(٢) هذا الدولاب يعرف بالكمار.

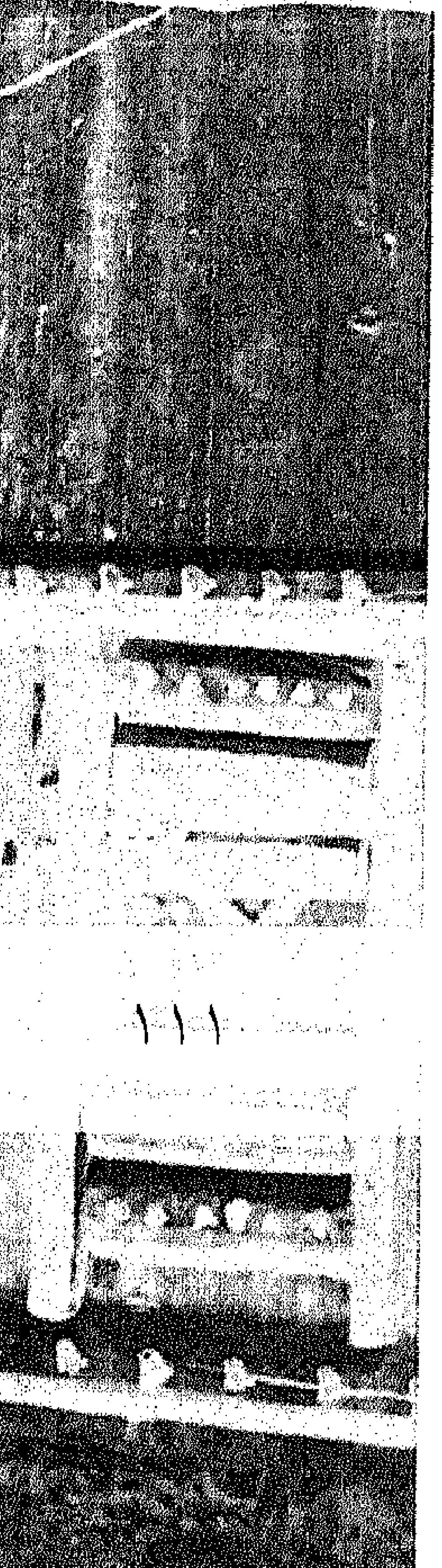
والشاي والسكر.. تسع دلال مغسولة للقهوة صناعة دمشقية عليها أثر سواد وحروق سببها الموقد الذي يوجد في مقدمته موقد النار والفناجين وملقط جمر ومنفاخ.

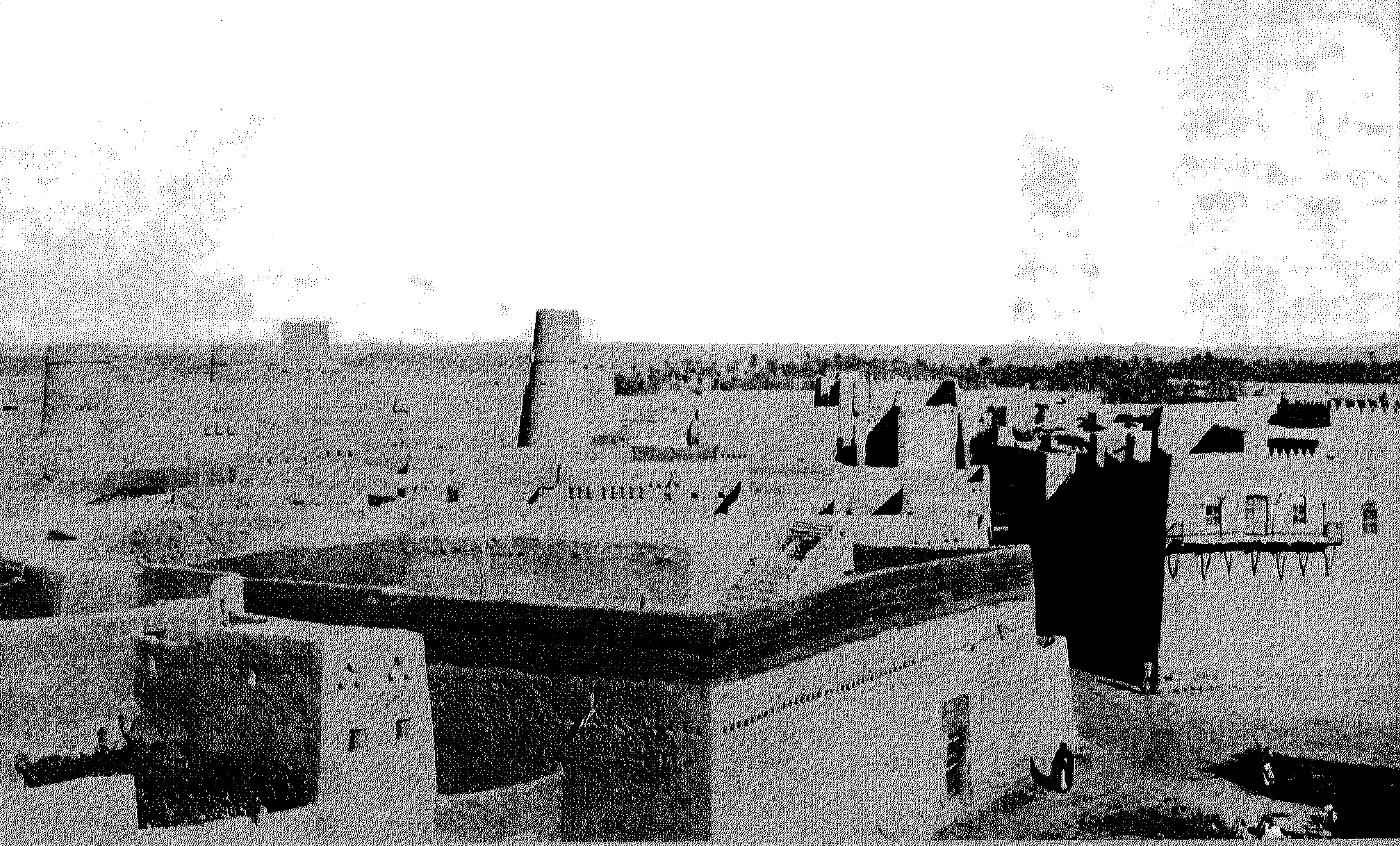
كانت هنالك في اليوم التالي حفلة ملكية في حديقة الشمسية التي اشتراها مؤخراً ابن سعود لنفسه من أحد مواطني مدينة الرياض.. واستمرت الحفلة من الساعة السابعة صباحاً حتى غروب الشمس، وقد تخللتها مراسيم مهمة تجري سنوياً لمداواة الجمال من الجرب الذي يسود في الربيع، وهو مرض وبائي آثاره مدمرة إذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة في مراحله الأولى؛ لمنع انتشاره في سائر أجزاء الجسم.. كافة الجمال المصابة اقتيدت في رحلة، والناس في الرياض غنيهم وفقيرهم يشاركون بالمساعدة في هذا العمل.. أما الذين يعدون من المهرة في الطب البيطري فيقومون بتوجيه الآخرين وإرشادهم إلى إجراءات العمل.. وبإشراف ابن سعود شخصياً الذي يباشر العمال: يوبخ هذا، ويثني على ذاك حسب الموقف.. عند منتصف النهار بدأت خيام الطباخة في إعداد وتجهيز أطباق الأرز البخاري مع اللحم، وقد وضعت على حصائر سعف النخيل بينما تبادل مجموع المرافقين الأدوار في مساعدة الطباخ الموجود داخل الخيمة في إعداد الأكل.. أفراد الأسرة الملكية قاموا بدور المضيفين أثناء الوليمة.. بانتهاء العمال من واجبهم اقتادني ابن سعود ممسكاً بيدي بين أقربائه الذين تبعونا إلى مبنى طيني داخل الحديقة حيث قدم الطعام، في البداية جلسنا حول الجدران نتبادل الحديث بينما كانت فناجين القهوة تأخذ دورتها، وقد تبع ذلك إحضار أطباق التمور.. صنف يعرف في الرياض باسم نبوت وطاسات حليب الجمال بصفتها مقبلات، وأخيراً قدم اللحم بالأرز الذي كان شهياً مع التوابل حيث كان في صواني جلسنا حولها في مجموعة من ستة أشخاص.. فيصل وأنا جلسنا إلى جانبي ابن سعود؛ لكوننا كبار الضيوف.. كانت الإجراءات خالية من التكلف والرسميات.

ومداواة الجمال كانت بسيطة الطابع على الرغم من قساوتها.. اقتيدت الجمال واحداً تلو الآخر إلى جوار حوض كبير يحتوي على منظف أزرق اللون: تركيبة من النورة أو الكالسيوم، ومادة أخرى تسمى الزرنيخ.. قاموا بعدئذ وباحتراس بربط الجمال وقيدها من الأمام والخلف.. أما رؤوسها فقد أزيحت إلى الوراء فوق عمودها الفقري لتأمن بالحبال، ومن ثم يدهن الدواء على جميع أجزاء جسمها بأطراف سعف النخيل وانتهت المهمة لتترك الجمال في وضع مثير للشفقة بالطلاء الأزرق الرطب، ومن ثم تجمع وتترك ترعى حتى اليوم التالي حيث يكتمل العلاج بكي ودهن أجزاء الجسم المصابة.

دعاني الجنيفي في يوم آخر وللمرة الثانية لشرب القهوة في منزله، وانطلقت برفقة حمداني، ولكن لم نجد مضيفنا بمنزله، وقررنا بأن نتجول في الحدائق والبساتين بدلاً من أن ننتظره في قاعة استقبال بيته المكتومة.. وبينما كنا نسير خارجين من المدينة عن طريق بوابة الشمسية وجدنا أنفسنا في أعقاب ابن سعود ومجموعة من أسرته الذين كانوا يتجولون ويسيرون في اتجاه مزرعة الحوطة، وكذلك انعطفنا جانباً وتتبعنا محيط السور







وسط مدينة الرياض القديمة من على سطح قصر الحكم، ويبدو حصن المصمك في الوسط، وشارع الثميري أسفل يمين الصورة. فيلبي، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م.

شمالاً ثم شرقاً ومررنا عند بئر الحسي وبستان نخيل وساحة صلاة العيد التي عندها وجدنا سعوداً[١]، أخا ابن سعود يتأمل الطبيعة في عزلة.

وبدخولنا للمدينة عبر مدخل صغير عند ركن في الناحية الشمالية الشرقية واصلنا السير إلى الأمام حتى مررنا بإسطبل لمحمد[٢] أخي ابن سعود الذي خصصه لخيوله، وهو يمتد بمحاذاة طريق يقود جنوباً[٣].. من هنا تحركنا لنمر عبر باب، لنجد أنفسنا وسط أغنى وأجمل مزارع الرياض (القري، والوسيطى).. والاثنتان تعود ملكيتهما للإمام عبدالرحمن الذي يعد أكثر أفراد العائلة أملاكاً ومعرفة وإلماماً في الأمور الزراعية، ويعرف عنه رغبته الجامحة في تطوير ممتلكاته الزراعية، وبينما كنا نتجول تحت ظلال النخيل وبين شجيرات الزعفران والخضراوات تعرفنا على حمداني واسمه بالكامل إبراهيم بن مريخان الذي يؤدي وظيفة مراقب الأشغال العامة بالإدارة الوهابية ورئيس نقابة عمال البناء بالعاصمة، وبسعادةٍ قبِلنا دعوته اللطيفة إلى منزله المجاور لبستان نخيل خارج سور المدينة حيث بداخله صالة استقبال من النوع الشائع، ولكنها مجهزة بمفروشات

(١) سعود هو سادس أبناء الإمام عبد الرحمن.. ولد عام ١٨٩٠م، و لم يشارك في الأعمال العامة، وكان ميالاً للعزلة.
(٢) محمد بن عبد الرحمن رابع أبناء الإمام عبد الرحمن.. ولد عام ١٨٨٠م، وتوفي عام ١٩٤٣م، وكان مشاركاً للملك عبد العزيز في جميع غزواته.
(٣) أي إلى عتيقة.

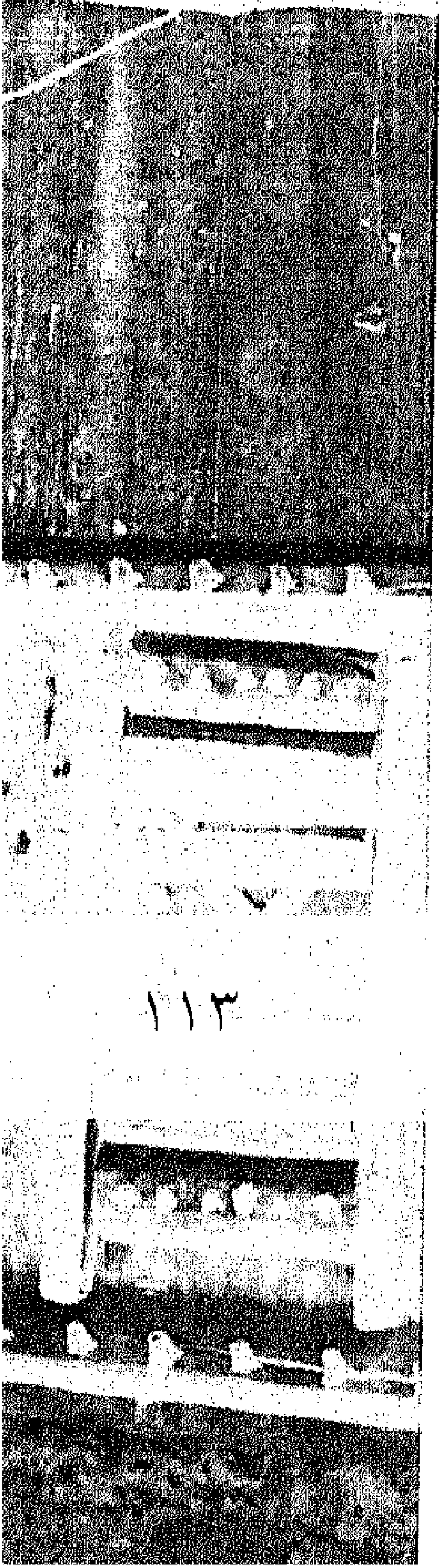


وسجاد مريح، وقضينا نصف ساعة تناولنا فيها القهوة وتبادلنا الحديث مع مضيفنا وصانع القهوة لديه واسمه إبراهيم العيد، وكان الجو حاراً بالداخل.

وفي آخر يوم من أبريل تمكنت من مشاهدة ضواحي الرياض بصورة شاملة..في نفس الأمسية وجدت ابن سعود في نفر من العائلة الملكية وكانوا على وشك الطواف على الغرف والمباني الجديدة تحت التأسيس بالقصر.. ابن سعود كان فخوراً من الناحية الشخصية بالمباني الجديدة في كل جزء من القصر.. كان عمال البناء مشغولين: يهدمون هنا، ويشيدون هناك.. ومما سمعته بعد أن غادرت الجزيرة العربية فإنه من الصعوبة عليّ أن أستطيع معرفة مداخل ومخارج القصر الآن؛ لأن كثيراً من التغييرات قد حدثت، وقد شملت عمليات التغيير.. بكل أسف تعديل واجهة القصر التي كانت بشموخها تعد أجمل أجزاء القصر، وأحسن لوحة معمارية بنجد.. لقد ساقوني الآن لرؤية القاعة العامة للاجتماعات التي شيدت حديثاً، وهي عبارة عن مبنى واسع مستطيل الشكل وبسيط في تصميمه، ويحتوي على ثلاث نوافذ فقط صغيرة وعالية، لا جدوى منها إلا التهوية، ولا يستطيع المرء أن يرى منها الساحة الخارجية.. السقف دُعّم بصف من أعمدة يكسوها الجبس نصبت على طول سقف الغرفة.. الأرضية مغطاة بالسجاد الذي كان خليطاً من الأنواع الجيدة والرديئة مما يثير الدهشة في نفس المشاهد.. أعمدة السقف والكمرة من خشب سيقان النخيل الملفوفة بقماش زينة.. الغرفة كانت جاهزة للاستعمال.. في الطابق الأرضي كانت هناك غرفة أخرى مشابهة ..لقد أتيحت لي فرصة الوقوف على جملة من الغرف التي لم يكتمل تأسيسها بما فيها الشقق التي «ستخصص للزوار أمثال جنابكم..» كما قالها ابن سعود.. أعتقد شخصياً أن تلك الشقق قد أقيمت في مواقع غير مناسبة بحكم قربها الشديد من القاعات المخصصة للاجتماعات والندوات العامة، وإنها تناسب تماماً أن تكون للخدم الذين يكونون في انتظار سيدهم، أما الشقة التي أقيم فيها فيبدو أنها كانت في موقع مناسب جداً.

كانت الإسطبلات وغرف الضيوف هي الأخرى في مرحلة التأسيس بالجناح الغربي للقصر، ومن على سطوحها أشار ابن سعود موضحاً لي الأبعاد والاتجاهات التي يعتزم بالتدريج أن تصلها توسعة المدينة، التي قد تتطلب تسوية أراضٍ مغطاة بأشجار النخيل في الركن الجنوبي من المدينة.

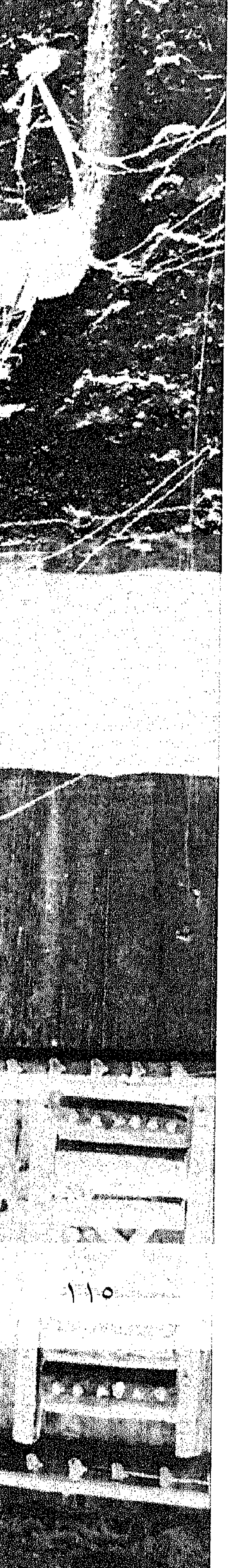
وبعد جولة سريعة بالمزارع أسرعت عائداً لمنزل شلهوب لتناول القهوة... وحسبما ذكر فإن المنزل مملوك لزوجته المحبوبة.. وهي امرأة صاحبة ذوق تلمسه من ترتيب ونظام قاعة الاستقبال بالطابق الأول، حيث أنها مزودة بسجاد ومساند هندية مزخرفة.. إلى جوار الموقد نحو ثمانية فناجين داخل دولاب يبدو أنه مصنوع في عنيزة حيث أن هيكله من خشب الأثل المزين بأزارير نحاسية وشرائح مرايا مع أربعة شرائط من الصفيح، وعلى كل جانب هناك ملصق أو علامة تجارية عبارة عن قارب سباق بثمانية مجاديف وتحته مكتوب عبارة: صنع في النمسا.



وقرية أو واحة منفوحة، التي تفصلها عن واحة الرياض سلسلة تلال منخفضة، تتكامل مع الأخيرة تماما، وقد قمت بزيارات متتالية إليها خلال تلك الأيام؛ حيث أنها تقع على بعد ثلاثة أميال ناحية الجنوب الشرقي من العاصمة التي يربطها بها طريقان: أحدها يمر إلى جانب منخفض الشمسية ناحية المقبرة الملكية[1] التي يقع طرفها الأيسر على بعد نصف ميل شرق المدينة ..ومن ثم سلسلة التلال المذكورة بعاليه حيث يظهر منها خور عريض ضحل بينها وبين دربيات الخيل.. ومن الطريق يشاهد المرء على بعد ميلين مساحات صغيرة مزروعة وبعض الآبار، وبعد قليل يدخل المرء منطقة خربة ومدمرة توحي بأنها كانت قديماً مدينة عظيمة لا تقل في حجمها عن مدينة الرياض.. الطريق الآخر يمر من البوابة الجنوبية للمدينة ناحية الجنوب في وسط بساتين النخيل، وبعد تجاوزها بمسافة ميل يدخل الطريق في سهل ممتلئ ببقايا مخافر قديمة، وبوجود السلسلة الجبلية التي تفصل السهل يستطيع المرء أن يشاهد بوضوح أشجار النخيل في الضاحية الشمالية من الرياض، وأيضاً الباطن ناحية الغرب، ومنفوحة، وامتداد بساتين النخيل إلى الجنوب.

وتحيط آثار وبقايا مباني منفوحة القديمة بالمباني القديمة بالقرية، وتمتد على طول الجانب الشرقي لحزام النخيل، ولم يبق إلا القليل من تلك الآثار القديمة، يُصعب على المرء أن يتصور أن مدينة قديمة كانت في ذلك الموقع، خصوصاً وأن العهد تقادم عليها؛ ولم تكن الرياض وقت ازدهارها إلا قرية صغيرة، وكان أميرها دهام بن دواس وأسلافه منافسين للإمام محمد بن سعود وابنه عبد العزيز بالدرعية.. ومن أطلال أحد أبراجها القديمة ألقيت النظر إلى القرية التي قامت مكانها.. مداخلها السبعة إلا القليل منها بالية واهنة، وسورها تكثر فيه الثقوب والثغرات، وأبراجها في حالة يرثى لها.. مئذنة المسجد الرئيس تقف شامخة بين البيوت الطينية العتيقة، وعلى خلفيتها غابة كثيفة من أشجار النخيل التي تمتد لمسافة ثلاثة أميال طولاً وبعرض ربما ربع ميل تقريباً.. وقبل الاتجاه نحو القصر قطعت الجزء الأكبر سيراً من امتداد السور الدائري الذي يشكل سداسياً غير منتظم الأضلاع بطول قطر يبلغ حوالي ٣٥٠ ياردة، ويحيط هذا السور بكتلة سكنية ربما يبلغ تعدادها ٢٥٠٠ نسمة، وبين هؤلاء لا يوجد -كما قيل- شخص يوصله نسبه إلى الأسرة الحاكمة السابقة .. وبتجاوز البوابة الجنوبية لمحت شارعاً جميلاً على جنباته قليل من المتاجر يمكن باتباعه أن تتجول خلال القرية، أما بقية الشوارع فكانت ضيقة ومتعرجة.. مجموع السكان عبارة عن خليط من البشر مثله كمثل سكان الرياض، ولا يوجد بينهم من يعيش حياة الترف.. ولبعض الأسباب فإن ربع دخل الخزانة الملكية يأتي من عائدات تمور وقمح واحة منفوحة؛ ربما لأنها تشكل سهلاً واقعاً أسفل التلال المحيطة والتي تشكل مصدر مياهه خصوصاً في ظل توفر قنوات صرف جيدة تغذيه بمياه السيول، ولكن يبدو من الناحية العملية أن ابن سعود مقتنع وراضٍ بجباية نسبة ٥٪ من جملة المحصول، كما يفعل بحقول واحة الرياض وبقية مناطق نجد الأقل فرصاً في الري.. طريقنا للرياض مر بسلسلة من أبراج المراقبة الخربة والمهجورة التي ربما

(١) مقبرة شلقا.



تذكرك بأزمنة سحيقة.. أرض فراغ تقسم حزام النخيل إلى جزأين: الجزء الشمالي يتبع لمنفوحة نفسها بينما يتبع الحزام الجنوبي لقرية المصانع وهي قرية صغيرة عدد سكانها ٤٠٠ نسمة يحكمها الأمير ابن زيد، وعلى طرفها الجنوبي يوجد حصن ضخم يسمى مزعل ويبدو أنه قد شُيّد إبان عهد حكم عبد الله بن فيصل قبل نصف قرن؛ ليوفر الحماية للعاصمة من الناحية الجنوبية.

وينحدر المجرى الرئيس لخور الشمسية ناحية الجزء الشمالي من المدينة ثم يميل إلى ناحية الجنوب الشرقي نحو واحة منفوحة ليلتقي بوادي حنيفة في الطرف الجنوبي منه، ويجري فرع إضافي منه عبر بساتين النخيل في غرب وجنوب الرياض نفسها ليلتقي بوادي حنيفة عند نقطة مصب مجراه الصخري عبر هضبة طويق، حيث ينحرف انحرافاً حاداً إلى اتجاه جنوبي على امتداد الجوانب الخارجية للمرتفعات. ويكوّن المياه المحبوسة في وادي حنيفة التي تندفع خلال موسمي الشتاء والربيع بكميات ضخمة ناحية الشرق.. يجرف في الظروف الطبيعية في المنطقة المغطاة الآن بحزام النخيل الجنوبي من الرياض وحزام نخيل منفوحة قبل أن يصب في الوادي العريض بين مرتفعات طويق من ناحية ودريبات الخيل من الناحية الأخرى.. الضفة اليسرى للخور يبدو أنها أضعف من أن تتحمل قوة المياه المنطلقة من المرتفعات؛ مما يؤدي إلى أن ينحرف المجرى جنوباً على طول امتداد الأجزاء المنخفضة من منحدرات طويق.. بعد حوالي الميل تضيق المساحات عن المجرى لتشكل ما يشبه سداً يبلغ ارتفاعه حوالي القدم أو أكثر من قاعدة المجرى؛ مما يدفع بالمياه إلى قناة فرعية منها تتفرع وتتشعب المجاري في عدة اتجاهات ناحية حزام منفوحة.. بينما يبقى في نفس الوقت بعض الماء منساباً في المجرى الرئيس.. قاعدة هذا السد تتصل بصخور تحتية راسخة بها بعض التجاويف مما يجعلها تحتفظ بالمياه لفترات طويلة من العام، وقد شاهدت مياه تلك التجاويف إبان زيارتي.. في واقع الأمر كنت سيئ الحظ بعض الشيء إبان تلك الجولة؛ حيث فاتتني قبل دقائق قليلة مشاهدة المنظر الرائع لوادي حنيفة في حالة فيضان ضخم.. لقد سرت مع منور وعطا الله إلى منفوحة؛ ومنها إلى مكان سد منخفض حيث وقفت نصف ساعة أتأمل براعة وجمال بنائه، بينما قام رفاقي بالوضوء والصلاة.. في ضوء الغسق اتجهنا ناحية القصر عبر أشجار النخيل، وبوصولنا لأبواب المدينة باغتنا رجل متخطياً، ويبدو أنه قادم من عند السد من الباطن بعد حوالي عشر دقائق من مغادرتنا.. قال: هل رأيتم السيل؟.. والله ربنا كريم، لقد عبرت الوادي في الوقت المناسب، وبعد عبوري فاض الوادي وامتلأ مجراه.. الأخبار التي أوردها أكدها شخص قادم من الدرعية عبر بجماله المجرى في اللحظات الأخيرة، ومن ثم فاض الوادي.. ولو تأخر الأخير دقائق قليلة في العبور لظل في الجانب الآخر حتى الصباح، لأنه عندما يكون في حالة فيضان لا يجرؤ شخص على عبوره.. كان أعظم وآخر فيضان في ذلك المُوسم.

يوجد بين ثنايا طويق بعد مسافة ميل صعوداً من البداية وادي حنيفة والباطن الذي يتميز بازدهار أشجار

مشهد لمنفوحة، إحدى القرى المجاورة لمدينة الرياض. فيلبي، ١٣٣٧هـ/١٩١٨م.

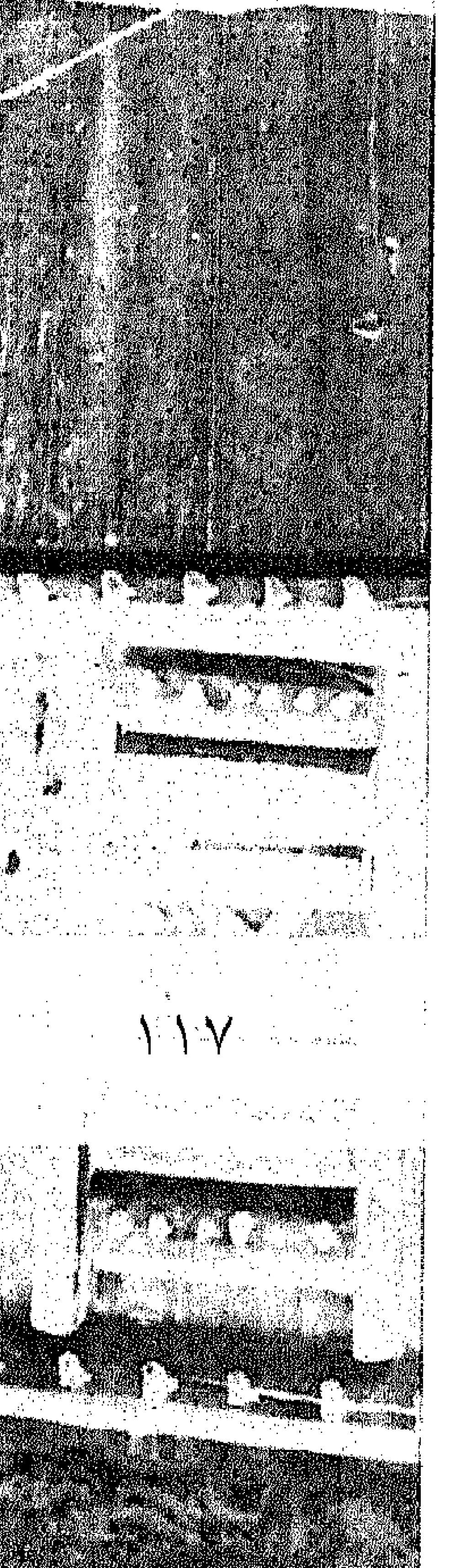




النخيل على ضفتي مجراه، ووجود طبقة ضيقة من الرمال المخلوطة بفتات الصخور وتجمعات الطمي.. خصوبة هذه التربة تتجدد سنوياً بمزيد من الطمي الذي تجرفه مياه السيول لتملأ به شقوق التربة؛ مما يجعل أشجار النخيل والخضراوات والبطيخ والقمح فيها أكثر إنتاجية مقارنة بجميع المناطق الزراعية الأخرى بالرياض الواحة، ولكن لا توجد بهذه المنطقة مساكن للإقامة الدائمة سوى بعض الأكواخ والخيام الخاصة بأتباع ابن سعود أو الملاك الآخرين لهذه المزارع.. الباطن يمثل الملاذ المحبب لأهل ومواطني الرياض وخصوصاً أفراد العائلة المالكة أيام العطلات حيث يتجمعون بأعداد كبيرة على ظهور خيولهم في منافسات الرماية والسباق والمسابقات الرياضية الأخرى، ويقضون اليوم كله من الفجر حتى الليل، ويتخلل ذلك فترات لتناول الطعام وشرب القهوة وأداء الصلوات في أوقاتها.

وفي اليوم نفسه وبعد صلاة الظهر رافقني إبراهيم لمنزل سعود بن عبد الرحمن، أخي ابن سعود الذي سبق أن قابلته مصادفة مرتين أثناء جولاتي الخارجية.. قال لي: بأنه يغادر منزله مرة في الأسبوع لإدراك صلاة الجمعة في المسجد الكبير.. في مثل هذه المناسبات يكون الشيخ عبد الله أكبر[1] شيوخ الوهابيين. هو الإمام، وابن سعود يجلس خلفه مباشرة في منتصف الصف الأول، ووالده عن يمينه، بينما يحتل أفراد العائلة المالكة الآخرين أماكن غير بارزة في الصفوف الأخيرة أو الوسطى لجموع المصلين.. الجنيفي حدثني بأنه مرة عدّ صفوف المصلين فبلغت ثلاثين صفاً داخل المسجد وعشرة صفوف في السطوح، وفي كل صف حسب تقديراته ٣٠٠ شخص.. هذه الأرقام تشير إلى أن عدد سكان الرياض الذكور فوق عمر السادسة ١٢٠٠٠ نسمة.. لكن هذا الرقم أكثر من العدد الفعلي في ضوء حقيقة أن طول المسجد فقط ٧٥ خطوة ربما تكفي لـ ١٢٠ إلى ١٥٠ مصلٍ في الصف الأول ولا أكثر من ذلك.. فإذا قبلنا بالرقم الأكبر فإن عدد الذكور من المداومين على الصلاة بالمسجد في عمر السادسة وما فوق نحو ٦٠٠٠ شخص.. إليها يضاف الأطفال الذكور والنساء والبنات، ويبدو لي دوماً أن التقدير المناسب لتعداد سكان مدينة الرياض هو ٢٠٠٠٠نسمة، وربما في جميع الاحتمالات في حدود ١٨٠٠٠ نسمة.

كان اليوم التالي يوم جمعة وتركت وحيداً حتى بعد صلاة الجمعة، ومن ثم جاءني إبراهيم لنقوم بزيارة شلهوب حيث وجدنا في صالة استقباله القبيسي وحمداني مجتمعين.. كان الجو حاراً مملاً، وبعد قليل بدأ العرق يتصبب من وجوهنا.. مقعدي كان في مكان أكثر تشريفاً وقريباً للنار المتوهجة.. رفاقي الذين عادوا للتو متعبين من تأدية صلواتهم، كانوا يلتهمون التمر بنهم ملحوظ وأمامهم الحليب، أما أنا فلم أستطع مجاراتهم في الأكل في ذلك الجو الحار.. القهوة كانت مصنوعة من أفضل أنواع البن.. البن اليمني الأصيل الذي يقدم في مجتمعات الرياض للضيوف المتميزين.. والزوار



(١) هو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.. ولد عام ١٢٦٥هـ، وتوفي عام ١٣٣٩هـ. (البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون، الجزء الأول، ص ٢١٥.

القادمون من الجنوب يحسون بالإهانة إذا قدمت لهم القهوة الهندية التي تعد مناسبة للناس العاديين.

استضافني في نفس الأمسية القصيبي مع مجموعة من الأصدقاء في منزل زوجته الجديدة، ومن هناك تحركنا من أجل زيارة محمد بن عبدالرحمن، أخي ابن سعود الأكبر الذي يواجه منزله السور الشرقي للقصر.. عند الباب الخارجي قرأت كلمات منقوشة على الجدار «بيت خالد» تدل على أن المبنى كان مقر إقامة أم الابن الأكبر لمحمد واسمه «خالد».. وبعد أن طرقنا الباب دخلنا دون مراسيم، وانتقلنا من الممر إلى قاعة مستطيلة أبعادها غير عادية.. السقف مدعوم بأعمدة، والجدران مزخرفة برسومات مختلفة الأشكال والأنواع.. جملة من الدوائر المدهونة بألوان حمراء وزرقاء مع سلال وقدور يبدو أنها لزراعة الزهور والشجيرات، ولوحات توحي بعدم مهارة المحاولات في رسم المساجد والمآذن التي جمعت في خطوط دون ترتيب، ولكنني أعجبت تماماً بلوحة رسم عليها سفينتان في حالة إبحار، وقد لاحظت في الرسومات غياب المخلوقات الحية عن العمل الفني والزخرفة داخل القاعة الذي أكمل بدهان أعمدة السقف بألوان حمراء وبيضاء وزرقاء.. القاعة مفروشة بالسجاد، والمساند مثلها مثل الغرف التي تشبهها، ولكن موقد القهوة أكبر من أي موقد آخر بالرياض، وعلى جواره تسع دلال قهوة إحداها أكبر ما شاهدته في حياتي.

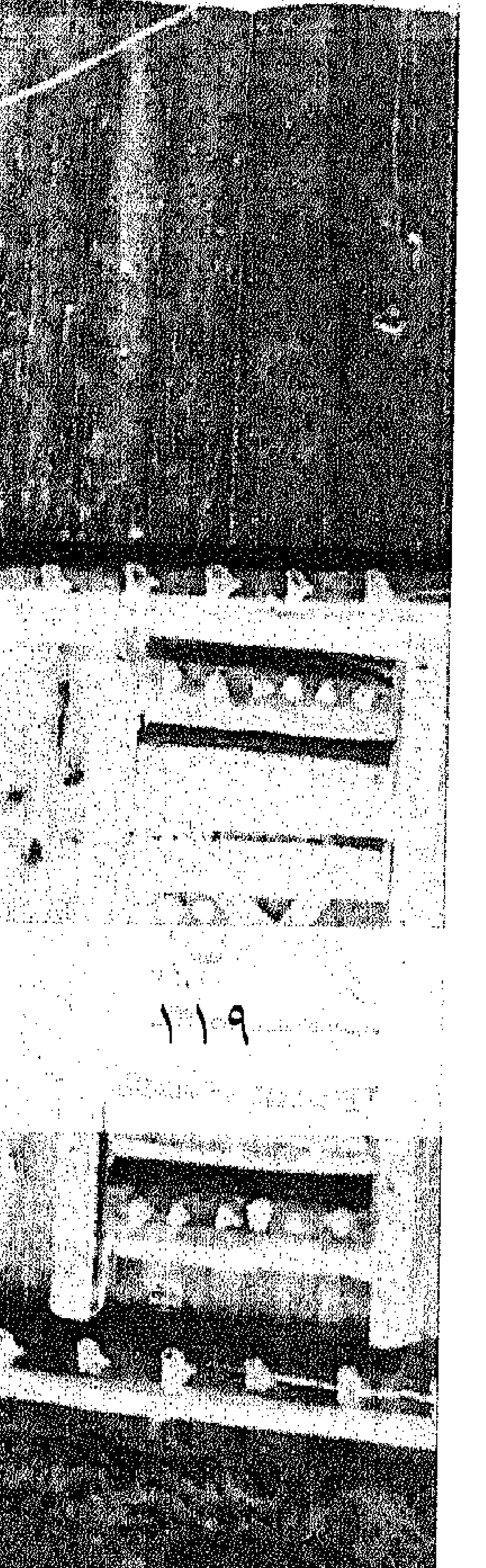
* لقد غادرت الرياض في رحلة إلى وادي الدواسر، ثم عدت مرة أخرى إلى الرياض في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان عام ١٣٣٦هـ المصادف الرابع والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩١٨م، بعد انتهاء زيارتي للمناطق الجنوبية.

وفي هذا الشهر كان ابن سعود يعقد جلستين في اليوم: الأولى بعد نومه الصباحي، والثانية بعد صلاة العصر؛ ليعالج أمور الناس، ويسمع شكاواهم وتوسلاتهم إلى غير ذلك.. ونادراً ما يتركني بدون أن يطلبني مرتين خلال اليوم في الصباح والمساء، ليناقش أموراً متعددة تتطلب اهتمامه الشخصي.

إن أول ظهور للفجر الكاذب يأتي تقريباً بعد سبع ساعات ونصف من غروب الشمس، وكانت الإشارة لبدء الاستعداد ليوم جديد من الصيام تتم بتعليق لمبة ضوئية على سارية تشبه المشنقة فوق سطح القصر الملكي، بعد الأذان الأول، يستيقظ كافة الناس ليجهزوا ليوم جديد: يأكلون ويشربون حتى ينادى للفجر الصادق بصوت أذان جوامع عدة، ومن ثم يتوقف المصلون عن الأكل والشرب حتى أذان المغرب، وذلك لمدة ١٥ ساعة ونصف مع الحرارة الشديدة والجو الجاف المُغبر؛ ولذلك كان النوم هو الملجأ الطبيعي لضعاف الروح. لكن ابن سعود كان له عزمٌ صارم وقليل من النوم والراحة، ساعةً بعد صلاة الفجر، وساعتين ونصف قبل الظهر، وساعةً قبل صلاة العصر،

* هذا الجزء الخاص بالرياض نشره فيلبي في كتابه: H. Sw. B. Philby, Arabia of the Wahhabis, London: Arno Press, PP. 1-67.





وحوالي ساعتين (ولأقصى حد ثلاث ساعات) خلال الليل.

كان ابن سعود يصعد إلى طابق علوي في جناحه الخاص في القصر قبل ربع ساعة من الغروب؛ لينضم إلى عدة أفراد من العائلة المالكة، وعند سماع صوت الأذان ينادي لصلاة المغرب يمسك كل رجل بحبة تمر بين إصبعين مرددين جملة: بسم الله.. مرات عدة مع الصلاة على النبي.. وتكون حبة التمر أول ما يبدأ به الإفطار، ثم يليه شرب الماء لسد عطش اليوم، ثم يُقدَّم صحن كبير من شرائح البطيخ التي تستهلك في شهية كبيرة.. وتقام صلاة المغرب، وبعدها يُقدَّم العَشاء، ولكن القليل منهم يستطيع تناوله بعد أخذ كمية كبيرة من السوائل من الماء والبطيخ.

بعد وجبة العَشاء يذهب كل رجل إلى بيته لينضم إلى زوجته وأولاده حتى صلاة العِشاء حيث الذهاب مرة أخرى إلى مسجد القصر، ولعامة الشعب الصلاة في مساجد المدينة. يلي صلاة العشاء قراءة القرآن بعد أخذ استراحة قصيرة من خلالها كان ابن سعود يأتي لزيارتي على سطح القصر الذي كان مخصصاً لي في الليل؛ لأستطيع من هنالك دراسة صلوات المصلين في المسجد في الأسفل، ويتبع هذه الصلاة صلاة التراويح التي تقام كل ليلة في الشهر لمدة ساعة تقريباً يجري خلالها عدة تسليمات لعدة دقائق.. ويضاف في الأواخر العشرة من رمضان صلاة قيام الليل بعد صلاة التراويح وهي صلاة تمتد حتى السحور، وتأخذ كل ركعة حوالي ربع ساعة، مما يؤدي إلى بعض التعب، الذي يخفف منه راحة قصيرة لتناول بعض الشاي أو القهوة التي تُقدَّم في فناء المسجد.

لقد أصبح شهر رمضان الآن في آخره، وفي يوم السابع من تموز عام ١٩١٨ الموافق ٢٨ رمضان عام ١٣٣٦هـ تكلم ابن سعود بشكل عام عن الصوم، متسائلاً: إذا كان القمر سيظهر في الليلة التالية؟.. ولمعرفتي بالتقويم البحري، وإمكانية التحقق من القمر؛ فإنه ممكن أن يظهر في ظروف معينة، فذكرت أن من المحتمل أن تدل الليلة القادمة على العيد على الرغم من تقديرات رجال الدين التي تتجه لإكمال رمضان ثلاثين يوماً.. قبل غروب الشمس تجمع حشد كبير من الناس على سطوح منازلهم رافعين رؤوسهم، وكان معظم الموجودين من النساء لمقدرتهم على الرؤية أكثر من الرجال.. كنت غير مرتاح لإعطاء احتمال عن ظهور القمر، وللحظة تجمعت كمية غيوم في جهة القمر خلال اللحظات الصعبة، وعندما غابت الشمس أعطت بلونها الأصفر لوناً زهرياً.. حل الظلام وكان الجو صافياً، ولعدم رؤية القمر نزل معظم الناس عن سطوح منازلهم.

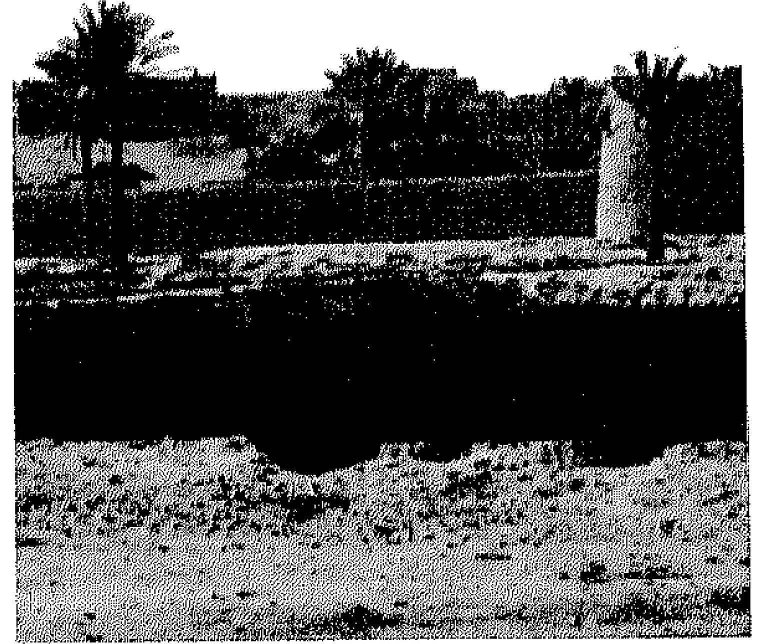
لم تكن خيبة أملهم أكثر مني حيث فشلت كتبي في اختبار صعب، ولشعوري بالتعب في عقلي أكثر من جسدي تمددت تلك الليلة على سطح القصر، وبدأت التقط بعض الصور.. كانت الساعة الثانية فجراً عندما سمعت صوت صلاة قيام الليل من المسجد، ولكن شيئاً واضحاً قد حصل أستطيع حسه، لقد صعد صالح ليغير القوس الضوئي المضيء طوال العشر الليالي الماضية، و لم يضع الوقت بإخباري الأخبار الجيدة بأن بعض البدو من دخنة وصلوا لإعلان مشاهدة هلال رمضان، حيث

أُرْسِلوا إلى الشيخ الرئيس عبد الله[1] ابن عبد الوهاب الذي جمع قاضيين آخرين في الحال؛ لأخذ الشهادة منهم. وبعد اقتناع القضاة بالشهادة، وتأكدهم استيقظت على صوت عيارات نارية، وكان ذلك أول إعلان لأهل الرياض بالاحتفال بالعيد.. انتهت صلاة القيام عند التسليم، وبعدها بدأت التهاني.. لا أستطيع تصور الأشخاص عندما انتهوا من آخر ركعة وآخر سورة في التسليمة الأخيرة والانتهاء من الصيام العظيم إلى سَنةٍ مقبلة.

أشرقت الشمس على الأهالي الذين ارتدو أحلى الثياب لبدء الاحتفال بالعيد، وفي الساعة الخامسة والنصف صباحاً صحوت من نومي لأنزل إلى شقتي قبل رجوع الحشود من الصلاة.. تأخرت قليلاً في النزول لأحدق من أعلى على المدينة، وهبت عاصفة غبار، وغطت الشمس التي كانت تصارع لتخترق الغبار.. بدت المدينة مهجورة بشكل تام، ولم يسمع وقتها إلا ثغاء عشرات الخرفان التي سرحت من مرعاها منتظرة ذبحها؛ لتقدم وليمة لاحقة في القصر. ذهب جميع رجال المدينة إلى إقامة صلاة العيد خارج البوابة الشمالية الشرقية.. تبدأ الصلاة عادة عند شروق الشمس بوجود ابن سعود، وتستمر لمدة نصف ساعة.. عند رجوع الحشود من الصلاة قُدِّم لهم في القصر أطباق لا تعد ولا تحصى من الأرز ولحم الخروف وضعت للضيوف في ساحة القصر، وعندما ينتهي كل رجل من الطعام يقوم من مكانه ماصاً أصابعه ماراً أمام شباك غرفتي، ثم يضع يديه في وعاء من الماء وضع لهذا السبب، وهكذا واحداً تلو الآخر بدون نهاية.. يجففون أيديهم بثياب العيد، أو على الحائط الطيني للساحة، ويجلس ابن سعود في غرفة استقبال لتقبل الولاء والتهاني.

لم تكن الحياة أكثر تنوعاً عمّا كانت عليه في ظلال الصيام باستثناء بعض الزيارات القليلة التي سجلت.. قسمت وقتي بين شقتي وسطح سارية العلم التي أصعد إليها بانتظام مع كتبي وأوراقي ومواد الكتابة حالما تكون الشمس منخفضة قليلاً؛ ليغطيني ظل الشرفة التي منها أنزل بانتظام مماثل كل صباح عندما تعجز الشرفة أن تظلني من الشمس المرتفعة.. خلال النهار يكون هناك طبق ممتاز وعنب معقول متوافر دائماً من أجل إنعاشي، ووجبتي تقدم دائماً من المطبخ الملكي بالرغم من شهر الصيام.. وفي الواقع كان المطبخ أقل نشاطاً من الأوقات العادية؛ لأنه يوجد دائما الغرباء عند البوابات، وهم لا يلزمون بالصوم.. يبدو أن البطيخ العظيم من الأماكن المجاورة هو المادة الدائمة للغذاء في هذا الفصل، خصوصاً في المساء..وبطيخ الرياض أو بالأحرى المصانع ومنفوحة مشهور في شبه الجزيرة العربية لحجمه الكبير وطعمه اللذيذ.

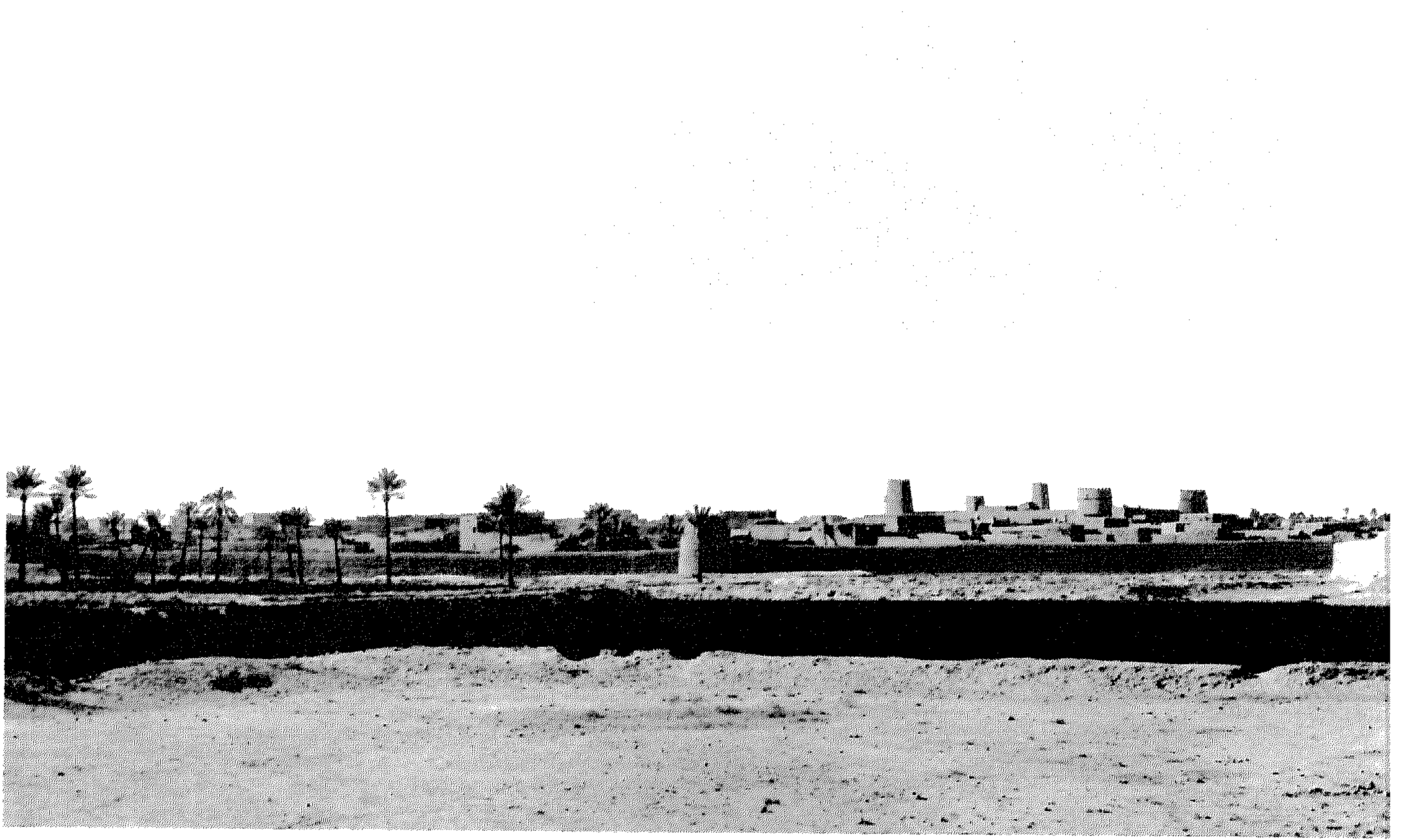
خلال عصر اليوم التالي جاء إبراهيم الجنيفي ليصطحبني في رحلة إلى حديقة الحوطة[2]، وهناك



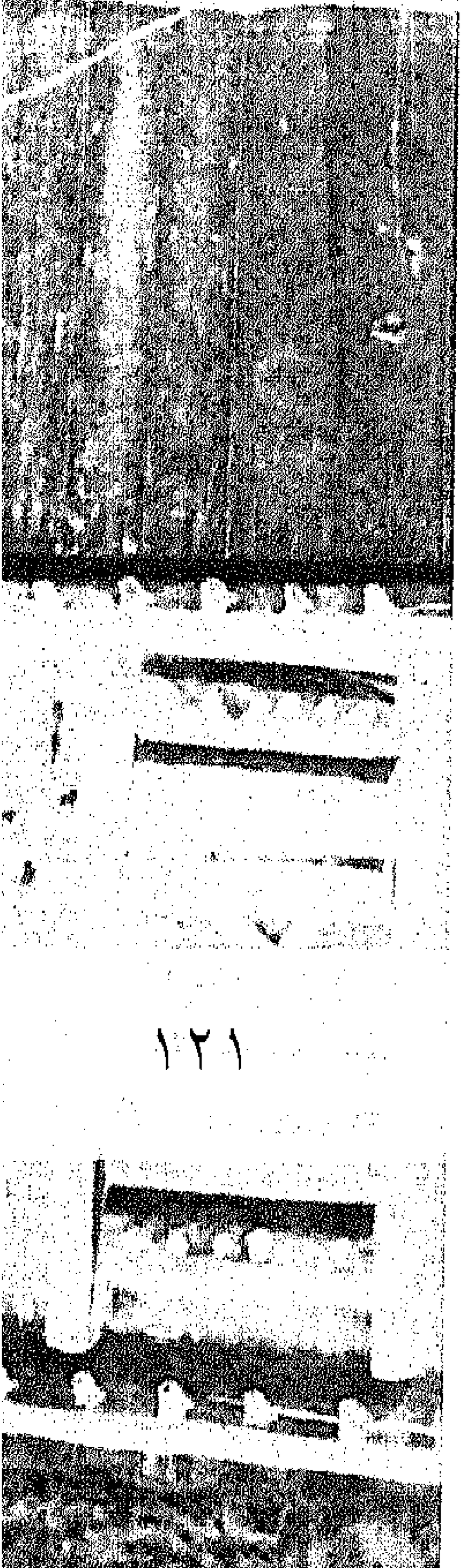
(١) هو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ.

(٢) قد تكون هي حديقة الفوطة أو أنها حوطة خالد، وهي تقع جنوب حي المربع.. كان بها قديماً أبراج للمراقبة ومسجد قديم.





الرياض من جهة الجنوب الشرقي. فيلبي، ١٣٣٥ أو ١٣٣٦هـ-١٩١٦ أو ١٩١٧م.



شاهدت ابن سعود وأصدقاءه جالسين في استرخاء على أعشاب كثيفة في بستان لشجر الخوخ.. كانت هذه أول مرة أخرج خارج أسوار المدينة منذ عودتي من الجنوب واستأنفت سيرتي الأولى في مجتمع الرياض بعد شهر الصيام.. جلسنا وتحدثنا حول طبق من العنب اللذيذ جلب من الشجرة المجاورة ثم انتقلنا إلى حديقة أخرى تدعى قميعة[1] ؛ لنشاهد قطيع النياق الحلوبة الموجودة في ساحة القصر القديم الذي بناه تركي العظيم، وفيما بعد دمره ابن رشيد.

انتهت الرحلة بعد صلاة المغرب التي انسحبت قبلها بحذر إلى حديقة خزام[2] حيث استمتعت بمشاهدة ثعلب يبحث عن فريسة قرب الأسِرَّة المعدنية خارج الحائط حتى كان موعد العودة إلى البيت.. واجتمعنا مرة أخرى

(١) هي القميعة تصغير قمعة، وهي من أهم الروضات الواقعة شمال مدينة الرياض قديماً، وهي إلى جنوب غرب خزام وشمال حوطة خالد، ودخلت الآن في حي الفوطة.. والاسم قديم ذكره ياقوت في معجمه ولكنه ذكره على أنها القمعة هكذا، والذي يظهر من وصفه أنه القميعة المعنية هنا.

(٢) حديقة أو نخل خزام يقع جوار مبنى مجلس الوزراء قديماً، وهو شمال أم قبيس وشرق الفوطة، وهو داخل الآن في حي المربع. كان قد غرسه وملكه الأمير سعد بن عبد الرحمن آل سعود وأبناؤه.

لرحلة في حديقة البديعة التي تخص الإمام عبد الرحمن. كانت تعد إحدى أفضل الحدائق في الواحة، إلا أن مظهرها هذه السنة كان جافاً بعض الشيء، وعذوق التمر صغيرة، ومع ذلك كانت أشجار الخوخ ممتلئة بثمارها الناضجة للتو، ومساحة عرائش العنب تغطي مناطق واسعة.. كان منظر رؤية عناقيد العنب المتدلية كالرواسب الكلسية جميلاً.. جلسنا في ظل شجرة السدر الكبيرة قرب جدول ساقية يجري نأكل الفواكه ونتحدث.. قال ابن سعود: بالتأكيد أحب أن يكون عندي طبيب جيد، وأفضل أن يكون مسلماً، ولا أعارض إذا كان إنجليزياً لعدم توفر المسلم.. هذا موضوع سأناقشه معك في وقت آخر.. ولسوء الحظ لم يعد فتح الموضوع بيننا.. والوباء الأسباني (الرشح) [1] الذي غزا المنطقة الوسطى من شبه الجزيرة العربية في فصل الشتاء في تلك السنة وجد العائلة المالكة والعامة بدون وقاية.. الدكتور هاريسون من البعثة الأمريكية في البحرين طُلب على عجل، ولكنه وصل متأخراً جداً لينقذ بعض الضحايا من المرض المميت.

في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي الموافق ١٢ يوليه أعلموني بأن ابن سعود قد ركب وخرج، وأن حصاني الصغير جاهز إذا رغبت في اللحاق به؛ لذلك ركبت حصاني الصغير، واتجهت صوب الشمال الشرقي، ومررت في بوابة مصلى العيد حيث عددت حوالي ٢٥ صفاً من خلال أقدام المصلين، ومررت بجانب خيام البدو في منطقة البطحاء في حديقة تسمى العود حيث انتظرنا في أول يوم وصولنا للرياض حتى جاءت الإشارة بالسماح لنا بالدخول إلى المدينة.. المساحة إلى الشرق من الحديقة كان مليئة بخيام البدو.. وفي منطقة واسعة منها كانت قد أخليت لهذه المناسبة؛ حيث كان ابن سعود يجلس في وسط جماعة كبيرة.

إن حياة الرحلات في الرياض خلال الشهر الذي يلي شهر الصيام الكريم متعة ثابتة، ورأيتها أنها كانت الأفضل في ١٥ تموز عندما قرر ابن سعود قضاء يوم كامل في بستان النخيل في الباطن، حيث غادر هو ومرافقوه مبكراً، أما أنا ومجموعتي فقد غادرنا المدينة لنلتحق بابن سعود عن طريق بوابة المريقب[2] متقدمين من ذلك المكان عبر بساتين نخيل، وخرائب المدينة القديمة المبنية في عهد دهام بن دواس أيام المنافسة بين الرياض والدرعية.. من ذلك المكان خببنا، أو اخترنا طريقنا عبر السهل المجدب، ودخلنا قناة الباطن، وتابعنا إلى حديقة ابن سعود حيث وجدناه هناك.. ولبرهة فيما بعد جلسنا نشرب القهوة، ونتطيب في مبنى من الطين، وبعدها ذهبنا إلى حديقة داخلية مسورة فيها وفرة كبيرة من أشجار: الخوخ، والتين، والرمان، والعنب.. حيث جلسنا تحت ظلال شجرة تين منتشرة وعريش.. جلسنا على سجادة بجوار ساقية ري يتلألأ فيها الماء ، وكنا

(١) الحمى الأسبانية التي توفي فيها كثير من الناس وذلك عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م وتسمى عند عامة الناس في نجد سنة الرحمة.
(٢) أصل التسمية نسبة للحي الذي يقع بالقرب منه، وهو حي المريقب بين دخنة شرقاً والشرقية غرباً.



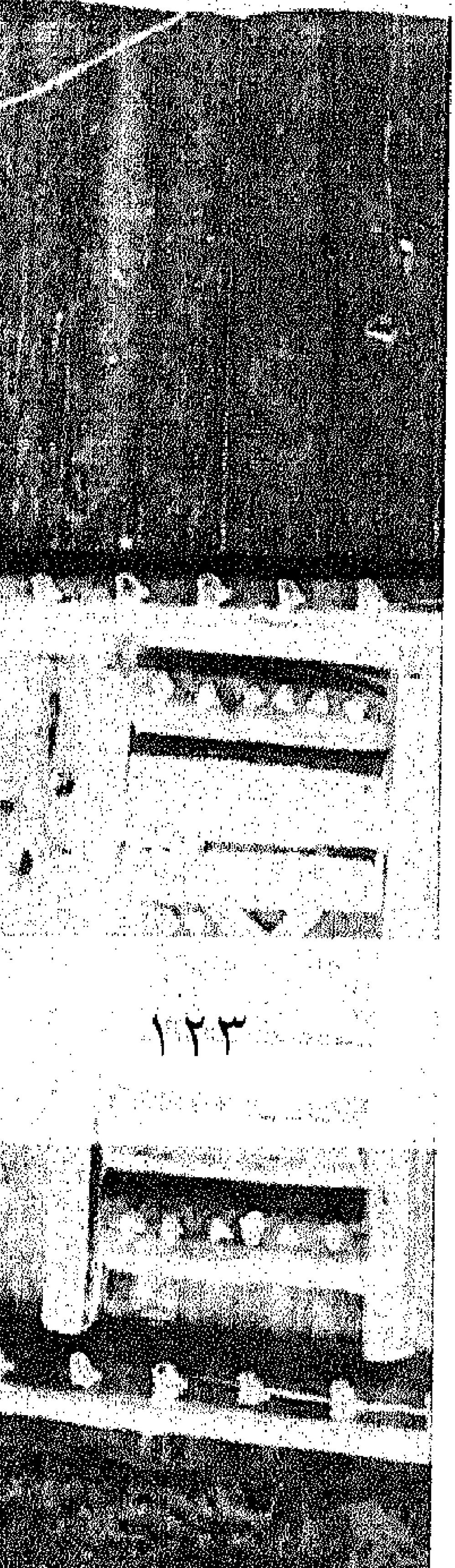
نتحدث ونلعب مع أطفال العائلة المالكة.. لعب الأطفال كما يلعب الأولاد في الطين الموجود في الساقية الصغيرة، وقلدوا كالأقزام ابن سعود الذي بدوره وبمروحته اليدوية رش الماء عليهم حتى ينصرفوا إلى غيره، وفي العودة أحضروا كمية من الخوخ.

كان ابن سعود وجماعته قد تناولوا طعام الإفطار قبل وصولنا.. جلست مع الجنيفي جانباً نأكل وجبة من التمر والزبد الطازج والعنب والحليب المقشود ثم انضممنا مع الآخرين لنشاركهم في تناول طبق كبير من العنب والتين.. انسحب الأولاد بعد فترة، وبقينا أنا والجنيفي حيث كنا.. ذهب ابن سعود ليأخذ قيلولته في البيت الطيني الذي وجدناه فيه عندما قدمنا... نمت تحت ظل رائع، وبعدها استيقظت أثر حركة رفيقي عندما نهض لصلاة الظهر.. نهضت أيضاً، وغسلت وجهي في مياه الجدول المنعشة، وبدأت أتجول باحثاً عن فواكهه..حيث كوفئت بعثوري على أعداد من ثمار الخوخ ناضجة من أشعة الشمس الحارة.. وبتناول الخوخ والعنب من التعاريش الرائعة والرمان أخذت وجبة ضخمة حتى جاء الوقت لانضم إلى ابن سعود الذي انتقل بعد استراحة الظهر إلى حديقته الأخرى على بعد ربع ميل عبر الوادي.. وجدناه جالساً مع جماعته تحت شجرة تين كبيرة قرب مجرى ماء خارجاً من بئر عمقها عشر قامات حيث كان هنالك أكثر من عشرة جمال تعمل معاً في وقت واحد لسحب الماء.. كانت البئر في الحديقة الأخرى تعمل بعدد كبير من الحمير البيض الحساوية، وكان ابن سعود ينوي أن يتخلص من هذه الحمير لتحل محلها الجمال في الوقت المناسب.

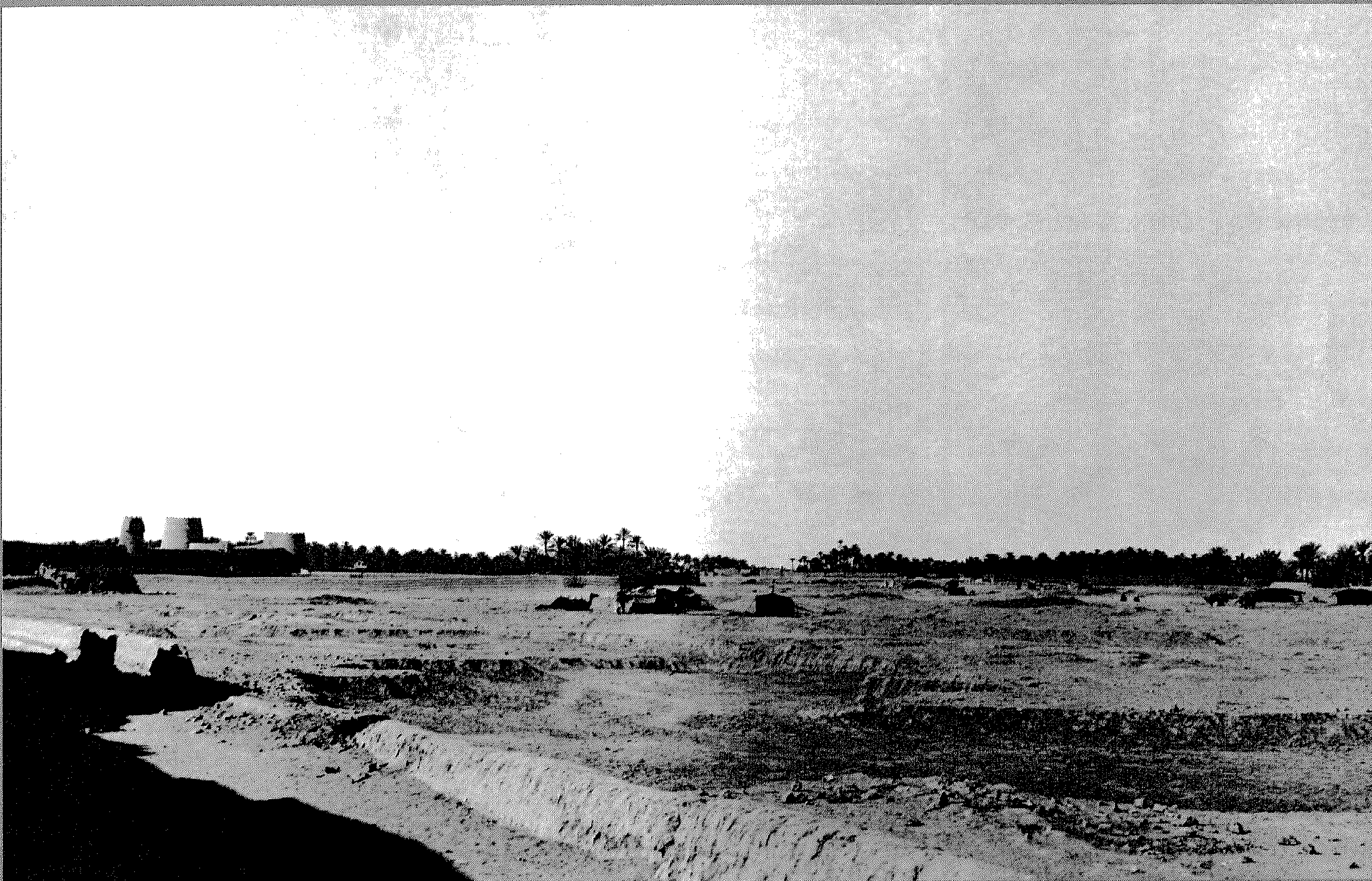
بدأ محمد بن فهد المناقشة في قنوات الري ذات الصلة بإقليمه، الأفلاج والخرج.. إيجابيات وجدوى استخدام الآلات لضخ المياه من تلك الصهاريج الطبيعية كانت موجودة في ذهن ابن سعود وأبيه، واستمر الحديث حتى جاء موعد صلاة العصر عندما اختفيت في جولة منعزلة في الحديقة وفوراً بعد انتهاء الصلاة وفي حوالي الساعة الرابعة عصراً قدم العشاء في مبنى في الحديقة الأولى.. كانت الوجبة من الأرز المجفف مخلوطاً بخبز مبلل غير تام الخبز[1] وفوقه لحم الخروف الشهي مقدمة على طبق كبير له قاعدة.. جلست بجانب ابن سعود.. وعلى الرغم من الوقت غير المألوف لوجبة مترفة، وأنني لم أتناول إلا الفواكه طوال اليوم: لكنني لم أنتظر الطبق التالي حيث أنني أكلت أكثر من المعدل، وبعد الوجبة أحضرت الأحصنة لنا جميعاً لنعود عليها إلى المدينة، وحين الوصول إلى المدينة كان حشد كبير في انتظارهم، معظمهم من الأطفال والنساء مجتمعين لرؤية مرور الموكب لتقديم التحيات والسلام على أميرهم الذي بدوره رد تحياتهم وهو سائر في طريقه.

ركبنا جميعاً في عصر اليوم التالي، وخرجنا إلى حديقة الشمسية، وجلسنا على مرتفع مشيد من الطين خارج الحائط نشاهد النياق الحلوبة الخاصة بالقصر.. كانت نحو مائة ناقة بأحجام مختلفة تسير ببطء عائدة من

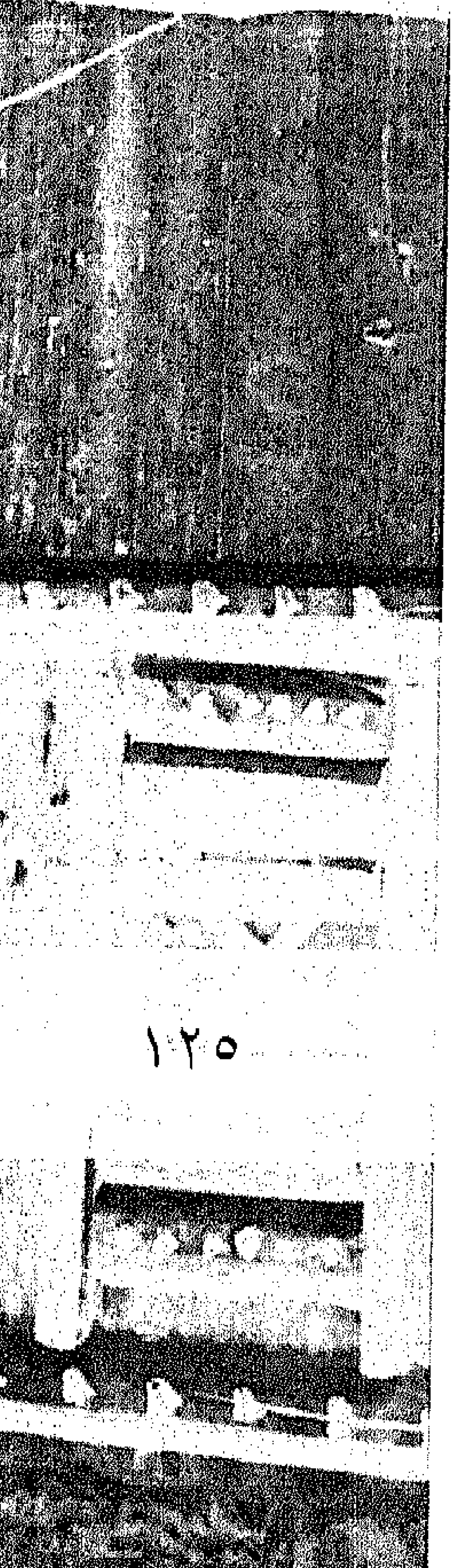
(١) القرصان.



الجهة الشمالية الشرقية لمدينة الرياض، وتظهر بعض الأبراج التي كانت من العلامات البارزة في سور المدينة. فيلبي، ١٣٣٦هـ/١٩١٧م.







المرعى ناحية جبل (أبو مخروق).. طوال الوقت كان ابن سعود يقول ملاحظات حول الحيوانات إبان مرورها.. وفي أثناء جلوسنا جاء اثنان من بدو سبيع، وأسرع خادم إلى الأمام ليحول دون تقدمهم، ولكن ابن سعود أشار إليه بأن يرجع، وسأل الرجلين أن يتقدما.. كان واحد منهم يحك فروة رأسه وأخذ يصب جام غضبه.. قالوا: بأنهم تجاوزوا بقطعانهم إلى المحمية الملكية بالخفس؛ فأوقفوا، وضربوا، وجردوا من أغنامهم من قبل الحرس الملكي.. فرد ابن سعود: حسناً، سوف أعوضها لكم جيداً.. ارجعوا إلى جماعتكم.

كنت مؤخراً قد شاهدت هندياً في البلدة، وبسؤال ابن سعود أجابني أن مجموعة قد وصلت وهي في طريقها إلى مكة كما يفعلون كل عام، وغالبيتهم من الدراويش شاقين طريقهم بشكل رئيس على الأقدام، معتمدين على كرم أهل هذه المنطقة؛ ولرخص الأسعار أخذوا في شراء الغذاء للمرحلة الأخيرة من رحلتهم.

في اليوم التالي كان ابن سعود يتنزه في حديقة القريبين[1]، غرب الرياض.. كانت عند ابن سعود نية لشراء حديقة صغيرة مجاورة للقريبين لغرض تحويلها إلى مخزن احتياطي لعلف الحيوانات والتي تعاني من شح وعدم ملاءمة الأكل المتاح لها في الرياض.. الآن نحن في ٢١ يوليو وقد أصبح التمر صالحاً للأكل حيث يبدأ في تلك المرحلة بالتلون ومن ثم ينصف قبل أن يصبح بسراً وفي مراحله الأخيرة يتحول إلى رطب.

يبدو أنه لا أثر للبعوض في الرياض، فلم أرها أبداً خلال هذا الصيف، بعكس ذبابة الرمل التي على الرغم من قلتها فإنها تحتم عليك التلحف ببطانية لاتقاء لسعها خلال الليل.. وينتشر الفراش عادة حول فانوس سطح القصر ذي النور الواضح خلال الليالي المعتمة، ومن ثم يخفض نوره بعد أن يكون ابن سعود قد فرغ من قراءة القرآن.. توجد كذلك وبكثرة حشرات صغيرة، وأسراب من الخنافس التي يبلغ طولها نصف بوصة.. ولا تتوانى الخفافيش في التهامها..معظم الأيام وبعد كل صلاة عشاء يمضي ابن سعود بعضاً من الوقت في سماع بعض القراءات الدينية.

قمت بتغيير برنامجي المسائي المعتاد .. صعدت إلى السطح وأخذت في الاستمتاع بالنظر إلى السطوح الأخرى وقد بدأت الحياة تدب فيها بمجرد أن توارت الشمس.. كل سطح محاط بجدران من شأنها الحفاظ على خصوصية ساكنيه، وبينما الشمس تشرف على المغيب رأيت النساء وهن يحملن أثقالاً ضخمة من الفرش والبطانيات، ومن ثم يقمن بفرشها لهن ولأسيادهن، ثم يسارعن بالنزول لجلب أدوات الطبخ وأباريق الماء وغنم العائلة كذلك.. في الصباح الباكر يقومون بإرسال تلك الغنم إلى المرعى، فتقوم بالرعي في

(١) كانت حديقة ثم أصبحت نخلاً يقع إلى الجنوب من شارع الشميسي الجديد، وإلى الشمال من الشميسي القديم، أما من الشرق فيحدها البويبية والقلعة، ومن الغرب أم سليم.. وقد قطع النخل وأصبح حياً سكنياً الآن.

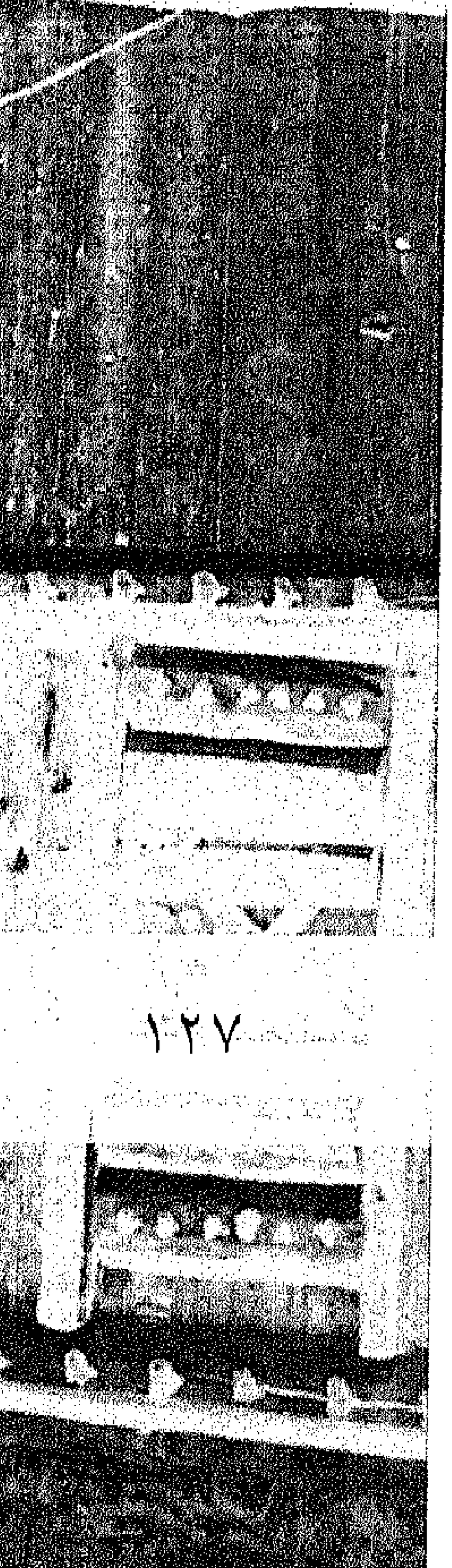
هيئة قطعان كبيرة بينما الرعاة المتمرسون من صغار السن يقومون على رعايتها وبرفقتهم حمير تحمل ما يحتاجونه من طعام وماء.. تعود تلك الأغنام في المساء، وتُوزع على أصحابها فيقومون بحلبها، ثم إدخالها في حظائرها، وهكذا دواليك.. غالباً ما تقوم المرأة بالخدمة وهي حاملة طفلها على ذراعها بينما السيدة الأخرى منشغلة بحمل الأشياء إلى سطوح المنازل، ثم العمل على ترتيبها.. يقوم على خدمة منازل الأثرياء جاريات يرتدين ملابس ذات ألوان زاهية، وقد لمحت واحدة منهن عن كثب بثوبها الفضفاض الرائع ذي اللون الأخضر المتناهي الجمال.. لا أحد يرتاد السطوح أثناء النهار سوى النساء والأطفال فقط وإن كنت أحياناً ألمح قلة من الرجال وهم يتمتعون بهواء السطوح النقي في وضح النهار، ولكن عندما يخيم الليل يبدأ الرجال بالتوافد إلى السطوح. وهكذا وعندما ساد الظلام أرجاء المدينة العظيمة تلقيت دعوة لتناول عشاء مكون من لحم الغزال.. عملية إعداد لحم الغزال بعد ذبحه تتسم بالبساطة والفاعلية؛ فبعد أن تتم عملية السلخ يُفتح بطنه ثم يُنظف وبعد ذلك يُرش عليه الملح لإزالة ما علق به من رائحة، ويُعلق في العراء المشمس حتى يجف تماماً، وبعدها يبقى لحمه صالحاً للاستهلاك لفترة زمنية طويلة[1].. قبيل الطبخ يتم إزالة ما علق بالذبيحة من دم وتراب وملح، ويتم كذلك التخلص من أي أجزاء قد أصابها العفن، وعندما يتم طهيها يميل لون لحمها ذي الطعم الشهي إلى الاحمرار الغامق. ومما هو جدير بالذكر أن هذا النوع من اللحم يُسمى "جلاً".

ذهبنا في المساء إلى منتجع ابن سعود المفضل، وهو عبارة عن جرف متاخم لسور حديقة الشمسية.. قمت بامتطاء فرس يبهج النفس ذي لونٍ رمادي بينما كان ابن سعود على صهوة فرسه المفضلة التي تشع جمالاً يؤثر في النفس.. مرة أخرى وبينما نحن جلوس رأينا موكباً من النياق الملكية الحلوب وهي عائدة إلى مرابعها.. يرى ابن سعود أن عدد إبله المخصصة للركوب منها أو للحمل تناقص إلى ما يقارب ١٥٠٠ فقط بعد نفوق الكثير منها سنة الجرب الذي اجتاح منطقة نجد عن طريق إبل الحجاج النجديين الذين أدوا فريضة الحج في السنة الماضية.. في الواقع جميع تلك الإبل عادت إلى نجد وهي مصابة وبتفاقم الأمر مع حرارة الصيف اللاهبة نفق نحو من أربعمائة إلى خمسمائة من إبل ابن سعود.. جدير بالذكر أن أسعار الإبل التي هو بصدد شرائها لغرض الحملة القادمة تتراوح أسعارها ما بين مائة إلى مائة وستين ريالاً.

وبينما نحن جلوس هناك قام الحضور بعملية تمرين للخيول تتمثل بجعلها تعدو عدواً، إضافة إلى تمثيل مناورات حربية صورية.. لاحقاً قام ابن سعود وأخوه عبد الله بمباراة للتصويب تجاه هدف من الحجارة يبلغ ارتفاعه حوالي ١٨ بوصة وعرضه ٦ بوصات وبمسافة تبعد ٥٠ ياردة..بدأت الإجراءات المبدئية للحماية

(١) وهذه العملية تستخدم مع الغزال وغيره وهي ما تعرف بالتقفير أو لحم القفر.





استعداداً لصلاة المغرب، فامتطيت ظهر جوادي، ويممنا شطر مقري داخلين المدينة من ناحية الشرق، وعندما قاربت أكشاكاً للبدو هناك انطلق منها أطفال بعضهم عراة والبعض الآخر عليهم ثياب بيضاء يعلوها الوسخ، وقاموا مازحين بقطع الطريق علينا.. خببنا الخيل تجاههم برفق، فتفرقوا وهم يصرخون، ويهتفون بالتحية لنا.

خلت الخيام من الرجال حيث أن وقت الصلاة قد أزف و لم يعد هناك سوى النساء وحدهن.. رأينا أولئك النساء وهن مرتديات ملابس فضفاضة من اللون الأحمر؛ وقد قمن بتغطية وجوههن ببراقع لا يُرى من خلالها سوى العيون على عكس حجاب نساء المدينة الذي هو عبارة عن قطعة من النسيج القطني تغطي الرأس والوجه، وبينما كنت أواصل السير انحرفت تجاه بيت جابر المري الجديد آملاً رؤيته، وعندما قابلت بعض الأطفال، وسألتهم عن بيت جابر بادروا بالقول: بيته الذي تحت الإنشاء.. إنه هناك.. دعنا نأخذك إلى هناك ذهبت معهم، وكان جابر وقتها بالمسجد يؤدي الصلاة، وهناك رأيت مجرد هيكل طيني لا تزال جدرانه رطبة ولا يتعدى ارتفاعها الياردة.

نحن الآن في التاسع والعشرين من شهر يوليو ١٩١٨م الموافق ٢٠ شوال ١٣٣٦هـ، وهانحن نقوم بتناول التمر الذي نادراً ما يتم نضجه في هذا الوقت من السنة كما يقال؛ حيث أنه من المفروض أن ينضج بعد شهر من الآن.. ذهبنا إلى قصر خزام.. يشهد القصر تلك الأيام ترميمات جوهرية، حيث يبدو أن الباحة الواقعة ما بين مقر إقامتي ومنصة القصر الرئيسة سوف يتم تغطيتها بسقف لتشكل بهواً من الأعمدة، وفعلاً فأنت ترى تلك الأعمدة وقد بدأت ترتفع.. يتم رص قواعد مستديرة من الحجر الجيري باستخدام الطين الذي يساعد على التحام بعضها فوق بعض.. عندما ترتفع تلك الأعمدة والجدران وتصبح فوق متناول البنائين يقوم واحد منهم بالصعود فوقها ومواصلة البناء، بينما ترى غلاماً وهو يقذف الطوب والطين اللزج والذي يذهب نصفه سدى بعيداً عن أيدي البنائين.. إنه لعمل بدائي ومضن كذلك!. في الوقت الذي يتواصل به البناء في جهة تتم عملية الهدم في الجهات الأخرى وبطريقة لا تقل بدائية كذلك؛ مما يعرض حياة عابري السبيل إلى الخطر.. استهلوا أولاً هدم أجنحة العبيد الواقعة في الدور العلوي.. يقوم العمال بصف أخشاب الأثل الضخمة على الجدران المُراد هدمها ومائلة بزاوية ٤٥ درجة، ومن خلال الضغط البشري على أخشاب الأثل تميل الجدران شيئاً فشيئاً، ومن ثم تنهار كلية.. أحياناً وعندما يزداد الضغط عليها تنهار تلك الجدران بعيداً إلى حد الشارع.

يتسم صيف هذا العام- كما يُقال- بحرارة فوق المعدلات الطبيعية.. ويقسم فصل الصيف فلكياً إلى فترات تبلغ الواحدة منها ٣٠ يوماً وكل فترة ترتبط بارتفاع كوكب من الكواكب.. يبدأ حلول فصل الصيف بنهاية فصل الربيع، وعندما ترتفع الثريا يعقب الفترات السابقة ذكرها ما يسمى بـ "التوييع".. وبعد خروج الجوزاء الأولى والجوزاء الثانية ومن ثم المرزم يعقبها الكليبين ثم سهيل.. بعد ١٣ يوماً يبدأ الصفري الذي عادة ما يرادف فصل الخريف أو يكون فترة انتقالية

الواجهة الغربية لمدينة الرياض. فيلبي، ١٣٣٥-١٣٣٦هـ/١٩١٦-١٩١٧م.



ما بين القيظ والذي يبدأ بالمرزم وينتهي بسهيل، وفصل الخريف الذي يتكون من ٩١ يوماً وعليه فنحن الآن في فترة ما يسمى بالمرزم.

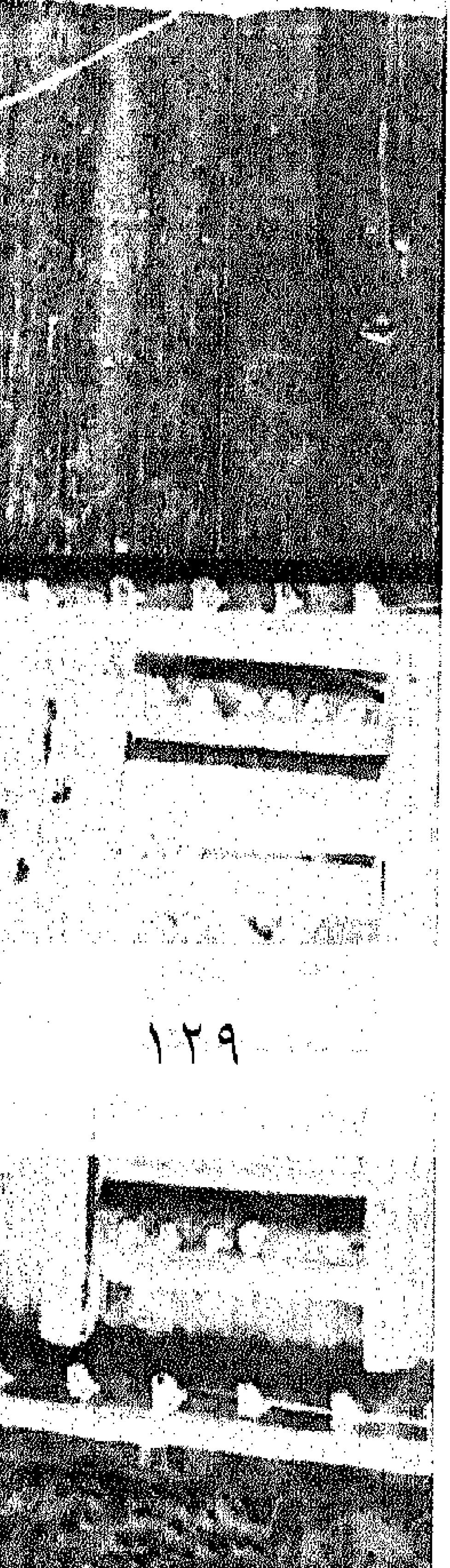
في صباح اليوم نفسه ٥ ذي القعدة ١٣٣٦هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٩١٨م ألقيت نظرة على المناخ من خلال نافذتي، ورأيته مليئاً بالجمال التي يدوي رغاؤها وهم يحملونها استعداداً للتحرك.. في الوسط من هذا المشهد رأيت راية ملفوفة سوف تكون في المقدمة حين رحيلهم.. بعد مضي ما يقارب الثلاثين دقيقة رأيت الموكب المشتمل على ما يقارب أربعمائة جمل، وهي محملة بالخيام والأمتعة ومستلزمات الطبخ في طريقها إلى الجبيلة حيث نلحق بهم غداً.. يبدو أن حرارة طقس هذا اليوم طبيعية وإن كان الأفق معتماً بينما تتكون بعض السحب الداكنة.. هناك نور أصفر مثير للفضول يشع على الأرض.

في آخر مساء لي ذهبت في نزهة طويلة مع عبد يُسمى عطا الله لإلقاء نظرة على الأماكن التي أصبحت مألوفة لديّ.. كان السوق يكتظ بالناس ورأيت أحدهم وهو يقوم بالحراج على مبخرة يبدو أن سعرها النهائي قارب سبع عشرة بيزة.. هناك أيضا بدوي واقف يحرس أغناماً بيضاء، وترى الزبائن يفحصونها جيئة وذهاباً.. بالخلف من هذا المشهد رأيت عدداً من النساء يجلسن في صف واحد عارضات للبيع -وكما يبدو- محتويات سلال مليئة بالسجاد وقطع من قماش الخيام وغيره.

لمحنا ونحن نعبر بجانب المسجد الكبير تجاه البوابة الشمالية الغربية النساء وهن يجلبن الماء من الآبار ذات الفوهات الضيقة التي انطمر منها العديد نتيجة لتوسع المدينة.. هناك قطعة من الحجر لغرض الاستناد إليها أمام فوهة كل بئر، إضافة إلى حوض حجري يملأ بالمياه لتشرب منه الحيوانات.. ونحن خارج البوابة جاهدنا كل الجهد لإفساح الطريق للماعز القادمة من المرعى.. هناك ومن بعيد رجل كبير في السن يمشي جاهداً وهو يحمل حزمة من الحطب على رأسه.. قمنا بالتجول في الحدائق بينما الفراشات تتطاير هناك بالقرب من قصر خزام.. جلست متأملاً هذا المشهد بينما كان مرافقي يتوضأ لأداء الصلاة في اتجاه غروب الشمس التي غابت للتو.. رجعنا إلى المدينة، ومررنا بحديقة الحوطة، وسلكنا بعض الشوارع الخلفية.

يتم إقفال بوابات الرياض كل يوم بعد صلاة العشاء، وفي أيام الجمعة أثناء الصلاة.. أما بوابات القصر فيتم إقفالها خمس مرات في اليوم وتظل مقفلة من المساء وحتى صلاة الصبح ولا تُفتح أبداً لكائن من كان؛ فهذه تعليمات ابن سعود التي لا يجرؤ أحد على الإخلال بها.. داخل منصة القصر ترى الجدران وقد طليت بالجبس وبعلو ١٠ أقدام.. هناك أيضاً عدد من الشرف المصفوفة أعلى الجدران، ومن المعتقد أنها من التراث العمراني القديم جداً.. الواجهة المبنية من الطين البني فوق الأعمدة تحتوي على أشكال معمارية مختلفة تتكون من مجسم لأزهار الزنبق وأقواس ذات نتوءات بارزة وأوراق نباتات مختلفة، بينما ترى النصوص الدينية





محفورة في كافة أرجاء جدران القصر.. حتى الأبواب تراها وقد طرزت بنماذج متنافرة من الألوان الحمراء والصفراء والزرقاء، وهكذا حل بنا الليل وكل على أهبة الاستعداد للتحرك غداً.

سألت ابن سعود عمّا إذا كان يقوم بتدريب أبنائه على ركوب الخيل؟.. ورد علي بالنفي، وأنهم يَدَعونهم يركبون مع العبيد أولاً، ومن ثم منفردين.. هذا الأمر يجعلهم يعتادون ركوب الخيل من صغرهم، ومن ثم إجادة الفروسية.. ركوب الخيل والرماية من متطلبات الإسلام حيث ينص القرآن على ضرورة تعلمهما[1].. أما السباحة فإن التقاليد تحث عليها؛ ولذا نجد أن أغلب العرب يجيدونها.. ابن سعود تعلم السباحة في الكويت في مياه البحر، أما أولئك الذين لم يروا البحر في حياتهم فتعلموها في الآبار "القلبان".

(١) قد يكون ذلك معتمداً على قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل...) «سورة الأنفال الآية ٦٠» أو على قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ يقول: (علموا أبناءكم الرماية والسباحة وركوب الخيل).

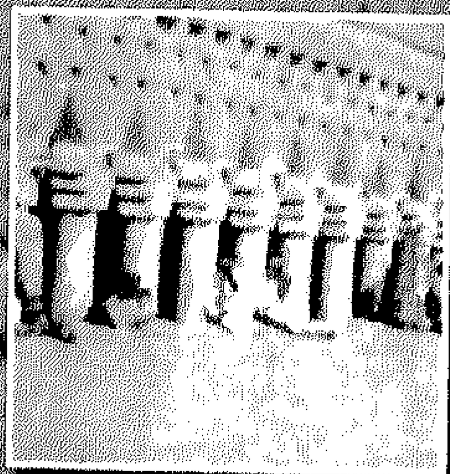
الفصل الثاني

١٣٤١-١٣٤٩هـ

١٩٢٢ - ١٩٣٠م



أمين الريحاني ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م









أمين الريحاني*

Ameen Rihani

١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م

كان المبنى البارز الوحيد الذي يبدو للعيان ونحن نقترب للمدينة من ناحية الشرق هو برج القصر الشاهق، والصوت الوحيد الذي سمعناه عندما دخلنا المدينة من بوابتها هو أنين السانية التي يطلق عليها في نجد اسم «الغرب»، وحتى خلال تقدمنا عبر الطريق الرئيس إلى ساحة القصر كان الرجال ينظرون إلينا في نوع من الاستغراب أثناء مرورهم، كما كان الأطفال ينظرون بصمت، وكانت هناك جماعات تنتشر على طول الأسوار، أو عابرة للطريق فقط.. لكن لم تكن هناك حركة تدل على عمل، وحتىالساحة التي تكون في الصباح في حركة ونشاط كانت في تلك الساعة هي الأخرى خالية تقريباً عدا القسم الأكثر قرباً من بوابة القصر.

كان هناك مشهد لافت للنظر، وهو الأول من نوعه الذي شاهدته في شبه الجزيرة العربية؛ فعلى امتداد أسوار القصر كانت هناك مقاعد مرتفعة من الطين على شكل درجتين، وكانت ممتلئة بالناس.. المشهد كان بمثابة مسرح مفتوح.. لم أكن أعرف حتى سألت عن دافع وهدف هؤلاء الناس من الجلوس خارج القصر وفنائه وأروقته ودهاليزه.. إنهم على موعدٍ مع مولاهم وعاهلهم.. بالتأكيد كان هناك الأمراء وغيرهم؛ وكانت أسمال ملابس البعض البالية عنواناً لوضعهم ولكن عصي الخيزران التي يحملونها تعطيهم هيبة وجلالاً.. النهاية المقوسة للعصي موضوعة على شفاههم مستغرقين في التفكير ولكن بلا موضوعات.. في تلك الساعة لا شيء يبدو أنه بحاجة لتوضيح أو أن يتحدث المرء عنه.. هؤلاء المئات كانت غالبيتهم من البدو.. كانوا جالسين وهم حزانى.. أقول: بأنهم ينتظرون في صمت، ويحكون عصي الخيزران في شفاههم انتظاراً لوجبتهم اليومية بالقصر.

ويأتي غالباً حوالي خمسمائة فرد للقصر مرتين يومياً.. في الصباح وبعد الظهر؛ لتناول وجبتين في ساحته.. بعضهم يخفون بين عباءاتهم، قدورا أو أطباقا خشبية بغرض أخذ بعض الأرز ولحم خراف لأقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم في الأكواخ والخيام السوداء خارج المدينة.. هؤلاء الناس لا شيء يفعلونه في أزمنة



* أمين الريحاني كاتب ومثقف عربي–أمريكي.. ولد في لبنان عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م. كتب كثيراً حول كافة الموضوعات والقضايا العربية التاريخية والثقافية والجغرافية باللغات الأنجليزية والعربية.. رحل إلى عدد من الدول العربية في عشرينات القرن العشرين للتوسط بين الزعماء العرب وتسوية، الخلافات بينهم.. زار الرياض بدعوة من الملك عبد العزيز في عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢م، وبقي على اتصال معه لفترات طويلة، وكتب عدة كتب عن المملكة العربية السعودية وتاريخها.. توفي عام ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م، في لبنان.. ما ورد عن زيارة الريحاني للرياض كتبه الريحاني في كتاب خاص عن المملكة.. انظر:

Ameen Rihani. Ibn Sa'oud of Arabia: His People and His Land. New York: Caravan Books. 1928, PP. 123-164.

السلام.. إنهم يشكلون جزءاً من الاحتياط لجيش السلطان؛ لذا كان واجباً عليه إطعامهم، وتوفير الكساء لهم، وأن يكسب رضاهم.. ويوجد من بينهم كثير ممن يحصلون إضافة إلى ذلك على منح ورواتب نقدية.. كما كان هناك العديد من المتقاعدين بالرياض، وكذلك الحال في مكة يعيش أهلها ضمن التقاليد الدينية التي تُراعى بحذافيرها.

ويوجد أيضاً كثير من المتسولين الذين يحتشدون يومياً عند الباب الخلفي للقصر مع غروب الشمس، ويتدافعون بأعداد وفيرة من غير انتظام.. الإناث هن الأكثرية.. الأشباح السوداء الفقيرة المريضة كل واحدة منهن تحمل سلطانية أو آنية خزفية نحاسية أو خشبية.. بعضهن يحملن أطفالهن معهن وهم يرضعون من أثدائهن الفارغة، وأخريات يصحبن طفلين أو ثلاثة في أسمال بالية.. إنهم يتجمعون عند بوابة القصر من أجل الهبة اليومية من الأرز واللحم التي هي في الواقع الفضلات المتبقية من الطعام الذي تناوله الرجال الذين أشرت إليهم آنفاً.

وتُسمع بداخل المدينة أصوات حزينة صادرة عن السواني الموجودة في البساتين والحدائق، وقد كانت أثناء صريرها تقوم بتزويد التربة الظمأى بمياه الينابيع التي تفيض تحت واحة العارض، وقد كانت السانية التي تتم مشاهدتها في كل بستان من بساتين النخيل المنتشرة حول المدينة مصممة بنفس طريقة وأسلوب الأكراد في العراق والساقية في اليمن، وهي تتشكل من جسم خشبي مع بكرات وأعمدة دوارة مقامة على فوهة القليب، وهناك حبلان أحدهما على العمود الدوار، والثاني فوق العجلة.. يتم ربطهما وتوصيلهما مع دلو الماء عند طرفيها، بحيث يتم جرُّه بواسطة حمار أو جمل إلى منحدر مائل، وعند الوصول إلى نهاية هذا السطح المائل يكون الدلو قد تم رفعه وهو مليء بالماء.. وبما أن الحبل الموصول بأسفل الدلو والذي يجري على العمود الدوار أقصر قليلاً من الحبل الواصل بالعنق والذي يجري على البكرة: فإن الدلو يتم رفعه من أسفله إلى أعلى، فيسكب الماء في حوض أو مباشرة داخل صهريج الري، ويكون طول المنحدر المائل متناسباً مع عمق القليب الذي يصل أحياناً إلى ثمانين قدماً، ويصل إلى قاع البئر أو الصخرة التي يتفجر منها النبع، والقُلُب مبنية بحجارة صلبة، وقد تحتوي السانية الواحدة على العديد من البكرات والأعمدة الدوارة بحسب سعة البئر، وقد كانت سانية بساتين الشمسية أكبر سانية رأيتها خارج أسوار المدينة.. لقد كان لها منحدران مائلان، واحد في كل جانب، واثنا عشر طاقماً من البكرات والأعمدة التي تحرك اثني عشر دلواً يقوم برفعها اثنا عشر حماراً: ستة بكل منحدر، وقد كان ذلك مشهداً ساحراً؛ فبينما كانت ست من الحمير تجري صاعدة على المنحدر من أجل إنزال الدلاء الستة لأسفل القليب، كانت المجموعة الأخرى تهبط أسفل المنحدر الآخر لترتفع الدلاء الستة الأخرى الممتلئة بالماء.

وتقع واحة العارض عند قاعدة جبل طويق، وهي مستطيلة الشكل، وتمتد مسافة اثني عشر ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وليس بها جداول مائية جارية لكن



بها ينابيع جيدة. ويستطيع المرء أن يحكم على وفرة المياه الجوفية بها من وجود العدد الكبير من الآبار. وتقع الرياض على طرفها الشمالي الشرقي، وتنتصب على أحد عروق جبل طويق الصخرية حيث يمكن مشاهدة صخوره العارية في بعض طرقاتها، ولكن ليست هناك منازل يمكن أن يقال: إنها موجودة على تلك الطرقات.. كما أن الأسوار الطينية التي يتراوح ارتفاعها ما بين عشرين إلى ستين قدماً لا تحوي أي أثر يشير إلى وجود مساكن بشرية على الرغم من أن النوافذ والفتحات الصغيرة في أعلاها تتجاوز حدود نظر الإنسان العادي.

أما المنازل الموجودة بالداخل فهي مشيدة حسب النظام المتبع حول فناء غير مرصوف، ولكن بدون نافورة أو شجرة أو زهرة ولم يكن هناك شيء سواها يعكس جدب وكآبة صحراء الصمان.. لم أشاهد قط أي نبات عطري أو زهرة واحدة داخل الأسوار الطينية للرياض[1]، ولم أشاهد ورقة نباتية واحدة بالمقبرة خارج المدينة.

على الرغم من ذلك لم يكن الإحساس بالجمال غائباً قطعياً، لأنه كان يجد طريقاً للتعبير عن نفسه من خلال الزخارف الحائطية المكونة من الجبس، والزخارف على الأبواب في شكل ألوان متعددة، وقد كانت تثير الإعجاب بشكل مضاعف؛ لأنها تعبير عن نوع من النشوة الناتجة عن قانون التفاعل؛ لقد وقفت أتأمل بابا تمت زخرفته على الطريقة العربية بألوان الأزرق والأخضر والأصفر، فكان يبدو وكأنه قطعة من قماش القنب الشهير.. ولم يكن خالياً من لمسة فنية حقيقية.. وقد كانت التصميمات شديدة التباين حسب ذوق الفنان، إلا أنه كان هناك دائماً نوع من الإيقاع الذي يتم استلهامه وتنفيذه بصورة منتظمة وهندسية... كما كان طلاء الأبواب أحيانا يتكون من خط من النقاط الحمراء والصفراء أو يكون على شكل نصف دائرة من اللون الأصفر يحتوي على ثلاثة أو أربعة أشكال بيضوية ذات ألوان حمراء أو زرقاء. والباب المطلي على هذا النسق غالباً ما يكون هو الأكثر انتشاراً، ويعد بصورة عامة أكثر جاذبية، من وجهة نظرنا، على الرغم من أنها قد تبدو مبالغاً فيها، وعند الأخذ في الحسبان وضع قسوة البيئة المحيطة تكون الغرف الفسيحة، والجدران البيضاء، والأسقف المرتفعة المغطاة في منازل الأثرياء بالأقمشة القطنية التي تم صياغتها في شكل زخارف وتصميمات ذات ألوان صارخة: نوعاً من النقوش الضرورية التي هي في واقع الأمر المعادلة الوحيدة الملائمة واللافتة للنظر.. إنها واحة ألوان للروح.

ومع ذلك لم يكن هناك شيء يمكن تصوره جميلاً بصورة محددة من خلال الخشونة التي تتصف بها زخرفة الجدران، إلا أنه قد يعد جميلاً عند تنفيذه.. وهنا يكمن التعبير الفني للجانب الآخر من الطبيعة العربية في صورته الدقيقة.. وبعد طلاء الجدران يتم تغطيتها بطبقة أخرى يتم فيها قطع التصميمات، وتعد قاعة الاستقبال في القصر خير مثال على هذا النوع من الفن، حيث تبدو جدرانها، مزخرفة في صورة أحزمة أو قطاعات

(١) ذكر بالجريف عن وجود بعض أشجار الفاكهة داخل أفنية المنازل.



الملك عبدالعزيز يتفقد المدافع على سطح قصر الحكم.
الريحاني، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.

موقد لصنع القهوة في أحد بيوت الرياض.
الريحاني، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.



بدءاً من الأرضية إلى السقف، والجبس الأبيض يوضع على الأرضية ذات اللون الترابي؛ مما يجعلها وكأنها مغطاة بشريط مخرم.

ولكن السمة الأساسية للمنزل النجدي (سواء كان في الرياض، أم في عنيزة) تكمن في وجود الموقد في قاعة الاستقبال، أو ما يسمونه القهوة، حيث يستقبل المضيف ضيوفه هنا ويعد القهوة لهم. الموقد هذا هو عموماً عبارة عن تجويف مستطيل بنهاية الغرفة حوالي عشر بوصات أسفل مستوى سطح الغرفة، مع مقعدين على طرفيه لكل من المضيف ومساعده، ورفوف وراءهما لأواني وأدوات القهوة.. عندما تشعل النار لتحميص البن فإن اختلاط رائحتها اللاذعة مع رائحة الدخان يعطي كل المكان جواً من المهابة والكرم يحس من خلاله الضيوف بالمتعة والارتياح.

الميزة الساحرة الثانية إلى جانب الموقد وزخرفة الجدران هي ظاهرة الشرفة الخارجية التي تزين بها بعض صالات الاستقبال، وقد دعاني السكرتير الأول لدى السلطان لتناول الشاي والقهوة بمنزله الذي يقع خارج سور المدينة في وسط بستان نخيل في جو شاعري، وقد كان أفضل مقاطع هذا الجو الشاعري يكمن في غرفة القهوة أو صالة الاستقبال برسوماتها ونقوشها من الجبس الأبيض على سطح ترابي اللون، مع عارضات خشبية مطلية كأنها أعمدة طوطمية، بالإضافة إلى الشرفة التي تحيط بها الأعمدة، والتي ترتفع حوالي عشرين قدماً عن الأرض، وارتفاعها الداخلي حوالي خمسة عشر قدماً والمجهزة بنوافذ من ثلاث جهات؛ مما يساعد على جعل غرفة القهوة باردة جداً في الصيف.

كانت شوارع الرياض شبيهة بتلك التي رأيتها في المدن العربية، وقد كانت أنيقة، وفي بعض الأماكن تنفرد بوجود أرصفة من الصخور.. إلا أن السوق متواضع. خرجت ذات مرة مع هاشم لشراء عقال أسود، ولكننا لم نجد أي نوع من العقل ولم نر أية أطعمة أو ملابس في السوق ولم يندهش هاشم من ذلك حيث قال: لماذا يدفع الناس النقود من أجل الحصول على الطعام والملابس ما داموا يحصلون عليها مجاناً من القصر؟.. لذا فإن نصف السوق يعد ملكاً عاماً يشرف عليه القصر تحت إدارة شلهوب، والنصف الآخر من السوق بضاعته السلع المستعملة الموزعة بين عشرين أو ثلاثين حانوتاً تقف في صفين وسط الساحة الرئيسة، حيث يباع فيها الحطب، والبرسيم الأخضر.. وفيما بين محل حطب الوقود ومحل البرسيم تقع محلات البضائع التي تكون فيها السلع الكمالية أكثر من السلع الضرورية، ومنها على سبيل المثال السجاد والسيوف، والصابون المعطر صنع انجلترا.. وقد وجدت ترمساً مستعملاً اشتريته بدفع نصف ثمنه.

وقد لاحظت أن الذين يمارسون النشاطات التجارية ليسوا من أصحاب المتاجر، ولكن من الباعة المتجولين (أي الدلالين المتجولين).. والدلالة (البيع بالمزاد العلني) ينتشرون في كل مكان من شبه الجزيرة العربية؛ فإذا كان لديك أي شيء تود بيعه أعطه لدلال، والذي سيأخذه ويتوجه مسرعاً للسوق، تأمله يجري، وهو يحمل عباءة

ويصرخ: عشرون ريالاً.. وواحد آخر يحمل مقبض سيف من الفضة ويتجول ليبيعه: خمس ليرات (جنيهات ذهبية)، خمس ليرات.. فإذا كنت راغباً في شرائه ينبغي لك أن تجري وراءه، ولكن دلال الجمال لا يجري، إنما يقف بجوار جمله الجاثم على الأرض وهو يصيح: عشرون ريالاً!...حتى الأشياء كالفرشة يظهر عليها أنها جديدة رأيتها ذات يوم متدلية وطرفها مجرور على التراب، وهي في يد بائع متجول نشيط: فقط خمسة ريالات.. صلِّ على رسول الله.. فقط خمسة ريالات.. فقفز أحد الرجال نحو الفرشة لإيقاف البائع، وعرض ثمناً لها أربعة ريالات، لكن البائع سحبها بعيداً عنه، ووضعها على كتفه، وواصل صياحه: خمسة ريالات فقط.. صلِّ على الرسول.. خمسة ريالات فقط.. انهم لا يذكرون أبداً اسم الصنف، لا يتوقفون إطلاقاً للمساومة.. انظر بعينيك، واسمع بأذنيك؛ فإذا كنت راغباً في شراء شيء وامتلاكه فما عليك إلا أن تتقدم سريعاً ومعك الريالات، وإلا ستكون من المصابين بخيبة الأمل.

ونظراً لعدم توفر الآلات الموسيقية في الرياض مهما كانت بدائية، ولانعدام الأغنية مهما كانت رديئة – فكلاهما محظور – : فإن صوت الدلال المتجول، وكذلك صوت المؤذن كانا بالنسبة إليّ تغييراً مقبولاً؛ لإبعادي عن أنين الجمال في الساحة العامة.. والشيء الأكثر متعة هو أن الصوتين لا يتضاربان أبداً؛ فعلى الرغم من أن البائع المتجول له حرية البيع في السوق من شروق الشمس حتى غروبها إلا أنه كانت هناك فترات يكف فيها عن نشاطه وصياحه، ويلزم الصمت، ويجب عليه مراعاتها بعناية.. تلك الأوقات يهيمن عليها المؤذن خمس مرات في اليوم.. بمجرد أن ينطلق صوت المؤذن منادياً المسلمين للصلاة يتوقف الباعة المتجولون حالاً، ويقفل السوق، ويطبق الصمت العميق على المدينة.

كانت مئذنة الجامع الكبير خادعة في بساطتها، حيث أنني اعتماداً عليها كنت أعتقد أن المسجد نفسه هو مثل العديد من المساجد التي يكون داخلها ظاهراً للعيان عبر الشارع.. وبالتأكيد كانت مساجد الوهابيين جميعها بسيطة ومتواضعة جداً من الداخل والخارج.. طريقة البناء أساسها حوائط بسيطة وزوايا قائمة دون أية جدران داخلية طينية.. الأرضية ترابية، أو مع حصير أو اثنين بالداخل، مع درجات قليلة تقود إلى المنبر، وفجوة بالجدار للمحراب.. أما المئذنة فإنها ليست بالمدرجة أو المرتفعة.

والجامع الكبير مع كونه بسيطاً في شكله وتصميمه، إلا أنه بصفته عملاً معمارياً أصيلاً توحي طريقة بنائه بقمة الزهد والتقشف المتبعين في نمط الحياة؛ لدرجة أنني لم أر مثيلاً له في أي مكان آخر. إنه يشغل مساحة تساوي حوالي ١٢٥ × ١٠٠ قدم، وهي موزعة في طولها على ثلاثة أقسام: أحدها في الوسط، وهو عبارة عن صحن مفتوح يقع المدخل في أحد أطرافه، وفي الطرف الآخر تقع المئذنة، ويشكل كل طرف من أطراف الصحن جزءاً من الجامع يكون مؤلفاً من الأعمدة والأقواس، ويبلغ عمق الجزء الشمالي عشرة صفوف من الأعمدة، أما الأيمن فيبلغ عمقه ثلاثة



أحد أقسام اسطبلات الخيل الملكية. الريحاني، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.





صفوف، ويتكون كل صف من خمسة وعشرين عموداً.. ويعد انطباعها جذاباً، بل مذهلاً.

كان الانطباع الأول الذي استعادته ذاكرتي هو مسجد قرطبة، حيث أن قباب الوهابيين كانت عبارة عن صورة منقولة عن مساجد الأمويين في الأندلس، كانت أعمدتها من الحجر، وبعضها من حجارة غير مصقولة وجبس، ولم يكن ارتفاعها يزيد عن تسعة أقدام. أما أقواسها فقد كانت على شكل زوايا حادة، وأسقفها من الجانبين تتكون من جزوع أشجار النخيل، وأرضيتها مفروشة بالحصى.. ريح السموم لا تثير الغبار والأتربة في هذه المساجد المفتوحة لذكر الله.. هنا كانت الوهابية تنمو بقوة.. كان أفضل مثال على هذا النمو المتزايد يكمن في الرياض، وتحت الجامع كان هناك مكان يستخدم في فصل الشتاء[1].. نعم لقد اكتشفت حتى قبل زيارة المسجد بأنه يوجد فصل شتاء في وسط شبه الجزيرة العربية مع أنني غير مستعد ومجهز له، اعتقاداً مني بأن شهر يناير في الرياض لن يكون قارساً ببرده كما هو الحال في نيويورك مثلاً، فلم أحضر أية ملابس ثقيلة معي.. لقد كان الطقس من ذلك النوع الشديد التطرف.. العباءة ليلاً يمكن أن تكون غطاء إضافياً حتى وقت معلوم، ولكن كلما اقترب الصباح تتناقص درجات الحرارة على التيرمومتر لتصل عشرين درجة فوق الصفر (فهرنهايت): وكانت أقدامي تصاب بالبرودة بأقصى ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

لقد أصابتني الملاريا الكريهة التي احتضنتني وغمرتني بحرارة حبها، وجاء أخونا وصديقنا السلطان عبد العزيز لزيارتنا حاملاً آخر اختراع طبي وهو الترمومتر الذي يسجل كلا من حرارة الجو وحرارة الجسم، وزجاجة من عصير الليمون الحامض، وكان وجهه يضيء الغرفة كأشعة الشمس، وكانت كلماته كقطرات من مياه الينابيع الصافية، حيث قال: سيعلمك هذا -أمسك به بيدك- كم هو ارتفاع حرارتك.. وطلب مني أن أمسكه بيدي، «وهذه زجاجة عصير الليمون تخفض وتبرد حرارتك الداخلية. هل سبق وأن تناولت الكينين حفظك الله، أزال الشر عنك.. كل هذا الكينين ثلاث مرات في اليوم». يحفظك الله يا صديقي عبد العزيز طبيبي وممرضي الجيد، فلن آكل شيئاً غيره.. ما الذي كنت آكله؟.. يبدو أن ذلك لا يصدق أن يكون الأرز ولحم الضأن يقدمان مرتين يومياً على مائدة السلطان على مدار السنة.. أما أنا شخصياً فقد كان يقدم لي دجاجة مع الأرز.. في الحقيقة دجاجتان مسلوقتان كانتا تقدمان كل يوم على طبق كبير، وكانوا يستخدمون القليل من الملح في طعامهم وفي خبزهم. لقد وجدت الملح اكثر قيمة في الرياض من السكر الذي كان يتوفر بكميات هائلة في مستودعات شلهوب، ولكنهم كانوا يستخدمونه بشكل رئيس في الشاي، أما الفطائر والحلويات والفاكهة فقد كانت نادراً ما تقدم هنا.

لقد كان السلطان عبد العزيز ذلك الرجل المواسي يزورني كل يوم وأنا مريض، وكان دائماً لا يأتي خالي

(١) والتي تعرف بالخلوة.

اليدين، بل يحمل معه شيئاً مثل الكينين، الفواكه، بل حتى الكتب.. و لم يكن هناك شيء أكثر فائدة ونفعاً من كل الأشياء التي جلبها لي وتدل على عمق تفكيره أكثر من مدفأة الزيت التي أحضرها لي من مقر الحريم نفسه، وقد كانت عندما تصيبني الحمى تشع في غرفتي بمائة عين من عيون الحب، وتتحدث بمائة لسان من ألسن عبد العزيز التي لا مثيل لها.. وكان من بين الكتب التي أحضرها للترويح عني خصوصا عندما كانت الحمى تذهب عني، كتاب عن تاريخ آل سعود.. كتاب عن كيف وُجدت الوهابية وكيف تطورت، وكيف تغلبت على معظم شبه الجزيرة العربية في عهد سلفه سعود العظيم وقد صيغ هذا الكتاب بنثر مسجوع[1].

وفي أحد الأيام حضر حاملاً معه جزءاً من خريطة الجزيرة العربية باللغة الإنجليزية ليوضح لي المسافة بين حائل والرياض، وقد خطر على بالي وأنا أتفحص الخريطة أنه يمكن لي أن أسدي له خدمة صغيرة، وذلك بترجمتها إلى اللغة العربية، ويمكن أن يكون ذلك بكتابة أسماء المدن والتلال والأودية تحت الكلمات المكتوبة باللغة الإنجليزية، وذلك ليستطيع أن يرجع إليها مباشرة، وقد سر بهذه الفكرة ونفذناها.

اصطحبني سمو السلطان في أحد الأيام إلى سطح القصر ليريني البرج الذي يقوم منه المصباح الكشاف الكبير والمتوهج (التريك) بإرسال ضوئه المشع الأبيض والنفاذ أثناء الليل إلى بساتين النخيل التي تحيط بالرياض، فكانت علامة يهتدي بها أولئك القادمون من الصحراء، أو من الوادي.

زرت شلهوب يوماً في مكتبه الواقع في مخازنه في الدور الأرضي من القصر، وكان يجلس متربعاً على سجادة وأمامه حقائب، ويجلس على يمينه كاتبا حسابات، في حين يجلس على يساره كاتبان آخران: أحدهما مكلف بأمور الملابس، والآخر مكلف بأمور النقود.. يقوم شلهوب بعد الروبيات أو الدولارات من دولارات ماري تيريزا ، وتسليمها لأولئك الذين يأتون بأوامر من السلطان، ثم يقوم بعد ذلك بتسليمهم الملابس، ثم يقول لكاتب حسابات الخزينة: سجل عندك في الدفتر: أحمد بن جبر من ثرمداء ٢٥٠ روبية.. ثم يقول لكاتب حسابات المخازن: وأنت سجل بشت فارسي وزبون هندي وغترتين قطنيتين.. وهكذا يستمر عمله طوال اليوم، إلا في أوقات الصلاة.

وقد اصطحبني معه في جولة لأرى الدوائر والأقسام المختلفة.. ألا وهي المؤن، والدقيق، والأرز، والتمر، ومكان السرحة وهي كل ما يلزم للركاب.. جمال التحميل والنقل، والأسلحة، وذخيرة البنادق من كل نوع (الجديدة منها، والقديمة)، والمئات من صناديق الذخيرة، ومخزن القهوة والشاي والسكر والخيام والسجاد والملابس والغتر والثياب والبشوت، بالإضافة إلى مادة أخرى لا يمكن أن تجدها في أي مكان، تتمثل في

(١) قد يعني كتاب تاريخ ابن غنام الذي سمة أسلوبه السجع.

أوعية معدنية كبيرة يبلغ عمقها خمسة أقدام بقطر يبلغ قدمين، كلها مليئة بالزبدة الصافية.

وقد كان القسم الأكثر غرابة من أقسام إدارة شلهوب هو غرفة الغنائم حيث تجد قطعاً قديمة من الأدوات النحاسية وبقايا مدافع وبنادق صدئة، وقطع سجاد، وأواني معدنية للماء، وأحذية عسكرية، وأحزمة، وسيوفاً مكسرة، وما شابه ذلك.. كل هذه الأشياء كانت مكدسة بعضها فوق بعض بعشوائية.

بالإضافة إلى المخازن الموجودة في الدور الأرضي توجد في القصر صالات الطعام وقاعة الانتظار التي يتم بها استقبال الزوار قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى المجلس الواقع في الدور العلوي.. لم يكن القصر نفسه مبنياً على أساس مخطط مسبق واضح المعالم، إلا أنه توسع وازداد بطريقة عفوية تلقائية.. وقد تطلب مني ذلك عدة أيام لأجد طريقي فيه؛ ذلك أن أروقته ودهاليزه شديدة التعرج والتشعب.. هناك على الأقل عشرة مبانٍ كبيرة بعضها متصل ببعض.. ليس بممرات تحت الأرض فقط، بل بواسطة جسور ذات جدران عالية ، بحيث يستطيع السلطان القيام بجولته اليومية دون أن يراه أحد، ودون أن يخرج إلى الشارع.. وكان هناك جسر يربط القصر بالمسجد الكبير، وجسر إلى المحرم، وجسور تربط بيوت الزوجات.. كان يُبنى منزل واحد للعائلة، وكلما كبرت العائلة ونمت بازدياد الحريم يصبح بناء بيت آخر أمراً ضرورياً، وكان عادة ما يتم بناؤه في الجانب الآخر من الشارع بحيث يتم ربطه بالمنزل الرئيسي بواسطة جسر، وحين تنظر حول القصر مباشرة من خلال برجه تشعر بأن الرياض مدينة جسور، وحين تنظر باتجاه الجنوب على بعد واحة العارض حوالي خمسة أميال فإنك تشاهد ملامح ما يشبه الطيف لبلدة منفوحة القديمة.

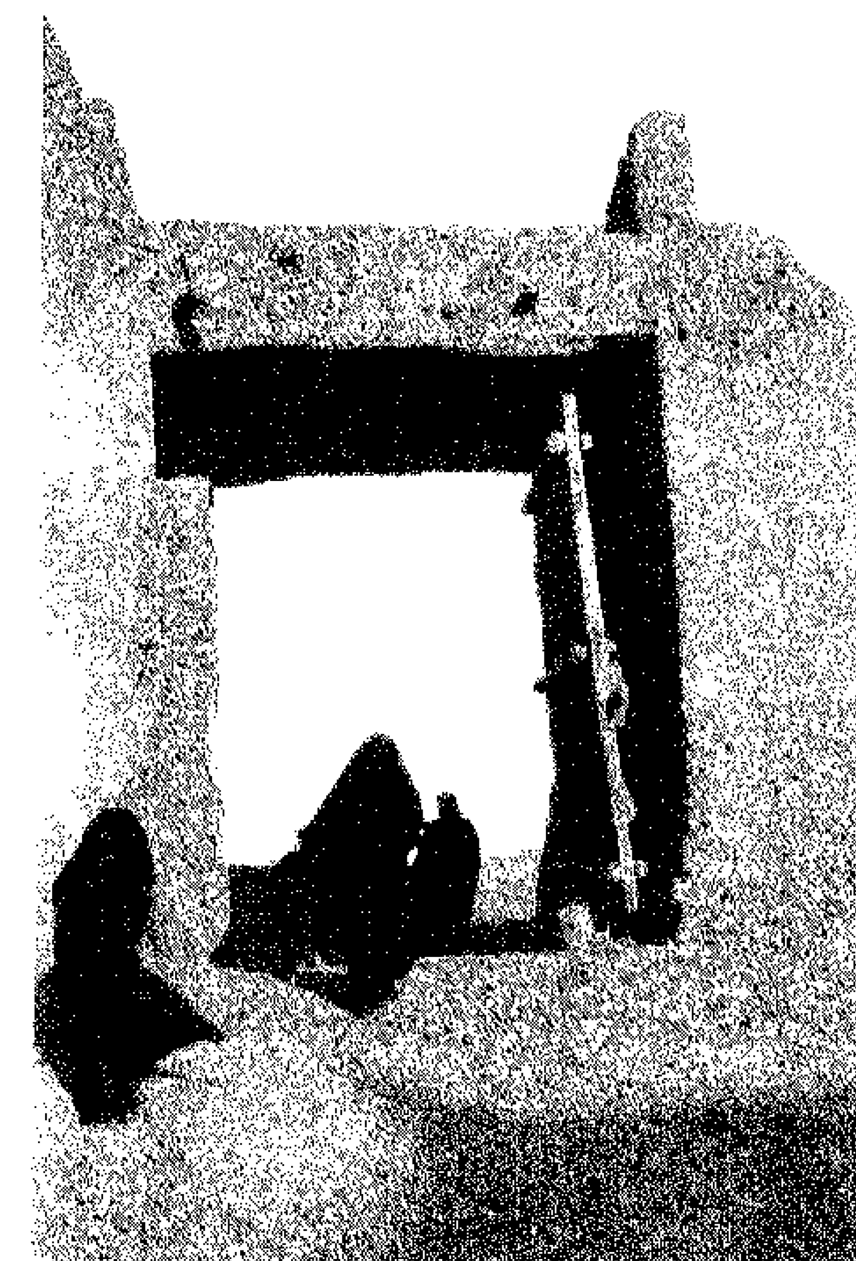
وبعد أن أراني السلطان البرج اصطحبني عبر جناح آخر للقصر ليريني المدافع والبنادق الآلية على سطح محمي لمبنى مجاور، حيث كان عددها يبلغ نحو خمسين مدفعاً: صناعة بريطانية، وألمانية غنمها من ملك الحجاز ومن الأتراك وابن رشيد أيضاً، وقد تم الاحتفاظ بهذه الأسلحة نظيفة.

رغب السلطان، أثناء عودتنا من معرض سلاح المدفعية، أن يريني بأنه يهتم بالكتب أيضاً. فأمر شلهوب الذي كان يصحبنا بفتح غرفة معينة، ولكن الأمين العام للتموين فتح غرفة أخرى بالخطأ؛ فبدلاً من أن نكون في المكتبة كنا في مستودع الأدوية، وبالأحرى المخزن الذي كان مملوءاً بصناديق أدوية من إنجلترا .. قال جلالته بشيء من الازدراء: إن هذه صناديق الدكتور مان . Mann

منحني السلطان ميزة احتساء القهوة معه في إحدى شققه الخاصة.. كانت تقع في الدور السفلي، وكان علينا أن نذهب عبر متاهة لنصل إليها، وكان هناك مصباح معلق في الدهليز الذي يؤدي إلى غرفة صغيرة ومريحة مؤثثة كالمعتاد بالسجاد والوسائد والمساند، ولم يكن للغرفة نوافذ ولا حتى فتحة واضحة، ونهض السلطان وسحب حبلاً لفتح فتحة مربعة في الجدار بالقرب من السقف، حيث قال: هذه للشمس والهواء.. بعد ذلك أشار إلى سيف معلق على وتد وقال: إنه أعز ما أملك.. أمر العبد بإنزاله.. كان مقبض السيف مرصعاً

الساحة الداخلية للجامع الكبير بمدينة الرياض.
الريحاني، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.

إحدى بوابات الرياض.
الريحاني، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م.



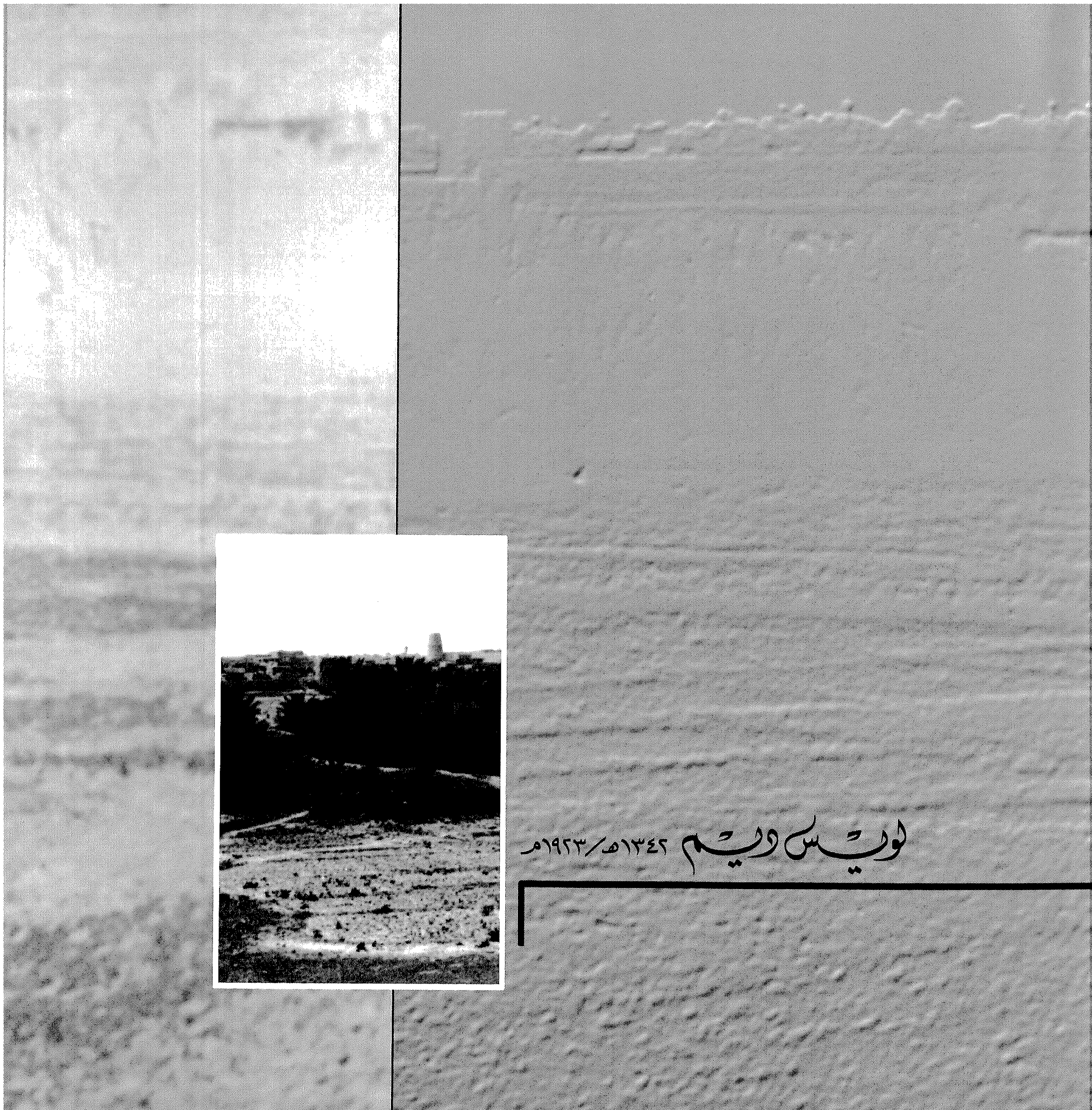




بالذهب، وغمده مصنوعاً من الفضة، وبما أنه كان سيف سعود الكبير فإن عمره لا بد أن يكون أكثر من مائة عام، حتى أن نصله يبدو أقدم من ذلك.. كانت الشقة تتكون من غرفة النوم بما فيها السرير وناموسية، وغرفة ملابس وحمام وسلم خاص يؤدي إلى غرفة استقبال تشرف على السطح.

وفي اليوم التالي أتيحت لنا الفرصة لنرى مشهداً أفضل مما كان يقع خلف البوابة الحديدية، فعند مواصلتنا لتجوالنا حول القصر (وكان السلطان هو دليلنا وقائدنا في هذه الجولة) عبرنا ثلاثة أسطح وجسرين وعدداً من الدهاليز حتى وصلنا إلى شقته الخاصة حيث أصبحنا خلف صف مكون من أربع أو خمس بنايات ضخمة ذات شرفات.. كان هناك بابان في الردهة (غرف انتظار) التي تناولنا فيها القهوة.. كان أحدهما يفضي إلى المسجد الخاص الذي يصلي فيه السلطان، بينما كان السلطان يذهب إلى المسجد الكبير لصلاة يوم الجمعة فقط، والباب الآخر يؤدي إلى شقة لا تدخلها النساء إطلاقاً.. كانت الشقة مؤثثة بنفس الأثاث في الشقق الأخرى التي شاهدناها، باستثناء أنها كانت تحتوي على موقد بأبواب مزخرفة باللون الأحمر والأصفر والأزرق.. وكانت هناك غرفة تستخدم خزانة ملابس، حيث كانت تعلق ثيابه على أوتاد، وحمام مقسم إلى قسمين: أحدهما يحتوي على صهريج ماء، والآخر يحتوي على حوض ماء وآنية معدنية. كان الماء يحضر في قرب، وكان هذا هو الشيء المألوف في الرياض دون استثناء، ولكن ما لفت انتباهي في القصر هو الأنابيب المصنوعة من الحديد الثقيل والتي كانت تنقل مياه الصرف الصحي من تحت الأرض إلى خارج المدينة.

أخذنا السلطان عبر سطح وجسر إلى منزل.. كنا نعبر عبر قسم الخدم بجوار شقة خاصة أخرى. وسبقنا السلطان إلى الردهة، وسمع ضجة في الداخل؛ فأرسل أمامنا أحد مرافقيه. وواصلنا سيرنا بعد نصف دقيقة، وكالعادة تم استقبالنا بدهن العطور الشرقية، وبالأثاث المعتاد: سجاد، ووسائد، ومساند.. وكانت الشقة تحتوي على نفس عدد الغرف ذات النوافذ المشبكة، وكان باب إحداها مغلقاً، وكانت أسقف هذه الغرف وقاعات الاحتفال الكبيرة مغطاة بالقماش الأحمر المنقط، الذي يتناسب مع أغطية الوسائد، وكان في غرفة الجلوس مروحة ومختلى في الغرف المجاورة تستخدم لأسرة النوم.


لويس ديم ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م

لويس ديم*

Louis P., dame, M. D

عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م

في منتصف ربيع الأول ١٣٤٢هـ،بداية نوفمبر ١٩٢٣م اختارتني الإرسالية الأمريكية في البحرين لتلبية دعوة عاجلة من سلطان نجد للقيام ببعض الأعمال الطبية في الرياض العاصمة مع إمكانية السماح لنا بزيارة بعض المدن النجدية مثل عنيزة وبريدة وشقراء.

ولم نتأخر في الاستعداد لهذه الرحلة الطويلة التي ستستمر ربما لشهرين أو أكثر؛ ففي ٢٦ ربيع الأول الموافق ٦ نوفمبر غادرنا البحرين، وكان فريق الرحلة يتكون مني بمصاحبة أربعة مساعدين من المستشفى علاوة على تجهيزات طبية كبيرة احتوت على ٣٢ صندوقاً مملوءة بالأدوية والمعدات.. وبعد بقائنا في الأحساء لعدة أيام اقتضتها الرحلة غادرناها في صباح مبكر من يوم الاثنين ٢ ربيع الآخر الموافق ١٢ نوفمبر بعد أن وجدنا أن موفد السلطان المفروض حضوره إلينا قد تأخر كثيراً، لكننا في عصر اليوم التالي قابلنا رسولين خاصين من قبل سلطان نجد جاءا فوق جمال سريعة حاملين معهما رسالة خاصة لي، وكانت الرسالة تطلب مني الإسراع في المجيء لعلاج السلطان عبد العزيز بن سعود نفسه.. وعند المغرب انطلقنا بالجمال بأقصى سرعة تستطيعها، وسرنا في الصحراء حتى منتصف الليل لنتوقف وننام في العراء حتى الفجر، ومضينا في رحلتنا بسرعة، ولم نتوقف إلا لتناول الطعام والنوم بضع ساعات في الليل.

وفي يومي الأربعاء والخميس وجدنا أنفسنا فوق الجمال لأكثر من ١٥ ساعة، وفي يوم الجمعة عصراً وصلنا الرياض وذهبنا في الحال إلى السلطان عبد العزيز. وهناك وجدت ابن سعود يعاني من التهاب حاد في وجهه، وفي الحال بدأت العلاج، ورحت أعتني به كل ساعة في الصباح والعصر والمساء.. ومع الوقت والأدوية أصبح السلطان بصحة جيدة حتى إنه استطاع إقامة استقبال عام للمدينة حضره خمسة آلاف شخص على أقل تقدير. وفي اليوم التالي تمكن ابن سعود من حضور صلاة الجمعة في المسجد الكبير في الرياض، وكان قد تغيب عن حضوره أربع جمع بسبب مرضه، ومع الأيام استمرت صحة السلطان في التحسن حتى زال عنه الالتهاب تماماً.

وبعد أن انتهيت من معالجة السلطان أصبحت البعثة قادرة على بدء العمل الطبي في العيادة الصغيرة التي جهزناها في بيت متواضع أعطي لنا.. أما السكن فقد

* لويس ديم طبيب أمريكي كان يعمل في الإرسالية الأمريكية في البحرين قام بزيارة الرياض، وقابل الملك عبد العزيز عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م .. أخذت هذه الترجمة عن الرحلة من كتاب : القوافل/ رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن الخليج والجزيرة العربية ١٩٠١ - ١٩٢٦م .. ترجمة وإعداد خالد البسام ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، البحرين ، ١٩٩٣م.

واصلت السكن في القصر كما طلب مني ابن سعود الذي عاملني بودٍّ وطيبة، لكن المساعدين خصص لهم أحد البيوت لكي يسكنوا فيه.

وبجانب معاملة ابن سعود الممتازة وترحيبه بنا لم نجد هناك أية عداوة أو إساءة أو غيرها من الناس، بل العكس؛ فقد دعينا إلى عدد كبير من البيوت في الرياض، كما لقينا ترحيباً طيباً في الشارع، وتلقيت دعوات زيارة وعشاء وغيرها من العائلة الحاكمة وبعض التجار.. وعلى الرغم من ذلك فقد وجدنا أن بعض الأهالي لا يزالون متعصبين تجاهنا لدرجة أن عدداً منهم يرفضون حتى رد السلام عندما نتقابل معهم في الطريق.

أما المرضى الذين احتشدوا بالعشرات أمام باب العيادة للمعالجة فقد كانوا طيبين جداً، واظهروا ثقة كبيرة بنا؛ ففي بعض الأحيان كانت حالة المريض تستدعى إجراء عملية جراحية؛ ولذلك كنت اقترح على المريض إجراء العملية بأسرع وقت ممكن، وكانت ردود المرضى دائماً على اقتراحي جواباً معتاداً هو : كما تريد .. متى تريد أن تقوم بإجرائها؟.. الآن؟.. وأحياناً يحدث أنني أتأخر بسبب الضغط المتواصل في عمل العيادة عن القيام بإجراء العملية؛ فيجيء المريض عندي متذمراً وهو يقول: لماذا ليس الآن يا دكتور؟!.

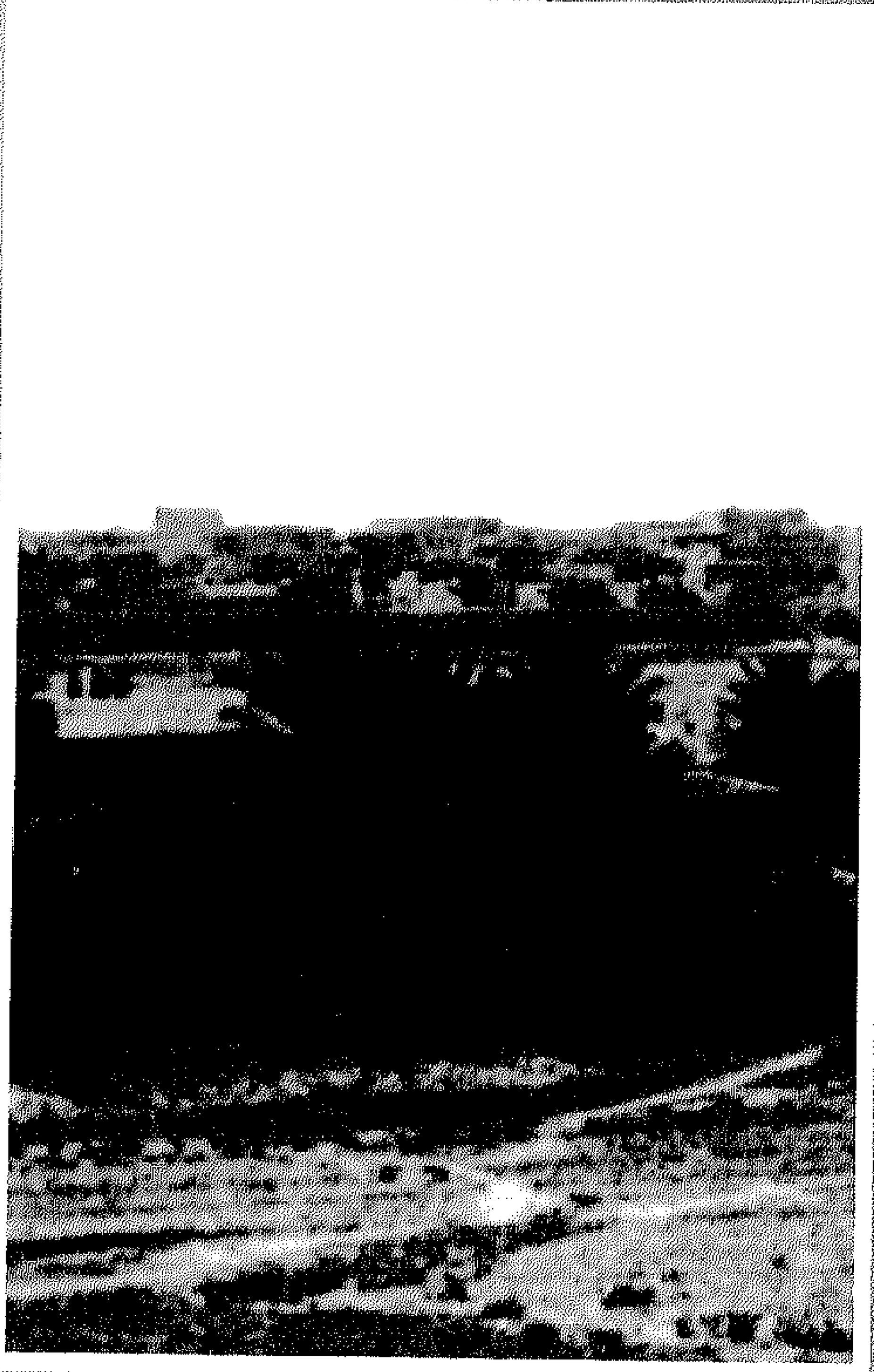
وبسبب هذا التجاوب الهائل، والثقة العظيمة التي منحنا إياها المرضى في الرياض فقد استطعنا في خلال ٢٧ يوماً من إقامتنا معالجة ٣٣٧٤ مريضاً بينهم ١٣٠٦ حالات جديدة و١٩٧٨ متابعة علاج و٩٠ حالة استدعاءات خارجية. وبالإضافة إلى ذلك قمنا بإجراء ١٣٧ عملية.

وفي الواقع فإن التجاوب والثقة لم نحصل عليهما في الرياض فقط، بل وجدناهما أيضاً في مدن قريبة من الرياض حيث جاءت إلينا أعداد كبيرة من البدو الذين وجدوا أن المعالجة عند الغرباء أمثالنا عملية سهلة وخاصة بعد أن عرفوا أننا مهتمون بصحتهم ورفاهيتهم ولا شيء غير ذلك.. لكن أسباب انفتاح أهالي نجد رغم بطئها تبدو مقنعة ومفهومة بعد أن نعرف أن الدكتور بول هاريسون قام بزيارتين إلى الرياض قبل عدة سنوات وحصل على سمعة جيدة.. كما أن عدداً معقولاً من الرحالة الغربيين أمثال الكولونيل هاميلتون، وفيلبي ودكتور مان قد زاروا نجداً في السنوات الماضية أيضاً.

لكن الذي ساعد أكثر على هذا الانفتاح هو معاملة السلطان عبد العزيز ابن سعود الذي رحب بنا وعاملنا معاملة ممتازة كما فعل الشيء نفسه مع البعثات الطبية السابقة، وهي مسألة مهمة بالنسبة لحاكم يتمتع بشعبية كبيرة ومحبوب من قبل رعيته بشكل كبير؛ فالجماهير الضخمة التي جاءت لاستقباله والاحتفاء به عند مجيئه ورجوعه من المسجد في الجمعة الأولى بعد شفائه تعطي دليلاً واضحاً على ذلك.

ولعل هذه المعاملة وذلك الترحيب شجعني على التحدث مع السلطان حول مسألة فتح مستشفى للإرسالية الأمريكية في الأحساء، وكان رده: إن شاء الله سوف تفتحون مستشفى هناك قريباً.. وعندما تحدثت مع ابن سعود حول هذا الموضوع بحرية أكثر أخبرني بأنه في الوقت الحاضر لا توجد فرصة لنا في العمل بالأحساء بشكل دائم ما لم نكن مستعدين للتخلي عن أعمال التنصير المسيحي.. وأخبرت السلطان بأننا طبعاً لسنا مستعدين للتخلي عن التنصير.

وهكذا غادرنا الرياض بعد أن حزمنا أمتعتنا وصناديقنا الطبية بواسطة قافلة من الجمال في منتصف جمادى الأولى الموافق نهاية ديسمبر ١٩٢٣م متوجهين إلى مغامرة مثيرة أخرى في الجزيرة العربية.



محمد شفيق أفندي مصطفى

١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م



محمد شفيق أفندي مصطفى*
١٣٤٦هـ/١٩٢٧م

بلغنا الرياض وكانت المدينة قد لبست زخرفها، وانتشرت معالم الابتهاج بوصول مليكها إليها بعد ضم الحجاز، وقد امتلأت بالوفود من أقصى أنحاء نجد للترحيب بمقدمه.. وكان جلالة الملك قد علم بقدومنا، فأرسل مندوباً عنه لاستقبالنا بباب المدينة، وسار بنا إلى قصر جلالته، وقد دخلنا عليه لأول مرة فإذا به يستقبلنا استقبالاً ودياً كأننا كنا على صداقة قديمة بيننا وبين جلالته، ولما علم بغرضنا من رحلتنا سر وأظهر عطفه على رغبتنا في استطلاع أحوال شبه الجزيرة العربية، وأمر بإعداد منزل خاص لإقامتنا، وطلب منا أن ننضم إلى مجلسه في أي وقت شئنا، ومن ثَمَّ أخذنا نتعرف بكبار ذوي الشأن في عاصمة نجد؛ لنستطلع ما جلَّ ودق من شئون البلاد جملة وتفصيلاً.

وبدأنا نجمع المعلومات الدقيقة عما كان قبل إعلان الحرب على الهاشميين، وفي خلال تلك الحرب، وما جرى بعد ذلك من التطورات حتى الآن مما سنأتي عليه.

والرياض تعد أكبر مدن نجد وأعظمها شأناً بوصفها عاصمة الديار النجدية، وهي ذات مبانٍ متعددة، بينها عدة عمارات كبيرة أكثر شبهاً بمنازل أعيان أقاليم القطر المصري، أما قصور أمراء الأسرة المالكة فتمتاز عن سائر مباني الرياض باتساعها وبهاء شكلها.

ويحيط بالمدينة سور فخم له أبواب كثيرة على مثال أبواب المدن الشرقية في سالف الزمان، وهي تقفل عند اللزوم.

وتحيط بالعاصمة المزارع وأشجار النخيل، وهناك مزرعة خاصة بأمراء البيت المالك لم يستوقف نظري فيها سوى بعض شجيرات من الورد وأخرى من القطن.

وفي الرياض عدة مدارس دينية أشبه بكتاتيب المساجد عندنا.. يدخلها الصبيان فيتعلمون مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، ولا يتبحر في العلوم الدينية إلا النادر من الذين يتاح لهم الانقطاع لخدمة العلم والدين؛ فيُلَقنون تفسير القرآن وأحكام الشرع، ومن هؤلاء يتخرج أئمة المساجد ووعاظها.

وفي الرياض ستة مساجد خالية من مظاهر الزخرف والفرش وهي بغير قباب، وأغلبها بغير سقف، وتقام صلاة الجماعة في أيام الجمع والعيدين في مسجد واحد، ويبلغ اهتمام بعضهم بسماع الخطبة المنبرية أن يبكر في الحضور إلى المسجد ليأخذ له مكاناً فيه خشية



* محمد شفيق أفندي مصطفى صحفي مصري زار عدداً من مناطق الجزيرة العربية في عام ١٩٢٦م بهدف استطلاع أحوالها، ونشر عدة مقالات حول رحلته في الجزيرة في عام ١٩٢٧م ثم جمعها وأصدرها في كتاب بعنوان: "في قلب نجد والحجاز"، والمعلومات المقتبسة في هذا الكتاب الخاصة بالرياض هي من طبعة حديثة للكتاب.. انظر: محمد شفيق أفندي مصطفى، في قلب نجد والحجاز -- سلسلة مقالات سياسية – اجتماعية – دينية ، تتضمن حقائق ومشاهدات في قلب الجزيرة العربية، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، [١٩٩٧م]، ص ٢٩ – ٤٩.

الزحام[1]؛ فإذا طرأ عليه ما يستوجب مبارحته المسجد وضع عصاه أو أي شيء آخر في مكانه ومضى إلى سبيله حتى إذا أذن للصلاة عاد إلى مكانه دون أن يرى من يجرؤ على احتلاله.

ولا تستعمل القناديل في إضاءة المساجد ليلاً؛ فيكتفون ببعض الشموع، ومن أعجب ما لاحظته عند صلاة الفجر بعد الانتهاء من الصلاة أن ينادي المؤذن بأسماء الذين اعتادوا الصلاة في مسجده؛ فإذا تخلف أحدهم دون عذر شرعي عوقب للمرة الأولى بمصادرة غترته فإذا عاد عوقب بأخذ عباءته أما إذا عاد للمرة الثالثة فيأمر به مجلس الشرع بالضرب والسجن عدة أيام.

وقد جرت العادة بعد صلاة الجمعة أن يجلس الملك ونائبه في ردهة القصر الملكي، ويستقبل المصلين، فيمر بهم الساقي بالقهوة النجدية ثم بالشاي ومن ثَمّ يطوف بالحاضرين رجلان يحملان مبخرة يتضوع منها عبير المسك والعنبر ويعدون هذا بعد صلاة الجماعة مسك الختام فيبتهلون بطول العز والتأييد للملك.

أما القصر الملكي فهو مشيد على نمط عربي صرف، تقوم في وسطه أعمدة من الجبس الأبيض الناصع ذات نقوش عربية تستوقف الأنظار بدقتها وجمالها، وهو يتألف من طابقين:

الطابق الأول وفيه قاعة المائدة الخاصة بضيوف الملك من خاصته، وغرف أخرى خاصة بإطعام اللاجئين لساحته الملكية من فقراء البدو والسابلة.

أما الطابق الأعلى ففيه عدة ردهات كبيرة وبهو يسع نحو ثلاثمائة شخص، وقد خصص جناح للديوان الملكي يشمل مكتبة الملك الخاصة، وديوان سمو الأمير سعود، وغرف خاصة لسكنى كبار موظفي القصر، وطبيب الملك الخاص.

ويلاصق بناء القصر بناء كبير خاص بالحريم والوصيفات والجواري والعبيد، وعددهم جميعاً لا يقل عن أربعمائة شخص بين ذكور وإناث.

وأما جلالة الملك عبد العزيز بن السعود فطويل القامة، ممتلئ الجسم، لونه أبيض مشرب بحمرة، براق العينين، سمح المُحيا، يضع على عينيه نظارة، وتبدو عليه مخايل الذكاء المفرط، وقوة الإرادة، وشدة العزم، مع سماحة الخُلق، وأناة وتدبر في كل ما يخرج من فمه من الكلام.. وجلالته يناهز الخمسين من عمره، وقد أصيب في إبهام يده اليسرى برصاصة أثناء الحرب فتركت أثراً ظاهراً فيه حتى الآن.

ومن عادته إذا سار خفض برأسه نحو الأرض، ويلبس عباءة نجدية مزخرفة بالزري كثيراً ما يرفع جزءاً منها تحت إبطه.. لا يسرع أثناء سيره، وهو محبوب من شعبه، لا يتوجس خيفة من أحد، فلا يهتم كثيراً بملازمة الحرس له.

ومما يجدر بي ذكره أنه بعد أن مثلت بين يدي جلالة الملك كان أول ما ابتدرني به من الحديث أنه هنأني بسلامة الوصول، وطفق يسألني باهتمام عما شاهدته

(١) بل الصحيح الظفر بأفضلية الصفوف الأولى لحث الشارع إلى ذلك، والتمكن من سماع الخطبة لعدم وجود مكبرات الصوت في تلك الأيام.

أثناء سفري الطويل الشاق، فكان يبتسم ابتسامات الإعجاب كلما أجبته على سؤال بما لا يخرج عما أسلفت بيانه في مقالاتي السابقة، ومن ثَمّ بدأ جلالته يحدثني قائلاً: «ليس عندنا سوى دين واحد، ومذهب واحد، والجميع يؤدون الصلاة وراء إمام واحد، وهذا ما نشكر الله سبحانه وتعالى عليه.. نعم إن المذاهب أربعة، ولكننا نعتقد أن مذهب الإمام ابن حنبل هو أقرب المذاهب للسنة النبوية السمحة؛ فلا نجد عندنا إلا ما يقوله المسلم لأخيه المسلم: السلام عليكم.. وهم مرتبطون جميعاً بكلمة التوحيد، وعلى هذا الأساس يقوم ملكنا والحمد لله.. نحن لا نبغي الملك لذاته، فالمُلك لله الواحد القهار؛ فوالله وبالله لو أعطينا ممالك الأرض طراً وأحسسنا أن ببعضها شركًا لبعدنا عنها بُعْدَ السماء عن الأرض، وليس يعنينا أن نقاتل الكفار، ولا نبغي إلا أن يهديهم الله سواء السبيل؛ فما داموا بعيدين عنا فليس ينالنا منهم شيء ولا نحب أن نذهب إلى ديارهم، ولا أن نتشبه بهم، حتى ولا نرتدي شيئًا يلبسونه.. إن المسلم الحقيقي هو الذي يتبع أصول دينه، ويرعى أمر الله، فمن شابهَ الكفار أو تشبّه بهم فلا خير له في الدنيا ولا الحياة الآخرة».

تلك هي النفسية الدينية التي يدين بها الملك عبد العزيز الذي يحكم اليوم أرض نجد والحجاز، ويقبض على ناصية الأمر فيها بيد من حديد.

ولعل للأحكام الشرعية التي هي أساس قيادة الشعبين الأثر الفعال في قطع دابر حوادث السلب والنهب والاعتداء على الأرواح والأموال و الأعراض – كما كان يحدث قبل في بلاد الحجاز–، وتأمين حجاج بيت الله الحرام من هذه الناحية.

ومع أن البدو أناس لا يخضعون لحكم أو سلطان فمن العجيب أن يسري بينهم حكم الشرع ويخضعون له ذلك الخضوع؛ فمن البديهي أن دهاء هذا الملك ومقدرته على استماله النفوس التي تأصل فيها الشر والفوضى منذ عدة قرون كانت هي العامل الفعال لاستقرار حكم الشرع بين تلك القبائل.

لقد ذكرنا أن جلالة الملك كان قد وصل إليها قبل أن نبلغها بأربعة أيام بعد أن غاب عنها زهاء ثلاث سنوات قضاها في الحجاز بعد انتصاره في الحرب المعلومة؛ فكان بديهيا أن تنتشر معالم الأفراح عند عودته فاتحاً ومنصوراً، وبعد غيبة طويلة لم يسبق لها نظير من قبل فقد غصّت المدينة بوفود من أطراف البلاد للترحيب بمقدمه، وكانت مناظر ساحرة يبديها أولئك الوافدون من مظاهر التأهيل والاغتباط في وسط جذل آل البيت السعودي، فكنت ترى العطايا الملكية تفيض على فقراء الوافدين، والهدايا تعطى لكرامهم، وألسنة الجميع لاهجة بالشكر والحمد.

وقد دُعيتُ لحفلة إعلان المناداة بجلالة عبد العزيز ملكاً على نجد بعد أن كان سلطاناً، وقد فاضت فيها ألسنة الشعراء والخطباء ببيان صفات مليكهم وما أحرزه من فخر الانتصار في فتح الحجاز.. كما دُعيت أيضاً لحضور حفلة زواج الأميرة سارة ابنة جلالة الملك على ابن عمها الأمير فيصل بن سعود؛ فكانت حفلة غاية في البساطة؛ فقد فُرشت ساحة القصر بالبسط الفخمة، ومُدت الموائد الشهية، وبعد أن تناول المدعوون ما لذَّ لهم وطاب أمر جلالته بنحر خمسمائة شاة وتوزيع

لحومها على الفقراء والمعوزين؛ وبعد انصراف المدعوين جيء بأحد العلماء وتولى أداء المراسم الشرعية؛ فكانت حفلة عربية مثل تلك التي حدثنا عنها السلف الصالح، فبساطة مصحوبة بإسداء التكرمة للجائع والمحروم وابن السبيل، ومظهر من مظاهر تعلق الشعب بمليكه، ومثل أعلى في تقرب الملوك من رعاياهم.. وأهل الرياض يشتغلون بجلب المتاجر من الأحساء والكويت والبحرين يتبادلون وتلك البلاد مصنوعات نجد وماشيتها؛ بل هناك مورد عظيم هو إجادة النجديين استخراج اللؤلؤ والمرجان من قاع الخليج العربي.

أما الحالة الزراعية فليست بذات شأن يذكر حول الرياض اللهم إلا بقدر حاجة السكان؛ فيمكن أن توصف الرياض- والحالة هذه - بأنها مركز تجاري، ومقر حكم تلك البلاد لا أكثر ولا أقل.

ويتداول الأهالي هناك بالجنيه الإنكليزي والعثماني والروبية الهندية والريال الشوشي، وأجزاء هذا الريال "الجديدة".. بينما أجزاؤه في حائل "البشالك"، ويساوي الريال في الرياض ٤٣ "جديدة" وأجزاء الجديدة ست قطع من البرونز يطلق عليها اسم بيزة.

وقد دعاني سمو الأمير سعود إلى زيارته في قصره الخاص. لقد اعتاد جلالته أن ينهض قبل انبثاق الفجر دون أن يلزم أحداً من خاصته بالنهوض في ذلك الوقت، وبعد أن يتوضأ، ويتلو ما تيسر من القرآن الكريم، ويؤذن المؤذن بصلاة الفجر: يقصد إلى مسجد القصر حيث يكون في انتظاره هناك عدد من عبيده؛ فيؤدي صلاة الفجر، ومن ثَمّ يعود إلى إيوانه، فيتناول طعام الإفطار مع من يكون حاضراً من أبنائه وأفراد أسرته.. حتى إذا فرغ من هذا انتقل إلى مكتبه الخاص في ديوانه فيأخذ في مطالعة الرسائل واستعراض المسائل وبحثها وإبداء رأيه كتابة.. ويظل كذلك حتى بعد شروق الشمس بساعة، ومن ثم ينتقل إلى إحدى قاعات الاستقبال حيث يستقبل بعض أخصائه، ويرسل في طلب بعض من لهم به شأن مهم، وبعد ذلك يستقبل وفود الإخوان؛ فيقضي في الاحتفاء بهم ومسامرتهم وسماع ما يدلون به إليه من الأقوال والأحوال وقتاً غير قليل.

ومما يذكر أن أولئك الاخوان يتحدثون إلى مليكهم كأنما يخاطبون واحداً من إخوانهم البدو في الصحراء، وليس ذلك منهم كما يتبادر إلى بعض الأذهان جلافة بدوية، ولا قلة احترام لملوكهم، ولكنهم يفعلون ذلك تمسكاً بسنة السلف الصالح، والسير على ما كان عليه المسلمون في أيام الخلفاء الراشدين؛ فمن ذلك أني رأيت أحدهم يخاطب مولاه الملك بقوله: "يا عبد العزيز"! .. فاستكبرت منه ذلك، وكدت لا أصدق سمعي؛ لحقارة شأن المتكلم، وسعة صدر جلالة المخاطب.. لولا أن أحدهم همس في أذني قائلا: "ذلك هو الدستور الذي شرعه لنا هذا الملك، فهو يقبله على العين والرأس ولا يرضى سواه بديلا".

وعند الضحى ينتقل جلالته إلى قاعة تعرف باسم المجلس الكبير وهناك في هذا المجلس يستعرض جلالته الشئون العامة في كل ما دق وجل، فبينما تراه يعلق على حديث نبوي إذا به يصل هذا التعليق بمسألة عامة أو

بحادثة تاريخية أو بأمر مستقبل يريد أن يومئ إليه بهذا الحديث.

إن أهل نجد – ولاسيما سكان باديتها – يعدون الأرز طعاماً أساسياً لهم بمثابة الخبز عند سائر الشعوب الأخرى، ولما كان هذا النوع من الطعام يستلزم تناوله بالملاعق فإن النجديين لا يستعملون سوى قبضة أيديهم، أما سائر ألوان الطعام الناضجة الأخرى فلا يمكن أن تخلو من إضافة مسحوق "الكركم" عليها – ويسمونه البزار–، ومع كثرة الألبان هناك فإنهم لا يعرفون الجبن، ولكنهم يصنعون شيئاً كثير الشبه به يسمونه "البقل" وطريقة صنعه أنهم يغلون اللبن حتى يجف، ومن ثم يضعونه في الهواء فيزداد جفافاً، ويقطعونه قطعاً صغيرة بعد أن يضيفوا عليه قليلاً من الملح.. ومن عوائدهم أن لا يتناولوا البصل نيئاً، وحجتهم في ذلك عدم مضايقة المصلين برائحته[1]، وهم لا يهتمون بتصنيف الطعام ألواناً، ولا يهتمون بطهي الحلوى تمشياً على ما كان عليه السلف الصالح.. ولا يوجد في نجد كلها سوى طبيب واحد هو طبيب الملك الخاص، ومع أنه وحيد زمانه هناك فإن عمله قليل، والعلة في ذلك أن أسقام الناس تكاد تكون معدومة بسبب تقشفهم في المعيشة وفي تناول الأطعمة؛ ولأن يد الطبيعة هي التي تقوم مقام الطبيب هناك.. يدلك على ذلك أن الوفيات هناك قليلة جداً، ويندر أن يموت شخص في سن الأربعين أو الخمسين، ولهذه المناسبة أذكر مرة أن جاء بدوي إلى طبيب الملك أثناء وجوده، وطلب إليه أن يصف دواء لامرأته التي كانت تقيم في قلب البادية وعلى مسير ثلاثة أيام، فاعتذر الطبيب عن وصف الدواء إلا إذا عاين المريضة وشخّص داءها؛ فما كان من الأعرابي إلا أن هزأ بالطبيب والدواء وقال: لعلها تكون قد شفيت فلا حاجة بنا إليك، وانصرف لسبيله.. وجاء بدوي آخر كان قد أصيب برصاصة في جانب من كتفه شلت ساعده الأيمن، فلما أفهمه الطبيب أن إخراج الرصاصة يستدعي التخدير وإجراء عملية جراحية ضحك وقال: لا والله.. لن أموت إلا بريح الجنة – ويقصد بذلك برصاصة أخرى – لا أن يموت على مشرحة الطبيب.

ومن أعجب العجب أن أهل البادية الذين يقطعون القفار الشاسعة بلا دليل صناعي أو نحوه، بل بمراصد الشمس والقمر والنجوم وألوان رمال الأرض: يستطيعون أن ينبئوك بأن أشخاصاً يتحدثون وهم على بعد نصف يوم على ظهور الإبل في الصحراء[2].. ولعل ذلك يرجع إلى شدة حاسة السمع والبصر عندهم وصفاء أذهانهم والى قوة اتجاه الريح الذي ينقل نبرات الأصوات مع الأثير.

والمواقيت هنا بالحساب الهجري، وقد يريد بعضهم أن يذكر لك مثلاً العام الذي انقضى منذ عشر سنوات، فبدلاً من أن يقول لك بالرقم يذكر لك أهم وقائع ذلك العهد كأن يقول: سنة الأحساء، أو سنة الحجاز، وهلم جرا.. ولا يمكن أن يخطئ أحدهم في فهم عدد

(١) تمشياً مع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باجتناب آكل البصل المسجد؛ لأن الملائكة عليهم السلام يتأذون مما يتأذى منه بني آدم.

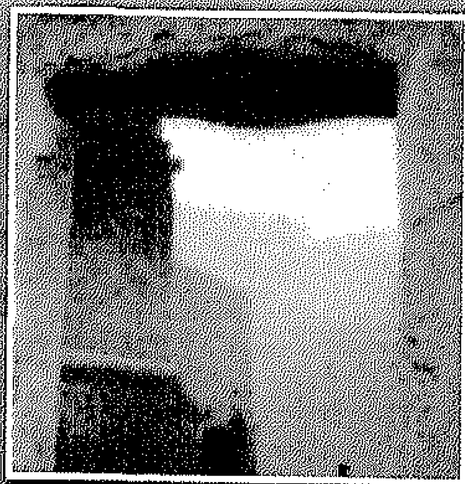
(٢) ليس صحيحاً هذا القول، وقد تكون طبيعة الصحراء تساعد في ذلك ولكن ليس بمسافات طويلة.

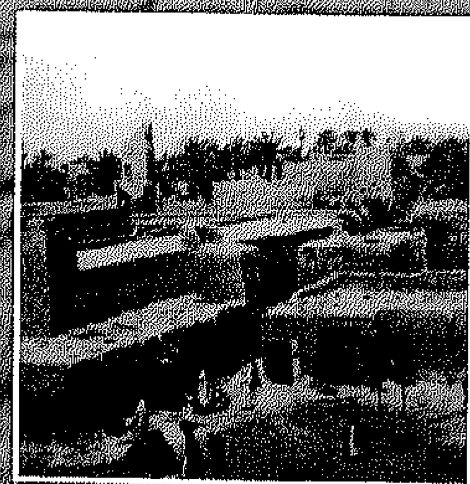
السنوات التي مضت على ذلك الحادث، أو أن يكون جاهلاً لأهم ما جرى من وقائع تلك السنة.. أما نطقهم العربي فلهجتهم تختلف عن لهجة عرب مصر، بل وعرب الحجاز أيضاً، فهم يبدلون الكاف تاء مشددة.. ومن عاداتهم أنهم قبل أن يبدأ أحدهم بمحادثة آخر يدعو له بطول العمر، وهناك اختصار لجملة أو لعدة جمل تقع في حرفي "سم" بفتح السين وسكون الميم، فعندما يقدم الساقي القهوة بدل أن يقول: بسم الله.. يختصرها بقوله: سم.. وإذا أراد أحدهم أن يصدع بأمر فبدل أن يقول: سمعاً وطاعة: أجاب بكلمة: سم.. وإذا ناديت عليّاً وأراد أن يقول لك: إني سامع: هتف قائلاً: سم، وهلم جرا.



ليوبولد فايس (محمد أسد)

١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م







ليوبولد فايس*

Leopold Weiss

(محمد أسد)

١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م

تبدو مدينة الرياض من جهة الشمال كتلة سوداء من أشجار النخيل تظهر من بينها البيوت الطينية تعلوها أبراج القصر الملكي العالية ، ومن على سقف القصر يبرز برج رقيق يضيق عند قمته، ويبدو للرائي من مسافة بعيدة، وفي قمته فانوس قوي يضاء عندما يكون الملك موجوداً في المدينة.. إن هذا القصر هو القلب النابض في الجزيرة، ونبضاته هي التي تقرر مصير الجزء الأكبر من جزيرة العرب.

يستضاف حوالي ألف إنسان يومياً داخل الرياض وحولها.. بعضهم يأتي، والبعض الآخر يذهب، وينشر الكلمة بين الناس حول كرم الملك في الأقطار العربية.. والصفات التي يُكبرها العربي في أبطاله وحكامه قبل ألف سنة هي نفسها اليوم، فبالإضافة إلى نقاء نسب الملك وشجاعته الشخصية وحكمته، وفوق كل ذلك، تأتي القدرة على العطاء بسخاء.

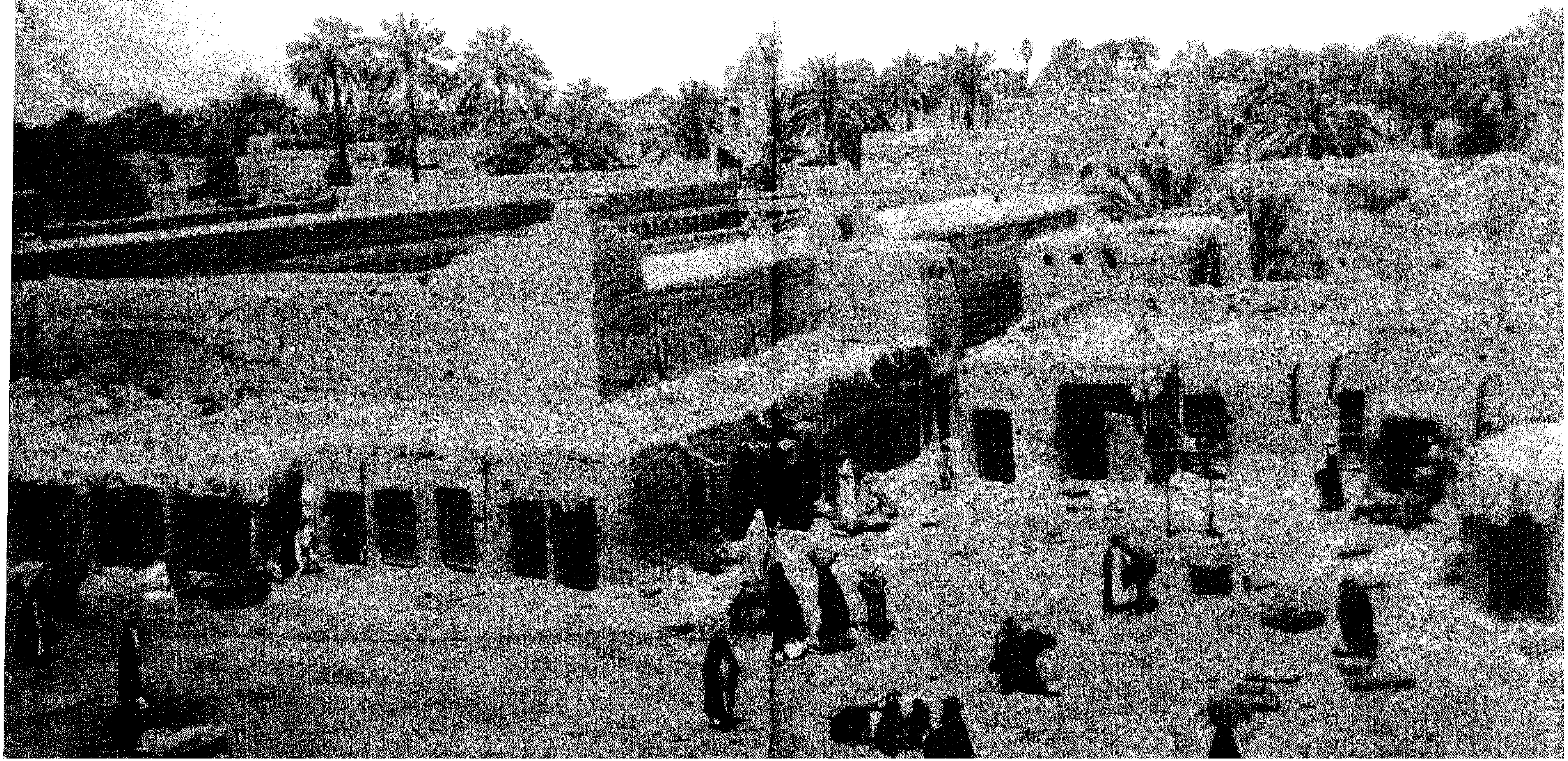
يستطيع المرء رؤية المدينة بوضوح من تلك المرتفعات المحاذية لأماكن انتشار خيام البدو؛ لأنه في هذا الجانب الشرقي لا توجد مزارع نخيل، ويقع أمامنا سور المدينة الطيني مثله مثل كل المباني في نجد، لكنه عالٍ وقوي بما يكفي لحماية المدينة ضد أي هجوم غير متوقع، ومن خلف السور تبدو لنا كتل المنازل الطينية ذات السطوح ومحاطة بأسوار في ارتفاع قامة الرجل.. هنالك في السطوح ينام السكان في ليالي الصيف الحارة، وفيها تعمل النساء الغسيل، ومرة أخرى تبدو الأبراج، ليس فقط أبراج القصر الملكي الواقعة في وسط المدينة، بل أبراج أخرى على سبيل المثال برج القلعة الواقعة في الشمال الشرقي[1]، وهو الذي له تاريخ مليء بالأحداث والوقائع، ثم أبراج السور الخارجي للمدينة التي يصل عددها إلى أكثر من عشرين برجاً ثم مئذنة الجامع الكبير بارتفاعها المنخفض ، وبما أننا نظر من جهة الشمال الشرقي فإن أشجار النخيل تبدو لنا خلف المدينة بحراً من الخضرة، وتصلنا أصوات السواني في نقاءٍ ووضوح.

---

* ليوبولد محمد فايس صحفي نمساوي من مواليد عام ١٩٠٠م/١٣١٧هـ.. ارتحل في البلاد العربية في بداية حياته العملية، وأعلن إسلامه في عام ١٩٢٦م/١٣٤٥هـ، وتسمى باسم محمد أسد الذي اشتهر به طيلة حياته.. تنقل في الجزيرة العربية سنوات عدة، وكان صديقاً للملك عبد العزيز، وكتب عن شؤون المملكة كثيراً خلال عمله الصحفي.. انتقل للهند، وساهم مع الحركات الإسلامية في سبيل إنشاء دولة الباكستان، وعندما أنشئت باكستان في عام ١٩٤٧م عمل في حكومتها حتى أصبح مندوباً لها في الأمم المتحدة.. اشتهر في كتاباته عن الإسلام، وجسد قصة إسلامه في كتاب صدر بالإنجليزية بعنوان "الطريق إلى مكة"، وهو الذي ترجم إلى العربية باسم "الطريق إلى الإسلام".. توفي عام ١٩٩٢/١٤١٢هـ.. أما وصفه للرياض المترجم في هذا الكتاب فقد ورد بمقالة له كتبها بعد زيارة للرياض تمت بدعوة من الملك عبد العزيز عام ١٩٣٠م/١٣٥٠هـ. انظر:

Leopold Mohammad Weiss, "Riadh Die Stadt des Konigs Ibn Sa'ud", Atlantis, pp 522-530, Berlin, 1930

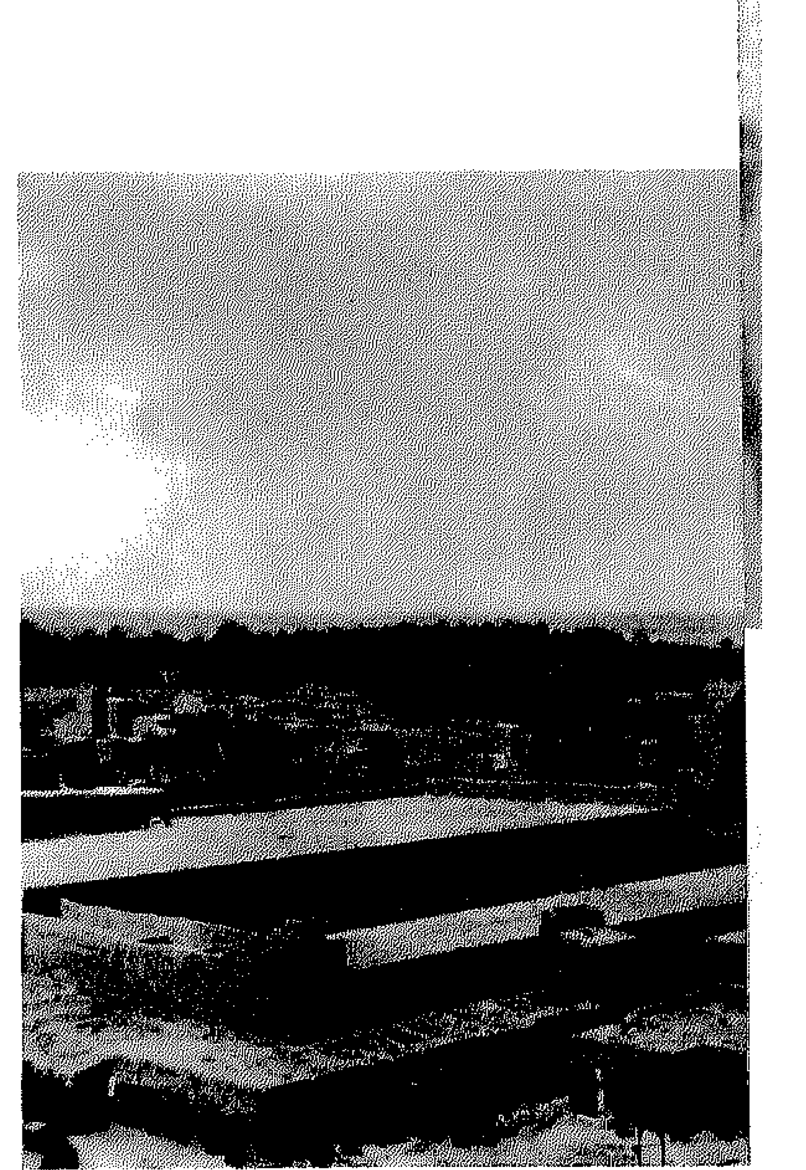
(١) يقصد بذلك حصن المصمك.



الجامع الكبير بمدينة الرياض،
ويبدو السوق في المقدمة.
محمد أسد ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م.

السوق في مدينة الرياض أصغر منه في بريدة، بل حتى أصغر من ذلك الموجود في حائل على الرغم من حقيقة أن الرياض لها أهمية أكبر منهما، لكن الرياض عاصمة وليست مركزاً تجارياً وتنبع أهميتها من كونها عاصمة مملكة كبيرة ومقر الملك ومركز كل القرارات السياسية.. والسوق هو أيضاً ساحة القصر حيث يمتد في شكل مربع على طوال الواجهة الأمامية للقصر الملكي، ويتكون من صف من الدكاكين ذات الطابق الواحد، وكل دكان عبارة عن غرفة صغيرة بها باب واحد وليس بها نافذة.. والباب يكون دائماً مفتوحاً.. ما بين ذلك الصف من الدكاكين وواجهة القصر الملكي يوجد أيضاً صفان من المحلات المتقابلة، وفي الزاوية الشرقية من السوق يوجد سوق الجمال؛ وفي الزاوية المقابلة لذلك من الناحية الغربية هناك صفان من المحلات التي يشغل أغلبها صانعو الأحذية، وبين تلك المحلات يوجد بعض التجار الذين يفرشون بضائعهم على الأرض، وعلى مسافة قريبة وبالقرب من جدران القصر الملكي يقع سوق النساء، ويفصله عن السوق الرئيس صف من القصابين، حيث تجلس النساء لبيع البيض والخضراوات المنشورة على حصائر سعف النخيل..

ودائماً هنالك حشد كبير من الناس في منطقة السوق وهو ليس أمر مستغرب إذا أخذنا في الحسبان أن كل الناس يقضون جزءاً كبيراً من وقت فراغهم بالقرب من القصر، وإذا كنت مقيماً في الرياض فإنك تأتي إلى السوق ليس من أجل البيع والشراء، وإنما فقط لمقابلة الأصدقاء، وتمضية جزء من يومك.



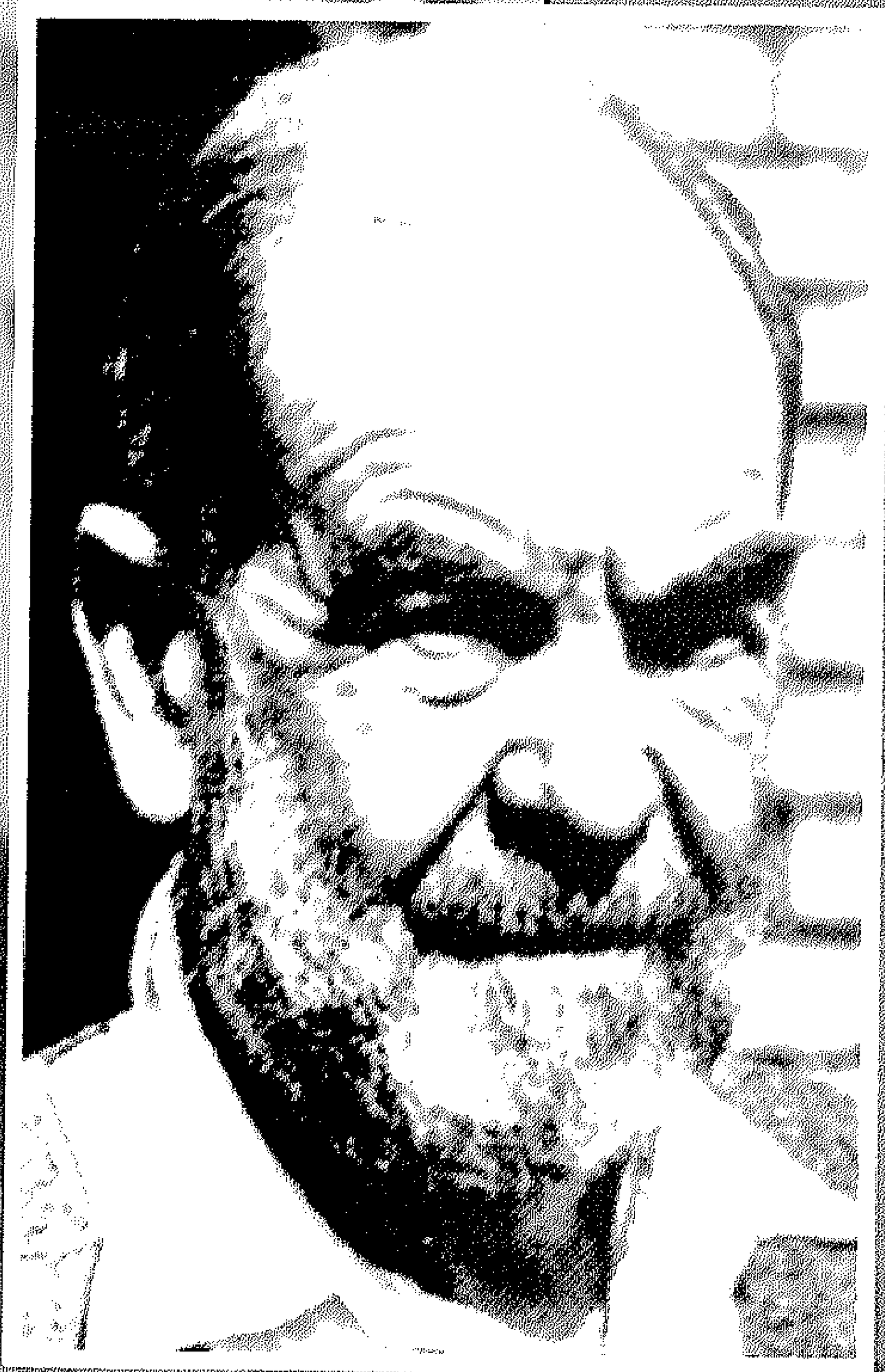
الفصل الثالث

الرياض

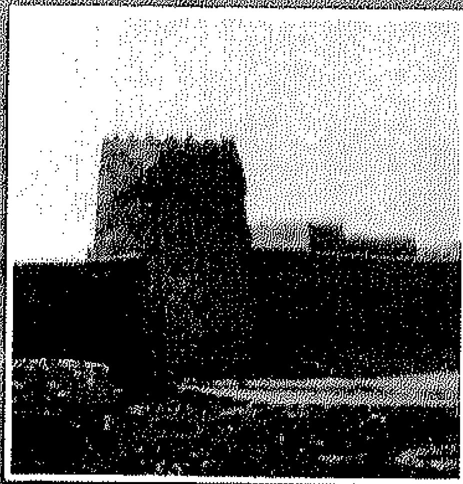
في القرن الرابع عشر

(العشرين الميلادي)

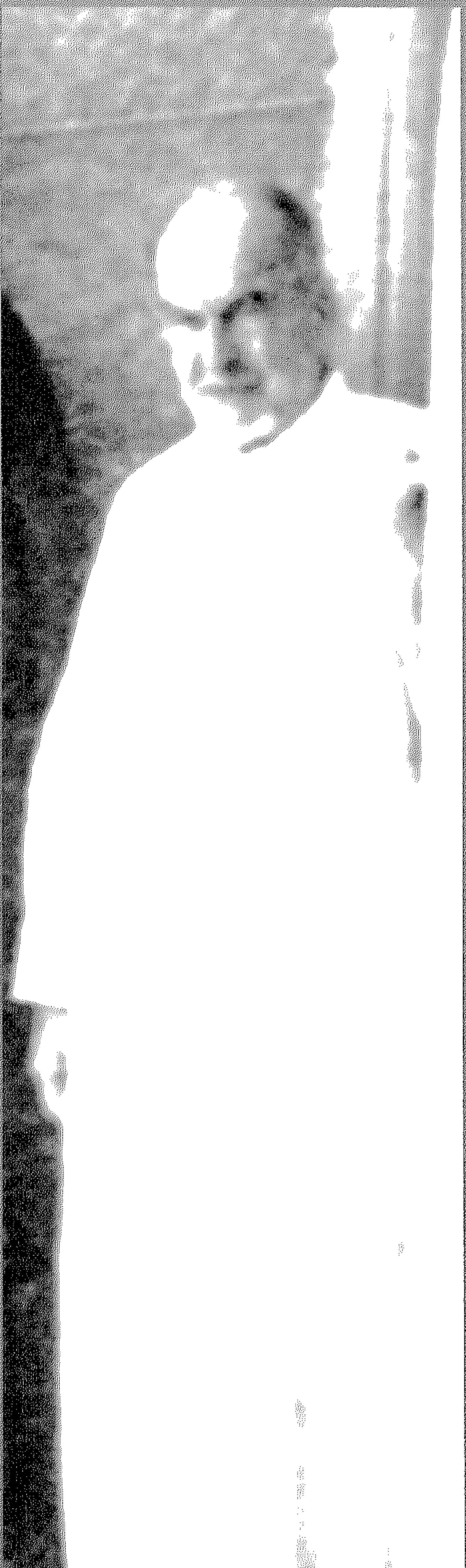
١٣٥١-١٣٥٨هـ/١٩٣١-١٩٣٩م



عبدالله فيلبي ١٣٥١هـ/١٩٣١م







عبدالله فيلبي*

H. S.J. B. Philby

١٣٥١هـ / ١٩٣١م

مهما كان المرء متعوداً على التكوين الطبيعي للعاصمة الصحراوية للمملكة فإنه عندما يعود إليها بعد أي فترة من الغياب يدهش لتغير حالها.. إنها لا تبدو للعيان إلا بعد أن تكون منها قاب قوسين أو أدنى، فهي تظل مخفية ومدفونة في سلسلة حقيقية من التلال الجيرية الوعرة عديمة الشكل والسمات، تمتد صوب الشمال والشرق دون انقطاع لمسافة خمسين كيلومتراً تقريباً، وفي وسط هذه التلال الوعرة القاحلة يقع وادي حنيفة الخصب بين منحدرات قاحلة وعارية؛ ومع أنه كان قريباً لمسارنا لكننا لم نستطع أن نلقي نظرة كاملة على مجراه، وأول شيء وقعت عليه أعيننا المنهكة – بعد سير استمر ساعات عدة في الطريق الترابية من الجبيلة – كان هو نخيل الشمسية، وهي أبعد منطقة من حدائق الرياض من جهة الشمال[1]، وقد رأيناها من مسافة أربعة كيلومترات تقريباً، وعندما ارتقينا على مرتفع لاحت لناظرنا صورة أشمل للجزء الشمالي من الواحة بما في ذلك المدينة القابعة وسط أسوارها المحصنة.

كان هناك حجاب قاتم من الغبار عالقٌ بالأفق لا يمكن من خلاله رؤية أي شيء مثير للإعجاب.. لقد كانت الصحراء هي التي تسيطر على العقل أكثر من المدينة، حيث كانت ترتسم في كل اتجاه الخطوط المتقاربة والمتقاطعة للقوافل والوفود التي مرت بها منذ أزمنة سحيقة، كما كانت محددة هنا وهناك بآثار عجلات المواصلات الآلية الحديثة التي جاءت لتبقى، بالرغم من أنها لم تتغلب على وسائل الانتقال القديمة التي تعود عليها أسلاف عرب اليوم، وكانت معظم المجموعات تتكون في أغلب الأحيان من نحو ستة أشخاص مع العديد من الرواحل قد تكثر أو تقل، إلا أنها في بعض حالات القوافل الكبيرة، تقوم بقطع الصحراء بجهد مقارب لذلك الذي بذلناه ، وبسرعة يكون من شأنها إتاحة الوصول صباح اليوم التالي، بينما لا نستطيع نحن تحقيق ذلك قبل ساعة أو ساعتين من غروب الشمس، وحينما نتوقف كان يصعب الإحساس بالريح القادمة إلا إذا كانت ذات سرعة شديدة بحيث تهب علينا بصورة مفاجئة، ولكن بصورة كاملة وسط غبارنا الأصفر الفاتح، ولربما كنا نغبط رفاقنا المسافرين على تلك الوسائل البطيئة التي كانوا يواصلون السير عليها بدون قلق وبدون غبار.. كان يتعين علينا أولاً أن نعكف على هدف مسعانا المشترك، ولكنهم سوف يدخلون قريباً في مقام الضيافة.. لقد بلغني أن ألوفاً منهم تقدر بنحو ٨٠ ألف نسمة قد أتوا وذهبوا قبلهم، وحتى تلك اللحظة

---

* المعلومات الخاصة بالرياض هنا كتبها سانت جون فيلبي في كتابه:
H. S.J. B. Philby,
A Pilgrim in Arabia. London: Robert Hale Limited, 1946, PP. 95-122

(١) ليست من جهة الشمال بل هي إلى الشرق أقرب.

الشارع الرئيسي بمدينة الرياض،
والذي يوصل الى البوابة الشمالية.
فلبي، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.



كانت البقية الباقية من الضيوف تنتشر في الصحراء كما تنتشر الأنجم في السماء، بخيامها البيضاء أو السوداء أو المخططة، بأطفالهم ونسائهم وماشيتهم.. وتقدر بحوالي أربعة أو خمسة آلاف شخص، ومنذ أن عاد الملك في أوائل شهر يوليو ١٩٣٠م ظل هؤلاء البدو يتقاطرون ويتوافدون من كل صوب من البلاد لكي يقدموا فروض الولاء والطاعة.. كان هناك جيش ضخم على أهبة الاستعداد يتم الدفع له حسب مبدأ السخاء والمكرمة التي تكون حسب إرادة الملك.

كانت البطحاء، والأماكن الأخرى التي تصلح للنزول حول العاصمة خلال الشهر المنصرم بكامله تعج بخيام رجال القبائل الذين قدموا من كل حدب وصوب... لقد خف الضغط كثيرا الآن، ولكن يبدو أن الوصول إلى المدينة دونه حشد من الناس يقدر بالمئات، وهو حشد هائل من الناس الأشداء، حتى يخيل إلينا أن سياراتنا كانت تزحف زحفاً من بوابة الثميري وحتى مدخل القصر.

وحسب ما كنت أتوقع سماعه فقد كان الملك خارج المدينة في تلك الساعة بعد صلاة العصر (أي حوالي الساعة الرابعة عصراً)، وربما لا يعود قبل ساعة أو ما يقارب ذلك بعد مغيب الشمس.. كان الملك في حاضرة الإقليم التي تسمى البديعة في قصر الباطن[1]، وهو قصر شيده ابنه الأكبر سعود على قطعة كبيرة من الأرض تحفها أشجار النخيل.. كان من الواضح أنه ليس من الممكن لكل مجموعتنا الكبيرة أن تذهب إلى قصر الباطن بحثاً عن الملك، وبما أنني تأكدت من العديد التابعين عند البوابة أن الجناح نفسه قد حجز لي كما كان يحدث لي عند بداية السنة قررت أن أضع أمتعتنا كلها في تلك الغرف ثم أذهب وحدي مع جابر إلى قصر الباطن.

بقي كردي مع الأمتعة بينما تعهد الطبيشي بأن يجري كافة الترتيبات الضرورية من أجل الترحيب والترويح على بقية المجموعة عند وصولها. قام رشيد الهويدا وابن عمرو بمرافقتي وجابر بحثاً عن إبراهيم بن جميعة للحصول على موافقته على ذلك الترتيب.. وصل بعيران محملان بحطب الوقود كانا يسيران على جانب ذات الطريق نفسه في الوقت الذي كنا نحن نهم فيه بعمل كل شيء، ولكنهما خرجا عن طريقنا، وفي نهاية المطاف رمى الجملان حملها من الحطب فتناثر على طول الطريق مما أعاق تقدمنا، ثم هربا إلى الجانب الأقصى من مسارنا.. قام ابن عمرو بالبحث عن إبراهيم، ونقل لنا خبراً مفاده بأنه يمكننا مقابلة الملك، وما هي إلا دقائق معدودة حتى وضعنا أمتعتنا في القصر، وأخذنا طريقنا من بوابة الثميري إلى قصر الباطن، وهي مسافة تقدر بحوالي تسعة أكيال وربع كيل على طريق ممهدة وهو يقع على الصفراء الجيرية شمال حوض الرياض، ويقع إلى الشرق من وادي حنيفة.

كان الملك يجلس بجوار نافذة خشبية في غرفة الجلوس الكائنة في الطابق العلوي من القصر الصيفي

(١) يسمى قصر البديعة واستخدم كثيراً في استقبال الضيوف الأجانب عند نزولهم في الرياض، وهو يقع على منحدر الضفة الغربية لوادي حنيفة.

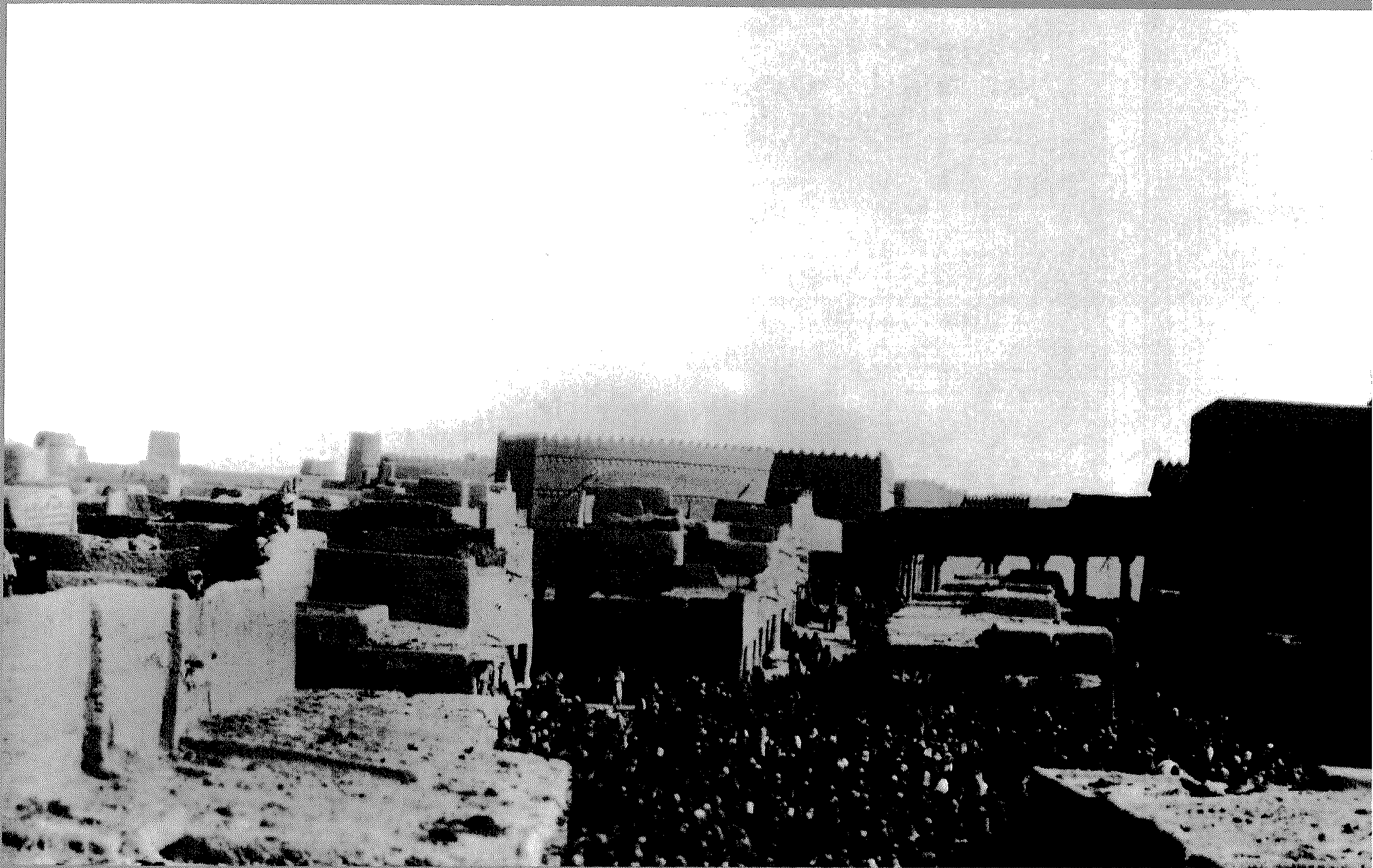


لسعود، وهو ينظر إلينا عندما كنا ننحدر عبر تلك الطرق الوعرة إلى بطن الوادي الرملي الذي كان يتعين علينا أن نعبره قبل الوصول إلى الباب.. وعلى الرغم من أن ابن عمرو حذرنا من أن أغلب السيارات تأخذ طريقاً أطول ولكن أسهل إلى الشمال تجنباً للغور في الرمال التي أخذت الكثير من الضحايا: فإنني قد وضعت السيارة الفورد الصغيرة في المسار الصحيح، وقد استجابت بنجاح كبير.. في لحظة كنا عند الباب، ومن ثم صعدنا السلم حيث قمت بمصافحة الملك، وقبلت جبينه، ثم صافحت بقية الحضور الذين تجمعوا حوله بعد الغداء.. وقد وجدت الملك لدى وصولي إلى قصر الباطن وهو يستمتع بالجو غير الرسمي في قصر البديعة مع عدد كبير من العائلة الملكية والبدو وبعض الشخصيات التي تحضر مجالسه العادية.. و الطبيب الخاص للملك الدكتور مدحت شيخ الأرض ومساعده أحمد ياسين الذي كان مسؤولاً عن مستشفى الرياض.

وخلال إقامتنا في الرياض، وكل صباح، بعد وقت قصير من الساعة الثالثة صباحاً حينما يظهر خيط رفيع من الضوء في الليل الشرقي: يتم إيقاظنا من النوم لكي نتوضأ على عجل، ثم نهرع إلى مصلى الملك الخاص الواقع فوق المسجد الصغير داخل القصر.. يتكون هذا المصلى من جزأين: أحدهما مسقوف ومغلق للاستعمال الشتوي، والآخر مفتوح بلا سقف حيث يستعمل أثناء الصيف.. إذا وصل المرء في الوقت المحدد ثم صلى ركعتي السنة ثم انتظر وصول الملك الذي حالما يظهر يهرع أحد الأتباع إلى الحاجز وينظر إلى المسجد ثم يقول: أقم الصلاة.. بعد ذلك تقام صلاة الفجر ذات الركعتين وتنتهي الصلاة بالتسبيح والتحميد.. بعد أداء هذه الصلاة يرجع الكل إلى مضاجعهم، ولكنني كنت أنتظر في سطح القصر حتى يحين موعد الساعة السادسة صباحاً حتى تزعجني الشمس بعدما ترتفع في الأفق. بعد ذلك أي في حوالي الساعة السابعة أو السابعة والنصف صباحاً يعقد الملك مجلساً في أربع غرف كل غرفة تلو الأخرى. كانت المقابلة الأولى في مكتبه الخاص وهذه الغرفة هي التي سبق أن التقيته فيها أول مرة مع والده عام ١٣٣٦هـ (الموافق ١٩١٧م)، وهي مكان لتداول الأمور مع الكتبة والسكرتارية واستقبال الضيوف الخواص.. ثم ينتقل إلى مجلس الجمهور في الغرفة المجاورة، وهي عبارة عن غرفة كبيرة يستند فيها السقف إلى ستة أعمدة، ومغطاة بقماش من مادة التسقيف حيث أخذ الضيوف مقاعدهم.. عادة ينتهي هذا المجلس في وقت قصير، وإذا كان ثمة شخص يتطلب مجلساً أو مقابلة خاصة فسيكون ذلك في الغرفة المجاورة، وهذه الغرفة مجاورة لمكتب يوسف ياسين حيث تكون المرحلة الأخيرة من الاستماع والمقابلة.. هنا، يظهر الأمير سعود ولي العهد أو أي أحد من أفراد العائلة المالكة، وأناس آخرون مثل الطبيب الخاص، وخالد القرقني وشخصي الذين لهم امتياز الدخول الخاص.

ينتهي عمل اليوم في حوالي الساعة العاشرة صباحاً أو بعد وقت قليل من ذلك حيث يغادر الملك إلى قصر البديعة وحديقته.. ويظل هناك حتى الساعة السابعة مساءً حيث يعود إلى الرياض على متن سيارة..

جموع من المصلين بعد أن أدوا صلاة الجمعة في الجامع الكبير بالرياض في ساحة قصر الحكم. فيلبي، ١٣٥١هـ/١٩٣١م.



بعد الظهيرة حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة عصراً وبعد صلاة العصر يتحرك يوسف والبقية الباقية منا إلى قصر الباطن لنلحق بمجلس الملك. وبعد نصف ساعة يعد طعام العشاء، ويخصص الوقت الباقي من المساء للسمر والأنس.. بعد ذلك يحين موعد صلاة المغرب حيث يدور الحديث مرة أخرى والقوم يلتهمون صحناً من التمر المعروف باللون أو البسر، ومن ثم نتوجه ثانية إلى المدينة في سيارة الملك (ماركة هدسون) حيث يركب نحو أحد عشر رجلاً مع الملك، وأحياناً يكون العدد تسعة أو عشرة رجال.

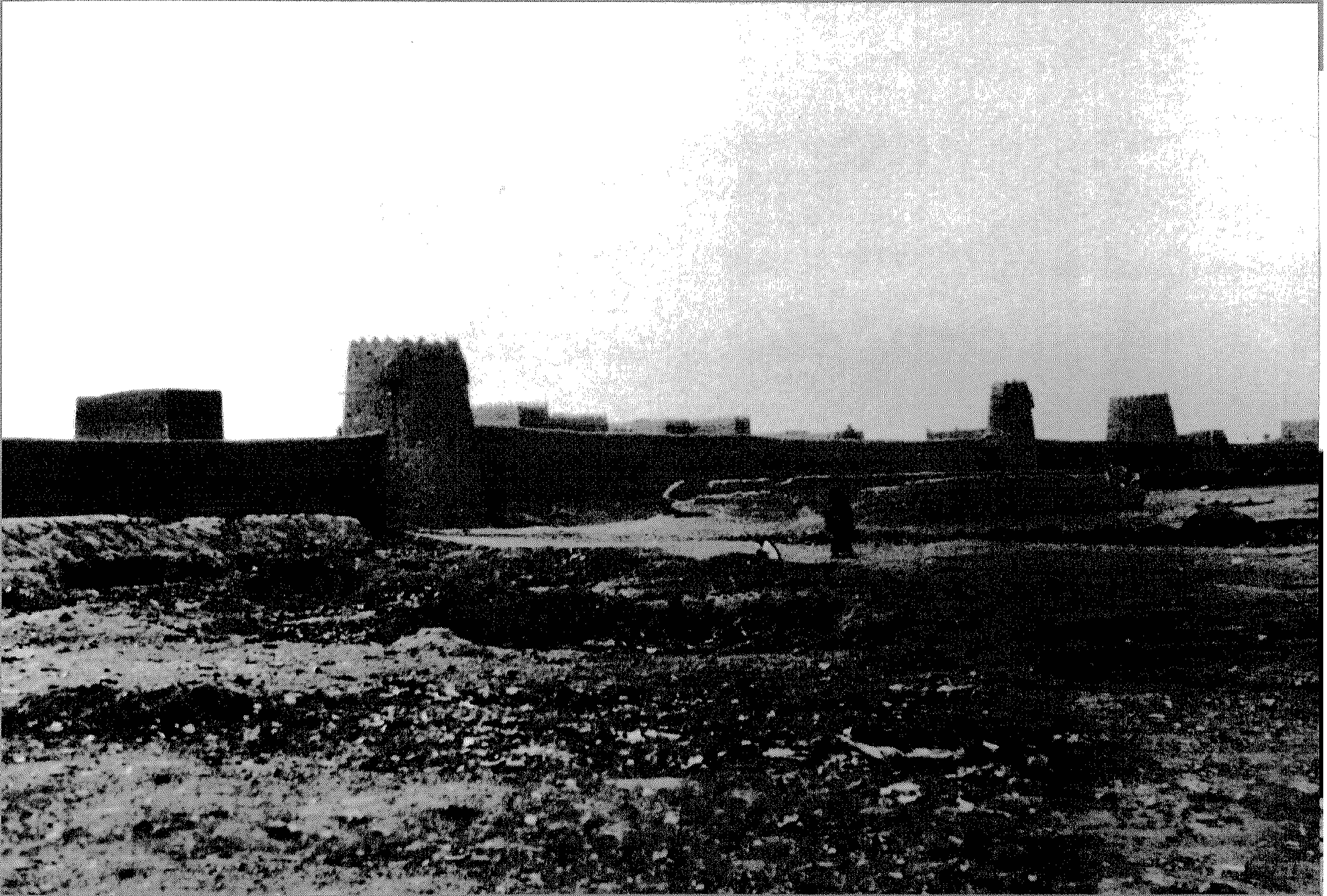
عندما نصل إلى القصر يذهب الملك حالاً إلى جناحه الخاص، أما نحن فنذهب إلى السطح الذي خصص لاستعمالنا أثناء الليل.. في الساعة الثامنة مساء نذهب إلى مصلى الملك الخاص لكي نؤدي معه صلاة العشاء تليها صلاة الوتر، ومن ثم نتوجه إلى ساحة ليست بالفسيحة حيث يقرأ علينا إمام القصر لمدة نصف ساعة درساً في الحديث والتفسير، وهو شاب ذو صوت جميل.. في العادة المجموعة التي تحضر هذه القراءة ليست كبيرة ويجلس الحاضرون على أرائك مرتفعة من الخشب مكسوة بطبقة رقيقة من القطن.. أحياناً تدار القهوة بين الفينة والأخرى بين الحضور، وينهي الملك كل جلسة من هذه الجلسات بقوله للإمام: بارك الله فيك.

يمكن أن يفهم مما سبق أن الوجبة المنتظمة الوحيدة هي وجبة العشاء التي تقدم في قصر البديعة في نهاية اليوم. في الصباح الباكر يتم تقديم وجبة إفطار خفيفة تحتوي على التمر واللبن الرائب والعسل والخبز، وكذلك الحال بعد صلاة الظهر يقدم لنا التمر واللبن الرائب وأحياناً الأرز واللحم، ولكنها كانت تقدم فقط لأفراد الأسرة والحشم.. أما في المساء وقبل الانصراف إلى النوم فكان كل واحد منا يتناول قدحاً كبيراً من حليب النوق وهذه الوصفة الغذائية تعد كافية جداً لموسم الصيف.. كان أهم مصدر للمضايقة والإزعاج هو كثرة الذباب ولا سيما في أشهر الصيف، وهذا الوباء لم يكن من المقدور القضاء عليه إلا بواسطة حملات منتظمة. ولكن في الجانب الآخر لا يوجد بعوض حيث يستطيع الواحد منا التمتع بليل هادئ حتى صلاة الفجر.

كانت أكثر الأشياء غياباً من قائمة الإزعاج بالنسبة لمدينة شرقية كبيرة هي الكلاب والقطط؛ إذ لم أر أكثر من قطتين خلال عشرة أيام (من شهر أغسطس) في نواحي القصر بينما صادفت نصف دستة من الكلاب خلال ذات الفترة أثناء تجوالي في السوق والطرقات.. مما لاشك فيه أن الصرامة القوية هي التي تقف خلف غياب الكلاب التي يسمح بتربيتها فقط للحراسة والصيد مثل السلوقي، ولكني لم أر مبرراً لندرة القطط.

يخدم مطبخ القصر نحو ألفين إلى ثلاثة آلاف شخص في اليوم الواحد. كانت كمية الأكل –لحم الضأن، والأرز، مع التمر، والخبز– يتم تحديدها وفقاً لأهمية الضيف، و مكان الأكل هو المضيف أو دار الضيافة وأماكن أخرى داخل القصر.. أما فضل الزاد بعد أن يأخذ الضيوف والخدم كفايتهم منه فإنه يتم توزيعه كذلك، ولا مجال لرمي أي جزء من الطعام.. في أي

سور مدينة الرياض وتبدو الأبراج التي كانت تحيزه. فيلبي، ١٣٥١هـ/١٩٣١م.





ساعة من اليوم يمكن للمرء أن يشاهد مجموعة من الناس والأطفال يقفون على البوابة الخلفية من القصر وهم يحملون أواني حيث يضعها الأطفال على رؤوسهم كأنها الخوذات، وذلك من أجل أن يحصل كل واحد منهم على بعض الطعام من مائدة القصر، وقد شاهدت ذات المنظر بتفاصيل أوفى في قصر البديعة. تقدم وجبة العشاء للملك وضيوفه في حوالي الساعة الرابعة والنصف عصراً، ومن ثم يمرر الطعام إلى الخدم ليأخذوا كفايتهم منه.. في حوالي الساعة الخامسة حتى الساعة ٥,٥٠ عصراً يتم إخراج ما تبقى من مائدة الملك والنساء بطريقة مفهومة ومعروفة، ثم يوضع الطعام في أطباق عالية، وفي هذه الأثناء لا يكون قد تبقى من الطعام إلا الأرز قبل وصول الرجال الذين يجيئون إلى القصر من خيام البدو في الوادي، وعمال الزراعة في حدائق النخيل المجاورة، والزوار من الدرجة الثانية.. وهؤلاء ينبغي أن يأخذوا كفايتهم عندما يجلسون على الطعام، ولا يسمح لهم بأخذ أي قدر من الطعام معهم.. وبعد أن تناول الرجال قسطهم من الأكل يجمع الباقي من الطعام في طبقين أو ثلاثة أطباق كبيرة ليقوم سفرجية القصر بتوزيعها على الأواني التي جمعت من النساء والأطفال الذين يقفون بخارج القصر على مقربة من مكان الأكل، وبعد قليل من الوقت يكون كل إناء قد وضع فيه نصيبه من بقايا العشاء، ثم يحضر أصحاب هذه الأواني الواحد تلو الآخر ليحصل على نصيبه. تتم هذه العملية بسرعة ودقة كأنها تمرين عسكري، وبعد ذلك يصعب على المرء أن يكتشف ما إذا كان هناك أحد الجائعين في الجوار.

لقد خصصت صباح أحد الأيام لنفسي لأذهب في جولة لصيد الفراشات في حديقة العطنة[1] في حي القري الجديد، وقد كان بستاناً من النخيل عندما كنت هنا عام ١٣٣٦هـ (١٩١٧-١٩١٨م)، وحديقة الوسيطى التي تقرر حينئذ اجتثاث نخلها لإفساح مساحة لمزيد من المساكن، أما حديقة العطنة فقد كان من المقرر أن تكون موقع محطة الاتصالات اللاسلكية الجديدة وموقف السيارات. لقد دهشت أيما دهشة لندرة تجمع الحشرات على النور أثناء الليل على سطح القصر، إلا أنه في برسيم حديقة العطنة كانت هناك فراشات كثيرة معظمها زرقاء (من نوعين أو ثلاثة أنواع) وأنواع من الفراشات البيضاء وكذلك الجنادب.. لقد استمتعت بذلك الصباح بينها، وجمعت حوالي سبعين فراشة وبضعة وثلاثين جندباً أو أكثر.. في عصر ذلك اليوم (٢٦أغسطس) تم تغيير العادة ذلك أن الملك قد دعي للغداء في إحدى الحدائق خارج السور الغربي للمدينة، وقد دعينا كذلك، وهناك كنا ويوسف ياسين وخالد القرقني نمشي في حرارة العصر.. لقد كان تغييراً ساراً أن نجلس في الحديقة بدلاً من الجلوس في قصر البديعة، وكانت الوجبة وليمة عادية عدنا بعدها إلى حديقة العطنة كي يرى الملك الموقع الذي ستقام فيه محطة الاتصالات اللاسلكية.. صلينا هناك صلاة المغرب، وأكلنا من تمر الوسيطى بينما أعطى الملك أوامره ببناء الجدران والمواقع المحصنة.

(١) العطنة تقع في منطقة القري دخلت الآن في مصلى العيد الكبير، يغلب عليها الآن مسمى الوسيطى.

كانت العادة التي وصفتها بصورة عامة آنفاً تخضع لتعديل كبير أيام الجمع؛ فمن حوالي الثامنة إلى التاسعة صباحاً كان الملك يجلس مع خاصته في غرفة يوسف، ومن ثم يعتزلهم استعداداً لصلاة الجمعة من حوالي الحادية عشرة والنصف إلى الحادية عشرة وأربعين دقيقة في هذا الموسم.. لقد زاد عدد سكان الرياض عن سعة الجامع بحيث تم توفير مسجدين جامعين، وكانت أرضية الجامع الرئيسي مقابل القصر مرصوفة بحصى صلب كما هو حال جميع أرضيات المساجد في الرياض، غير أن الملك يحضر صلاة الجماعة في حجرته الخاصة وهي غرفة ضيقة وطويلة مبنية على الركن الجنوبي من سطح المسجد إلى منتصف السطح تقريباً على طول الجدار الجنوبي الغربي موصولة بمبنى القصر الرئيسي (الطرف الغربي) بجسر محمول على دعامات.. هنا كنا يوسف وخالد وأنا نجتمع مع تابعي الملك في وقت مبكر حوالي الساعة العاشرة أو العاشرة والربع صباحاً، وبعد ركعتي السنة كنا نجلس لتلاوة القرآن، وفي الموعد المحدد كان الملك مع أعضاء من عائلته يدخلون، ويأخذ مجلسه أمام محراب المسجد المتجه إلى سبع درجات جنوب غرب بينما اتجاه القبلة الصحيح يجب أن يكون هو غرب الجنوب الغربي (٢٤٥ درجة)..بعد أن يؤدي الملك ركعات السنة ينضم لمجموعة التالين للقرآن، ثم تستمر التلاوة حتى نسمع صوت المؤذن الأول حيث تخشع الأصوات، بعد أن يفرغ المؤذن من النداء للصلاة يتلوه خطيب المسجد بصوته الأجش حيث يلقي علينا الخطبة، ثم تقام الصلاة، ويلي ذلك ركعتا صلاة الجمعة، ثم نصلي ركعتي السنة، ثم نجلس ننتظر حتى يفرغ الملك من صلاته الطويلة.. وبعد أن تقضى الصلاة يجلس الملك في المجلس العام حيث يستقبل الزوار، وبعد ذلك يمكن لكل واحد من الجمع أن يتفرق.

من عادة الملك في أيام الجمع أن يقوم بزيارة للمقبرة الكبرى[1]، وهي واحدة من عدة مقابر تقع في جوار العاصمة، ويرجع تاريخها إلى عهد فيصل الذي يبدو أنه أول فرد من الأسرة المالكة يدفن فيها، بينما دفن والده تركي في المقبرة القديمة خارج السور الشمالي وبوابة الظهيرة.. أما المقبرة الجديدة فهي تحتل مساحة كبيرة في الجانب الأيسر من البطحاء وليس بها بوابة أو سور؛ الأمر الذي يجعل القبور عرضة للنبش من قبل الكلاب والحيوانات الضارية الأخرى.. في الجمعة الثانية من وصولي قمت بمرافقة الملك في هذه الزيارة. عندما وصلنا إلى المقبرة بالسيارة تركنا أحذيتنا خارج ساحة المقبرة، وقمنا بجولة (تعد مؤلمة نسبياً) ونحن حفاة الأقدام حيث قام شيخ البلاط الملكي الشيخ محمد بن حمد الفارس[2] بدور الدليل للملك، ويسمي له

(١) المقصود مقبرة شلقا وهي تقع شرق الرياض دفن فيها كثير من الأئمة والأعيان منهم الإمام فيصل بن تركي عام ١٢٨٢هـ وابنه الإمام عبد الله بن فيصل عام ١٣٠٧هـ والإمام عبد الرحمن بن فيصل عام ١٣٤٦هـ.

(٢) هو محمد بن حمد بن فارس ولد في الرياض عام ١٣٢٣ ورث عن أبيه العلم وتولى في عهد الملك عبد العزيز النظارة على أوقاف آل سعود بالإشراف عليها وجبايتها وصرفها في مصارفها الشرعية، وتوفي رحمه الله عام ١٣٨٧هـ في الرياض (البسام، عبد الله: علماء نجد خلال ثمانية قرون، الجزء الخامس، ص ٥٢١).



أصحاب القبور الذين تجب زيارتهم على وجه الخصوص. ومن بين هؤلاء كافة الأموات من شيوخ الرياض وأسلاف وأحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذهم. تجدر الإشارة إلى أن زيارة القبور قد رخص بها النبي ﷺ كونها وسيلة لتذكير الأحياء بالآخرة والمصير المحتوم.. القبور الأخرى التي قام بزيارتها اشتملت على قبر أمه وابنه فهد الذي مات عام ١٩١٨م/١٣٣٧هـ، و ابنه الأكبر تركي الذي مات عام ١٣٣٧هـ الموافق ١٩١٨م، ثم زوجته الجوهرة التي ماتت عام ١٩١٨م.. وهناك يرقد والده عبد الرحمن المتوفى عام ١٣٤٦هـ، وليس بعيداً من هنا يرقد فيصل وابنه عبد الله إلى جواره. هنا قبر امرأة هي والدة فيصل نائب الملك في الحجاز، وما فتئنا نمر على القبور حتى رجعنا إلى السيارات مرة أخرى، ثم ذهبنا إلى رابية صغيرة بالقرب من جبل أبو مخروق[1] نمضي الوقت حتى مغيب الشمس. حيث صلينا المغرب ثم تناولنا فنجاناً من القهوة في منطقة الشمسية.. سعود بن فيصل وفيصل بن عبد الرحمن ومجموعة أخرى من العائلة المالكة مدفونون في المقبرة بالقرب من قبر تركي قريباً من الموقع الأصلي في الموطن الأول للرياض وهو بئر وحديقة حَجْر اليمامة.

بعد مضي يوم أو يومين قابلت رجلاً ذاهباً إلى المقبرة لآخر مرة أثناء طريقي إلى حي القري الجديد إلى المستشفى الصغير الذي بدأ العمل فيه في ١٩٢٩م/١٣٤٨هـ، وهو الذي كان قد أثبت وجوده بنحو جيد كما يدل سجل حضور المرضى.. أعددت العدة مع الدكتور أحمد ياسين والصيدلي الذي يعمل معه الدكتور نديم من أجل زيارتهما في موقع عملهما حيث وجدتهما عاكفين عليه.. وجدت مريضاً من أفراد الحاشية الملكية كانا يشرفان عليه في تلك اللحظة.. في خلال تلك السنة (وبالتقريب في الفترة بين ١٥ ديسمبر إلى ١٥ يوليو أي سبعة أشهر) كان مجموع المرضى ٩,٧٨٠ مريضاً.. بمتوسط ١,٤٠٠ مريض في الشهر وبمتوسط يومي نحو ٥٠ مريضاً. في شهر ربيع الأول زاد هذا العدد بنحو مخيف بسبب انتشار حمى الدنك حيث أصبح عدد المرضى في الفترة بين ١٦ يوليو إلى نهاية أغسطس حوالي ٣,٣٢٠ مريضاً مما يجعل المتوسط اليومي نحو ٧٠ مريضاً.. أكثر الأمراض انتشاراً في تلك الفترة كانت تتمثل في السل والجدري (مع انتشار حمى الدنجو أحيانا)، بينما كان وجع العيون من مختلف الأنواع يعطي الطبيب كافة العمل الجراحي الذي كان يتطلب معرفته.. لم تكن هناك ضائقة من حيث توفر الأدوية والإمدادات غير أن الوقت لم يحن بعد ليكون مستشفى الرياض مستشفى كاملاً.

بدأت تلوح في الأفق بعض التغيرات؛ فمثلا ذات مرة قبل الملك أن يلبي دعوة للغداء في إحدى حدائق الرياض الغربية، وفي إحدى المرات في البديعة وبعد أن تناول الملك وجبة الغداء توجه إلى الحديقة المجاورة التي تسمى المحطة [2] وهي معروفة بأنها كانت موقعاً دفاعياً اقتلعه

(١) جبل قديم مشهور في أعلاه خرق كبير يقع إلى الشرق من مدينة الرياض قديماً، وهو الآن يقع في حي الملز غرب شارع الستين كان يسمى قديماً "الخربة".. كان نقطة استراحة، وأصبح منتزهاً حديثاً.

(٢) مزرعة نخيل عامرة تقع غرب الرياض، وقد غرست أيام الإمام عبد الله بن فيصل.

السلفيون القادمون من الدرعية في القرن الثالث عشر (الثامن عشر الميلادي) لمقابلة القوات القادمة من نجران تحت قيادة حسن بن هبة الله، وهي التي هزمت هزيمة نكراء بعد أن سقط منها عدد كبير من القتلى في منطقة الحائر التي أطلق عليها هذا الاسم نظراً لكثرة الدماء التي تبخرت في غورها[1].. كانت في هذه الحديقة شجرة تين ضخمة وعتيقة تثمر ثمراً قليلاً في كل موسم، على الرغم من أن الملك يتذكر بأنه قبل سنة أو سنتين رأى فيها ثمراً كبير الحجم يسيل منه عصير كثيف.. هناك بعض أشجار النخيل القديمة (يقدر عمر النخلة بحوالي ١٥٠ عاماً) المتناثرة هنا وهناك، وقد جرف السيل التربة من تحتها وكشف جذورها.. كما استبدلت بها هنا وهناك بعض أنواع النباتات الأخرى.. غير أن الحديقة كانت تبدو كغابة، كما أن أشجار الفاكهة مثل الخوخ والتفاح والعنب قد تداخلت في بعضها.. في يوم آخر انتقل الملك إلى حديقة في الجهة العلوية من حافة الوادي وهي من أملاك ابن مطرف أحد أتباع الملك.. هذه المزرعة أو الحديقة تبدو جذابة جداً حيث كانت سيقان النخيل تبدو مرتفعة من مستوى حقل الذرة الذي قد حصد نصفه لعلف الحيوان.

والطريق من البديعة ولعدة أكيال يظهر عليه أنه محاطٌ بأشجار النخيل صعوداً ونزولاً بكلا جانبيه في تلك الأرض الغنية بالطمي الذي تجلبه السيول الموسمية، وقد ذكر الناس بأنه جاءهم في تلك السنة سيل يقدر بأكثر من ٢٤ ضعفاً عمّا سبقه، وقد ظل متواصلاً أكثر من يومين دون انقطاع.. في بعض الأجزاء من الوادي كان قاع مجرى السيل مكسواً بالحجارة القوية من الصخور الكلسية للجروف، بينما تجد أن وسط مجرى السيل به الرمل والحصباء. ويمكن القول إجمالاً: إن الوادي يمد الناظر بمنظر بديع وقد كان في ذلك الوقت يعج بخيام البدو.

ليس هناك بستان من البساتين يمكن أن يضاهي بستان البديعة الذي غرست فيه أشجار النخيل عندما كنت هناك قبل أربعة عشر عاماً، ويبدو أن هذا البستان يعود للأمير سعود الذي يقول بأن لديه ١٢٠٠ نخلة جميعها مثمرة.. في الطرف القصي من الحديقة توجد البئر التي ركب فيها سعود مضختين من ماركة بيتر بقوة ثمانية أحصنة لرفع المياه بدلاً من الساقية التي كانت تجرها الحمير والجمال.. وباستعمال صفيحة من الكيروسين كل ثماني ساعات تعمل هاتان المضختان لمدة ٢٠ ساعة في اليوم حتى في موسم الصيف حيث تكون أشجار النخيل في أقصى درجات العطش والحاجة للري.. هناك جزء من الحديقة مقفول من الجزء الرئيس ليكون بستاناً للفاكهة تزرع فيه أشجار العنب والخوخ وغيرها على الرغم من عدم نجاح أشجار الفاكهة في تلك السنة كما أشرنا من قبل.. ذات يوم قدمت إلينا خدمة بعد صلاة العشاء، وكان من عادة الملك أكل بعض الرطب؛ فتناول حبة أو حبتين وغسلهما بماء بئر الباطن العذب.

(١) ليس صحيحا أن تسميتها نسبة إلى الدم بقدر أن السبب هو حيرة مياه وادي حنيفة وغيره في المكان، فيصبح حائراً.



أقيمت احتفاءً بقدوم الشيخ أحمد السديري وليمة في بستان الأسرة في المصانع[1]، وهي ضاحية قريبة من العاصمة، وهي بالتأكيد حديقة جميلة حيث تتشابك فيها أشجار العنب والخوخ تحت ظلال النخيل وهي شامخة بين الأعشاب والشجيرات الخضراء حيث أُعدت مائدة طويلة يغطيها قماش أبيض تزدان بصنوف الطعام.. ومنطقة المصانع عبارة عن مساحة كبيرة من النخيل تقع في الطرف الجنوبي من واحة الرياض يقسمها الحوض الرملي الغريني لوادي حنيفة من الجهة الشمالية من حديقة منفوحة الكبيرة.. في هذه المنطقة يحتجز الوادي بسد[2] من الحجارة لتوجيه المياه إلى نخيل منفوحة والمصانع، وقد اشترى الملك واحداً من هذه البساتين بمبلغ ٢١,٠٠٠ ريال (ريال ماريا تريزا) الذي كان يعادل في هذه الفترة أكثر من ١٩ جنيهاً إسترلينياً.

بدت قرية المصانع التي كانت صغيرة الحجم قد تضاعفت في رقعتها.. أما قرية منفوحة -وهي بقايا مدينة عربية قديمة ما زالت حيطانها الضخمة متناثرة في مساحة كبيرة -فقد بدت أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة؛ فهي تبدو مهجورة، وهي حقاً مهجورة.. في الأيام الغابرة كان الناس يضطرون للتجمع في المدن والقرى من أجل الحماية المشتركة بسبب انعدام الأمن في تلك الحقبة من الزمن؛ لذلك بنوا الأسوار وأقاموها، وقد أدى الشعور بالأمن في الوقت الحالي إلى هجرة الناس إلى الحدائق والبساتين والمزارع؛ الأمر الذي نجم عنه هجر القرى التي تتخذ من الرياض الآن مركزاً تجارياً كبيراً يزوره الناس لتلبية حوائجهم..

(١) المصانع قرية قديمة من قرى اليمامة تقع على الضفة الغربية من وادي حنيفة وجنوب منفوحة تكثر فيها الصنوع ومسائل الماء وربما اشتقت اسمها منها. كانت عامرة قديماً، وأخيراً أصبحت مزارع وارفة. تقع على الجهة الغربية من الطريق الدائري الجنوبي للرياض حالياً.

(٢) لعله أحد السدود الأثرية القديمة التي لا تزال في وادي حنيفة وفي المناطق المحيطة بالمصانع وبالقرب من منفوحة منها ما هو على هيئته التي بني عليها منذ القرن الثالث الهجري وما بعده.

صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز بعد زيارته لمعرض صناعة الزيت ويبدو عبد الله فيلبي.





غير الدينغوري ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م



غيرالد ديغوري*

Gerald de Gaury

١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م

في يوم ١٩ ربيع الأول ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، ولدى اقترابنا من أسوار الرياض ترجلت واتجهت إلى إحدى الخيام، وخلال دقائق وصل سكرتير الملك الخاص الشيخ يوسف ياسين، وهو من طرابلس[1] المشرق، لكي يأخذني إلى منزله قرب البوابة الشرقية.. سرنا في ممر ضيق يتعرج وسط بيوت لا نوافذ لها على الجانبين، ولم تمض دقائق حتى وصلنا إلى بوابة خشبية ضخمة.. إنها لفقير من البشر في هذه العاصمة الصغيرة، حيث يخبئ السكان أنفسهم في بيوت صغيرة.. اعتذر الشيخ يوسف لاضطراره للذهاب إلى الديوان مرة أخرى، وترك معنا أحد خدمه للاعتناء بنا، كما أراد أن يترك لنا الوقت الكافي للاستحمام وتغيير الثياب، ويميل الشيخ يوسف قليلاً إلى السمنة، وهو أبيض البشرة له لحية سوداء مهذبة بعناية، ويختلف إلى حد ما عن بعض أهل الجزيرة الداكني السمرة هنا، وقبل أن يتركنا قال لي: إنه سوف يرافقني بعد العشاء لمقابلة الملك.

أُحضر متاعنا إلى الدار على ظهر جمل، ووزع علينا بسرعة.. والحمام في هذه المنازل ليس أكبر من حجم خزانة، وفيه خزان مياه صغير تشعل النار تحته في الشتاء من أجل تسخينها، ويقوم خادم يلف نفسه بحزام قطني بصب المياه على المستحم، ثم يقدم له المنشفة.. بعد الحمام جلسنا في الردهة ننتظر الشيخ يوسف الذي ما إن عاد حتى أعلن أن العشاء جاهز، لكنه قبل أي شيء اتجه إلى ركن في البهو صوب القبلة من أجل تأدية الصلاة.

على العشاء راح يتحدث بمرح عن خدمة الطيران التي ستبدأ بالعمل فور عودة الطيارين الذين يتدربون في إيطاليا.. أما الطائرات نفسها فقال: إنه لم يتقرر بعد من أين ستشترى.. وقال: إن المتمرنين قد حطموا طائرتين إيطاليتين مع المدربين، ومن حسن الحظ أن عقد التدريب

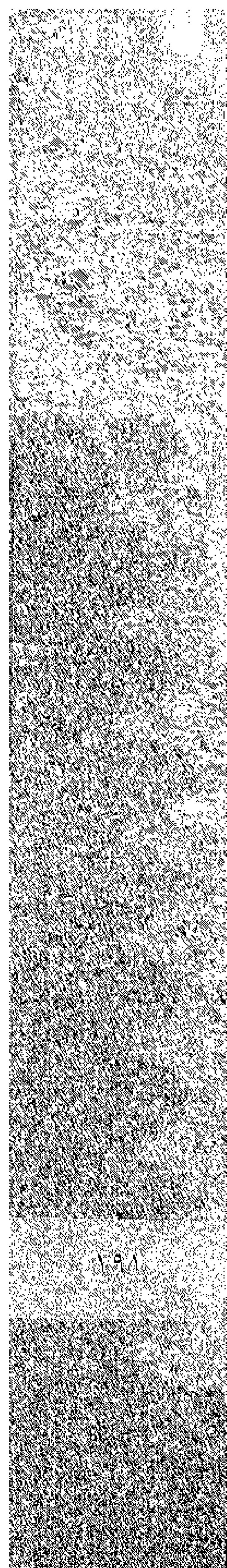
---

* غيرالد ديغوري ضابط عسكري بريطاني عمل في السلك الدبلوماسي البريطاني، وتنقل في عدد من الدول العربية.. عمل في جدة والكويت والعراق، وشغل منصب وكيل سياسي بريطاني في الكويت من عام ١٩٣٦م– ١٩٣٩م، كما شغل منصب قائم بالأعمال لدى الوصي على العراق عام ١٩٤١م. زار الرياض عدة مرات في الأعوام ١٩٣٤م، ١٩٣٥م، ١٩٣٩م، ١٩٤٠م.. كانت زيارته الأولى للرياض عام ١٩٣٤ م بصفته مبعوثاً لوزارة الخارجية البريطانية لمناقشة بعض القضايا السياسية مع الملك عبدالعزيز.. أما زيارته الثانية للرياض التي تمت في عام ١٩٣٥م فكانت بصفته مرافقاً للوزير المفوض البريطاني في جدة السيد اندرو ريان الذي قدم للرياض باسم الملك البريطاني (جورج الخامس)؛ ليمنح الملك عبدالعزيز وساماً بريطانياً رفيعاً اعترافاً به كحاكم مستقل يرتبط ببريطانيا بعلاقة دبلوماسية كاملة.

كتب ديغوري كثيراً عن رحلاته وعن المملكة العربية السعودية وتجاربه بها، ووصف الرياض في الكتابات، وأخذ صوراً عديدة للرياض في رحلاته تعد من أهم الصور التي تؤرخ للرياض وقت زياراته.

حول ما كتبه ديغوري عن الرياض في رحلته الأولى في عام ١٩٣٤م انظر: سمير عطا الله، قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج، الطبعة الثانية. لندن: دار الساقي، ١٩٩٨، ص ص ٢٥٢ – ٢٥٧.

(١) ليس يوسف ياسين من طرابلس بل من اللاذقية في سوريا.



ساحة الصفاة بالرياض وهي
مزدحمة بالناس بعد صلاة الجمعة.
ديغوري، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

واجهة قصر الحكم ويشاهد المدخل الرئيسي والجسر المؤدي الى قصر الضيافة المقابل له. ديغوري، حوالي ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م.



يغطي كل الخسائر.. وقد ضحك الشيخ يوسف طويلاً لذلك، وتحدث لنا عن شركة النفط الأمريكية، وعن المناطق التي تنوي استكشافها، وقال: إن حق التنقيب أعطي للأميركيين؛ لأن البريطانيين أخفقوا في التقدم في الوقت المناسب، وفي عرض الشروط المناسبة.

السيارات لم تصل إلى الرياض إلا منذ فترة قصيرة، والجميع يسألونني هنا: كم استغرقت الرحلة؟.. ولقد لمست المفاجأة لدى الجميع حين عرفوا أننا قطعنا المسافة بين جدة والرياض بأقل من ست ليال.. إنه لرقم قياسي!.. تناولنا العشاء في شعور من الضيق. فقد قدم لنا الشيخ يوسف طاولة وكراسي وسكاكين وشوك، وبدا أن الخدم تضايقوا من أننا نأكل على الطريقة الأوروبية، وبعد العشاء قدم لنا عنب الرياض وهو ليس في طعم العنب الذي أكلناه على الطريق في مرات، وهو ألذ عنب أكلته في حياتي.. الدكتور حسين مدير مصلحة الطب في الرياض انضم إلينا للحلوى.. إنه تركي على ما أعتقد.

قبل أن نتجه إلى القصر تربع الشيخ يوسف على الأرض، وراح يصغي إلى آخر الأنباء من الراديو، وما إن انتهى من سماع النشرة حتى نهض ولحقنا به في الممرات الضيقة يتقدمنا حاملو المصابيح الذين كانوا يقولون كلما التقينا بمارة آخرين: طريق.. طريق للشيخ يوسف.

غياب الحركة في هذه الممرات الرملية الهادئة التي يغلفها الظلام إلا من ضوء مصابيحنا، وجدران البيوت التي لا نوافذ لها إلا من بضعة أبواب خشبية مغلقة، ومداخل الممرات الضيقة التي تتشابه في رتابة هائلة: بدت كلها مثل أحجية هندسية يضيع فيها أي غريب من دون أن يعثر في الليل على من يدله على الطريق.. وهنا تقوم الساحة المفتوحة الوحيدة أمام قصر الملك عبدالعزيز الذي يشبه القلاع، وقد كان هذا القصر القديم في الرياض مقر القيادة العسكرية الشتوي للملك، يترك فيه عائلته فيما يخوض معاركه، ويتيه المرء في القصر أكثر مما يتيه في الشوارع المحيطة به: سلالم متعرجة تؤدي إلى ساحة بعد الأخرى.. وكنا كلما اقتربنا من السطح ازداد عدد الحرس، وأغلبهم يجلس في الممرات، وقد وضع بندقيته بين ساقيه.. والردهة القديمة هي حيث استقبل فيصل جد الملك عبدالعزيز السير لويس بلي المقيم السياسي في الخليج في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي الثالث عشر الهجري، وكان بلي خائفاً من مواقف الناس لدرجة أنه أحرق أوراقه وقطع زيارته.. وعندما أبلغ فيصل أنه يريد السفر شعر بشيء من الارتياح.

حين وصلنا إلى السطح خلع الشيخ نعليه وفعلت مثله، ووقف الحرس تأهباً، فأكملنا طريقنا، وعبر الردهة المضاءة بالقناديل شاهدت ابن سعود يقف منتصباً بقامته البالغة ستة أقدام وأربع بوصات.. حتى بين رجال الحرس البدو الطوال المنتقين بعناية كان يبدو عملاقاً في الطول والمنكبين، رجلاً في شكل جبل.. مدّ لي يده ثم شد بي أن أجلس إلى يمينه على سجادة فارسية الصنع، بينما ارتفع من الجانبين مصباحان شاحبان، وقد ابتسم الملك وهو يطرح الأسئلة حول الرحلة والطريق.. لم أر في حياتي ابتسامة طاغية أكثر من هذه الابتسامة.. إن

لبعض الحكام العرب سحراً طاغياً وها هو سحر ابن سعود يبدأ في أسري.

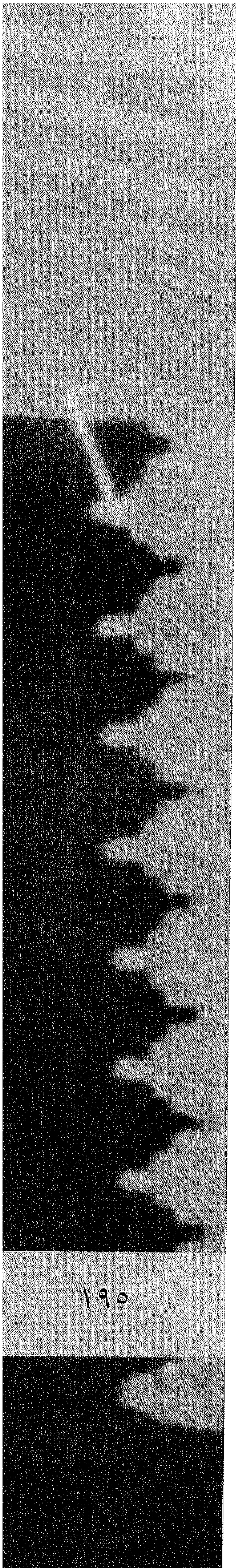
لم يكن ذلك الاجتماع طويلاً، لكن في اليوم التالي استقبلني باكراً قبل أن يبدأ حرّ النهار، وراح يتحدث عن قضايا الساعة، وعن الاعتداءات على الحدود، وقال لي: نحن معتادون على أمور الصحراء.. ثم راح يؤكد ذلك بسرد نادرة بعد أخرى، وكان أحياناً يتحدث عن المعارك لا عن الغارات، وعن دوره فيها، وعن جراحه مضيفاً: أن برودة الصباح والاستحمام بالمياه الباردة توقظان فيه ألم الروماتيزم.. وأنت تعرف ذلك.. ولست أدري من أبلغه بأنني أصبت بالجروح في معارك كثيرة.

كانت ابتساماته مليئة بالرجولة، ولهجته مليئة بالثقة.. ويتحدث بعربية فصيحة يلونها بأقوال بدوية بين حين وآخر.. وما إن يبدأ في الحديث حتى يتحول كلامه إلى فيضان لا يوقفه شيء سوى الدعوة إلى صلاة الظهر، وخلال هذه اللقاءات، التي يعقدها مرتين في النهار يتحدث عادة عن المسائل القبلية وسياستها وتاريخها، أو عن تاريخ عائلته وتاريخ الدولة، ثم أثار موضوع المعاهدة التي وقعها جده فيصل مع السير لويس بلي، وقال: إنه تم البحث عنها في المحفوظات من دون جدوى، لقد ضاعت خلال فترة نفي والده؛ إذ أعطيت لإحدى نساء العائلة حرصاً على ألا تضيع.. لكن يبدو أن السيدة نسيت أين خبأتها!.. وبعد ذلك سألني: أين نسختكم منها ؟.. لكن الواقع أن السير لويس بلي لم يأت على ذكرها حين عاد إلى الخليج. تراه مزقها أو أحرقها قبل أن يترك الرياض؟

قوته كما بدا لي في ذكائه الخارق، وكان معاونوه ورجاله وهو معهم يتفحصون جميع القادمين إليه إذا ما كان لهؤلاء أي شأن، وكان قد أقام مؤخرا في مقره جهاز إرسال واستقبال من طراز 'ماركوني'، وهو أمر جديد فعلاً في شبه الجزيرة العربية، ومن شأن هذه الأجهزة أن تساعد على ثبات الأمن والاستقرار في مملكته الواسعة.

وينطلق زوار الملك العرب في الكلام على سجيتهم في هذا الجو من المآدب السخية والهدايا والسلاح والثياب.. غير أن سحره الشخصي وتفهمه يظل أقوى من أي شيء آخر.. ولم يكن سيل الزائرين ينقطع. منهم من جاء من أرجاء المملكة الفسيحة، ومنهم من جاء من خارج الحدود.. لقد كان مثل قالب العسل الذي يجتذب الجميع، غير أن داره ضاقت بالمعجبين والمحبين لدرجة اضطر معها لتحديد مواسم معينة للاستقبال بحيث يكرس الأشهر الباقية لتفقد المملكة وإدارة شئونها.. والواقع أن الإدارة كانت بسيطة إلى حد ما قوامها التوازن بين المصاريف وبين دخول الدولة من الحج والجمارك، وليس للمصروفات أكثر من دوائر قليلة، أضيف إليها الآن بند جديد هو 'الشؤون الخارجية'، وتقع كل هذه الدوائر تحت سلطة وزير المال الذي يحرس المال بنفسه في بلد خال من المصارف، وهو يضع معظم هذا النقد في شكل عملات ذهبية تركية وإنكليزية، وهناك قطع فضية ودولارات وروبيات هندية.

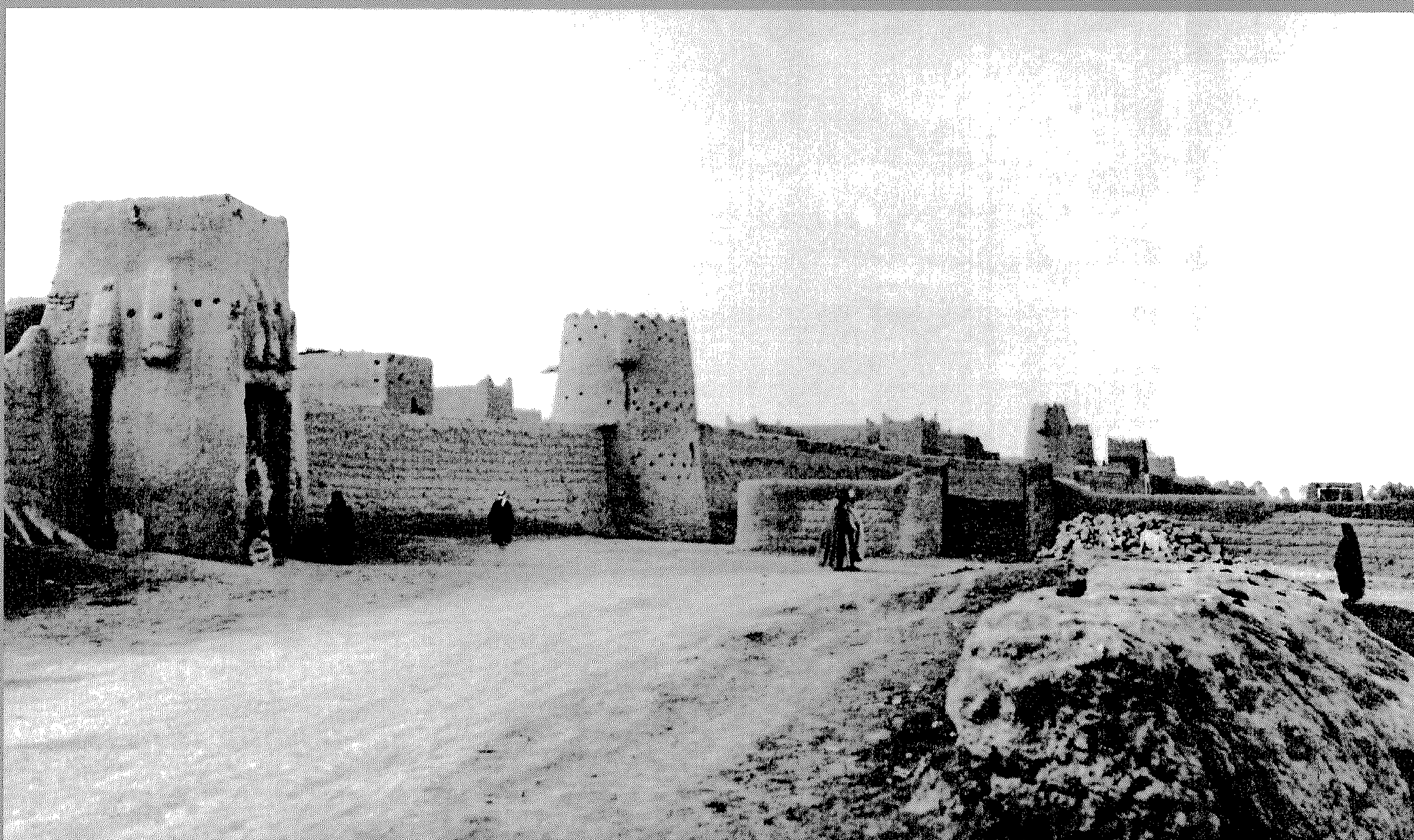
يطيب للملك عبدالعزيز حين يسمح وقته بذلك أن يمازح الذين حوله، وقد صادف أنني كنت إحدى





بيت الأميرة نورة شقيقة الملك عبد العزيز. ديغوري، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م.

الناحية الشمالية الشرقية لمدينة الرياض ويرى في اليسار بوابة البطحاء. ديغوري، أواسط خمسينيات القرن الهجري الماضي الموافق أواسط الثلاثينيات.



ضحاياه؛ إذ كنا نتناول طعام العشاء ذات مرة وقد جلسنا على الأرض أمام وعاء ضخم من الدجاج المحشي والأعشاب، فما كان منه إلا أن مدّ يده بحركة نبيلة وحمل دجاجة من إحدى رجليها وقدمها إليّ فأمسكت بها من الطرف الآخر فإذا هي حارة تحرق، فرميتها وأنا أكاد أصرخ ألماً بينما الضيوف يتبسمون..

يعود الملك من قصره الصيفي في البديعة حوالي الساعة الثانية والنصف ليلاً بالتوقيت العربي أي بعد الغروب، وينصرف إلى أعماله، فيوقع الرسائل واحدة بعد الأخرى، ثم يعطيها إلى سكرتيره، كما يستقبل الزوار، ويصغي إلى عرض لأخبار المقاطعات وأخبار العالم ، ولا يصغي إلى الموسيقى إطلاقاً.. وعند منتصف الليل بالتوقيت العربي يقرأ القرآن الكريم أو يستمع إلى قراءته، وبعد ذلك يقرأ بعض الأدعية وينام حتى الفجر حيث يقوم إلى تأدية الصلاة، وبعد ذلك يرتاح قليلاً، ثم يعمل حتى موعد صلاة الظهيرة. وبعد الظهر يعود إلى القصر الصيفي في وادي حنيفة المليء بالأشجار.

قبل أن نذهب لزيارة الملك عند المغرب كنت والشيخ يوسف ياسين نجلس على الأرض لكي نستمع إلى نشرة الأخبار من الراديو. وغالباً ما نستمع إلى إذاعة القاهرة، وبعد الاستماع إلى الأخبار يسرع الشيخ يوسف إلى الملك لكي ينقلها إليه قبل أن ينساها، وبعد ذلك بقليل يأتي خادمه ومرافق وحامل القنديل لمرافقتي إلى القصر، وهناك يدور الحديث حول "توازن القوى".. وعندما استأذنت بالانصراف بعد اللقاء بقليل طلب الملك مني البقاء، وطلب قهوة، فراحت الكلمة تنتقل من رجل إلى آخر؛ وتسمى هذه القهوة "قشر" وهي شاحبة اللون، ثم انتقلنا إلى الحديث حول موضوع الحبشة والحرب الدائرة هناك، ورأى الملك أن السلاح الذي يستخدمه الإيطاليون سوف يمكنهم من كسب الحرب، ويرى أن الحرب قد تتطور إلى حرب كبرى، وهكذا يتنقل الحديث إلى مواضيع كثيرة مثيرة للاهتمام.

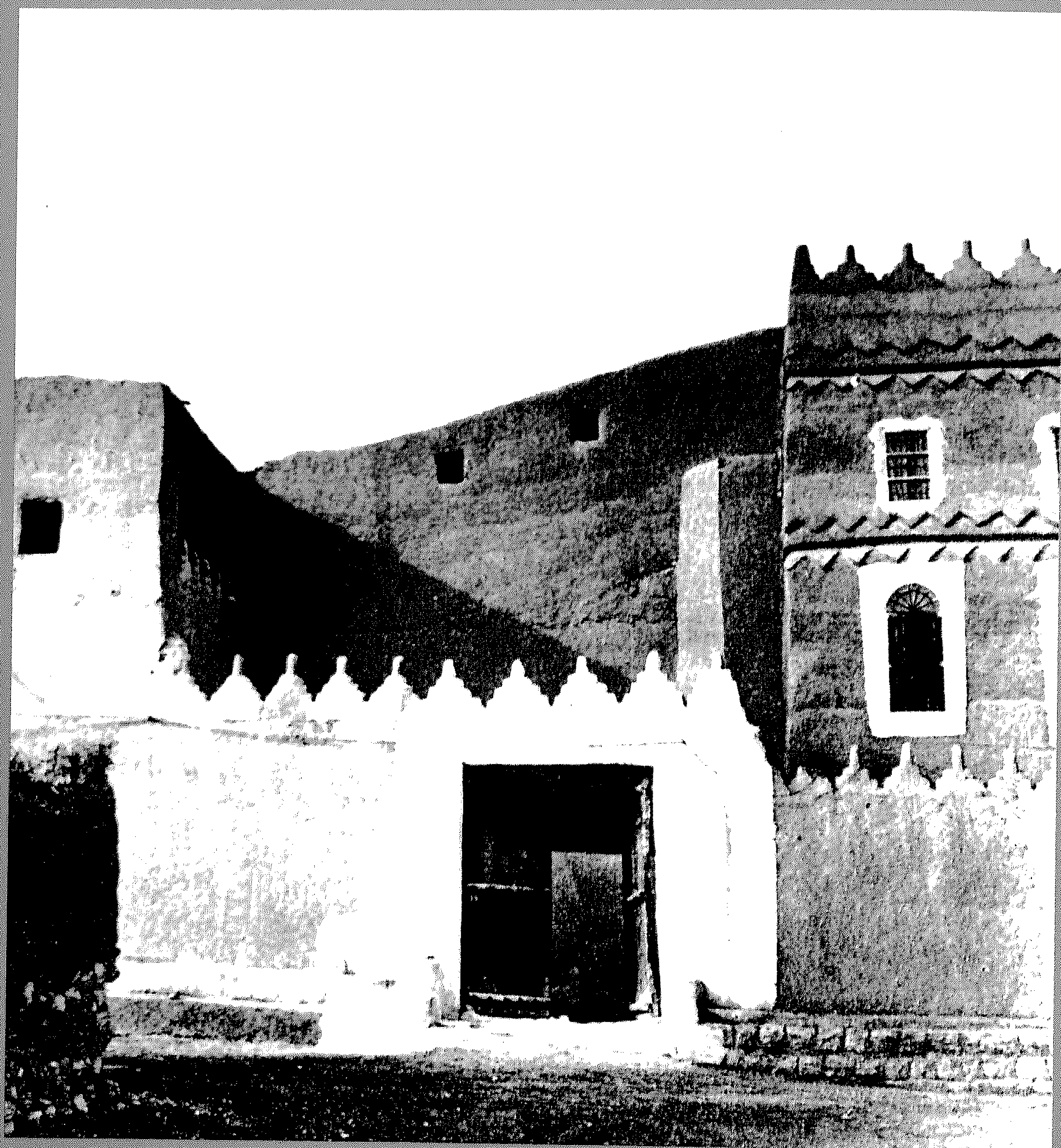
ليس من السهل كثيراً النوم على السطوح في الرياض، ذلك أن صوت السواني الخشبية يشبه صوت عازف متمرن لا يكف عن العزف.

بعد الاستئذان من الملك جاء إليّ الشيخ يوسف بهدية الملك، وهي عباءة من وبر الإبل مطرزة بخيوط الذهب، وكوفية، وعقال، وخنجر ذهبي.. ومن هنا سأتوجه إلى الكويت مع فرقتي المؤلفة من صالح رئيس الفرقة ومعه بندقيته، ومرشدين مسلحين بالبنادق، وسائقين يحملان المسدسات، وسائق غير مسلح، وأحد أقرباء شيخ الكويت وهو يحمل مسدساً أتوماتيكياً ضخماً، وخادمي ومعه مسدسه، وجنديين يحملان البنادق والمسدسات، وقد انضم إلينا خباز في الخامسة عشرة من العمر وهو مسلح فقط بخنجر مثل الآخرين.

فناء بأحد القصور، ويمكن رؤية الحطب الذي جمع لتوه من خارج أسوار المدينة. ديغوري، حوالي عام ١٣٥٤هـ.



الباب الرئيسي بأحد بيوت الضيافة في البديعة، بوادي حنيفة، الى الغرب من المدينة. ديغوري، حوالي عام ١٣٥٤هـ.



غيرالد ديغوري في الرحلة الثانية التي قام بها في عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م*

توقفنا ونحن في طريقنا إلى الرياض عند رماح لفترة قصيرة للاطلاع على الآبار العميقة التي كان عندها رجال قبيلة سبيع يسحبون الماء لإبلهم. هذه الآبار بالإضافة إلى آبار الرمحية المجاورة كانت ومازالت ذات أهمية استراتيجية؛ فهذه الآبار هي المصادر الوحيدة للماء الموجودة شمال شرق الرياض وما جاورها من واحات، ولا يوجد أي مصدر مائي آخر وراءها من جهة الشرق لمسافة تمتد إلى أكثر من مئتين من الأميال.. ومن يريد أن يهاجم الرياض بقوات برية من الشمال أو الشرق فعليه أولاً السيطرة على رماح.

إن الأرض غرب رماح وعرة وصخرية، وعند مجاري ماء الثمامة قابلنا الموظفين البريطانيين الذين يعملون في جدة مع الوزير ريان الوزير المفوض البريطاني في جدة الذي كان ديغوري برفقته بنفس الرحلة، وكانوا يرتجفون من البرد.. ثيابهم البيضاء هي التي تلبس في الحجاز. وهنا في وسط شبه الجزيرة العربية سلمونا طروداً بريدية قادمة من الخارج..

إننا الآن نقترب من الرياض، ولكن العاصمة محاطة بدائرة من المرتفعات، وكان علينا أولاً إتمام طريقنا نزولاً لجرف مرتفع لهضبة العرمة للعبور إلى وادي الرياض.

لقد تحسن الطريق في هذا المكان، ولكن النزول من ذلك المرتفع كان محفوفاً بالمخاطر، وكانت هناك سيارة لوري مقلوبة في القاع، وإنها لتذكرنا بخطورة النزول من ذلك المكان، وكانت مسافة الهبوط تقارب ٢٥٠ قدم في ٣٠٠ قدم، وكان هبوطنا هذا هو الأسهل في الجرف الذي يمكن مواجهته، ويسميه السائقون "البويب".. والآن ومنذ مغادرتنا الأحساء رأينا بعض الطيور، ومن هنا وحتى الرياض كان الطريق سهلاً.. إن وجود سلسلة من التلال، وبعض التلال المنعزلة التي تغطي السهل تحجب رؤية المدينة حتى يصبح المسافر قريباً منها.. ونظراً لأن مرافقينا المكلفين بحراستنا كانوا سعيدين بقربهم من عاصمتهم: بدؤوا في الغناء..

كان وصولنا إلى جبل أبو مخروق إشارة إلى وصولنا إلى الرياض، وبعد ثوانٍ قليلة منها أصبحت صواري المحطة اللاسلكية وبساتين النخيل وأسوار الرياض واضحة أمامنا.

إن المناظر الطبيعية في وسط شبه الجزيرة العربية فريدة، وهذا ربما يعود إلى بعدها عن البحر وصفاء الهواء

* نشر ديغوري هذه المعلومات عن الرياض في رحلته الثانية عام ١٩٣٥م، التي رافق فيها الوزير المفوض البريطاني في جدة أندرو ريان لتسليم الملك عبدالعزيز وساماً بريطانياً انظر:

Gerald De Gaury, Arabia Phoenix: An Account of a visit to Ibn Saud Chieftain of the Austere Wahhabis powerful Arabian King. London: George G. Harrap & Co. LTD. , 1947, pp 54 - 97.

الجاف، وقد شبه الرحالة بالجريف في القرن الماضي المنظر الطبيعي للرياض بمنظر طبيعي إيطالي، وفي ليالي الشتاء بشكل خاص يوجد قرب في التشابه بينهما.

يشق وادي حنيفة، المليء ببساتين النخيل بصورة ملتوية جبل طويق ماراً بمدينة الرياض عند سورها الجنوبي ويقود مجرى وادي البطحاء إلى بوابة الرياض الشرقية، ويأتي من سلسلة التلال والمرتفعات الواقعة في الجهة الشمالية للرياض، وتحيط بها.. أما جبل العرمة وجبل طويق فهما يحيطان بالرياض من الشرق والغرب؛ لهذا فإن المدينة محمية من جميع الجهات بسلسلة من التلال، وفيما وراءها محاطة بأحزمة من النفود؛ وبسبب ذلك فإنه لا يمكن دخول الرياض إلا بعد عبور كثبان النفود، ثم من خلال أحد منحدرات جبل طويق الوعرة، أو من خلال الهبوط من هضبة العرمة..

ويستطيع المرء معرفة ماذا كان بالجريف يعني؛ فالتلال المتتابعة، والأودية الخضراء الغامقة المرسومة بدقة متناهية، وومضات النور فيما بينها ، وكذلك الظلال الزرقاء التي يخلفها نور الشمس عند مغيبها: تجعل المنظر يبدو وكأنه خلفية لصورة إيطالية قديمة مبهجة للمسافر.

وأمام هذا يمتد عبر السهل خط غامق متموج لرؤوس النخيل في البساتين والتي منها تستمد المدينة اسمها.. ترتفع فوق أسوار المدينة.. وهنا وهناك ما بين النخيل تبزغ سطوح منازل العائلة المالكة، وأبراج المراقبة في القصر الحصين..

مررنا في طريقنا بقصر الأميرة نورة أخت الملك.. هذا القصر كان في حينه هو المنزل الوحيد خارج أسوار المدينة، وكنا متجهين في سيارتنا إلى قصر البديعة في وادي حنيفة، وببعد أكيالاً قليلة عن الرياض فتقاطع مسارنا مع طريق يأتي من الشمال للإبل، وكان مزدحماً؛ مما أعطانا في الحال فكرة عن النشاط في العاصمة؛ فقد كانت هناك قوافل صغيرة، وحمالون منفردون يحثون الخطى باتجاه بوابات المدينة قبل أن تقفل لصلاة المغرب؛ فبوابات المدن العربية كانت تقفل عند أوقات الصلاة.

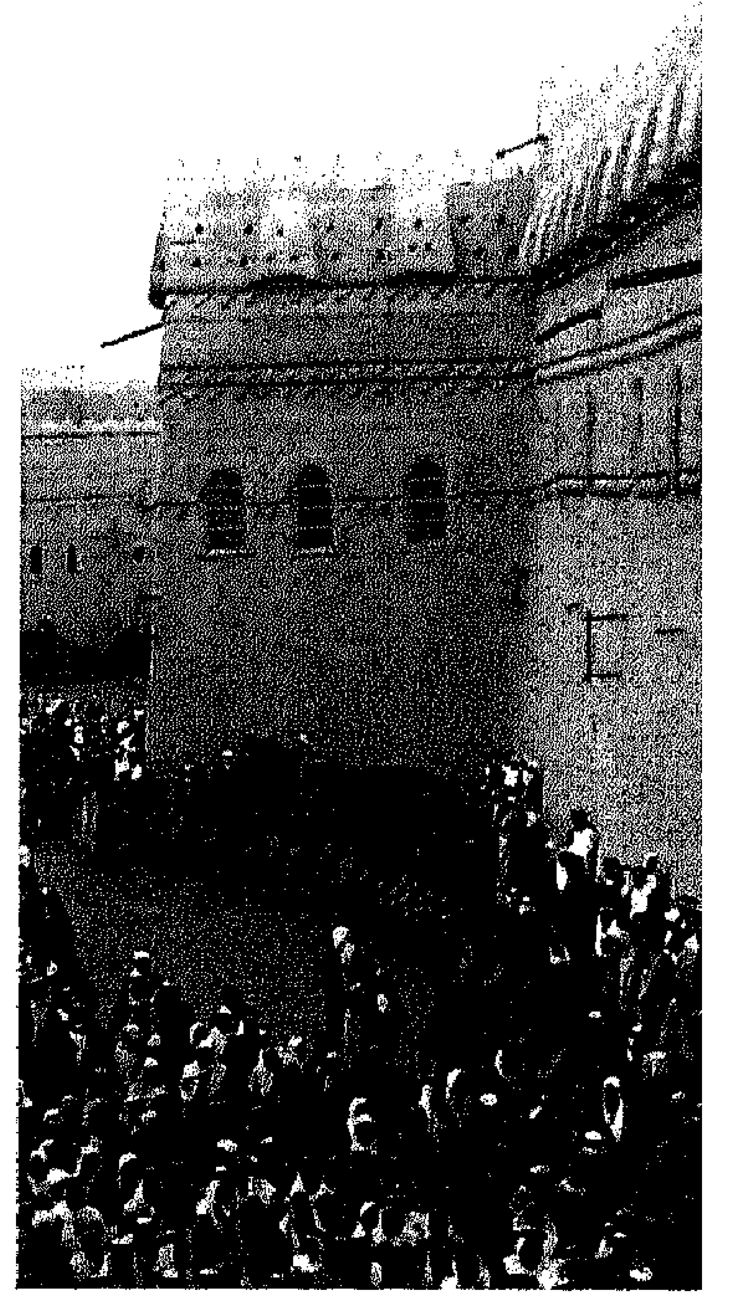
لقد مررنا الآن من تحت سور الرياض الدفاعي المرتفع، وتجاوزنا البلدة، ومن الخلف كانت أعمدة من الدخان ترتفع منبئة ببدء تجهيز العشاء في البيوت.. وعندما وصلنا إلى أرض مرتفعة لأخذ طريقنا إلى القصر الصيفي ظهرت لنا مرة أخرى أطراف سطح القصر والمباني الكبيرة، ومددنا رؤوسنا خارج السيارة لرؤية ما نستطيع رؤيته من هذه العاصمة شبه المجهولة.. لقد كانت المدينة شبه مختفية في وادي حنيفة، وبدت أصغر مما توقعنا، ولكن ببساتين نخيل أكثر مما تخيلنا أو أُخبرنا..

وعندما أصبح مسارنا فوق مرتفع يفصل المدينة عن القصر الصيفي بدأت تظهر عن يسارنا بساتين أكثر فأكثر في قاع الوادي ومن قمة هذا المرتفع رأينا محطة وصولنا، وهي مجموعة من المباني ذوات الشرفات في الجهة الأبعد

من قاع الوادي، وكان في مواجهتنا عندما صعدنا إلى ضفة الوادي بوابة مفتوحة ومقر حراسة، وكان هناك ممران مسوران في كل جهة من جهات البوابة تقود إلى البساتين الملكية التي في وسطها يقوم القصر.

لقد استقبلنا موظف الاستقبال بالابتسام والترحيب وأخذنا عبر ساحة القصر إلى درج يصعد بنا إلى الأجنحة المعدة لنا في الدور العلوي حيث أخلدنا للراحة.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي لوصولنا إلى الرياض ٢٨ شعبان ١٣٥٤هـ الموافق (٢٥ نوفمبر ١٩٣٥م) فتحت صناديق هدايا الحكومة البريطانية التي أحضرناها معنا، وسلمت إلى عبدالرحمن الطبيشي كبير مرافقي الملك، وقد جرت العادة أن يقوم زوار العرب الكبار بتقديم الهدايا لحظة وصولهم عن طريق المرافق أو السكرتير، وجرت العادة أيضاً ألا يؤتى على ذكر تلك الهدايا بعد ذلك لا من الزائر ولا من المضيف.



وحين يغادر الزائرون في نهاية إقامتهم يحمل المرافق أو السكرتير الهدايا من المضيف أيضاً من دون أن يشير إليها أي من الفريقين.. ومن العادات كذلك أن يقدم المضيف الهدية فوراً إلى أحد المقربين منه، لكن يجب أن يؤخذ ذلك تكريماً وليس العكس ولا تمنح الهدايا إلى موظفي الدولة إلا إذا كانوا شيوخاً أو من في مرتبتهم، كما أن الشكر لا يمنح إلى الموظفين الرسميين؛ لأنهم في العرف العربي يقومون بواجبهم نحو سيدهم الذي له وحده يوجه الشكر، ولا يكتب الناس شيئاً على الهدايا[١].

كانت الأعمال الملكية لا تزال تجري في القصر القديم الموجود داخل أسوار الرياض ويعرف باسم قصر فيصل[٢] نسبة لفيصل جد الملك عبد العزيز، وقد تم أخذنا من هذا القصر بواسطة إحدى سيارات الملك إلى أول مقابلة غير رسمية مع الملك؛ فعبرنا سهلاً خارج أسوار المدينة تربض فيه جمال الزوار القادمين من مختلف أصقاع شبه الجزيرة العربية؛ فأغلب الشيوخ يأتون لحضور اللقاء السنوي للعشائر في بداية الصيف، و بعد ذلك يأتون لمقابلة الملك لتقديم طلباتهم وشكاواهم ولتقديم الولاء، ويُمنح كل شيخ هدايا تتناسب ومكانته، وقد تكون الهدية فرساً وشوالات من الأرز وأسلحة إذا دعت الضرورة، ودائماً كسوة أو رداء تشريفياً ، وفي بعض الأحيان ذهباً. .عندئذ يكون ديوان الحسابات الملكي مشغولاً من الصباح حتى المساء.

وفي مثل هذا الوقت من العام في (شهر نوفمبر) يوجد قليل من الزوار، ولكن يوجد حشد من الناس عند بوابة المدينة وفي الطريق الرملي المؤدي إلى قصر

---

(١) لعل هذا من الأعراف السياسية العالمية الآن.

(٢) قصر الحكم.

فيصل، ويحتفظ قصر فيصل الذي يقع في قلب العاصمة بأهمية تاريخية تشابه أهمية قصر سانت جيمس في إنجلترا لدى الإنجليز.. وعلى طريق ضيق لا يبعد كثيراً عن قصر فيصل توجد قلعة المصمك التي هاجمها ابن سعود مع مجموعة صغيرة من رجاله وتمكن من السيطرة عليها وأخذها من الحاكم الرشيدي التركي عام ١٣١٨هـ/١٩٠١م[١]..

وتم ذلك عندما انتظر ابن سعود ورجاله متخفين خارج القلعة حتى مطلع الفجر حيث يقوم الحاكم بتفقد خيوله عند بوابة القلعة، وفي صباح ذلك اليوم تمكن ابن سعود ومجموعته الصغيرة الشجاعة من شن هجوم مباغت على الحاكم ورجاله، وبعد معركة حامية الوطيس عند بوابة القلعة قتل الرشيدي واستسلم حراسه ومرافقوه، ولا تزال إحدى الحراب تشاهد مغروزة على البوابة الخشبية للقلعة، وقد روى لنا أحد العرب هذه القصة ونحن نمر بالمكان.

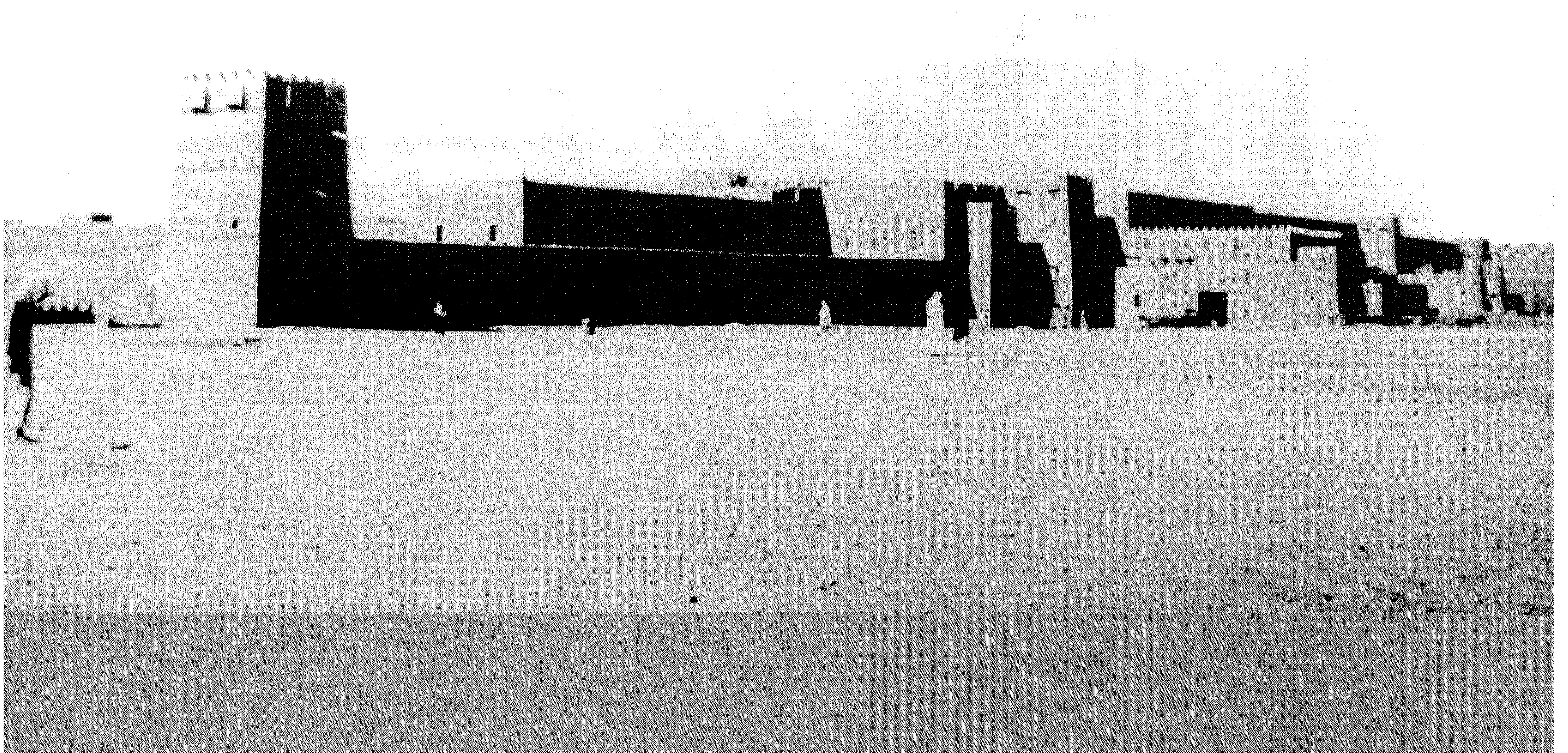
ويلم سكان نجد بتاريخهم إلماماً تاماً؛ ففي منطقة مثل نجد تخلو من وسائل الترفيه لعامة الناس، ويوجد بها القليل من أسرار الدولة: يحتفي الناس برواية قصص الماضين ويسرون بها أيما سرور، وباستطاعة أي واحد من البدو الذين شاهدناهم محتشدين في أسواق الرياض أن يسرد لنا تاريخ نجد خلال الخمسين عامًا المنصرفة بشيء قريب من الدقة.. ونشأة هؤلاء البدو وسط خِضَمِّ هذه الأحداث التاريخية، وترقبهم وحذرهم المستمر من الأعداء والطبيعة القاسية في الصحاري حيث تعيش عوائلهم وقبائلهم: مكنتهم من تنمية ذاكرة جيدة، وحدة ذهن متقدة مدهشة.. وهؤلاء الرجال الذين اعتادوا على حياة الصحراء انحدروا من أجيال تحملت صعاباً في عيشها لايستطيع الأوروبيون تصديقها.. هؤلاء الرجال أقوياء، بصرهم حاد، ووجوههم قاسية. وأجسادهم ليست بها أي أوقية من اللحم الزائد. وهؤلاء هم نبلاء الأرض حتى وإن كان الشخص منهم معدماً وراعياً لجمل في أسمال بالية أو شاباً فقيراً.. هؤلاء هم الذين يشقون طريقهم عبر الطرق المزدحمة والأسواق في عاصمتهم الرياض.

تقدمت بنا السيارة ببطء عبر الجموع المحتشدة وحراس الشرف حتى وصلنا إلى البوابة الرئيسة حيث كان في انتظارنا شيوخ الحاشية الملكية عند الممرات المسقوفة للمدخل.. إنها أول مرة يقوم بها وزير بريطاني بزيارة للعاصمة، وكان في الرابع والعشرين من شهر نوفمبر ١٩٣٥م/٢٧ شعبان ١٣٥٤هـ.

وللنجديين إحساس وتذوق للألوان.. في أزيائهم ويقول داوتي عن لغتهم «ملائمة ومناسبة بصورة واضحة».. وعلى الرغم من أن الاتصال المباشر للنجديين مع العالم الأوروبي عبر السوريين الدمشقيين الذين ينتجون أجود الملابس يزداد كل عام إلا أن

(١) الصحيح عام ١٩٠٢م الموافق ١٣١٩هـ.

قصـر المربع. ديغوري، ١٣٥٩هـ-١٩٤٠م.



البسطاء من الناس يرتدون الأزياء الزاهية وكذلك الملابس المتجانسة الألوان، وكانت أزياء الخدم الملكيين: إما قرمزية، وإما ذات لون أصفر ليموني باهت مع تطريز ذهبي على الياقة والأكمام والحواشي والأهداب.. وملابسهم تُجلب من بومباي، ويرتدي الحراس البدو عباءات مزينة مزهرة تجلب من دمشق، مناديل قرمزية وبيضاء، وملابس البدو العادية كانت تتكون من ثياب بيضاء ذات أكمام تتدلى أطرافها إلى الأرض، وفي فصل الشتاء يرتدي البدو معاطف من جلد الضأن أو معاطف خشنة بنية أو بيضاء من صوف الجمال أو الضأن.

أما جناح الأعمال الملكية فقد سميناه بذلك؛ لأن القصر كبير وضخم، ويضم المكاتب الحكومية مثلما كان عليه الحال أيام الخلفاء العرب ولا يمكن وصفه بسهولة؛ إذ إن أجواءه ليست سهلة الوصف، وليس بمقدورنا معرفتها.. صورة ابن سعود تطغى على القصر والقلعة والمدينة.

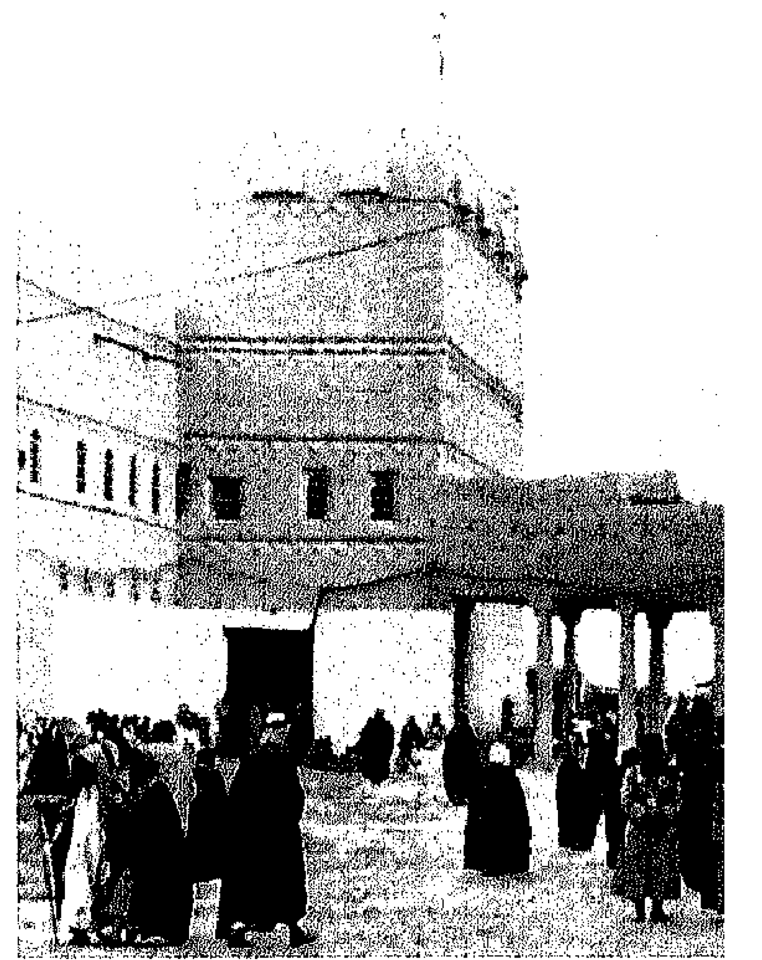
وفي أغلب الأحيان يوجد العديد من الزوار والموظفين والمراسلين والحراس على الدرجات والأدوار العليا بالقرب من غرف الاستقبال الملكية؛ فالخدم في الغالب من الرجال الذين أثبتوا ولاءهم وشجاعتهم في الحروب الماضية، ومظهرهم جيد، ويعملون الآن في وظائف جامعي زكاة ومراسلين وفي الوظائف التي تتطلب الثقة.

قادنا حاجب الملك عبر غرفة الانتظار إلى حجرة الاستقبال الخاصة بابن سعود، وعبرها ودون توقف.. مررنا بالجنود المصطفين في الأروقة البيضاء، ومنها إلى المدخل المقوس للديوان الملكي نفسه.. وتوجد على جانب الديوان ونهايته نوافذ تطل على ساحته.. والجانب الآخر للديوان يطل على مكان مضاء مشمس بحيث يمكن رؤية السائرين عبره دون أن يتمكنوا من رؤية الذين في الغرف المسقوفة المظللة.. والضوء قوي نوعاً ما بالخارج، وأقل قوة بالداخل، ومعتم في نهايته.. والأرضيات مغطاة بسجاد فارسي ذي ألوان داكنة وياقوتية تتباين تبايناً واضحاً مع صف الأعمدة البيضاء التي تسند وسط الغرفة، وتسقط أشعة الضوء عبر وسط المجلس، ويتناثر وميضها ولمعانها على الأعمدة، وعند نهاية المجلس يقف الملك وحيداً منتصب القامة.

كانت قامته العملاقة تنتصب كاملة، وهذه الوقفة الدقيقة تشبه وقفة العسكريين، وهي عادة الأمراء العرب عند استقبال ضيوفهم.. كان جامداً شامخاً تتدلى عباءته من فوق كتفيه حتى الأرض في تناسق منتظم؛ وملابسه بسيطة ولكنها جيدة الصنعة ومرتبة بعناية، وتتكون من بردة من الصوف الناعم المستورد من دمشق، وتعرف بصدر الحمامة، وتضم ملابسه عباءة فضفاضة بنية اللون من وبر الجمال، وشماغاً قرمزي اللون، وعلى رأسه عقال من الصوف الأسود المعصب باللون الذهبي، وهذا العقال لا يوجد في نجد إلا عند العائلة الحاكمة، والذين يعطيهم الملك مثل هذا العقال..

وكان الملك يرتدي تحت الشماغ غترة بيضاء للتدفئة؛ وكانت نعاله مصنوعة على الطراز النجدي الخاص، وخواتمه من الفضة والعقيق الأحمر، واسمه منقوش على خاتمه دون شارة أو شعار.

يرتدي الملك في فصل الصيف عباءة خفيفة وثوباً أبيض طويلاً بدلاً من بردة الصوف.. قامة الملك تصل إلى أكثر من ستة أقدام، كما أن بنيته قوية ومتناسقة، وأهداب عينه اليسرى متدلية إلى حد ما فوق عينه الفاقدة للبصر.. أنفه رائع، ولكنه بارز.. لحيته بارزة فوق الذقن وصغيرة مقلمة الأطراف، وأحياناً يبرز شعر لحيته بشكل أفقي.. ابتسامته عذبة تكشف عن أسنان مرتبة.. بشرته بيضاء حرقتها الشمس كثيراً في الماضي، وفي يده اليمنى ندبة من جرح قديم أصيب به في معركة ضد الأتراك وحلفائهم آل الرشيد في البكيرية.. وفي معركته مع قبيلة العجمان أصيب بجرح في وركه، وإلى الآن تتجدد آلام الجرح كلما تغير الطقس فجأة وهبت رياح الشتاء بقوة بعد حرارة الصيف الشديدة.



ينهض الملك قبل الفجر لأداء صلاة الصبح وباقي يومه مقسم تبعاً للفروض الدينية: صلاة الظهر، وصلاة العصر، وصلاة المغرب، وصلاة العشاء.. ويصوم شهر رمضان شهر الصوم، وفي أغلب الأحيان يقوم سنوياً بأداء فريضة الحج، وتتم تلاوة القرآن يومياً في أروقة القصر بين صلاتي المغرب والعشاء، ويجلس مرتلو القرآن تحت ظلال الأروقة المقوسة المسقوفة على مقربة من غرفة جلوس الملك بحيث تصله أصوات المرتلين خافتة.

بينما كنا نتحدث كان مقدمو القهوة في حركة دائمة، وفي حضور الملك تقدم القهوة له أولاً بينما في الحالات الأخرى تعطى القهوة أولاً للضيف ما لم يكن الضيف يعمل لدى المضيف.. وإذا كان الضيف في مرتبة متساوية مع المضيف أو أقل منه سناً أو مكانة فمن دواعي التهذيب أن يرفض، ويشير للقهوجي بأن يخدم المضيف؛ وبهذا السلوك المتواضع ينال الضيف رضاء الحضور، ويسر العرب أن يروا هذه الآداب، ويعجبون بها عندما يسلكها أجنبي ذو مكانة رفيعة..

عند وصولنا إلى الرياض كانت مقابلتنا الأولى لجلالته غير رسمية، وقد استفسر جلالة الملك فقط: عن رحلتنا، وصحة السير أندرو، وسبل راحتنا في قصر الضيافة... إلخ.. وبعد ذلك مباشرة استأذن السير أندرو جلالة الملك بمغادرة المكان– واعتقد بأنه لأول مرة في شبه الجزيرة العربية يقترن الولاء والتقدير مع مراسم بسيطة وقليلة أقل مما هو في أوروبا–.. تراجعنا إلى الخلف منسحبين ومنحنين ثلاث مرات.

وعند خروجنا توزع الجنود الذين يحملون السيوف مجتمعين عند الباب، ورتبوا صفوفهم لنا.. وكذلك فعل الجنود الذين بالأروقة، وجلسوا مرة أخرى في تتابع عندما مررنا بهم، وكانوا في حركتهم مثل روضة من أزهار الزنبق حفها النسيم، وكان الطقس في الخارج

دافئاً. وجعلنا صبا نجد نشعر بالسعادة والسرور. وعلى الرغم من أن السيد أندرو كان يعرج قليلاً إلا أنه الآن في صحة جيدة.. لقد حللنا ضيوفاً على أكرم الناس في العالم أولئك الذين يتمتعون ببيئة شرقية لم يؤثر عليها الغرب، وقد كانت حرارة الجو ممتازة ليست بحارة أو باردة تشبه شتاء البحر الأبيض المتوسط في ظهيرة يوم مشمس.

عدنا إلى مقارنا بوادي حنيفة لقضاء فترة الظهيرة، ووجدنا وقتاً للتجوال في الحدائق والبساتين التي على ضفتي الوادي، وتوجد تحت ظلال أشجار النخيل أشجار المشمش والرمان التي تتخللها الحقول المربعة الشكل لنباتات البرسيم الخضراء الزمردية اللون، والحمائم تطير تحت أشعة الشمس، وتدور أيضاً بين سعف أشجار النخيل، وتدور السواقي الخشبية عملها المضني بسحب الماء في صوت متموج ينقطع عندما تصل الحمير إلى المنطقة المنخفضة، وتبدأ رحلة الصعود إلى أعلى التل تجاه فوهات الآبار.. وقد تحدث إلينا الفلاحون بفخر وإعجاب بمقدرات آبارهم العظيمة المربعة الشكل المطوية بالحجر بينما وقفنا نحن على جانب البئر نحدق في قاعها العميق المظلم.

وتكفي المياه الجارية من جبال طويق هذه البساتين والحدائق، وتفي بحاجتها من الماء طيلة العام. على طول هذه السلسلة العمود الفقري للجزيرة العربية– توجد واحات في الأودية الواقعة أسفلها، وما الرياض إلا إحدى هذه الواحات.

إن المياه الجوفية التي تحجزها الطبقة الجيرية بشرق نجد، والتي يستخدمها الفلاحون العرب لري حدائقهم: ربما تكون جزءاً من كل لمياه تنزل إلى أسفل نحو البحر في باطن الأرض. وربما كانت الطرق الحديثة في استخراج الماء تمنع ضياع الماء كما هو حاصل الآن وتغير اقتصاد الجزيرة العربية.. ويعتقد سكان الجزيرة العربية أن آبارهم وعيونهم متصلة ببعضها تحت سطح الأرض عبر ممرات وتجاويف خفية.. وتوجد روايات تحكى عن قصعة خشبية ألقيت في إحدى العيون وعثر عليها لاحقاً في عين أخرى تبعد حوالي مئة ميل، ويقول السكان: بأنهم يستطيعون معرفة هطول الأمطار في المناطق النائية عند ارتفاع مستوى المياه بمناطقهم.. وفي الخليج العربي يغوص صيادو اللؤلؤ بحثًا عن المياه العذبة وسط مياه البحر المالحة، وعندما يصعدون إلى أعلى يحضرون معهم بعض صوف الضأن أو الجمال دليلاً على مجيء الماء من عيون الداخل..

وللماء في أراضي الجزيرة العربية الجافة معنى خاص لدى المسافر الذي يعرف كباقي سكان الجزيرة العربية أن الماء نعمة إلهية ثمينة.. ومثلهم أيضا يتعلم أن يشعر بوجود الماء عن بعد، ولكنه خلافاً لهم لا يستطيع أن يمتلك الحاسة السادسة التي تمكنهم من معرفة المكان المناسب للحفر للحصول على الماء، ويستطيع البدوي المتقدم في السن أن يحدد مكان وجود المياه تحت الأرض أكثر من خبير أوروبي أو أمريكي، ويمكن للأوروبي أن يساعد العربي في الحفر العميق للحصول

علـى الماء بمسـاعـدة الحفـارات الآلـية وذلك مـن واقـع معرفته للتركيبة الجيولوجية للمنطقة، الأمر الذي يفتقده البدو.. بهذه الوسيلة والمساعدة يمكن أن تظهر مناطق استيطان جديدة، وتتغير الحياة في البلاد نحو الثراء.. وحـمـايـة الأشـجـار والشـجيرات مـن الـقـطـع، ومـن الاسـتـخـدام المسـرف لـهـا مـن صـلـب قـوانين وتـقـالـيـد السـكـان الـعـرب.. بـالإضـافـة إلى ذلك فـإن مـن يـقـطـع شجرة من جذورها يكون عرضة لعقوبة شديدة.. وسنة بعد سنة توضع بعض مناطق الرعي في كل إقليم تحت الحماية.. ولكل من العائلات الحاكمة والشيوخ مراع خاصة يستخدمونها بالتناوب في أوقات مختلفة لرعي إبـلـهـم، وهـذه تقـاليـد وعـادات قديمة سوف لـن يسـمـح الملك بخرقها.. وتوجد في وسط الجزيرة غرب الرياض بسـاتين كـثيرة وأجـمـات أكبر مـن تـلـك الموجـودة في الصـحـاري الشـمـالـيـة الجرداء التـي لا تـوجـد فـيـهـا إلا الأجمات الواطئة. وواحات وسط الجزيرة العربية مترفة وخصبة.

وفي المروج الخضـراء لنبـات البـرسـيـم التـي تـوجـد خلف قصر البديعة انضم إلينا العديد من رجال الحرس الملكي؛ وعند قدومهم إلينا شقوا طريقهم عبر الحشائش بأطراف سيوفهم الذهبية، وهم يفضلون أن يتحسسوا مـقـابض سيـوفـهـم بدلاً من مقابض مجارفهم، ولـكـنـهـم يـبـدون تـواقين لـهـذه المروج الخضـراء، ولـهـم ذكـريـات عـظـيـمـة في حـروب الصـحـراء، ولا تسـتـطيع أن تشـعـر بالراحة بينـهـم دون أن تعرف شيئاً عن أصولهم القبلية وأصول خيولهم وإبلهم، وتركناهم في شأنهم بعد ذلك ورجعنـا إلى الـقـصـر؛ لتناول الشاي،وقضينا وقتنا في التخطيط لبرنامج الغد.

لقد أرسل ملك إنجلترا ثوب النبلاء وشعاراً مرصعاً لبرنامج الغد إلى ملك المملكة العربية السعودية، وقد قام كل من استطاع أن يجد سيفاً بالذهاب إلى القصر في اليوم التالي لكي يحضر الاحتفال بتقديم وزير الملك (أنـدرو ريـان) بـالـنـيـابـه عنه هـدايا جلالة الملك جورج لابـن سـعـود، وعـنـد مـغـادرتـنـا لقصر البديعة الصيفي بـرفـقـة مسـئـولي القصـر والحراس الذين جاؤوا معنا من الساحل شاهدنا عدداً من الناس قادمين من الواحات المجاورة في وقت مـتـأخـر عـلـى حـيـوانـاتـهـم وراجـلين مسـرعين عبر الـطـرق المؤدية إلى الريـاض، وعـنـد بـوابـة المدينـة وفي المداخـل الـرئـيسـة لـلـقـصـر وفي الأروقـة وحـجـرات الانـتـظـار تم تـرتيب الحراس الملكيين الـذين اصطفوا كطريق لا نهاية له من الرجال بالثياب المذهبة، وسـطـعـت عـلـيـهـم أشـعـة الشـمـس بـحـيـث لا تجد لـهـم ظلالاً.

وعند أحد المداخل يوجد دليل الملك الذي يرجح أن يـكـون أعظم دليل مقتف عرفته الجزيرة العربية وهـو «مشلّح بن هدبا»، وهو ذو مظهر رائع، ولحيته مخضبة تـخضيباً شديداً بالحناء، كما أن عينيه مطوقتان بالكحل، وقـد وقـف خـلـفـه فصـيـل مـن الأدلاء وصـف مـن المتـدربين.. إنـهـم مـقـتـفـو الآثار الذائعو الصيت الـذين

ينتقون غالباً من قبيلة آل مرة التي تقطن في صحارى[1] الجنوب القاحلة الكبرى، ويعد أبناؤها من أشرس رجال الجزيرة العربية؛ إذ يستطيعون التجوال بثقة في أماكن قد يتردد بدو القبائل الشمالية في الذهاب إليها ويستطيعون تمييز أثر[2] الجمل الأبيض من الأسود، وأثر أقدام المرأة العذراء من المتزوجة، وأثر أقدام المحارب من الشاب الصغير.. وجميع العرب يصدقون وجود هذه المقدرة، لكن لا أحد منهم يستطيع أن يفسرها.

كان ينتظرنا عند نهاية قاعة الملك بجانب المدخل خمسة من أبنائه، ويقف الملك نفسه بجانبهم بينما يقوم أبناؤه بتحية الوزير واحداً إثر الآخر، وقد اصطف عند مدخل المجلس وحتى الأروقة حشود من الشيوخ مرتبة حسب مقاماتها، والجنود، وخدم الديوان الذين يقف خلفهم الحراس.. وأخذ جلالة الملك مكانه عند نهاية القاعة. وسيفه «الرحيان» بالقرب من يده مخفي جزئياً.. وفي المدن لا يحمل الأمراء والمعروفون سيوفهم معهم، وإنما فقط حراسهم، وحمل أي زائر أو أمير للسيف يعد خطأ اجتماعياً يقارب الإهانة، ولكن للملك دائماً سيف من سيوفه بالقرب منه.

وقف الملك والحاضرون ساكنين ومصغين للرسالة المقروءة بلغة أجنبية من ملك وراء البحار، ومن خلال النوافذ المقوسة تُلاحظ أشجار نخيل بعيدة في بساتين وقد تمايلت رؤوسها في انسجام مع نسيم منتصف النهار الذي هب عليها.

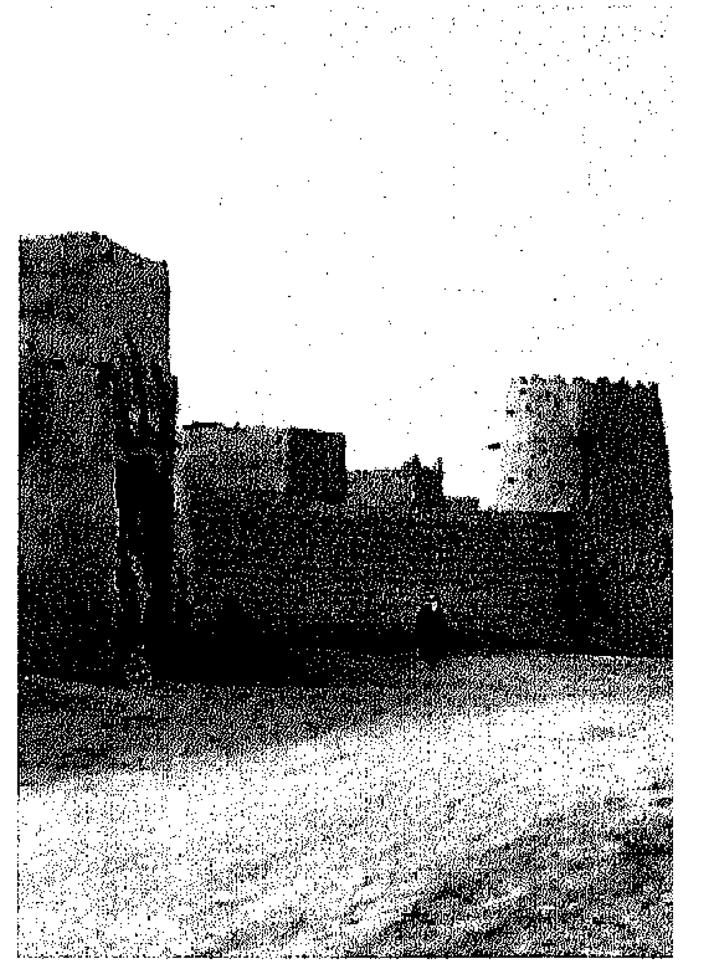
عندما ودعنا أبناء الملك باسمين عند المدخل، وحضر مسئولو القصر لمرافقتنا إلى الخارج: رفع مؤذن مسجد القصر أذان صلاة الظهر مكرراً الجمل التي تدعو المسلمين للصلاة، ومررنا عبر صفوف الجنود المصطفين في الأروقة، ولامست معاطفنا أسلحتهم أثناء عبورنا متجهين نحو البوابة الكبرى للقصر.

يتم تناول وجبة الطعام الرئيسة في القصر في مدينة الرياض على طاولة، ولكن في المنازل الأخرى وفي المخيمات يتم تناول الطعام بصورة تقليدية؛ إذ يجلس الضيوف حول صينية طعام دائرية الشكل عليها تل من الأرز الذي يعلوه لحم الضأن النجدي اللذيذ، وتوجد عادة عند أسفل صينية الطعام وحولها أطباق صغيرة من الحلوى وكرات من اللحم المحشو المتبل والسلطات الصحراوية المتنوعة، وعند حضور قافلة من الشمال قد تجد الحلوى الدمشقية، وأحياناً تجد الفواكه النجدية كالتمر والمشمش والتوت، وينضج المشمش في فصل الربيع.. وفي مثل هذا الموسم في الوديان الشمالية توجد هجرة لطيور صغيرة ذات مناقير صفراء تأكل الثمار إذا لم يحافظ العرب عليها بوضع أولادهم في البساتين

(١) بنو مرة ليسوا في الجنوب بل هم في شرق الجزيرة العربية.
(٢) اشتهرت هذه القبيلة بما يعرف بعلم القيافة أي تقصي الأثر.

لإفزاعها وطردها، ويكون طعم الطيور في هذا الوقت مثل طعم الفواكه التي قد أكلتها، مثل عصافير التين السورية يكون طعمها كطعم التين في شهر سبتمبر.

يخرج الملك وحاشيته عند كل فصل ربيع للصحراء ليمكثوا فيها عدة أسابيع لممارسة الصيد، وعندما يعطي الملك الأمر المنتظر بتشوق منذ فترة يمتلئ القصر بجلبة وفرح.. والمسؤول عن الخيام عليه إعداد ما يقارب مئتي خيمة.. وهناك أولاً السرادقات البيضاء الكبيرة التي ترتبط ببعضها بممرات مسقوفة مليئة بالسجاد والوسائد، مزينة بالحرير لاستخدام الملك، وهنالك العديد من السرادقات أصغر حجماً مزينة بالحرير الدمشقي أو ملونة بنسيج هندي، كما أن هنالك الخيام ذات الجوانب المستديرة المزينة في أعلاها المخروطي بأطراف محارية الشكل أو هي بدورها لها زخارف حمراء وزرقاء.. وأخيراً هنالك خيام التابعين من البدو وهي سوداء مصنوعة من صوف الأغنام، وتقوم المطابخ الملكية بإعداد وتجهيز قدور الطبخ النحاسية الضخمة والعديد من أكياس الأرز والتوابل، ورئيس الصيادين الذين يصطادون بالصقور والمشتغلين بصناعة البنادق وصيانتها لهم أعمالهم التي في انتظارهم، ولمكتب الاتصالات أن يعد محطته اللاسلكية لتكون جاهزة، وأخيراً يقوم الأمير الذي يقود القافلة الملكية بإصدار أمر التحرك إلى المكان الذي اختاره الملك.



بعد هطول الأمطار تبقى برك المياه في الوديان، وتنبت الحشائش والزهور؛ الأمر الذي يجعل من الممكن نصب مخيم في جوف الصحراء بعيداً عن الآبار الصيفية.. والرعي في فصل الربيع يعتمد على أمطار الخريف التي تعرف بالوسم، أو الأمطار الخفيفة والتي تعرف باسم سهيل؛ ولذلك يرحب البدو بسهيل.. وعندما تكون أمطار الوسم غزيرة تندفع السيول بعنف في الوديان التي لا يقوم رجل عاقل بنصب مخيم له في مجاريها في فصل الخريف.. في مثل هذه السنوات ينبت الكمأ في فصل الربيع الذي يعقب الخريف، ويزين جوف الصحراء بصحائف قوس قزح الزرقاء، وبعد استقرارهم في خيامهم يقوم كل صاحب مخيم بجمع حطب كاف يشيد منه سوراً واقياً من الرياح التي تهب ليلاً، ولحفظ الحطب ليكون مخزوناً لإيقاد نار المخيم ولإعداد القهوة.. ويكون سكان الخيام منهمكين عدة أيام في إحضار أخشاب شجيرات الحمض والسدر ذات الرائحة الزكية بينما رائحة شجر العرفج لاذعة، وتكون رائحة الحمض قوية في فصل الربيع وتكون الصحراء التي تنمو فيها ذات رائحة زكية.

وجو الصحراء في وقت الربيع منعش بشكل لا يصدق، وبدلاً من أن يحن المرء لأراضي أوروبا الخضراء كما هو متوقع يشعر بأنه يمتلئ بفرح غريب.. وكلما طوته الصحاري نسي كل ما تركه خلفه، وغرق في مشاعره الجديدة وسط عزلته الكبرى.. ودون شوق إليهم يتذكر المرء أن أقرب أوروبيين إليه يبعدون عنه بحوالي خمسمائة ميل.. وبينما يقوم صيادوه بإطلاق سراح صقورهم في الفضاء لمطاردة الحباري البعيدة:

تجول في خاطره وتحلق به أفكار فلسفية حول روعة الحياة في الصحراء، وخوفه الوحيد هو أنه سيرغم على العودة إلى العالم الغربي المزدحم.. إنه يرى الآن العالم في صورته الحقيقية، ويتذكر بخوف اجتماعي شديد الأجواء الملطخة، وكيف أنه في عالم الغرب كان دائماً في عجلة لا تترك له فرصة للتأمل والتفكير، كما أن مشغوليته لا تدع له الفرصة بأن يكون عنده الوقت للتأمل، وإنه يتذكر بيوت أوروبا المتلاصقة وشوارع المدن الغربية: سلسلة المتاجر، سلسلة المطاعم، والقطارات.. إنه يتذكر طوابق المجمعات السكنية التي تبدو الآن كمساكن للحشرات لا للبشر.. حشروا في مستشفى للتجارب على الرغم من أن هذه المساكن مدفأة بصورة مدهشة، و طعامهم منظم ومزود بالفيتامينات التي يحتاجها الجسم، حتى فضلاتهم تُنقل بعيداً بالآلة.

عندما يبدأ فصل الصيف في الاقتراب، وتبدأ حرارة النهار في الظهيرة في الازدياد يوماً بعد يوم: يفكر الأوروبي أخيراً في جو أوروبا الأكثر لطافة.. وعندما يسير المسافر الأوروبي على مهل في الجزيرة العربية في الصحراء المكشوفة يدركه لهيب حرارة منتصف الصيف والذي لا مفر منه إلا بالراحة في بيوت الشعر السوداء المصنوعة من صوف الماعز التي تقاوم الحرارة الشديدة.. وعندما تبلغ الحرارة ذروتها يقصد العرب مناطق الآبار وبسرعة حيث تنتشر خيامهم حولها بالمئات.

عندما تنتهي أيام القنص مع قدوم فصل الصيف يعود الملك إلى عاصمته ليتولى مرة أخرى تصريف الأعمال اليومية للحاكم.. إن رعاياه يتوقعون منه حرية الوصول إليه مباشرة، وهو حريص على أن يعرفهم معرفة شخصية.. وفي هذا الأمر يساعده أبناؤه حيث أن لكل واحد بالغ منهم مهمة معينة.. الحكم في الرياض يكون دائماً في يد أحد أبناء الملك، ويتولى الأمير حل القضايا كافة، و الشكاوى التي تقع في نطاق القانون العرفي، والمنازعات التي تدور حول التجارة والعادات القبلية وأصحاب المظالم.. بينما يتم الفصل في القضايا التي تتعلق بالشريعة من قبل القاضي الشرعي، ويتم تنفيذ حكم القصاص عادة عندما لا يكون ثمة مهرب منه بعد صلاة الجمعة. ويقوم بتنفيذ حكم القصاص سياف أسود رشيق.

يتجمهر الناس في هدوء عندما يتجمع العسكر في الباحة التي تلي القصر، ثم يأتي الحاكم، ومن ثم يتم إحضار المحكوم عليه بالموت قصاصاً، ثم تتلى البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» على أسماع الحضور، ويقف السياف الأسود خلف المحكوم عليه بالموت وهو يضع مقدمة السيف على عنقه.. يتوتر الرجل ثم يطير رأسه بضربة سيف واحدة سريعة.

يتردد دائماً على الديوان العام للأمير الابن الأكبر للملك وإخوته وجموع من الزوار البدو. ومن ذلك الديوان هناك باب خاص يقود إلى مكتب الشيخ يوسف ياسين وهو رئيس السكرتارية السياسية للملك.. يستعمل هذا المكتب من قبل الأمراء

ومستشاري الملك غرفة انتظار لمقابلة الأمير.. هناك كراسٍ وثيرة مطرزة مصفوفة إلى جانب الجدران التي علقت عليها خرائط للمملكة العربية السعودية والعالم.. في هذا المكان يتم تبادل الأخبار المحلية والعالمية.. في زاوية من هذا المجلس وعلى رف إحدى النوافذ قام أحدهم بإطلاعي على ملفات تحتوي على جريدة التايمز، كما توجد هناك الصحف العربية الجيدة، والنشرات التي تصدر مرتين من موظفي الاستماع للإذاعات.

عندما يصل الملك إلى ديوانه، يجيء رجل يحمل سيفاً في هدوء، وقد يكون حافياً، أو يرتدي صندلاً، ويظهر في الباب الخارجي، ثم يعلن بالطريقة النجدية: جاؤوا.. وهنا تسمع غمغمة وهرجاً بين الحضور من الأمراء والحاشية، ثم يهرع الأول ممن لهم مقابلة، ويشق طريقه في الممر، وتستمر البقية الباقية من الحضور في حديثهم حول الأخبار المحلية والعالمية.

بجانب مكتب الشيخ ياسين هناك السكرتارية الخاصة به حيث يتم إرسال التلغرافات إلى الدبلوماسيين الأجانب في جدة التي تقع على بعد سبعمائة ميل عبر وزير الخارجية الأمير فيصل في مكة.. يكون القصر مشغولاً حتى منتصف النهار حيث تُنهي صلاة الظهر جلسة الصباح.. الأبناء الكبار للملك الذين يعهد إليهم بتصريف بعض أمور الدولة هم الأمير سعود ولي العهد وحاكم منطقة نجد في غياب الملك، والأمير فيصل وهو الابن الثاني من الأحياء وهو نائب الملك على منطقة الحجاز، ومحمد، وخالد، ومنصور، وناصر.

من عادة العرب أن يرفض الولد الجلوس في خيمة أبيه في حضرة الشيوخ وإن لم يكونوا في مقام الملك ما لم يأمره أبوه بالجلوس.. يقوم الأبناء بدور الخدم: يحملون الأطباق والماء والصابون، ويجرون هنا وهناك.. ذات مرة طلب من ابن سعود الذهاب إلى الغرفة العلوية فرفض، وعندما سئل لماذا ؟.. فقال: إنه لن يفعل أبداً ما زال أبوه يجلس في الغرفة السفلية. هذه هي درجة الاحترام الذي يكنه الأبناء لآبائهم.

القسم الخاص بنساء الملك من القصر قسم فسيح؛ فكل واحدة من نسائه الأربع لها مأوى كبير حيث توجد غرف للجلوس تفوق في اتساعها تلك الموجودة في الجزء العام من القصر.. إن الغرف في قصر الشمسية أو المربع الجديد قد بنيت حول ساحة مربعة كبيرة حيث كانت تقف في وسط هذا الفناء سارية؛ مما أثار دهشتي؛ فهي أقرب ما تكون من عمود المصباح في لندن.. كان الطابق العلوي به صف من الأعمدة بينما تدعم الهيكل العام أعداد لا تحصى من الأعمدة، وهي جميعها قد تم تنظيفها، وتبدو في بريقها في بياض السكر والثلج حتى في ضوء القمر. إلى جانب هذا القصر كان هناك بيت لزوجة الملك (أم منصور)، ويسكن في هذا البيت ابنها منذ وفاة والدته.. كان يوجد في الطابق الأرضي مطابخ تحتوي على أدوات الطبخ من كل حجم حتى أن القدر

فيها يتسع للحاشي بكامله.. ينام في هذا القصر حوالي ثمانمائة شخص في كل ليلة؛ ولذا فإن زوجات الملك ووصيفاتهن لديهن من العمل الكثير الذي يتطلب التنظيم والترتيب.

وجه جلالة الملك دعوة لنا لحضور حفل يقام في ظهيرة اليوم التالي في ميدان سباق الخيل الواقع شرق المدينة– وكانت الزيارة الرسمية شارفت على نهايتها، وسوف تختتم– تكريماً بهذا الحفل، وبمأدبة وداعية كبرى.. وفي اليوم التالي وأثناء سيرنا في الطريق لاحظنا زرافات من الناس تغادر المدينة نحو المنصة الملكية التي أقيمت على تل صغير.. وكانت سحب الغبار المرتفعة خلف جموع الناس بالقرب من المنصة تعني أن الخيالة كانوا يقومون هناك بسباقاتهم التجريبية الأولى، وكان الخيالة يسرعون بجيادهم لإظهار كفاءتها وبراعتها في الخبب. وعندما جلسنا بجوار الملك أعطيت إشارة بدء السباق الأول، وكانت مسافة السباق عشرين كيلاً وتمثل أربع دورات حول الميدان.. وللعرب حاسة إبصار حادة، وباستثنائنا كان كل مشاهد يتابع سير السباق وتفاصيله حتى في أطرافه البعيدة دون الحاجة لاستخدام العدسات المكبرة، وكان معظم الفرسان من أمراء الأسرة المالكة، وكانوا يمتطون جيادهم على سرج وفي أغلب الأحيان دون ركاب أو أحياناً بركاب عربي ذي قضيب معدني واحد.. وقد سارت سحابة الغبار الصغيرة خلف الفرسان متجهة نحونا مثل الغبار الشيطاني[1]، ويفتقد المشاهد كل مظاهر التهليل والهتاف وسط هذا الحشد من الناس؛ إذ لم يكن من عادة أعراب نجد الهتاف والتهليل، كما لم يكن هناك صياح وابتهاج شديدان في ختام السباق.. وبعد نهاية السباق تقف الخيول أمام المنصة بينما يقوم الملك بتهنئة الفائز ويثني عليه بكلمة أو كلمتين.

وبعد السباق الثالث نزل ولي العهد نفسه فاعتلى فرساً، ووقف أمام المنصة يتبعه فارس يحمل رمحاً، ويركب الفرسان خيولهم. ثم يحلقون حوله.. هؤلاء الفرسان الذين حول ولي العهد ينتمون لأهل بيته، ويحمل كل فارس سلاحه، ثم يخلعون مناديلهم، ويضعون عقلهم فوق رؤوسهم بحيث تلامس أطرافها أكتافهم، ويحمل الأمراء منهم سيوفاً بينما يحمل أتباعهم البنادق أو الرماح.

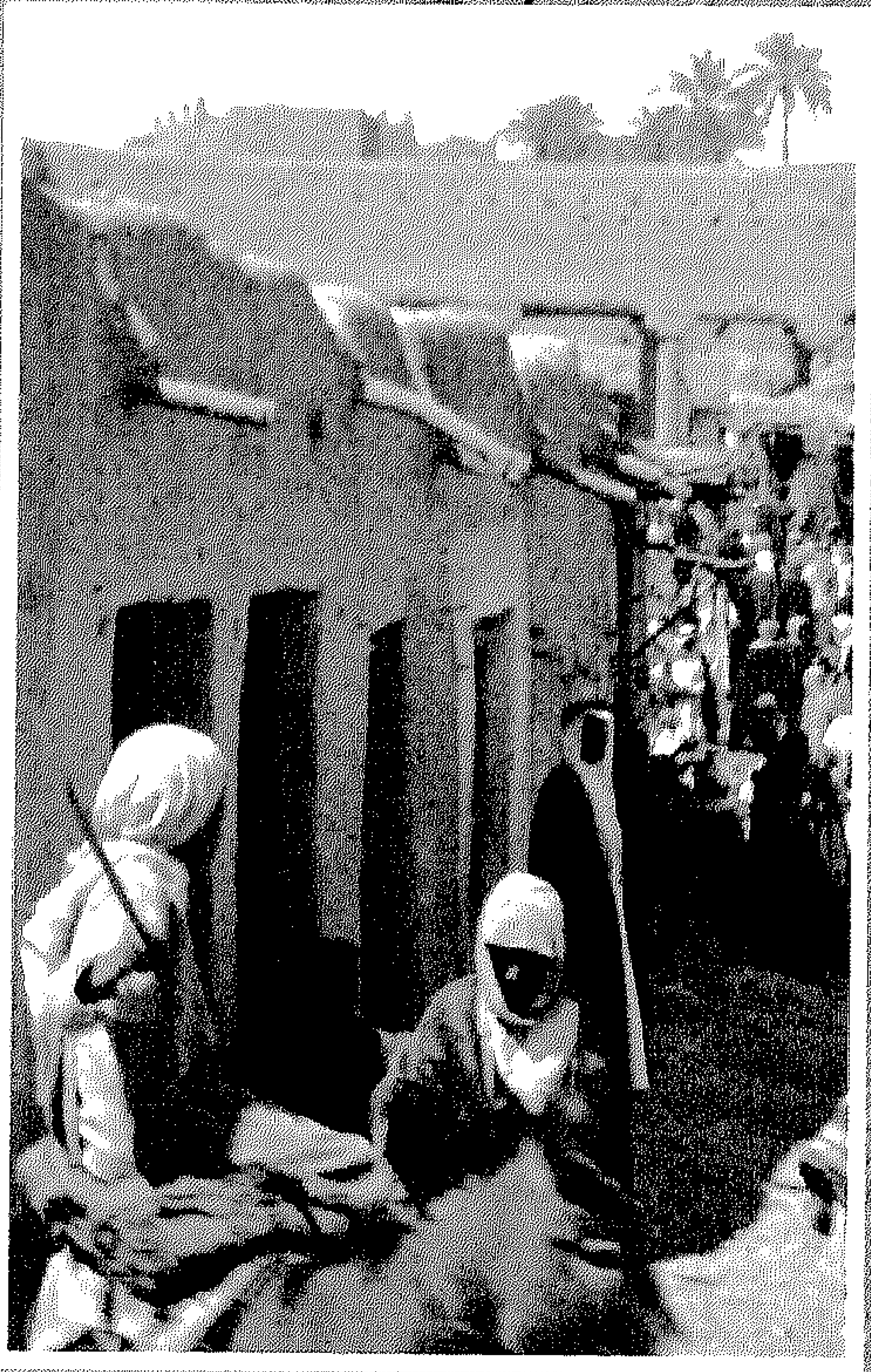
وبعدما استأذن ولي العهد الملك بالبدء انطلق الخيالة بعيداً واتخذوا لأنفسهم مواقع بعضهم في مواجهة بعض.. فريقان أو ثلاثة من كل جانب، ثم بدؤوا يدورون بعضهم حول بعض، فيما راح فرسان آخرون يلعبون لعبة التحطيب بالرماح؛ إذ يطارد خيال خيالاً آخر، وعندما يقترب منه يقذفه برمحه الخشبي غير الحاد، وتدريجياً تبدأ مجموعات الفرسان في الالتفاف

(١) المقصود به العاصفة الدائرية الصغيرة ويكون غالب حدوثها وقت الظهر وما بعده بقليل وتحيك حولها العامة أقاويل كثيرة لا تستند على دليل نقلي أو عقلي.

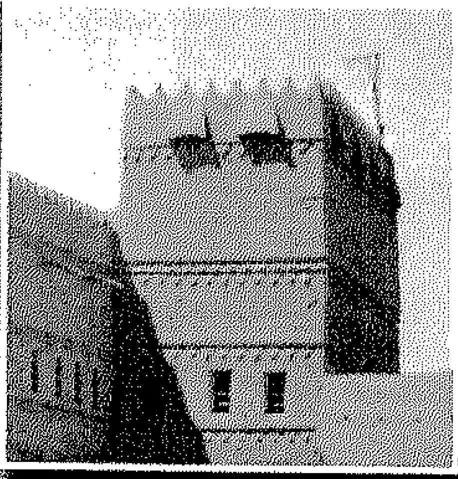
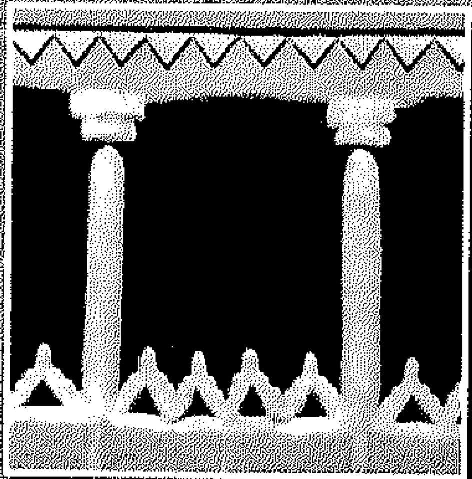
والدوران بسرعة أكبر، ومرة أو مرتين أطلق رجل النار في الهواء وهو يحمل البندقية ويطبق زنادها بيد واحدة.

أعطى الآن الأمراء الأوامر لرجالهم، وبدأت المناورات السريعة تعقب المناورات البطيئة. وفي كل لحظة تبدو اللعبة كأنها مبارزة حقيقة، وفجأة قام فريق بهجوم صاعق على آخر لكن الفريق «المعادي» فتح صفوفه بطريقة ما؛ فلم تصدم الخيول بعضها ببعض، وكانت تلك إشارة إلى هجوم مضاد من المجموعة الأخرى وبلوغ الاحتفال ذروته، وبدأت تطلق الرصاصات النارية بين آن وآخر، ويقود الأمراء فرسانهم وهم على صهوات الجياد في ركب موسيقي سريع وبمهارة خيالية؛ لأنه لم يكن مرتباً بخطط مسبقة، وكان غبار المعركة ودخان فوهات البنادق المحلية الصنع قد غطى ساحة الميدان، وفجأة مرّ أمامنا الأمير فيصل حاكم مكة ممتطياً صهوة جواد مسرعاً ويحمل أمامه سيفه عالياً بينما يحرك الهواء خصلات شعره، وعيناه تومضان بريقاً ينبئ عن اعتزاز لا يعرفه إلا الفرسان الشبان، ويتبعه رجاله من خلفه راكضين وشعورهم الطويلة تنساب من خلفهم، وبعضهم نصف عارٍ، وجاءت مجموعة فرسان ولي العهد في زيهم العسكري، وقامت هذه المجموعة من الفرسان مسرعة على خيلها أمام المنصة بالانقضاض والهجوم على مجموعة تمثل مجموعة العدو.. وفي آخر الخطة، وبدقة مدهشة وقف الجميع، وكذلك وقفت الخيول على إعجازها بالقرب من مقدمة المنصة، وقام الأمراء بتحية الملك، وانتهى الحفل.

وعلى إثر إشارة الملك بانتهاء الحفل بدأت حشود الناس مغادرة المكان مسرعة نحو الرياض مقتفية أثر الموكب الملكي، وتوقفنا خارج أسوار المدينة قرب قناة للماء إلى أن جاءنا أمير صغير السن على صهوة جواده، واتكأ هذا الأمير على رقبة جواده، وطلب منا في أسلوب أخاذ ورشيق أن ننتظر ونتريث قليلاً: إن أخي الأمير فيصل يمر أمامنا الآن.. وجاء صاحب السمو الملكي الأمير فيصل يخب بجواده في مجرى شعيب البطحاء بينما تتهامس حشود الناس مستحسنة ومسرورة بمرور الأمير وأتباعه أمامهم؛ ليدخلوا بوابة المدينة. ومرة أخرى استأنفت جموع الناس سيرها إلى الأمام، وفي الرياض استقبلتنا الأضواء الساطعة للقصر في البديعة، وأحضر لنا خدم القصر موقداً به فحم حجري متقد ومتوهج، وقام الخدم بإنزال الستائر الدمشقية؛ لأن الليل كان بارداً.



خير الدين الزركلي ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م





جيرالدين رندل*

G. Rendel

١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م

تحيط بالرياض أسوار مبنية باللبن يظهر فيها الأبراج في نقاط معينة.. دخلنا المدينة من بوابة الشميري التي توصل إلى شارع واسع بمبانٍ مشيدة من الطين والحجر مبنية على جانبيه، وهو يؤدي إلى ساحة القصر.. هذه الساحة جميلة، يشغل جانبها الغربي قصر ابن سعود، ويشغل الجانب الشرقي منها مضيفة لشيوخ القبائل، ويمتد ممر بأعمدة على طوله، ويغلق النهاية الشمالية.. وعندما يكون الملك مقيماً في القصر تلك المدة التي تمتد ما يقرب من ستة أو سبعة أشهر من كل سنة تمتلئ الساحة دائماً بالبدو الذين يقدمون من الصحراء لمناقشة شؤونهم مع الملك، ويسمح لهم أن يخيموا في الساحة لمدة ثلاثة أيام، وهو الحد التقليدي للضيافة في الصحراء مع ضيافة مجانية.

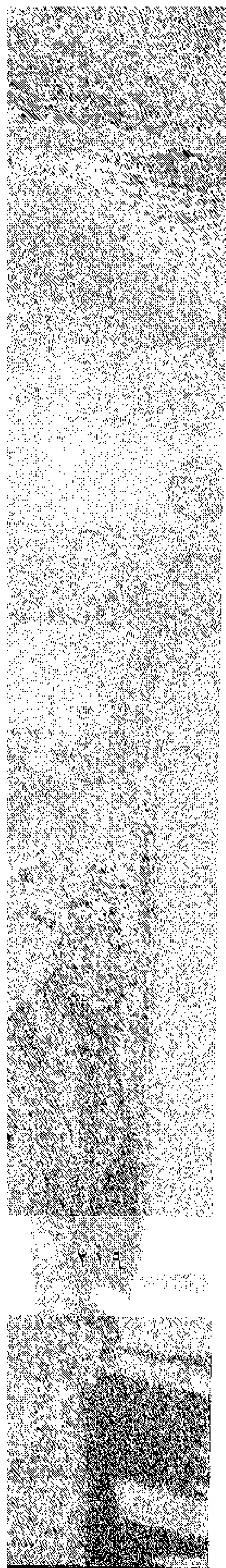
أما قصر ابن سعود فهو مبنىً محصن ومرتفع، وله برجان كبيران، وخط بسيط بزخرفة على جداره الكبير.. إنه بدون شك جميل في طرازه؛ مما أوحى لي كيف يمكن أن تكون العمارة العربية الحديثة دقيقة ومنتظمة.. والقصر محاط بشبكة قصور أصغر يسكنها أبناء الملك الكثيرون.. وتربط تلك القصور بالقصر الملكي ممرات، ولا بد أن المنطقة التي تغطيها مساكن العائلة المالكة تمثل جزءاً كبيراً من المدينة.

يوجد السوق والمسجد الجامع خلف ساحة القصر، والمسجد مثل جميع المباني الدينية في نجد شكله بسيط جداً، وله منارة قصيرة غير واضحة المعالم، وبدون زخرفة خارجية من أي نوع، ويسمح للمسلمين فقط بدخول المساجد في المملكة العربية السعودية؛ ولذا لم أر الجزء الداخلي لأي منها.. أما السوق فهو أقل إثارة من سوق الأحساء.

سكنا خلال زيارتنا للرياض في قصر البديعة الجديد، وهو واحد من القصرين الصيفيين الذين شيدهما الملك ابن سعود في فترات مختلفة لنفسه ولولي عهده، وكلاهما يقوم على الحافة الغربية لوادي حنيفة، ويبعدان خمسة أميال تقريباً شمال غرب الرياض، ويطلان على الوادي باتجاه مسجد صغير على الجانب المقابل.. والقصر الجديد، المشيد باللبن الطيني والحجارة الجيرية حول ساحتين مفتوحتين طبقاً للنظام الإسلامي التقليدي: هو بناء جميل. الأبواب والسقف من أخشاب النخيل والأثل، ووجدنا هنا أيضاً زخرفة داخلية جبسية شبيهة بالزخرفة التي أعجبنا بها في الأحساء، وهذا النوع من الزخرفة يعجبني.. إنه يجلي برودة الجدران البيضاء دون

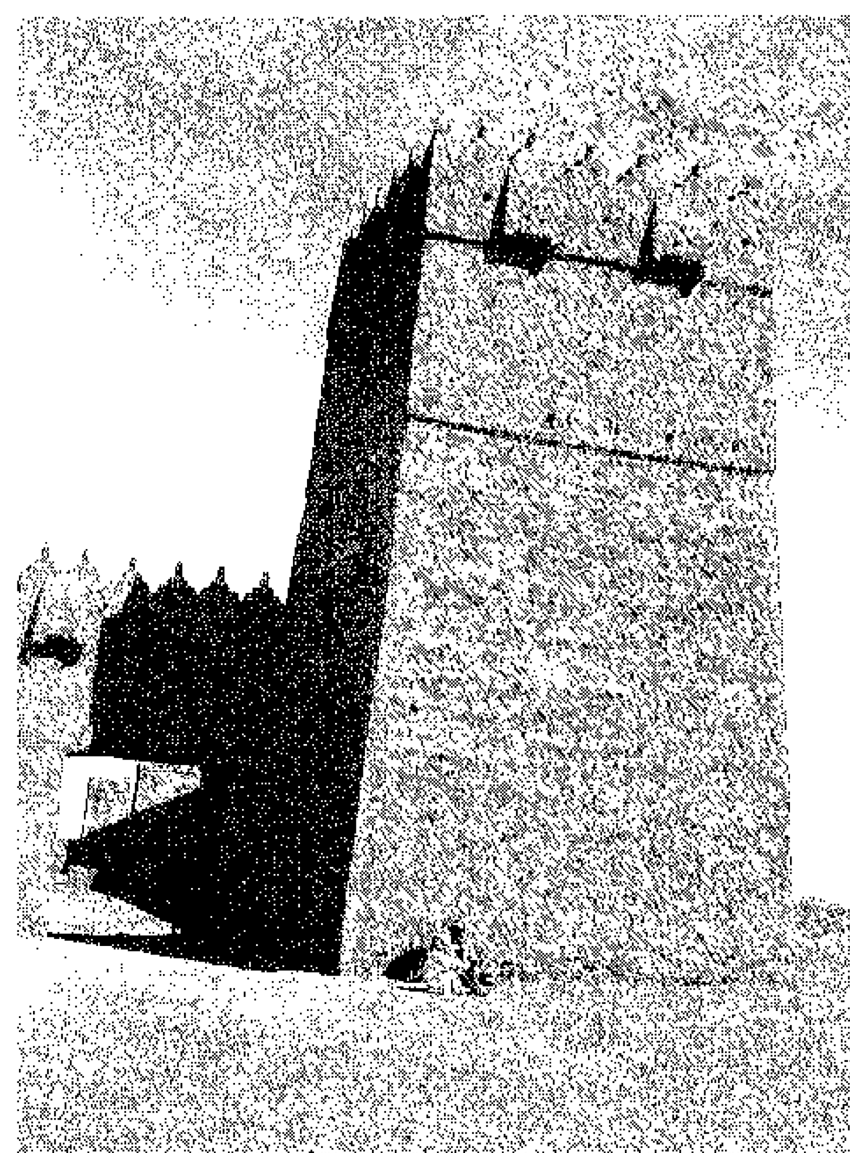


* الليدي جير الدين رندل هي زوجة السيد جورج رندل رئيس القسم الشرقي في وزارة الخارجية البريطانية في حينه، وقد زارا الرياض بدعوة من الملك عبدالعزيز في شهر مارس عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م، وقد نشرت السيدة رندل مقالة استطلاعية حول رحلتها هي وزوجها،..حول هذه ا الرحلة ينظر:
Geraldine Rendel,Across Saudi Arabia. Geographical Magazine, no. 6,1938, PP. 163-180.



سوق الرياض ومن خلفه الجامع الكبير.
رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

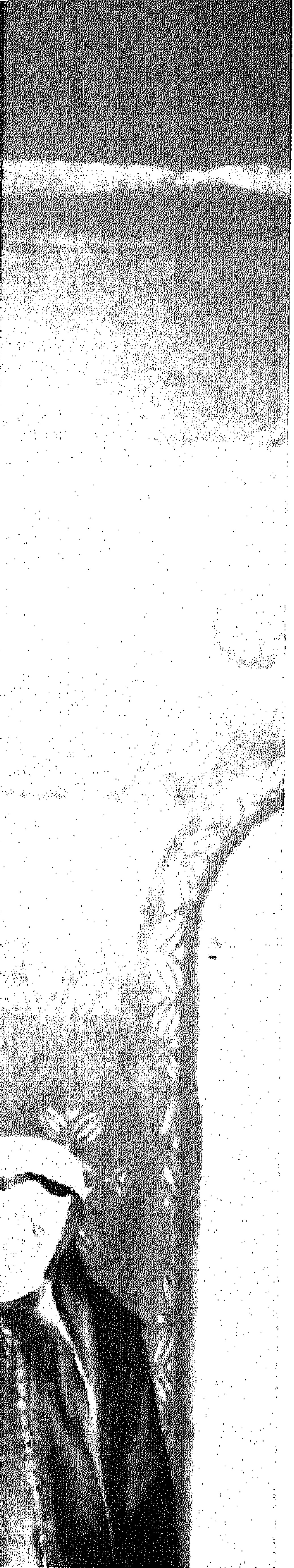
محطة الاتصالات اللاسلكية بالرياض.
رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

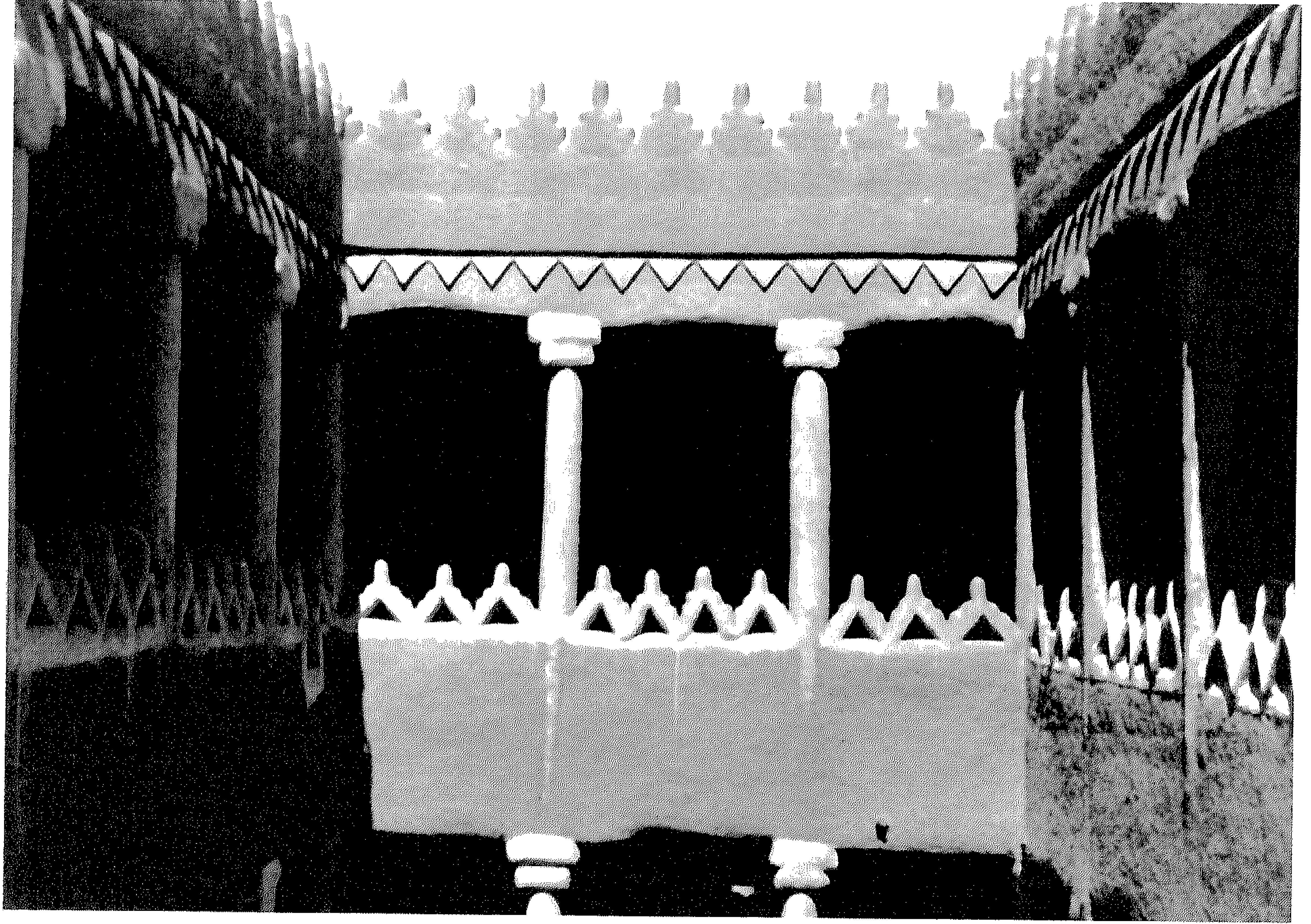




أحد شوارع مدينة الرياض ويظهر
في الخلف قصر الحكم.
رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.





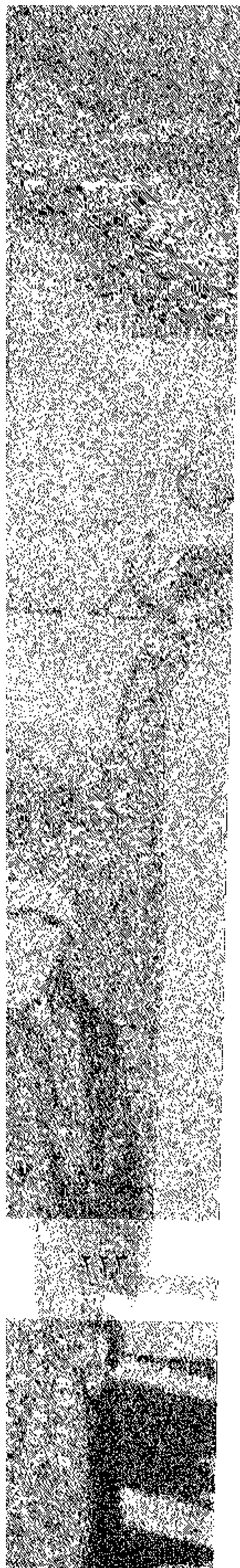


شرفة في أحد أفنية قصر البديعة. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

فقدان جاذبية السطوح المستوية والبساطة.. وجميع الأبواب مدهونة بتصميمات لونها رمادي، معطية علامة ترحيب حارة ضمن اللون الأبيض المسيطر.. يوجد خلف القصر بساتين نخيل كبيرة تسقى من الآبار العميقة، ويعرف هذا النمط من الآبار بالسانية ويعمل عليها ستة حمير حساوية.. يخرج كل حمار دلو ماء يفرغ نفسه في قناة ماء عندما يصل الحمار إلى نهاية سحبه، وأصوات البكرات الموصولة بها الدلاء كانت متواصلة وغير مريحة، وفي أعلى وادي حنيفة وبعد عشرة أميال غرب الرياض تقوم أنقاض الدرعية العاصمة الوهابية القديمة التي دُمرت بواسطة المصريين تحت قيادة محمد علي[1] عام ١٢٣٣هـ الموافق (١٨١٨م)، وقد بنيت العاصمة الحالية الرياض لتحل محلها تحت قيادة الإمام تركي بن عبدالله.

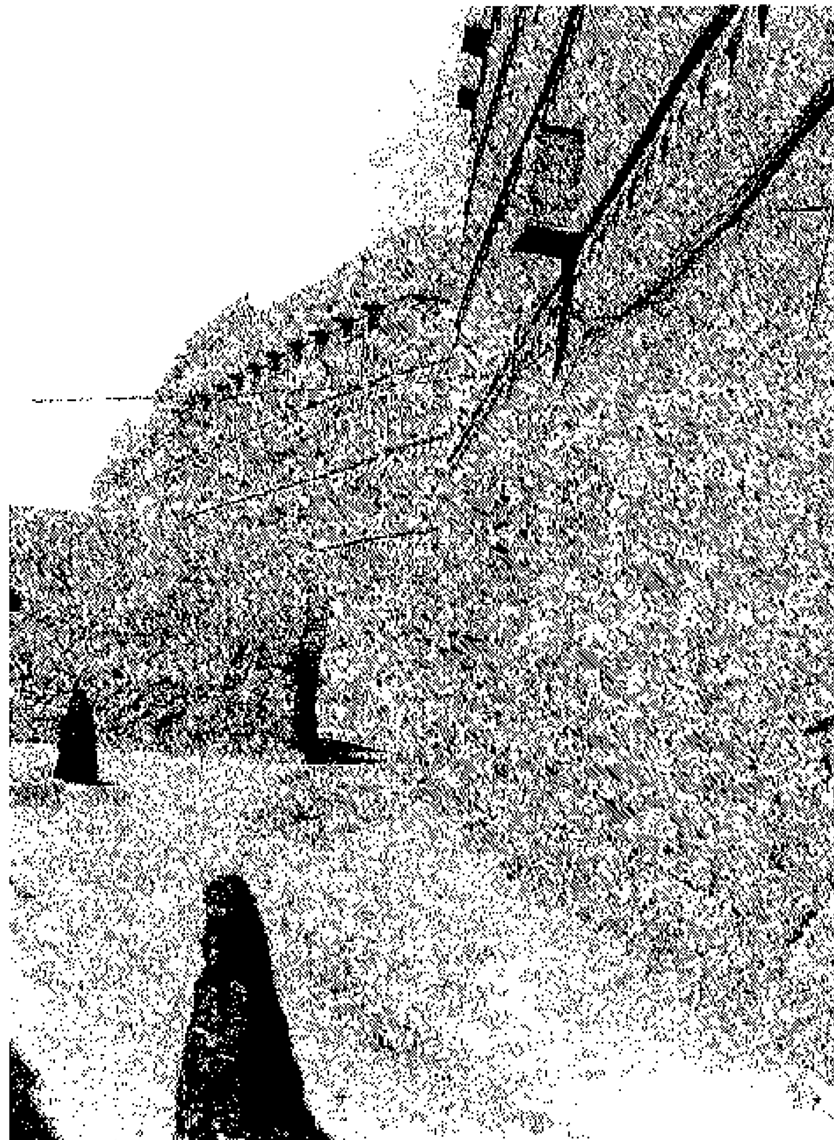


(١) الصحيح أن القيادة كانت لإبراهيم باشا ابن محمد علي.



ميدان الصفاة. مشهد من بوابة قصر الحكم الرئيسية باتجاه شارع الثميري.
رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

أحد الواجهات الرئيسة لقصر الحكم.
رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

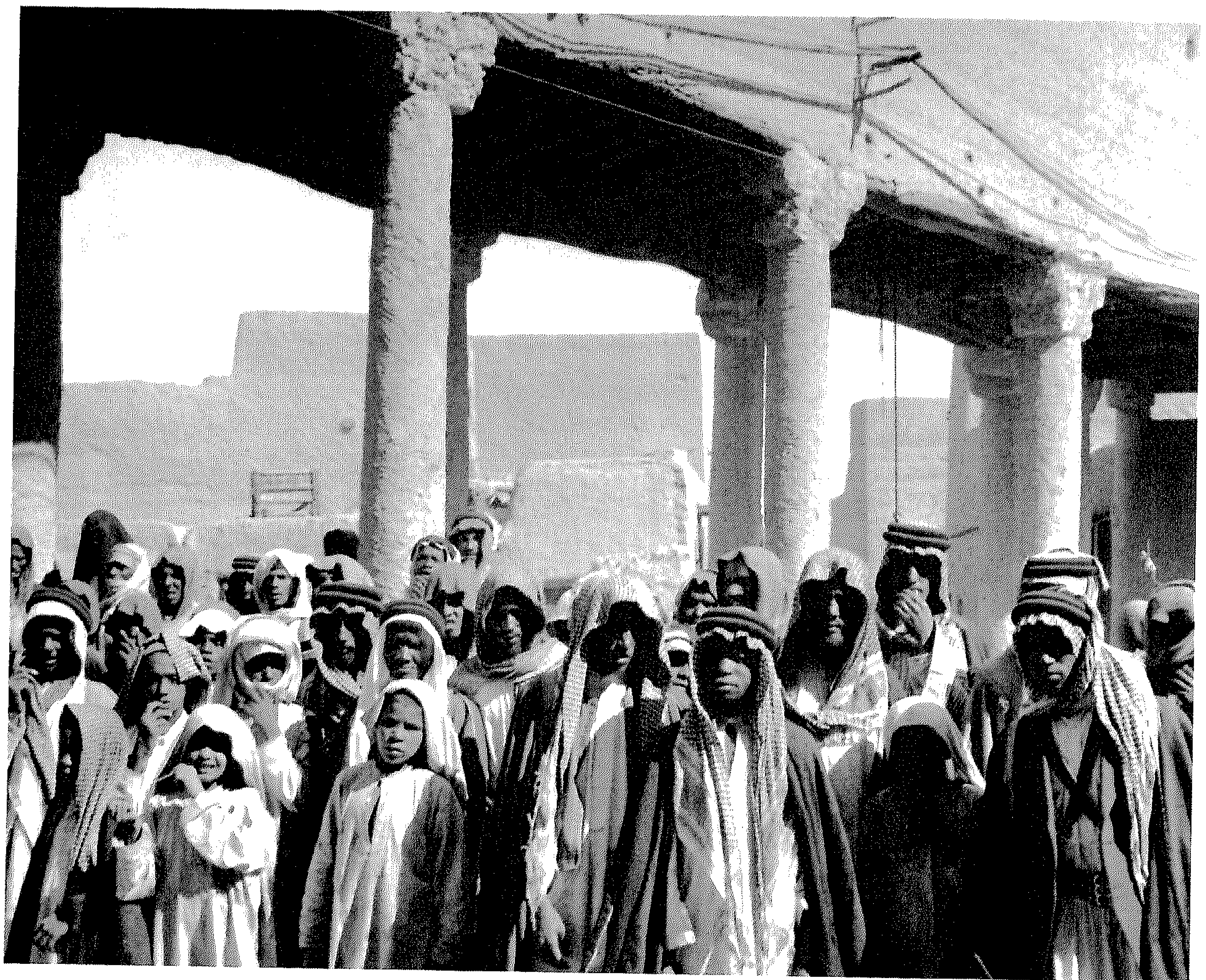




الرياض من جهة الشمال الشرقي عبر المقبرة. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

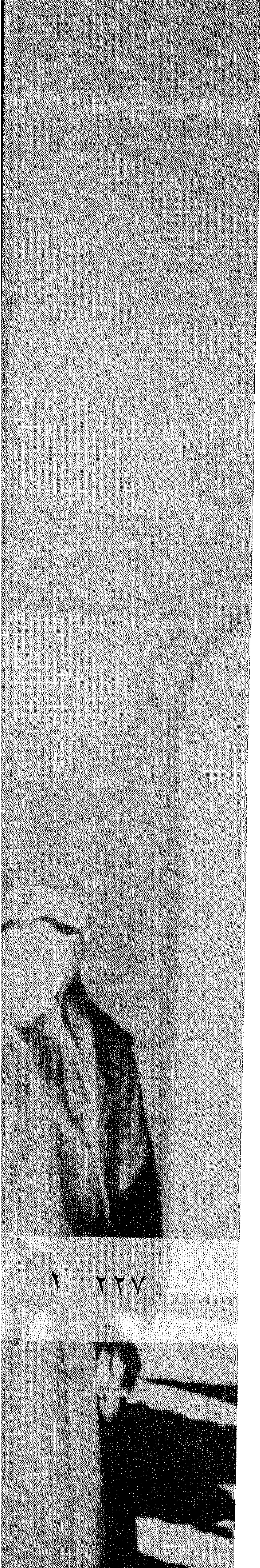


عدد من سكان الرياض وقد تجمعوا تحت الجسر الذي يربط قصر الحكم بالجامع الكبير. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.



قصر البديعة وسط البساتين ويظهر المسجد في مقدمة الصورة. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

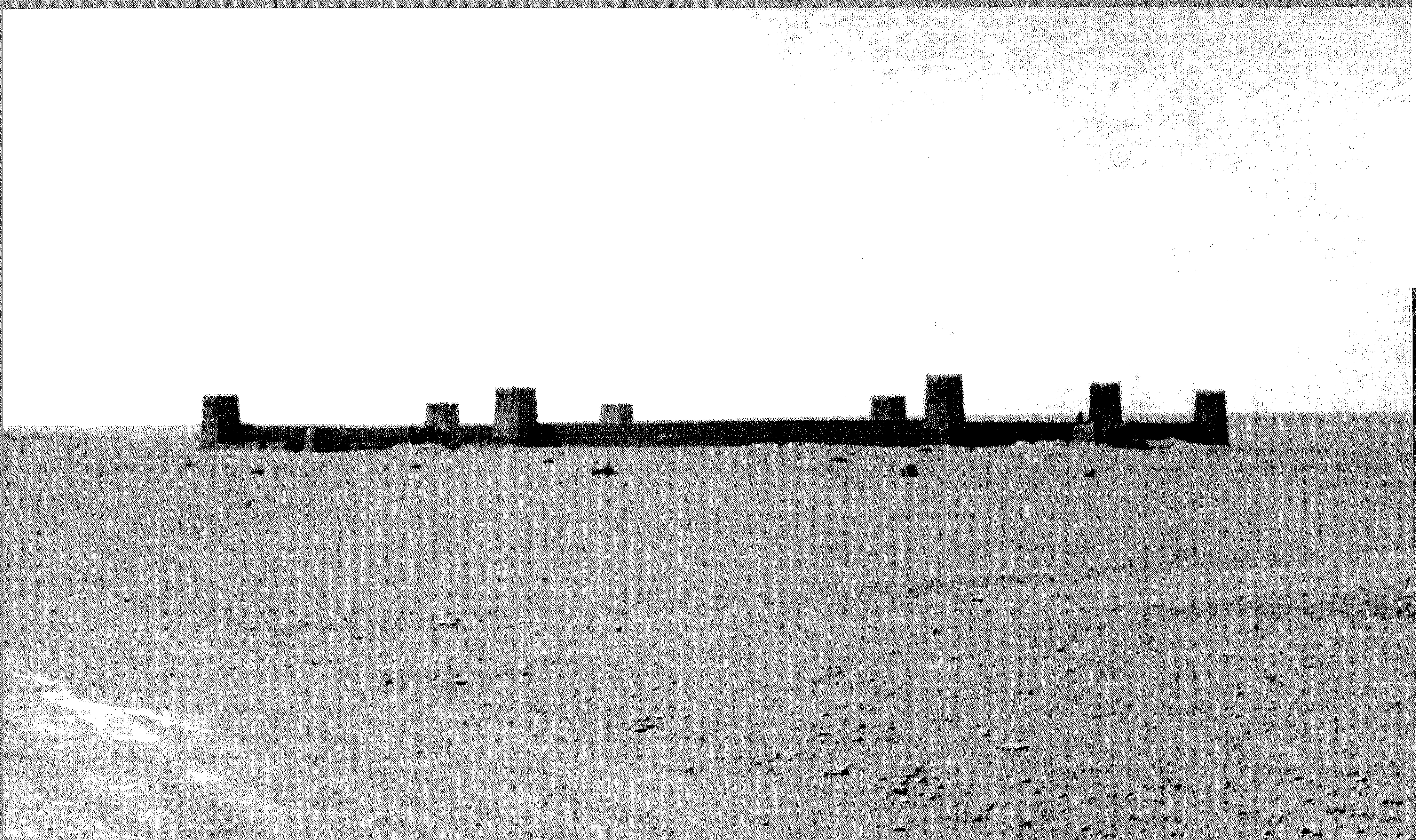




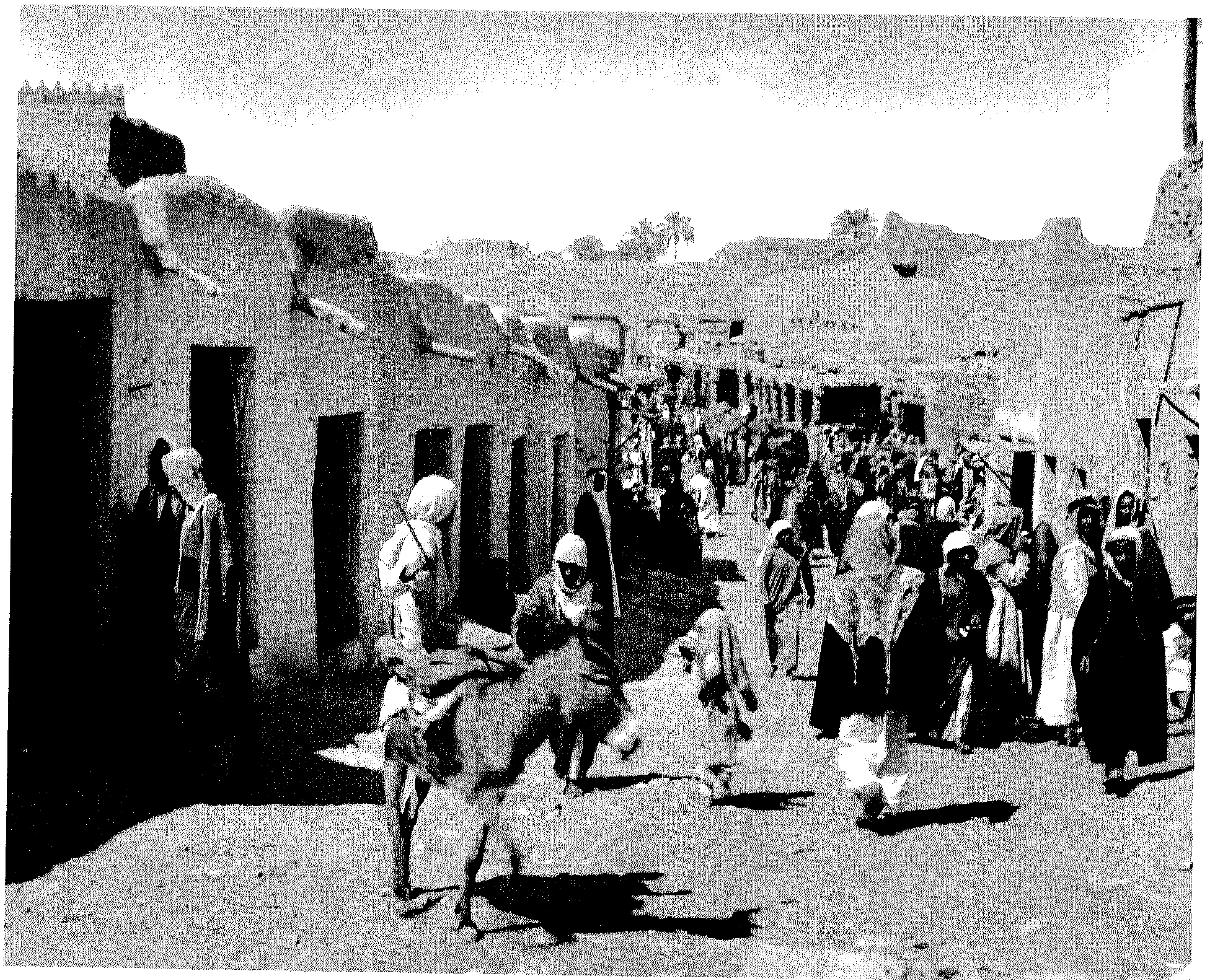
قصــر البـديعـة. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.



حصن خارج الرياض. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.



السوق الرئيس بالرياض. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.



قصر الحكم والجسر. رندل، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.





أحد الشوارع المحيطة بقصر الحكم.
رندل. ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.





١٣٥٥هـ/١٩٣٧م





هارولد ديكسون*

H. R. P. Dickson

١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م

قال السائق: عندما نصل إلى تلك التلال المنخفضة تشاهدون الرياض، وبعد عدة منعطفات دخلنا بين التلال المنخفضة، ثم انحدرنا قليلاً نحو سهل داخلي صغير.. رأيت في البعد ما ظننت أنه مدينة الرياض: قلعة كبيرة ذات أبراج ترتفع فوق الأسوار وأعالي الأبنية تظهر فوق الأسوار والأبراج، وإلى يسار ذلك كان هنالك عمودان للاسلكي، و لم أر أثراً لنخيل الرياض.

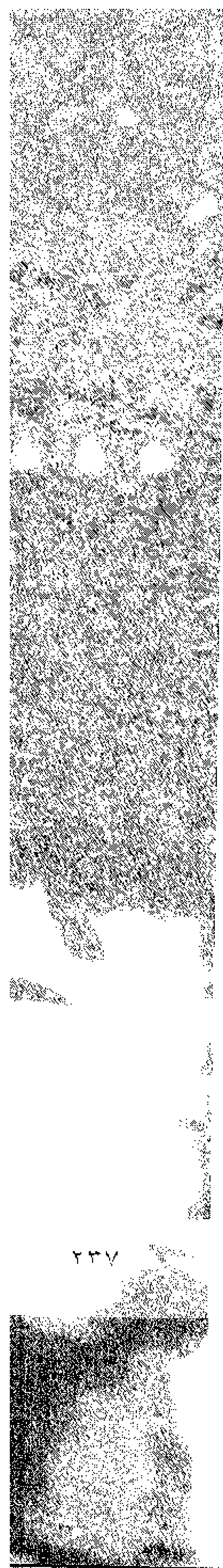
وأشار محمد الغذفان إلى تل منخفض يقع وراءنا إلى اليسار، وقال: أبو مخروق يمكن للسيارة أن تسير نحوه مباشرة، وتدخل في نفق فيه ثم تخرج من الجهة الثانية.. وكانت في رأس أبو مخروق فتحة كبيرة، وكان من الواضح للناظر أن عدداً من السيارات تخترقه، و لم نكد نصل إلى القلعة حتى أطلت علينا فجأة بساتين النخيل في الرياض من جهة اليسار وما شاهدناه الآن لم يكن مدينة كما تصورت، بل قصر الملك الجديد الذي لا يزال قيد البناء وهو قصر الشمسية.. وقفت السيارة المرافقة لنا هناك، وأبلغنا أن الملك يرغب أن نذهب مباشرة إلى واحد من قصوره الصيفية التي تبعد عن بعضها مسافة عدة مئات من الياردات في البديعة على بعد خمسة أميال إلى الغرب من العاصمة.. أما هو شخصياً فكان يقيم في قصره الشتوي داخل أسوار المدينة.

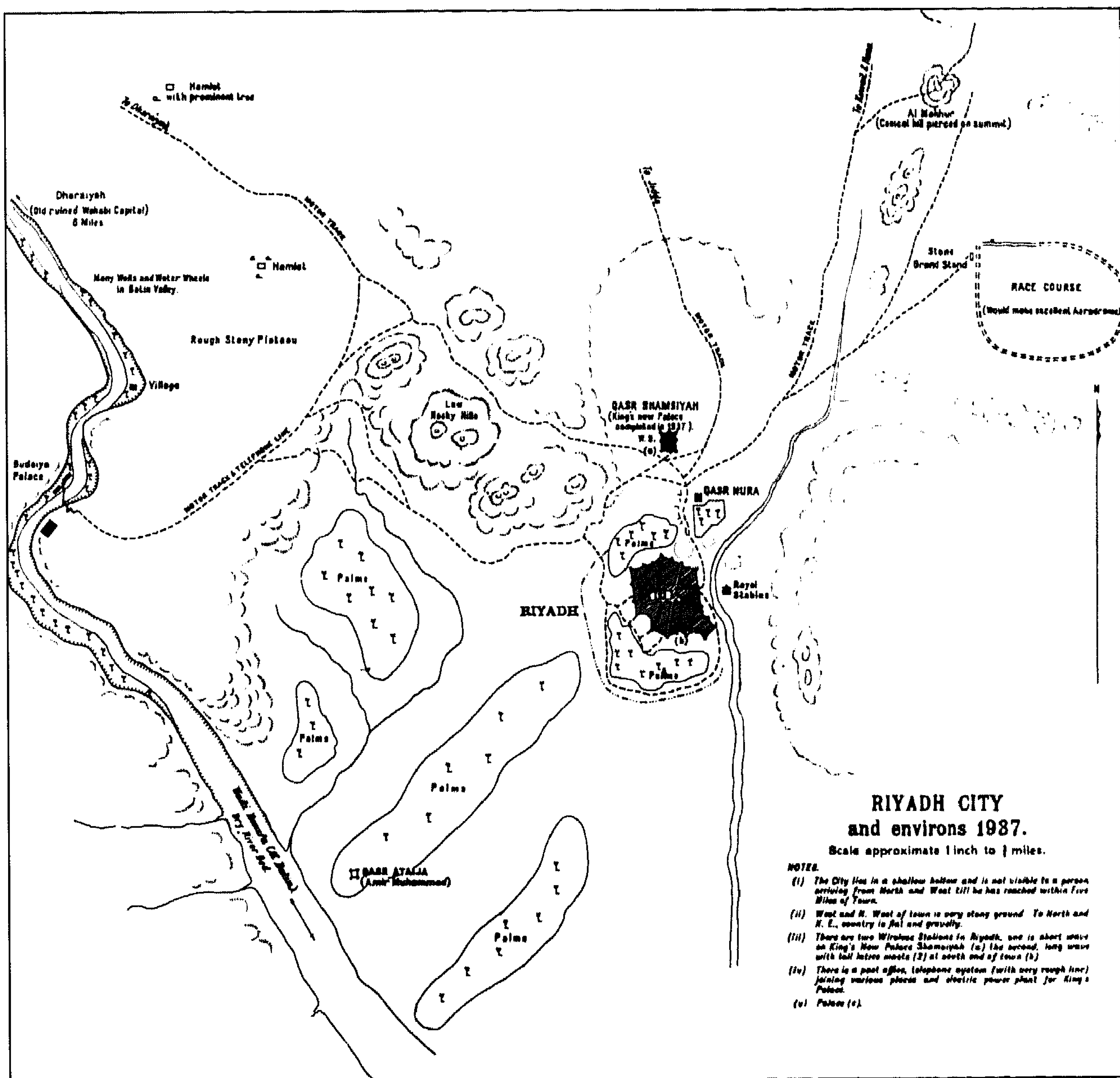
تركنا أشجار النخيل على يسارنا في واحة على جانبي الطريق الصخرية الوعرة إلى مسافة سبعة أميال، ثم انحدرنا نزولاً على طريق صخرية منحدرة ومتعرجة تتجه نحو ما يعرف بالباطن (وهو مجرى كبير لوادي حنيفة)، وأمامنا هناك كان قصر الملك، ووراءه مزيد من بساتين النخيل الممتدة عبر جوانب الوادي الصخرية المنحدرة، على عرض نصف ميل تقريباً، ويشغل القصران وحدائقهما ثلثي المساحة تقريباً.. أما الباقي فقد ترك للسيل المندفع الذي يأتي عندما تهطل الأمطار، وقد أقام الملك تحت سور الحديقة عند مقدمة القصر الذي نزلنا فيه مكاناً صغيراً للجلوس فيه مكان لصنع القهوة بحيث يتسنى له أن يجلس في فصل الأمطار ليشرب قهوته بجانب السيل المندفع بسرعة.

وفي الجانب الآخر من وادي حنيفة، وبعد أن عبرت سيارتنا أرض الوادي الجافة، انعطفت إلى اليمين، في ضيقة جداً على جانبيها أسوار عالية: ثم في منعطف

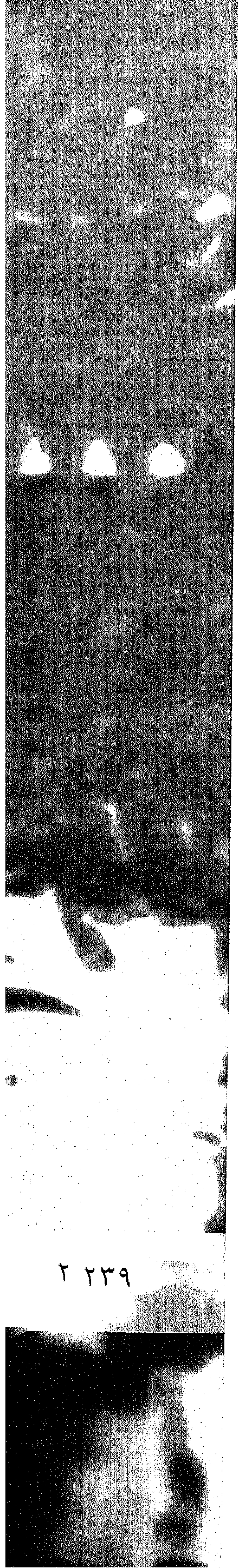
* هـ. ر. ب ديكسون ضابط بريطاني عمل في منطقة الخليج لفترة طويلة حتى أصبح المعتمد السياسي البريطاني في الكويت وتقاعد من هذه الوظيفية في عام ١٩٣٧م/١٣٥٥هـ.. زار الرياض هو وزوجته بعد تقاعده مباشرة بدعوة من الملك عبدالعزيز.. أصدر عدة كتب عن منطقة الخليج، وقد وردت المعلومات الخاصة برحلته للرياض في كتابه «الكويت وجاراتها» الصادر باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٨م/١٣٧٧هـ، وقد صدر هذا الكتاب مترجماً إلى اللغة العربية ومن هذه الترجمة تم اقتباس ما ورد عن الرياض.. ينظر:

هـ. ر. ب ديكسون، الكويت وجاراتها، ترجمة فتوح الخترش، الكويت: صحارى للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.




Hamlet
with prominent tree
Dharaiyah
(Old ruined Wahabi Capital)
6 Miles
Hamlet
Many Wells and Water Wheels
in Batin Valley.
Rough Stony Plateau
Village
Budaiya
Palace
Motor Track
Motor Track & Telephone Line
Low
Rocky Hills
Al Makhur
(Conical hill pierced on summit)
Stone
Grand Stand
RACE COURSE
(Would make excellent Aerodrome)
Motor Track
QASR SHAMSIYAH
(King's new Palace
completed in 1937).
W.S.
(a)
QASR NURA
Palms
Royal
Stables
RIYADH
(b)
Palms
Palms
Palms
Palms
Palms
N
RIYADH CITY
and environs 1937.
Scale approximate 1 inch to ½ miles.
NOTES.
(i) The City lies in a shallow hollow and is not visible to a person arriving from North and West till he has reached within five Miles of Town.
(ii) West and N. West of town is very stony ground. To North and N. E., country is flat and gravelly.
(iii) There are two Wireless Stations in Riyadh, one is short wave on King's New Palace Shamsiyah (a) the second, long wave with tall lattice masts (2) at south end of town (b)
(iv) There is a post office, telephone system (with very rough line) joining various places and electric power plant for King's Palace.
(v) Palace (c).

٢٣٨



حاد إلى اليسار، وتوقفنا أمام باب كبير مفتوح، حيث تسلقنا بمساعدة أيدي الحراس الممتدة إلينا، وكنت أتبع زوجتي على العتبات الصخرية على طول ممر مصنوع من الحصى، إلى اليسار ثم إلى اليمين ثم إلى الدرج العريض المؤدي إلى القصر..

كان القصر حديث البناء؛ لأنه عندما قام صاحب السمو الشيخ أحمد[1] حاكم الكويت بزيارة الرياض سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، لم يكن موجوداً، ويتألف هذا القصر من باحتين تمتد على جانبيهما غرف في الطابقين السفلي والعلوي، وباحة أخرى أصغر للخدم.. والجناح الأعلى من البناء الأول مخصص للسيدات، وفي غيابهن يخصص لكبار الضيوف.. أما المنزل الثاني فيقيم فيه الملك، حيث يصرف أعماله ويستقبل الشيوخ والبدو أثناء أشهر الصيف.

توجد في الطابق العلوي شرفة عرضها اثنا عشر قدماً تمتد على مدار الباحة، وتدعم تلك الشرفة أعمدة حجرية مطلية بالجص الأبيض، بين كل اثنين من الأعمدة تقف ثلاث دعائم خشبية صفراء باهتة رسمت عليها بالأحمر والأسود خطوط ونقط وأشكال، وفي آخر الشرفة جدار من الطين مطلي بالجص ارتفاعه حوالي ستة أقدام. ويبدو أعلاه أشكال كأنها رؤوس وأكتاف رجال يقفون في صف طويل فوق فتحات مثلثة الشكل بين الأعمدة المستديرة العالية المقامة من الحجر والمطلية بالجص، والتي بدورها تدعم سقف الشرفة، وفي كل جهة توجد فتحة كبيرة تسمح للخدم بأن يمدوا رؤوسهم منها لدعوة سقاة القهوة في الطابق السفلي.

والركائز جميعها مصنوعة من الخشب أقيمت كل ثلاث منها بين عمودين ؛ لتدعم فروعاً أصغر من سقف الشرفة المغلف بأوراق البردي والطين.. وفي أغلب الأحيان تكون تلك الركائز مغطاة بقماش أبيض مدلى من السقف، ومزينة حسب النمط النجدي برسوم من الخطوط والنقط الحمراء والسوداء على قاعدة صفراء اللون باهتة، كما ذكرت سابقاً.. وأينما وُجدت تلك الركائز تكون مزينة: سواء في النوافذ، أو الأبواب الصغيرة، أوحتى في غرفة الغسيل.. وداخل الغرف الكبيرة يوجد عمودان مستديران في الوسط يدعمان السقف.. أما الجدران فهي مطلية بالجص الأبيض وعليها حلقات أو دوائر مختلفة الأشكال.

ويتم تصنيع تلك النماذج بأن تُغلف الجدران أولاً بطبقة خفيفة من طين أسمر، ويوضع فوقها جص أبيض سمكه ثلث بوصة، ثم يقوم المعماري برسم تلك الأشكال والطلاء لا يزال رطباً، ويعمق في حفر الخطوط حتى الطبقة الطينية، وفي كثير من الأحيان تترك مسافة بين سلسلة من الرسوم والسلسلة الأخرى؛ فالرسوم الأولى ترتفع ثلاثة أقدام عن الأرض، وتتغير النماذج حول النوافذ والرفوف الضيقة المحفورة في الحائط.. وفوق سلسلة الرسوم الأفقية نقشت دوائر كبيرة مقطعة

(١) هو أحمد بن جابر آل صباح أمير الكويت، وليها بعد وفاة عمه سالم عام ١٣٣٩هـ.. ظهر البترول في أيامه وتوفي عام ١٣٦٩هـ.

بأشكال هندسية مختلفة؛ لا يتشابه فيها اثنان.. إنه في الواقع منظر رائع ذو وقع حسن.

وتغطي النوافذ ستائر حريرية جلب قماشها من أسواق الكويت، وعلى مدار الجدران وضعت مقاعد خشبية ثقيلة وأرائك من صنع بغداد، وتغطي الأرض سجاجيد عجمية من كل حجم ولون، وقماش السقف في غرفة الاستقبال الرئيسة مزين بقطع ملونة من الحرير على شكل أقمار ونجوم ودوائر صغيرة وكبيرة.

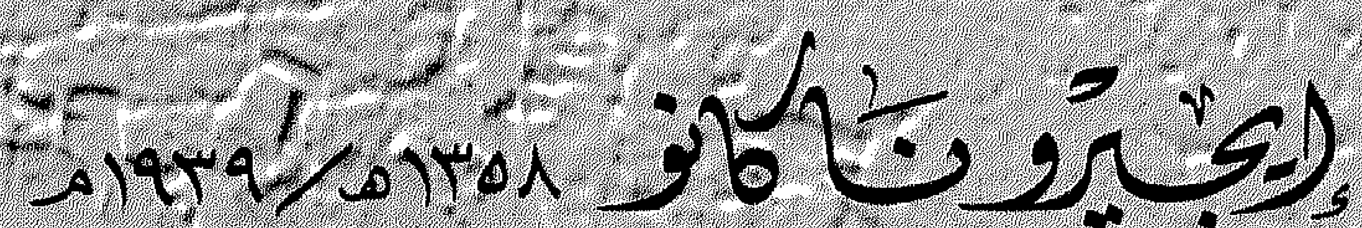
خصص القسم الأسفل من هذا القصر للخدم، وفي زاوية من زوايا باحته المكشوفة يوجد وُجار مستطيل لصنع القهوة، وتغطي أرض الدار طبقة نظيفة من الرمل الأبيض، أما أبواب الغرف تحت الشرفة فمطلية بأصباغ زاهية على أشكال مختلفة بالأحمر والأسود والأصفر والأخضر بما يشبه الموزاييك؛ إذ إن لون كل مربع صغير أو مثلث يختلف عن ألوان تلك التي تحيط به.. وأما الأجزاء العليا والسفلى والوسطى من الأبواب الصغيرة فهي عادة مستوية السطح حفرت فيها الرسوم حفراً عميقاً قبل طلائها بالألوان.. إن أحسن تلك الأبواب من صنع القصيم، أما تلك المصنوعة محلياً فرسومها تشبه تلك التي على الركائز الخشبية، وفيها كتل قرمزية وسوداء، ولكل باب قفل، وله مفتاح خشبي على شكل فرشاة الأسنان يدخل في القفل من حافته، وعند فتحه يتم دفعه إلى أعلى مطابقاً عدداً مماثلاً من الأسنان داخل القفل. والنوافذ تفتح كلها إلى الداخل، وتراها من الخارج مزينة ومطلية كالأبواب ولكنها من الداخل لا تحمل سوى رسوم بسيطة قليلة.

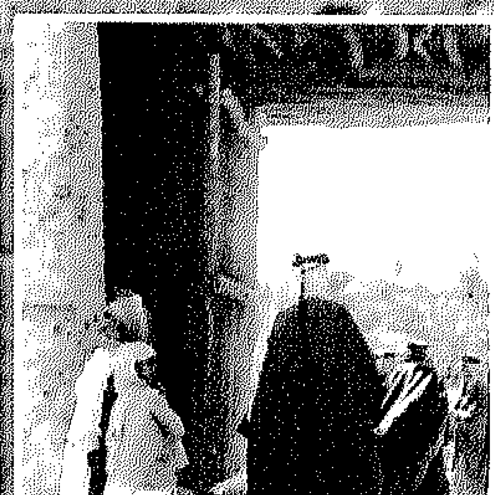
عندما يصعد المرء إلى الطابق العلوي من المنزل الأول تاركاً باحة الخدم إلى اليسار ويتجه إلى اليمين يجد نفسه أمام شرفة مؤثثة تغطي أرضها سجاجيد عجمية وتتدلى من السقف مروحة كبيرة، وعلى أحد الجدران وضعت ساعة «بومباي» كبيرة مقابل مقعد الملك الخاص، ويستدير المرء إلى اليسار ليجد أن الشرفة مؤثثة تأثيثاً مشابهاً، وفي الداخل هنالك غرفة طويلة ملاصقة للشرفة يذهب إليها الملك للصلاة والراحة، وهي مفروشة على الطراز العربي بأرائك ومساند على مدار الغرفة، وفي إحدى الجهات هنالك ما يشبه العرش، وحوله مسندان مربعان تغطي كلاً منهما ثلاثة مساند أصغر موصولة ببعضها ومغطاة بالحرير.. وقماش السقف في تلك الغرفة أكثر دقة ووضوحاً منه في جناح السيدات؛ إذ إن عليه صوراً لأباريق القهوة والشاي مزينة بالحرير الملون وبأعداد أكبر من رسوم الأقمار والنجوم والدوائر.. وينزل بك درج سهل طويل إلى مدخل خاص يستخدمه الرجال فقط، ويجعل البناء المجاور بمعزل عن ذلك الذي تستخدمه النساء.

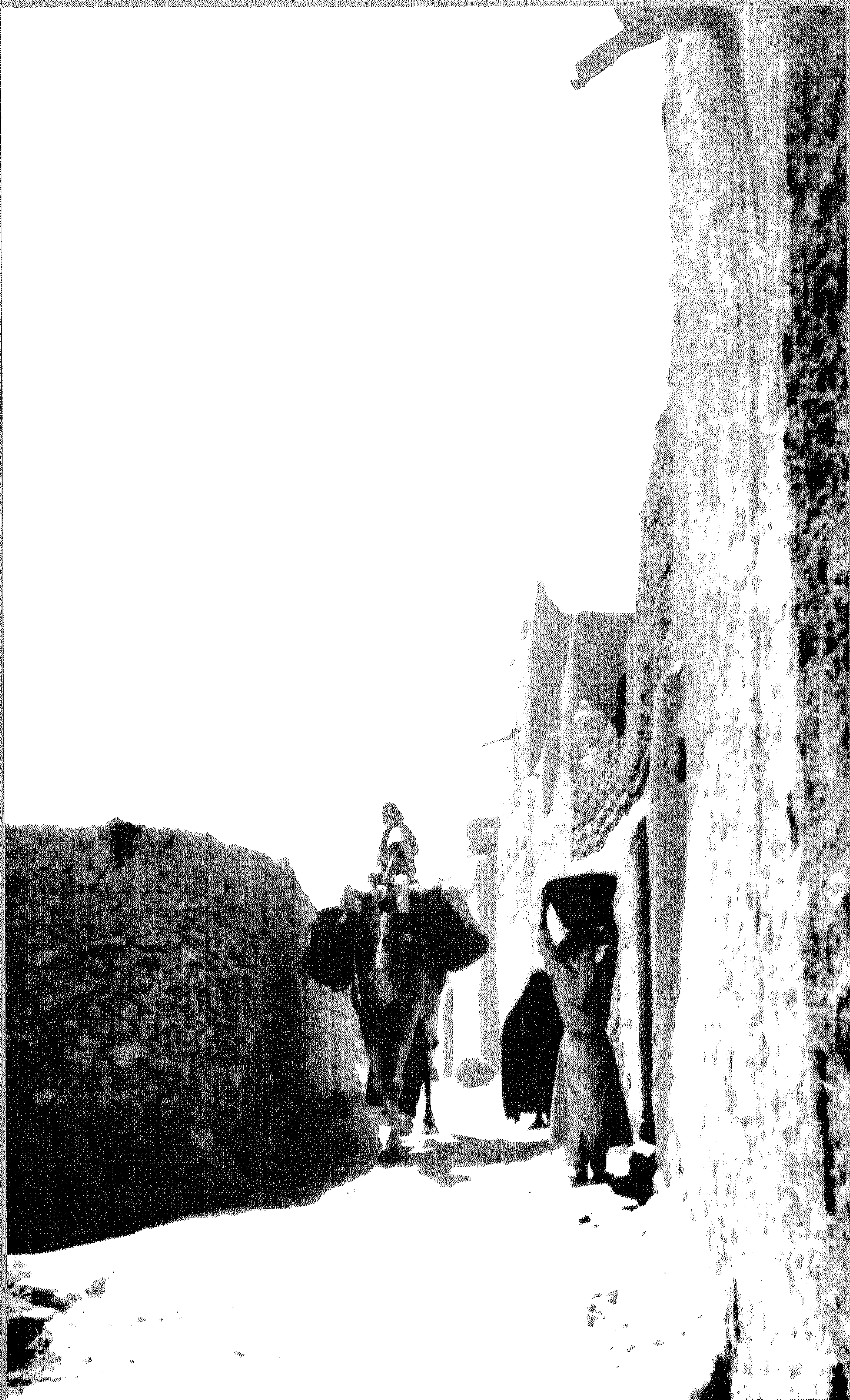
ومع أن الملك كان قد غادر القصر إلى المدينة منذ عشرين يوماً إلا أن الساعات الكبيرة في مجلسه كانت تعمل بدقة متناهية، وحتى القهوة كانت جاهزة، وبينما نحن نتجول في الغرف جلسنا لعدة دقائق في الشرفة نستمتع بالهواء البارد وأحضرت لنا القهوة؛ وصعدنا بعد ذلك إلى السطح حيث يتناول الملك طعام الغداء في الصيف من مقصف مغلق يدعمه عمودان طويلان يرتفعان عن الأرض ثلاثة أقدام، وقد زال لونهما لكثرة

مـا يمسح بـهما رجال القبائل الضيوف أيديهم المليئة بالـدهن بعـد تنـاول الطعام.. ويوجد عمود أو اثنـان عليـهما خشبتان متقاطعتان تعلق عليـهما المصابيح، وهنالك أيضاً عمود خاص عليه حبال لتعليق قرب الماء في الهواء الطلق لتبريدها.

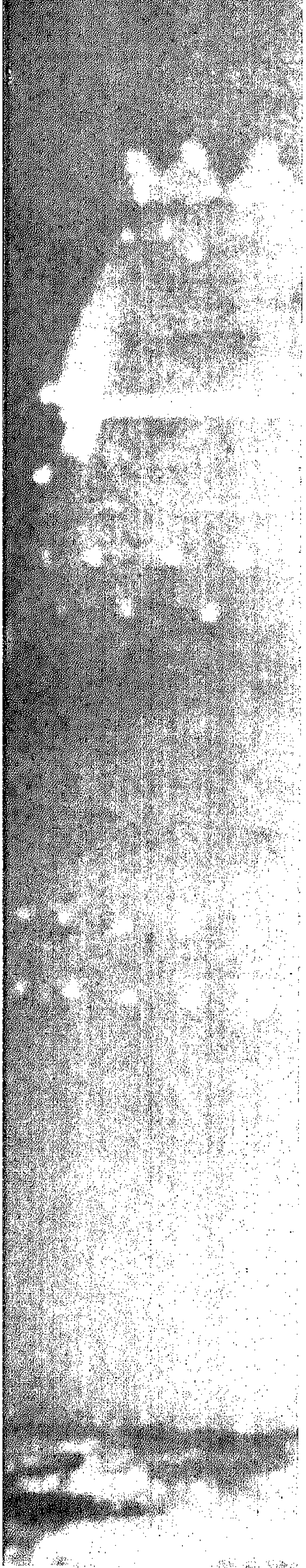
والقصر الآخر أقدم عهداً لكنه بني بنفس الهندسة تقريباً، وهناك أيضاً يستقبل الملك الشيوخ والأعيان.. وتبدو منازل الطبقة العالية من السكان للزائر العادي للرياض مظلمة وغامضة من الخارج، وهي ذات جدران عالية من الطين، وتقوم على جانبي الشوارع الضيقة المتعرجة، ولها أبواب خشبية بسيطة، ولا تطل منها على الشوارع أية نوافذ باستثناء بعضها الذي وضعت في الطابق العلوي منه فقط نافذة واحدة ذات قضبان حديدية من الداخل.. ومعظم هذه المنازل مؤلف من طابقين حول باحة مركزية تبدو رائعة ومزينة بصورة فنية شبيهة بغرف القصر الملكي في البديعة حيث أقمنا.


إيجيرون كانو ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م





أحد شوارع مدينة الرياض.
ماكس ستينكي، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.



إيجيرو ناكانو*
١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م

عند الساعة السابعة والنصف صباحاً من اليوم العاشر من شهر صفر ١٣٥٨هـ الموافق الحادي والثلاثين من شهر مارس ١٩٣٩م وصلنا خارج الجبيلة.. كان الطريق سهلاً منبسطاً ، وكانت هناك لوحات إرشادية بعد كل مسافة تشير إلى اسم المكان ، وانطلقت السيارة بسرعة ٨٠ كيلاً في الساعة، وشعرت أننا اقتربنا من الرياض، وقبل التاسعة، وعلى بعد حوالي ثلاثة أكيال شاهدنا واحة خضراء، وصاح السائق: الرياض.. الرياض.

تراءى لنا من بُعد منظر قلعة، ثم بان لنا سورها، ونوافذها، والمباني العربية الأصيلة في الصحراء.. شعرت أن القلعة ضخمة.. قلعة الشمسية حيث يقيم الملك.. كان مظهرها بسيطاً جداً، وسرنا متجهين إلى مركز الدعوة الوهابية[١].

كان الطريق الذي نمضي فيه يبدو كأنه عُبِّد منذ شهرين أو ثلاثة أشهر، وشعرنا بملامح الحضارة على هذا الطريق، وواجهنا سور قلعة صغيرة محاطة بأشجار النخيل، واتجهنا جهة الجنوب الغربي ، ثم الشمال الغربي، وفجأة انقطع الطريق ووجدنا طريقاً ضيقاً جداً يسمح بمرور سيارة واحدة. وتعجبت: هل نحن في الرياض أم لا؟.. هناك بدو يسوقون الأغنام، وقرويون يلبسون المشالح ، ونساء غطين أجسامهن تماماً بالملابس السوداء، وأخذ الجميع ينظر إلى سيارتنا نظرات حب استطلاع وفضول، وحُفَّ الطريقُ بالأشجار التي شدت عليها أسلاك.. ربما كانت أسلاك كهرباء أو أسلاك هاتف.

اتجهنا إلى الناحية الجنوبية الغربية على بعد عشرة أكيال من قصر الرياض، وصعدنا على مرتفع أمكننا أن نشاهد منه وادي حنيفة، لكننا لم نر فيه ماءً على الإطلاق، وأمكننا أن نشاهد خياماً مقامة للمعسكرات وليس للسكن.. أوقفنا السيارة، ونزلنا نشاهد تلك العلامة التي كتب عليها Art no 43st Heavy duty Spudder (حفار قوي). هذا يعني أن شركة أمريكية تعمل هنا.

كان سور القصر يغطي مساحة كبيرة ، ومحاطاً بأشجار النخيل.. حين كنت في القاهرة ذهبت مرة إلى مطار ألماظة[٢]، وفي الطريق شاهدت قصراً في الصحراء[٣]، وتذكرت (حكايات ألف ليلة وليلة) لكنني

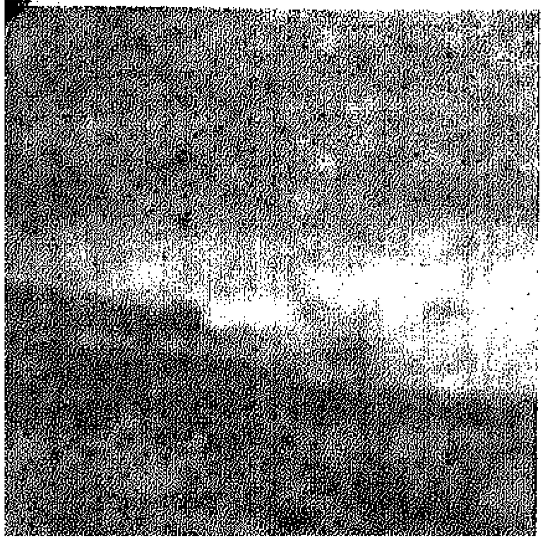
---

* إيجيرو ناكانو دبلوماسي ياباني عمل في القاهرة ودرس في الأزهر وجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة).. زار المملكة العربية السعودية ضمن وفد ياباني عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ونشر يوميات رحلته والوفد المرافق له في كتاب بعنوان «كايونوراربيا كيكوأي» (يوميات رحلة في الجزيرة العربية) عام ١٩٤١م، وقد نشرت ترجمة لهذه اليوميات باللغة العربية منها اقتبس هذا الجزء الخاص بالرياض. انظر:
إيجيرو ناكانو ، الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية، ترجمة : ساره تاكا هاشي . الرياض : دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٦هـ .

(١) أورد الرحالة كلمة " الوهابية " متأثراً بما قرأه ، وهذا الوصف للدعوة الإصلاحية التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب غير صحيح؛ لأنها ليست دعوة أو مذهباً جديداً وإنما هي دعوة سلفية تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وما كان عليه السلف الصالح من هذه الأمة.

(٢) مطار عسكري في شمال شرق القاهرة بمصر .

(٣) لعله قصر البارون امبان في ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة.



أشعر هنا كأنني أعيش في وسط هذه الحكايات (حكايات ألف ليلة وليلة)؛ لأن الجو المحيط بي هنا، والهدوء الشديد، وقسوة الصحراء توحي بذلك تماماً.. بالإضافة إلى ملامح منطقة نجد الشهيرة في الأدب العربي، فهذا كله يختلف عن الجو العام في القاهرة، وهذا ما جعلني أشعر كأنني أعيش فعلاً حكايات ألف ليلة وليلة.

خيم الصمت علينا جميعاً، لم ينطق أحدنا بحرف، ثم سرنا بمحاذاة سور القصر؛ فوجدنا بناء مشيداً من الطين عرفنا فيما بعد أنه مرآب سيارات[1]، وبعد أن سرنا مسافة عشرين متراً تقريباً أوقفنا السيارة أمام بوابة.. هذا هو قصر البديعة، كان مصمماً على الطريقة العربية. وسنبقى هنا عشرة أيام من الآن.. قبل سنة[2] حضر إلى هذا القصر أحد لوردات الأسرة المالكة البريطانية مع زوجته، ونزلا فيه.

ترجلنا من السيارة، فوجدنا عند البوابة ثمانية من رجال الحرس مع بنادقهم الطويلة، وحين اقتربنا منهم قال أحدهم وأظنه قائدهم: اضرب.. فبدأوا في إطلاق الأعيرة النارية تحية لنا، ورفعنا لهم أيدينا بالتحية.. كانوا ينظرون إلينا ووجوههم كلها تنبئ عن الصرامة والجد والمهابة، ويبدون في منتهى القوة، لكن قاماتهم تميل إلى القِصَر، كانت تقدر بحوالي ١٦٠ سنتيمتراً؛ فقاماتهم تبدو أقصر من قامتي، وكان لهم شوارب، ولا يمكن معرفة أعمارهم، وهم يضعون على رؤوسهم الغترة والعقال، وكان لون الغترة شديد الخضرة، ويحملون البنادق ويلبسون «المعطف» مع السروال (البنطلون)، ويتمنطقون بأحزمة في وسطهم.. دخلنا إلى الحديقة، فصاح قائد الفرقة: استراحة.. ثم صعدنا إلى الطابق العلوي.

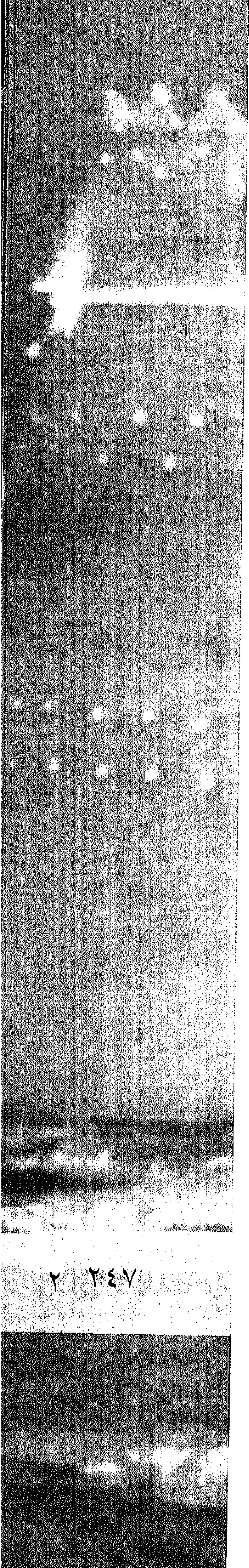
يتكون المبنى من طابقين، وهو مشيد على طريقة المعمار العربي، شكل مربع مثل شكل الكعبة، وشكل جامعة الأزهر، وشكل قصر الحمراء في غرناطة في أسبانيا، لا يختلف عن تصميم الفن المعماري العربي الإسلامي، والسلالم ضيقة تسمح لرجلين فقط بالصعود معاً، وهي مبنية بالطين، ويوجد ما يشبه السجادة على السلالم يبدو أنها مصنوعة في اليابان، وفي آخر السلالم وضعت سجادة يبدو أنها مصنوعة في مصر، وحتى لا تتسخ السجادة وضعوا حصيرة لمسح الأحذية.

في الطابق الثاني المشيد من الطين قادونا إلى غرفة الضيوف، وهي غرفة واسعة مساحتها حوالي ٣٠ تتامي (التتامي ٩٠×١٨٠ سنتيمتراً)[3].. شممنا رائحة الطين، وكان هذا أول ما شعرنا به؛ وفي الغرفة توجد حصيرة وضعت فوقها سجادة، وكان السقف مطليّاً باللون الأبيض، وكذلك كانت جدران الغرفة أيضاً، وعلى السقف نجوم وهلال وغيرها من الأشكال الهندسية؛ وكانت عروق الخشب ظاهرة من السقف ، وكانت

(١) أي موقف سيارات.

(٢) سنة ١٣٥٧ / ١٩٣٨م .

(٣) هذه مساحة التتامي قديما، وأما مساحة التتامي الحديث فأقل من ذلك.



مطلية بخطوط حمراء وسوداء على شكل تموجات، وعلى الحائط كانت هناك زخرفة على الطريقة العربية: أشكال هندسية، ومنمنمات.

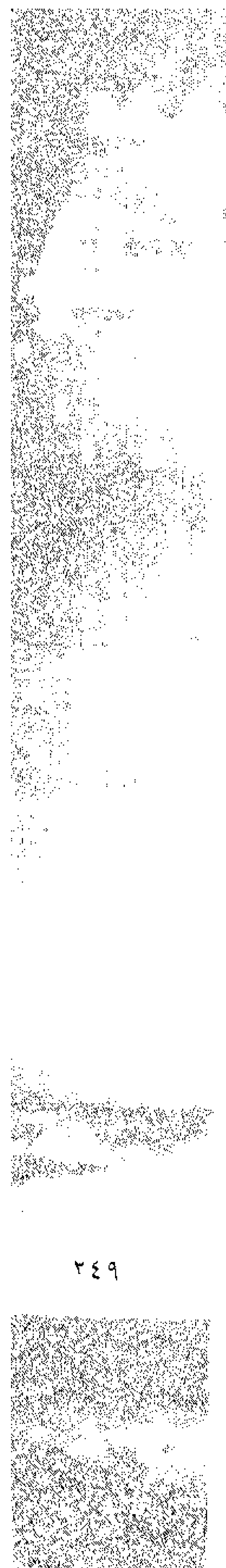
كان للغرفة سبع نوافذ أو ثمان، مساحة كل منها ٦٠-٣٠ سنتيمترا، في كل نافذة «شيش» من الخشب، لا يمكن فتحه، مع قضبان حديدية؛ وهناك مساحة في أعلى النافذة مغطاة بالزجاج تسمح لضوء الشمس بالمرور إلى الغرفة.. ومن خلال هذه النافذة تمكنا من معرفة سمك الجدار.. كان ثلاثين سنتمتراً وهذا السمك كافٍ لمنع دخول الحرارة إلى الغرفة؛ وكانت هناك ستائر بدا واضحاً أنها مصنوعة في اليابان، وشاهدنا خطاً كهربياً في السقف لكن لم يكن هناك مصباح كهرباء.. ربما هناك خطأ ما، وبجوار الحائط وضعت أريكة وكرسي من الخيزران وبجوارهما منضدة.

وفي وسط الغرفة وضعت منضدة صغيرة، رأينا فوقها محبرة وقلماً وسكيناً، وكتب على المحبرة: صنع في اليابان.. وهي من نوع (PairoLink) ظننا بدءاً أنهم وضعوا أمامنا عمداً أشياء مكتوباً عليها صنع في اليابان، لكننا أدركنا بعد ذلك أن هذا لم يكن متعمداً.. جلسنا نحن الثلاثة نتحدث عن الرحلة، ونتذكر ما حدث لنا، وفي أثناء ذلك وصل عبد السلام، وأخبرنا بأنه يود أن يطلعنا على بقية غرف القصر.

كان عدد الغرف كلها ١٥ غرفة بما في ذلك غرفتنا، ودورة المياه، ومخزن الأمتعة، وغرفة الهاتف، وغرفة الطعام، إضافة إلى الغرفة المقابلة لغرفتنا في الجهة المقابلة لنا، إلا أن عبد السلام لم يأخذنا إلى هذه الغرفة.

كانت الغرفة التي نزلت فيها مع الوزير تطل على وادي حنيفة، ويمكن أن نشاهد منها أشجار النخيل خلف القصر، في حين كانت غرفة المهندس تواجه غرفتنا مباشرة.. ذهبنا إلى الغرفة المخصصة لنا، كانت مظلمة إلى حد ما، والطرقات المؤدية إلى الغرف أكثر إضاءة من الغرف ذاتها، ولكننا بالتدريج تعودنا على هذا الضوء الضعيف.. كانت مساحة غرفتنا نصف مساحة غرفة الضيافة تقريباً، فيها سرير عال جداً مصنوع من الصلب (ربما يكون مصنوعاً في أمريكا)، ووضعت ناموسية في أعلى السرير، وكانت الوسائد والمراتب والألحفة مصنوعة من الحرير، وهي سميكة لكنها ناعمة الملمس، وكان لونها كلون الورد؛ لذلك ظننت أن اللورد البريطاني الذي ينتمي إلى الأسرة المالكة نزل وزوجته في هذه الغرفة.

كانت تفوح من الغرفة رائحة الطين، وبها نافذتان مثلهما مثل نوافذ غرفة الضيافة.. تطلعت من النافذة فشاهدت حديقة أشجار النخيل، ورأيت حيواناً ظننته أسداً، لكنني اكتشفت بعد تدقيق أنه كلب.. كان سقف الغرفة مصنوعاً من الطين ،ويمكن من خلاله مشاهدة عروق سميكة من الخشب، وكانت الزخرفة والطلاء مثلما شاهدناهما في غرفة الضيافة، وبجوار باب الغرفة منضدة وكرسي، ومرآة على المنضدة لا تعكس جيداً ملامح من ينظر فيها؛ مما يدل على أنها غير مستوية، وهناك خط كهربي في السقف، لكنه لا يعمل، وكانت غرفة المهندس شبيهة بغرفتنا.



بوابة الثميري (أو الأحساء).
[illegible]

وتوجد دورتا مياه (واحدة قريبة من غرفتنا، والأخرى قريبة من غرفة المهندس)، وكانت دورة المياه الكبيرة تتكون من ثلاث غرف: غرفة لخلع الملابس مساحتها ١٢ تامي تقريباً، ثم تنقسم بعدها إلى غرفتين (واحدة لقضاء الحاجة، والأخرى للاستحمام)، ومعداتها مصنوعة من الخزف الوارد من بريطانيا.. لم تكن في دورة المياه أوراق للتنظيف كما في اليابان... أما غرفة الهاتف فهي آخر غرفة على طرف الطابق الثاني، والهاتف صناعة بريطانية، ويمكنه أن يتصل بأي قصر من قصور الملك في الرياض.

ولأول مرة بعد خمسة أيام من معاناة الرمال والتراب والعرق استحممنا.. لم تكن هناك مياه ساخنة؛ لذلك استخدمنا الماء البارد الذي كان مريحاً جداً.. والصابون الموضوع في الحمام صناعة بريطانية ماركة فينوريا، والفوطة صناعة مصرية، وعرضها متران مثل طولها، وكانت من النوع الجيد جداً.. وعرفنا أن مياه الحمام تجلب بالطريقة نفسها التي تجلب بها المياه من البئر بالسانية، ثم توضع في خزانات على السقف.. وأعتقد أن هذه الأشياء ربما وضعت هنا حين استقبلوا الضيف البريطاني وحرمه.

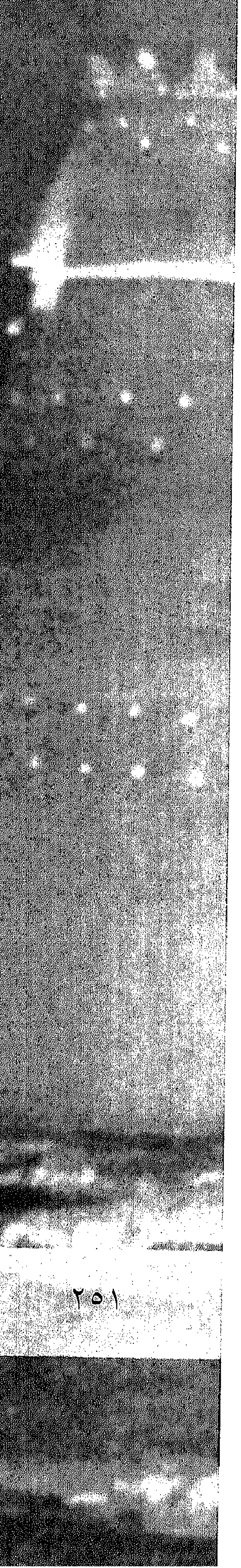
غادرنا الغرفة، وتناولنا طعام العشاء دون رمال أو غبار أو تراب هذه المرة.. تكون العشاء من حساء بالسمن ولحم الضأن والأرز وبعض الحلوى، وشعرنا بأن كل شيء منظم ومرتب ونظيف جداً؛ فالأطباق والأكواب تمتاز بالبساطة، إلا أنها كانت مختومة باسم الملك، بحروف ذهبية.. ربما أرسلها إلى القاهرة أو إلى بيروت لكتابة هذه الحروف عليها.

اتصل بنا يوسف ياسين، وقال لنا: إن الملك عبد العزيز سوف يقابلنا عند الساعة الثالثة.. فشعرنا في البداية أن الأمر غريب؛ لأن الساعة تجاوزت الثالثة فعلاً، لكن فهمنا أن هذا يعني الساعة الثالثة بالتوقيت العربي، وهو يطابق الساعة التاسعة لدينا؛ لأنهم يعدون الساعة بعد غروب الشمس معتمدين على وقت الغروب والشروق، و لم نكن قد تعودنا على هذا الأمر.

بدأنا على ضوء المصباح عقد أول لقاء على مستوى المسؤولين في الخارجية اليابانية والخارجية السعودية.. انتهى اللقاء الأول في تمام الساعة العاشرة والنصف ليلاً بعد محادثات استمرت ثلاث ساعات، وتبلغ الساعة الآن الحادية عشرة تقريباً، ودرجة الحرارة ٢٢ درجة مئوية.

وعند الساعة الخامسة صباحاً من اليوم الأول لشهر أبريل ١٩٣٦م استيقظت، واستحممت، واستبدلت ملابسي، ولبست المشلح، وتناولنا نحن الثلاثة طعام الإفطار (الوزير، وأنا، والمهندس) حيث قدموا لنا برتقالاً طازجاً، وكان لذيذاً جداً.. وعند الساعة الثامنة صباحا قدم إلينا عبد السلام ومعه رئيس الحرس الذي رافقنا من جدة. وبدا الاثنان في أناقة شديدة: (مظهر جميل، وملابس نظيفة مرتبة)، ووضع رئيس الحرس الطيب الذي يعشقه العرب وهو دهن العود.

تحركنا عند الساعة التاسعة إلا الثلث ، ومعنا عبد السلام ورئيس الحرس، واتجهنا إلى قصر الملك، والسائق الذي جاء بنا من جدة لبس حلة جديدة؛ فكان رائع الهندام.. ذكر لنا أنه ذهب إلى السوق ليلة أمس؛ لشراء



ساعة فالتقى بأحد أصدقائه هناك... واتجهت سيارتنا إلى القصر، وسرنا في الطريق نفسه الذي سلكناه أمس، ثم دخلنا من بوابة قصر الشمسية، ووجدنا على بوابة القصر مائة من رجال الحرس، وعلى رأسهم رئيس الحرس الذي كان يلبس زياً شبيهاً بزي العسكريين المصريين، وكان معظمهم يضع العقال على رأسه، وشاهدت اثنين أو ثلاثة منهم بدون حذاء.

توقفت السيارة، وقدم يوسف ياسين وإبراهيم لاستقبالنا، وقادنا يوسف إلى الغرفة التي سنلقى فيها الملك وهي غرفة الضيافة.. كانت مساحة الغرفة نحو مائة تنامي غرفة واسعة جداً، في كل جانب من جوانبها الأربعة مرآة كبيرة، رسم على كل منها صور أزهار وورود.. كانت الزخرفة رائعة وجميلة جداً، وجدران الغرفة مثل جدران غرف القصر الذي نقيم فيه، وفي السقف أربع مراوح أو خمس، بينما تدلت الستائر على النوافذ، ووضعت أرائك وكراسي من الخيزران، لكنها أفضل من تلك التي وضعت في القصر الذي نزلنا فيه، هذا وكانت أشعة الشمس تخترق النوافذ لتصل إلى داخل الغرفة الكبيرة.

دخلنا غرفة الضيافة، واتجهنا إلى رجل يجلس على كرسي ضخم ذي مساند ، كان يرتدي مشلحاً، ويبدو طويل القامة، وعن يمينه جلس ثمانية رجال يلبسون المشالح، وأدركنا أن الرجل الذي يجلس على الكرسي الضخم هو الملك ابن سعود.

اتجهنا ناحيته، ووقف من كرسيه، وسلم علينا سلاماً حاراً.. بدأ بالسلام على الوزير ، ثم على المهندس ، ثم علي وقال: مرحباً.. أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً.. وصلتم بأمان الله.. وحين سلمت عليه قلت له: تشرفنا.

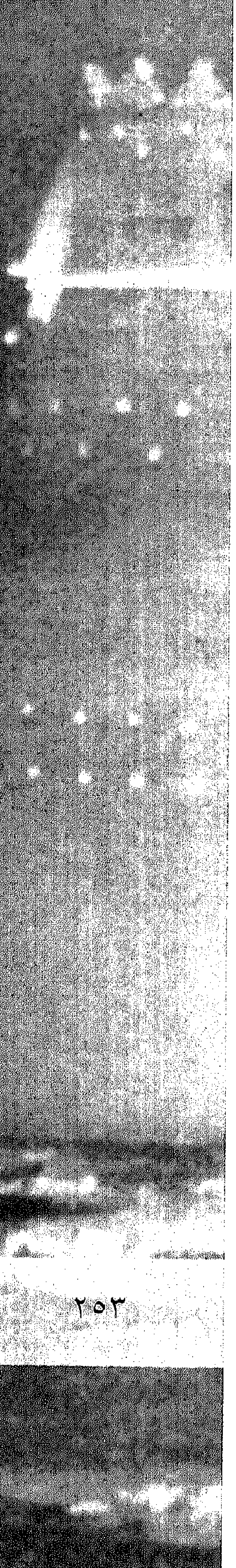
شعرت بأن الملك أطول مني بحوالي خمسة عشر سنتيمتراً ، فهو طويل القامة جداً.. ربما تصل قامته إلى ١٨٠ سنتيمتراً ، فمظهره يدعو للاحترام الشديد، فهو ملك حقاً وصدقاً، وعلى رأسه عقال مطرز بخيوط مذهبة مع الخيوط السوداء، وكانت الغترة التي يضعها على رأسه بسيطة جداً، مصنوعة من القطن مثل الغترة التي يضعها سائقنا على رأسه لا فرق بين الاثنين على الإطلاق، وتحت المشلح كان الملك يرتدي قفطاناً واسع الذيل.

قال الملك للمهندس ميتسوتسي: إنه طلب من أمريكا حفر بئر ماء أمام قصر البديعة، وسأله: هل هناك احتمال لوجود ماء في الموقع؟.. فرد المهندس لا يمكن أن أبدي رأيي سريعاً الآن، لكن أمهلني ليوم غد.. سأقوم بدراسة جيولوجيةِ هذه المنطقة، وأعطيكم جوابي.

وفي اليوم الثاني من شهر أبريل وبعد تناول طعام الغداء قام يوسف ياسين وسكرتيره إبراهيم بأداء صلاة العصر.. كان قد قال لنا منذ فترة : إنه يود أن يفسحنا في حديقة النخيل خلف القصر.. فذهبنا معاً برفقة حارسين.. كان في الحديقة ما يقرب من خمسمائة نخلة، وكان المنظر بديعاً خلاباً.. كانت ثمار البلح تنحني بشكل يعطيها منظراً جميلاً.. لم يكن البلح قد نضج بعد، لذلك لا يمكن أن يؤكل الآن، وعلى الأرض كانت هناك نباتات خضراء، لا أعرف اسمها، نبتت

جزء من سور الرياض في الناحية الجنوبية منها وتظهر بوابة دخنة. ستاينكي، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.





حديثاً، كما شاهدت أربعاً من الغنم ترعى هذه النباتات سعيدة بالعشب الأخضر. ورأينا المبنى الذي يسكن فيه المهندسان الأمريكيان، وبجانب حافة كل مبنى يوجد أنبوب يحمل الماء إلى الحديقة؛ ولهذا كانت الحديقة وافرة بالمياه، وكانت هناك «سانية» لكنها أكبر من تلك التي شاهدناها في الجبيلة.. كان عمق البئر حوالي ٢٥ متراً، وبجوار السانية اثنا عشر حماراً، وهذا يعني أن السانية تعمل طوال أربع وعشرين ساعة دون انقطاع، وعلى الرغم من هذا توجد آلة ميكانيكية لرفع المياه، لكننا لم نطلع عليها جيداً نظراً لضيق الوقت.. وحين عدنا إلى المبنى بدأت السماء تمطر مطراً غزيراً غير متوقع، ربما أن رياح المحيط الهندي حملت هذه السحب والغيوم المحملة بالأمطار.. كان العرب من حولنا في منتهى السعادة والسرور؛ فهذا بالنسبة لهم خير وفير.

وعند الساعة الثامنة مساءً دعانا المهندسان الأمريكيان إلى حيث يسكنان، كان المبنى الذي يقيمان فيه أقل جودة من المبنى الذي نقيم فيه نحن، وأمام المدخل وقف حارس نحيف يحمل بندقية.. دخلنا وصعدنا إلى الطابق الثاني.. كانت هناك غرفة ضيافة أو غرفة معيشة خاصة بهما، أو ربما هي غرفة نومهما، أو هي غرفة يستخدمانها لجميع الأغراض.. كانت مساحتها حوالي «٣٠ تنامي»، وكان في الغرفة سريران بسيطان جداً وضعا في ركن الغرفة، وشاهدت في السقف قماشاً لكن ليس من النوع الجيد، وللغرفة نافذتان صغيرتان، عليهما أعمدة من الحديد، وعلى أرض الغرفة آلة لقياس المسافات وأريكتان وبعض الكتب وحقائب من القماش مملوءة بالأحجار التي جمعت لدراستها جيولوجيّاً.. كانت الغرفة مبنية من الطين، وفيها مصباح واحد، والنور فيها ضعيف جداً؛ فهي أكثر ظلاماً من غرفتنا.. في مثل هذه الغرفة عاش المهندسان أكثر من سبعة أشهر، ويسمى هذا المبنى قصر الصيفية ، وقد اعتاد الملك أن يأتي إلى هذا المكان في وقت الحر الشديد، ولكني على كل حال شعرت أن الغرفة غير مناسبة، وشعرت بالعطف نحوهما.. وعند الساعة العاشرة عدنا إلى غرفتنا وكانت درجة الحرارة ٢٥ درجة مئوية، والجو كان يميل إلى الرطوبة، ثم أوينا إلى فراشنا، واستغرقنا في النوم.. قيل لنا إن سكان مدينة الرياض ٢٠,٠٠٠ نسمة؛ فسألت نفسي متعجباً أين يسكن هؤلاء؟!.. لم أر أناساً كثيرين هنا.. ومضينا في الطريق المؤدي إلى وسط المدينة، فشاهدنا المباني المشيدة من الطين.. كان هناك محل لبيع الطعام المعلب وزيت الطعام، وكنا نرى علب طعام كتب عليها «صنع في اليابان»، ورأيت الناس الذين يمشون بدون أحذية، والنساء كلهن يلبسن الحجاب الأسود، وفي الطريق رأينا سيارات فيها نساء وضعت على نوافذها ستائر.. ربما كانت النسوة من الأسرة المالكة. ومرت سيارتنا بجوار قلعة أو قصر المصمك.. قالوا لنا: إنها أقدم قلعة للأسرة السعودية، وقد وقعت مرة في قبضة الأتراك[1]، ومن

(١) هذا خطأ من المؤلف حيث لم يحدث أن وقع قصر المصمك في قبضة الأتراك، ولعله خلط دخول عبوس آغا إلى الرياض ومحاصرته لقصر الإمارة في بداية محاولات الإمام تركي بن عبد الله إنشاء الدولة السعودية الثانية.

بعدهم آل الرشيد من حائل.. وفي سنة ١٩٠١م(١) قام جلالة الملك عبد العزيز (وكان في العشرين من عمره، ومعه خمسة عشر نفراً من أصدقائه) بالهجوم على القلعة، وتمكن من تسلق سورها والسيطرة عليها.. وداخل هذا القصر(٢) توجد الآن سلطة نجد، والأمير سعود ولي العهد يقيم هنا أيضاً، كما توجد في القصر أيضاً الشعبة السياسية التي نظمها يوسف ياسين، ويوجد أيضاً مقر الوزارات(٣) المختلفة.. ودخلنا القلعة أو القصر، وصعدنا إلى الطابق الثاني.. كانت الزخارف الداخلية تشبه تلك الزخارف الموجودة في قصر الشمسية الذي يقيم فيه الملك.. دخلنا الغرفة الخاصة بالشعبة السياسية التي بدت كأنها مكتب عادي ، لكن مساحتها واسعة، وتوجد فيها منضدة كبيرة جداً، وعلقت على الحائط خريطة باللغة العربية وخريطة لشبه الجزيرة العربية مطبوعة في بريطانيا، وعلى المنضدة وضع جهاز هاتف وكرة كبيرة مرسوم عليها خارطة العالم وكرسي مصنوع من الجلد.. لكن الإضاءة في الغرفة لم تكن كافية تماماً مثل الإضاءة في غرفتنا التي نزلنا فيها، وعلقت على الحائط ساعة كانت تشير إلى الساعة السادسة بالتوقيت العربي.. وعبر النافذة الصغيرة لهذه الغرفة كان يمكن أن أرى السوق.. شاهدت قافلة تتكون من نحو خمسين بعيراً تتجه ناحية السوق، وحين أردت أن التقط صورة قال يوسف ياسين: لا ليس من المناسب أن تلتقط صورة للسوق.. وحين خرجنا من الغرفة شاهدت ثلاثة أولاد يرتدي كل واحد منهم عقالاً مقصباً بخيوط مذهبة، ويحمل في يده نسخة من القرآن الكريم، فقال يوسف ياسين : إنهم أحفاد الملك قدموا من الكُتّاب حالاً ، والكُتّاب موجود في هذا القصر.. يدرس فيه أربعون طفلاً تقريباً معظمهم من أبناء الملك وأحفاده. ومن فوق سطح القصر التقطت صورة ، إلا أنني اكتشفت فيما بعد أن الصورة لم تظهر بشكل جيد.

أبدينا رغبة في زيارة السوق، فذهبنا مع عبد السلام، وبعد أن وصلنا إلى هناك كان وقت الصلاة قد حان فلم نجد أحداً.. كانت هناك «دكاكين» تبيع الملابس ودقيق القمح والأرز، وهي دكاكين بنيت بالطين وغطي سقفها بجذوع النخيل. وبعد الصلاة ذهبت إلى دكان يبيع القماش.. كانوا يبيعون الحرير والقماش المصنوع من النايلون، وكانت الأقمشة في معظمها مصنوعة في اليابان، وكنت أرتدي غترة سميكة غالية، فقررت أن أشتري غترة خفيفة نظراً لحرارة الجو، وسألت عن الثمن فقالوا: ثلاثة ريالات.. وكانت تباع في جدة بنصف هذا الثمن ، وربما يعزى هذا الفارق في الثمن إلى ارتفاع تكلفة النقل إلى هذه المسافة البعيدة، واشتريت من محل يبيع الأرز ودقيق القمح بعض النعناع والقرفة والبهارات المختلفة الأخرى.

وحينما شاهدت الطحلب الجاف يباع تعجبت كثيراً؛ لأنه حينما شاهدنا الأمريكان والأوربيون ونحن

(١) الصحيح هو ١٩٠٢م.
(٢) المقصود هنا قصر الحكم وليس المصمك.
(٣) لم تكن في ذلك الوقت وزارات بالمعنى الذي تدل عليه الكلمة ، بل إدارات تتولى شؤون الدولة المختلفة، وإنشاء الوزارات تم بعد ضم الحجاز عام ١٣٤٤هـ.

نأكل «نوري[1]» قالوا بأننا نأكل الورق الأسود؛ فكان الأمر بالنسبة لي أيضاً في غاية العجب أن أرى العرب يأكلون الطحلب الجاف.

غادرنا السوق، ومررنا في طريقنا بمكتب الهاتف والبرق.. كان هناك عمودان هوائيان كبيران يقدر ارتفاعهما بمائة وخمسين متراً تقريباً، وأُخبرنا بأن الأمريكيين قاموا ببنائهما، وفي غرفة اللاسلكي رأينا آلتي إرسال –قوة الأولى ٦ كيلو وات، وقوة الأخرى ٤٠ وات–، وشاهدت عشرة موظفين من العرب يعملون، وكانوا جميعاً لا يرتدون أحذية.

بعد المغرب ذهبنا إلى القصر الذي يعيش فيه صاحب السمو النائب الأول (ولي العهد) تلبية لدعوته إيانا لتناول العشاء.. دخلنا في القصر الذي كانت زخرفته شبيهة بالزخرفة الموجودة في غرفتنا، فرحب بنا صاحب السمو الملكي الأمير سعود نفسه.. كانت هناك مقاعد عديدة خالية تستوعب كثيرين من الضيوف.. ويتكوّن



مجموعة من الناس أمام قصر الملك عبد العزيز بالرياض. ستاينكي.

(١) أعشاب بحرية مجففة على شكل أوراق الكتب والكراسات سوداء اللون.

الطعام من حساء (مرق) لحم الضأن الدسم جداً، ومن الدجاج، وأرز به قطع صغيرة من لحم الضأن[1] المحمر بالزيت، وفطيرة كبيرة حلوة جداً جداً، وفاكهة المانجو المعلبة.. وأجمل شيء في هذا كله أنني استطعت أن آكل البرتقال الفلسطيني الطازج والتفاح الفلسطيني الطازج أيضاً.. كان الطعام دسماً وشهياً جداً.

وبعد فراغنا من تناول الطعام انتقلنا إلى غرفة الضيوف مع النائب الأول صاحب السمو الأمير سعود.. كانت جدران الغرفة مزخرفة بأشكال جميلة ذات ألوان واضحة جداً، وعلى المنضدة وضع مذياع وكرة تحمل خريطة العالم كتلك التي شاهدناها في الشعبة السياسية.

(١) ربما قصد وجبة الكبسة الشهيرة .

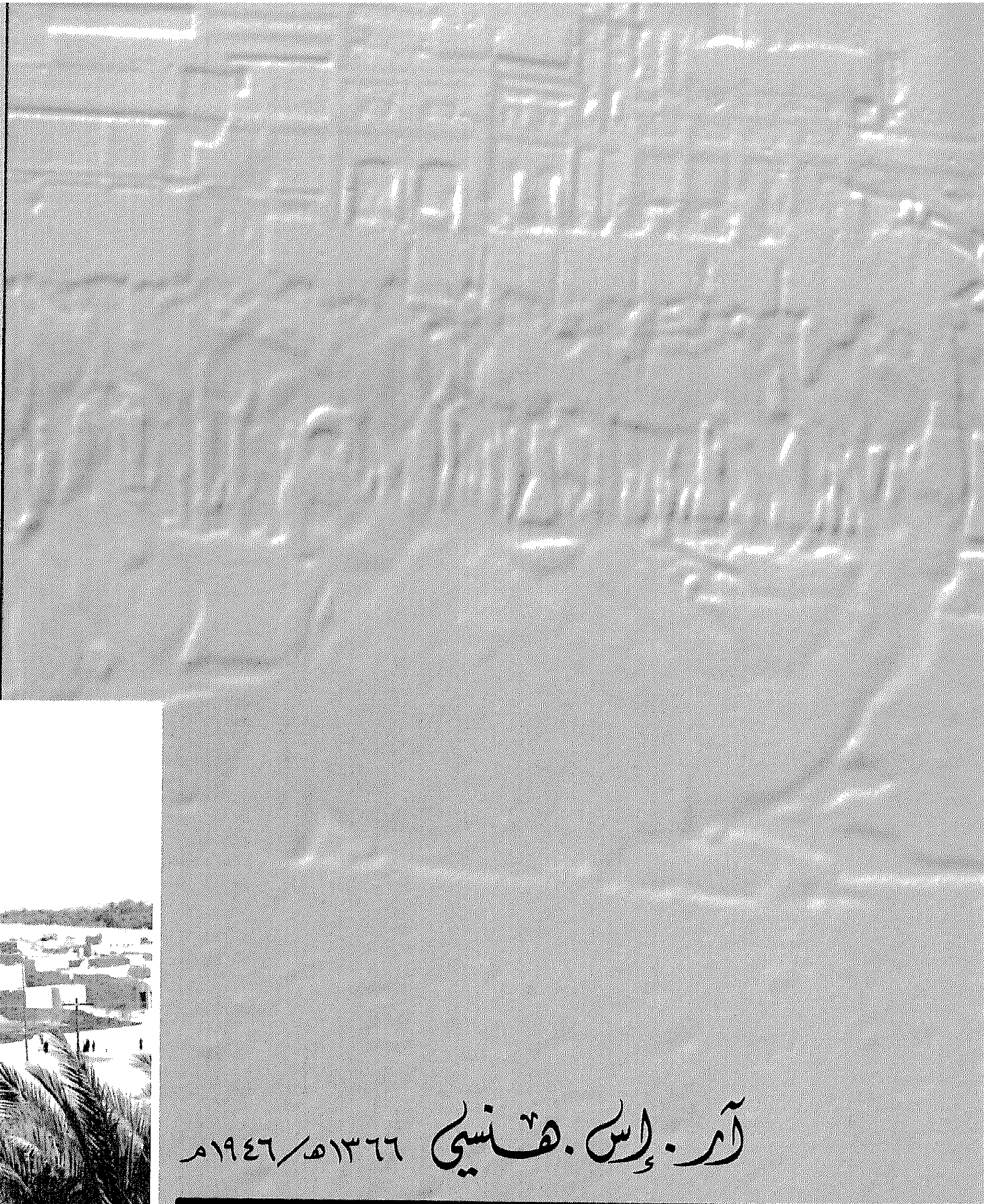
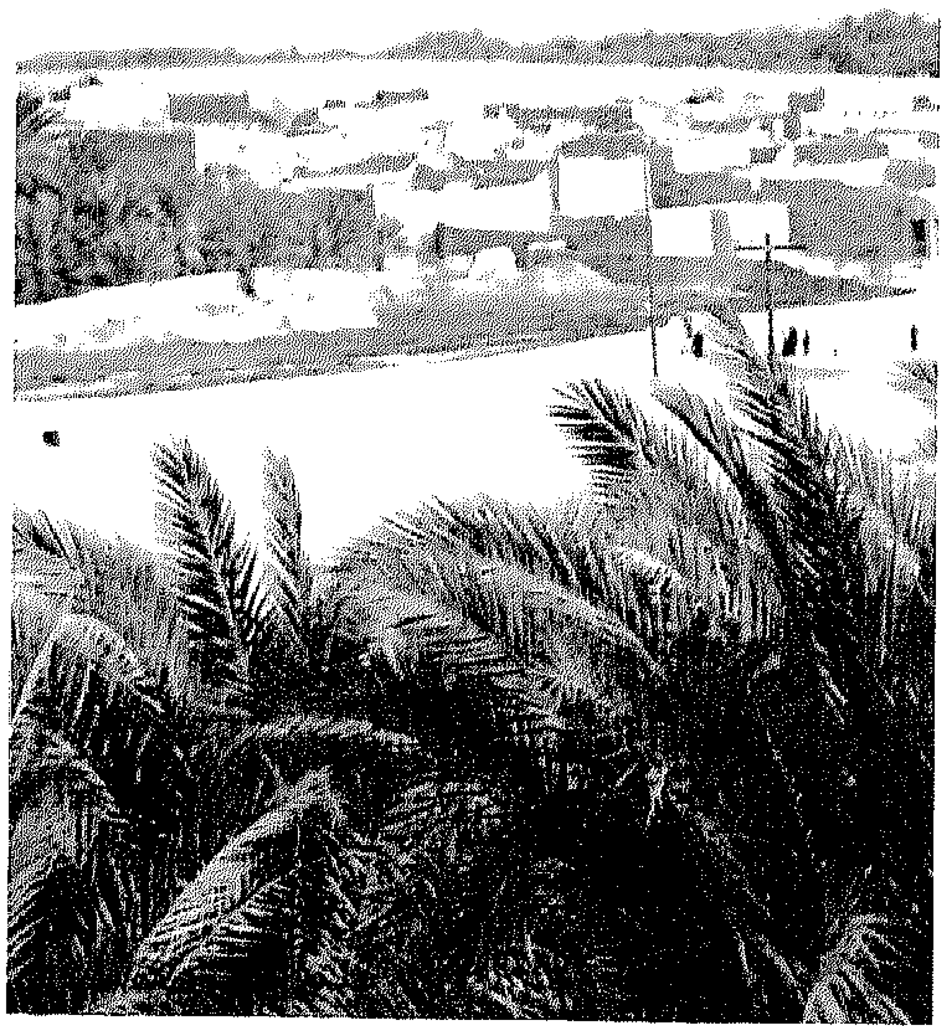
الفصل الرابع

الرياض

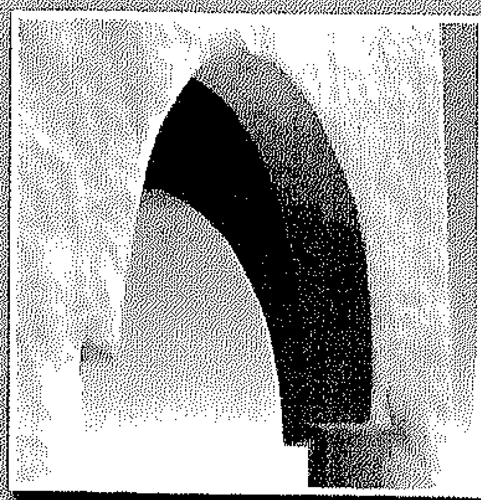
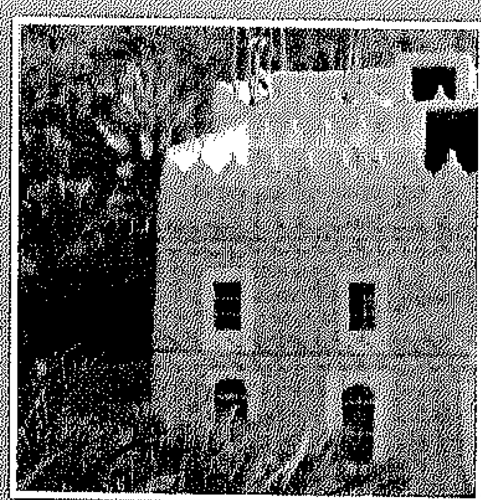
في القرن الرابع عشر

(العشرين الميلادي)

١٣٦٦ - ١٣٦٧هـ/١٩٤٦ - ١٩٤٨م

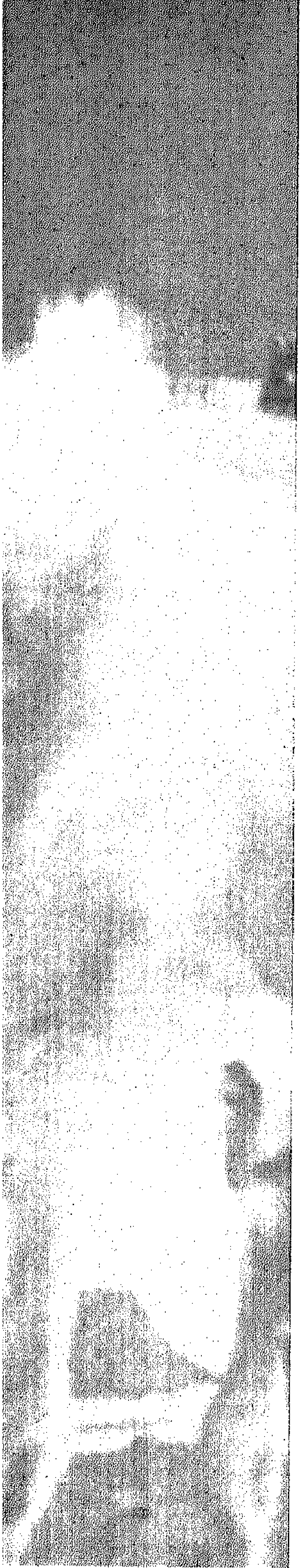




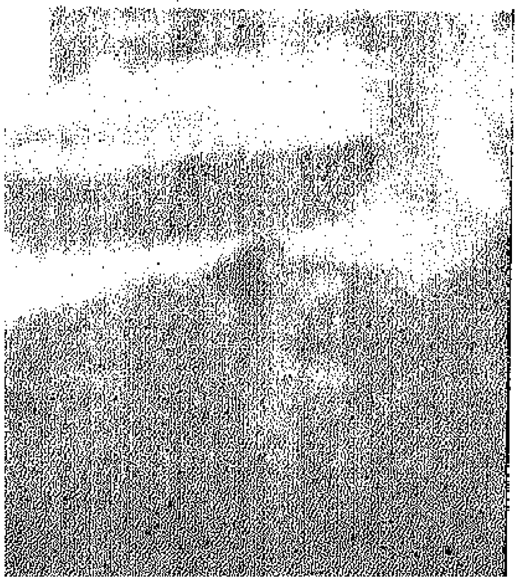
آر. إس. هنسي ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م

قصر المربع، ويظهر سوق الجمال في مقدمة الصورة.
فان در ميولين، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م.







آر. إس. هنسي*

R. S. Hennessey

١٣٦٦هـ / ١٩٤٦م

لقد كانت الرياض ذات مظهر بهي، فهي مدينة مسورة تشبه مدن العصور الوسطى، محاطة بخضرة زاهية، تليها صحراء مقفرة.. تتعذر رؤية المطار للإنسان العادي؛ لأنه ذو مظهر طبيعي.. استطاع طيارنا (وهو من القوات الجوية الملكية) تحديد الموقع خلال دقيقة أو أقل؛ لأنه كان قد سبق أن جاء إلى هنا وهبطنا دون أن نتعرض لمطبات كثيرة..وكانت هناك طائرة واحدة على الأرض، وهي من نوع دوجلاس رمادية اللون، وهي الطائرة الخاصة بالملك والتي أهداها له روزفلت.. وعندما خرجنا من الطائرة استقبلنا شيوخ بحفاوة، وكانوا يتحدثون الإنجليزية بطلاقة، وأقلتنا سيارتان فخمتان (كاديلاك وباكارد)، سارتا بنا لمدة عشرة دقائق في طريق صحراوي حتى دخلنا المدينة، فاتجهنا مباشرة إلى القصر، وقد اصطف على جانبي ممر القصر الحراس بزيهم الأخضر والخاكي، وفجأة وجدنا أنفسنا داخل ديوان كبير يقف في صدره الملك عبد العزيز لاستقبالنا.. يبدو أن القصر مثل كافة المباني بالرياض مبنيٌّ من اللّبن، ولونه ينسجم مع لون الصحراء المحيطة.. لقد سعدت عندما استطعت تمييز الأحياء المجاوره في ضوء خريطة فيلبي التي رسمها في كتابه قلب الجزيرة العربية.. لقد كان القصر والمسجد أكثر الأماكن تميزاً ومعهما الحصن القديم "المصمك"، حيث حقق ابن سعود أمجاده.. وجميع المباني بأحجامها المختلفة يوجد في داخلها الفناء المعتاد، كما أن الكبيرة منها تتكون من طابقين وبها شرفات وفيها شرفة داخلية تطل على الأفنية.

والمدينة في مجملها تبدو إلى حد ما كمدينةٍ من العصور الوسطى ، وتبعث في المشاهد إحساساً بالسعادة بهذا المشهد العتيق الذي ظل باقياً على مدى الدهور، يمازجه شعور بالأسى عندما تفكر فيما سيؤول إليه الحال بظهور البترول ونمط الحياة الغربي.

انتقلنا بعد ذلك بالسيارة إلى المكان المخصص لنا، وهو عبارة عن منزل رائع للضيوف مشيد وسط بستان نخيل، ويبعد حوالي كيلومترين من القصر الملكي، ويتسع لأربعين ضيفاً تقريباً.

إن أول الأشياء التي تشد انتباهك في الرياض النغمة الموسيقية الطويلة التي تأتيك من المناطق المجاورة للمدينة من كل جهة مثل الصوت الخافت.. آخر صوت رنين الجرس أو صوت الريح عبر أسلاك الهاتف .. إنه صوت ترجيع بكرات الماء في العديد من الآبار.

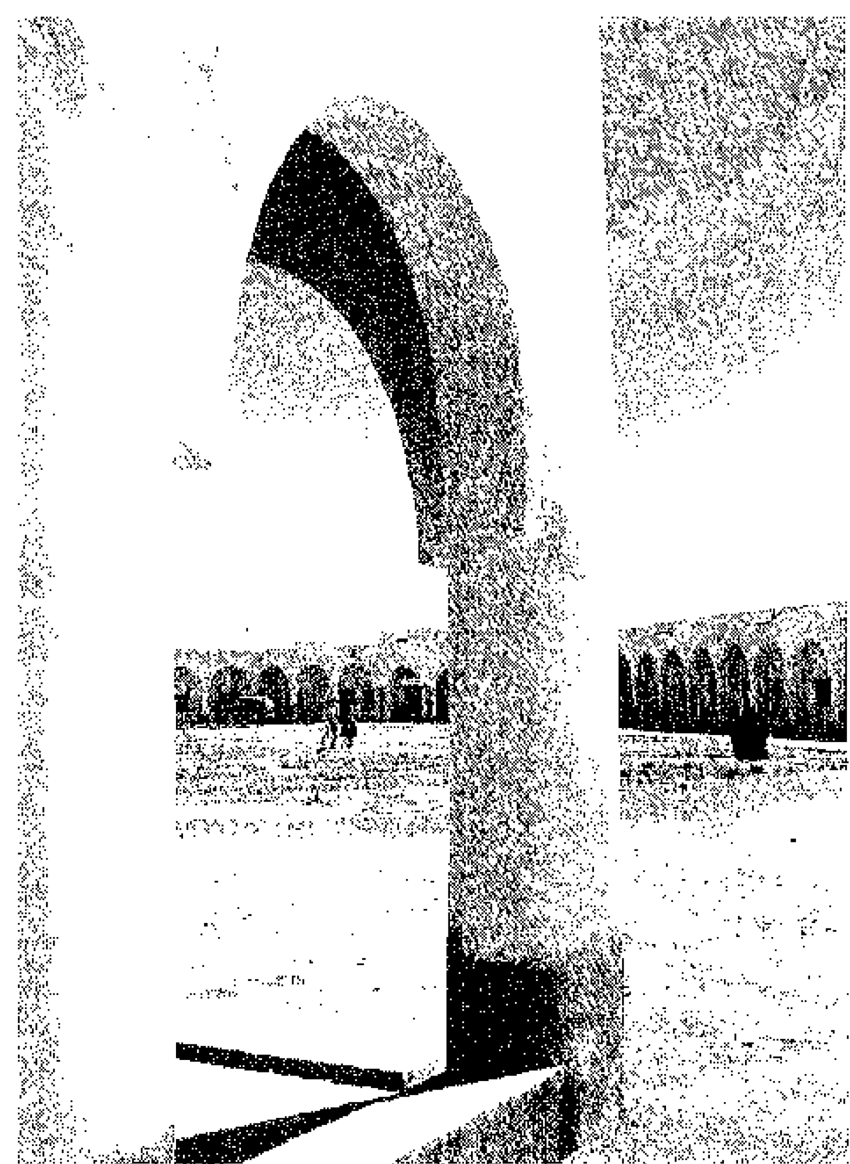
---

*آر. إس هنسي أحد أعضاء البعثة الإنجلو أمريكية التي زارت الملك عبدالعزيز بالرياض لمناقشة وضع فلسطين، عام ١٩٤٦م..بقيت البعثة التي وصلت عن طريق الجو مدة يوم واحد.. لم ينشر تقرير هنسي عن زيارة البعثة للرياض ومن هذا التقرير غير المنشور اقتبسنا المعلومات الخاصة بالرياض..

حول هذا النص انظر: Willam Facey, Riaydh The Old City, London: Immel Publishing Limited, 1992, pp 303-305.

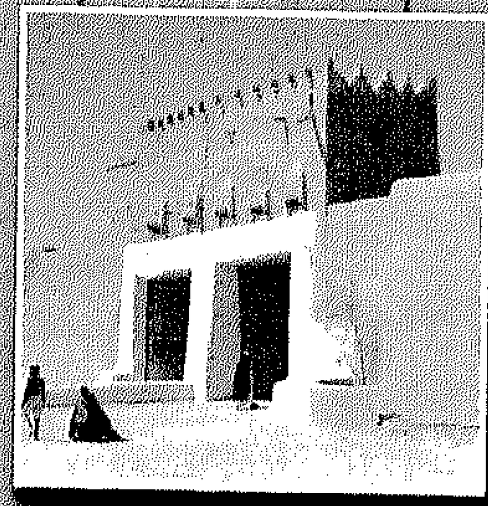
الملك عبد العزيز بعد تفقده إحدى
الطائرات في مطار جدة.
[illegible]

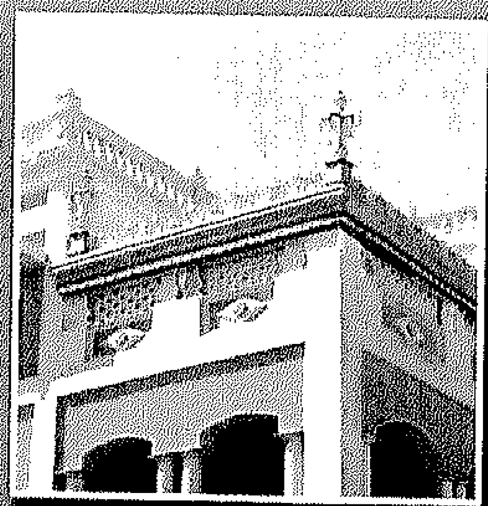
مستشفى الرياض.
[illegible]

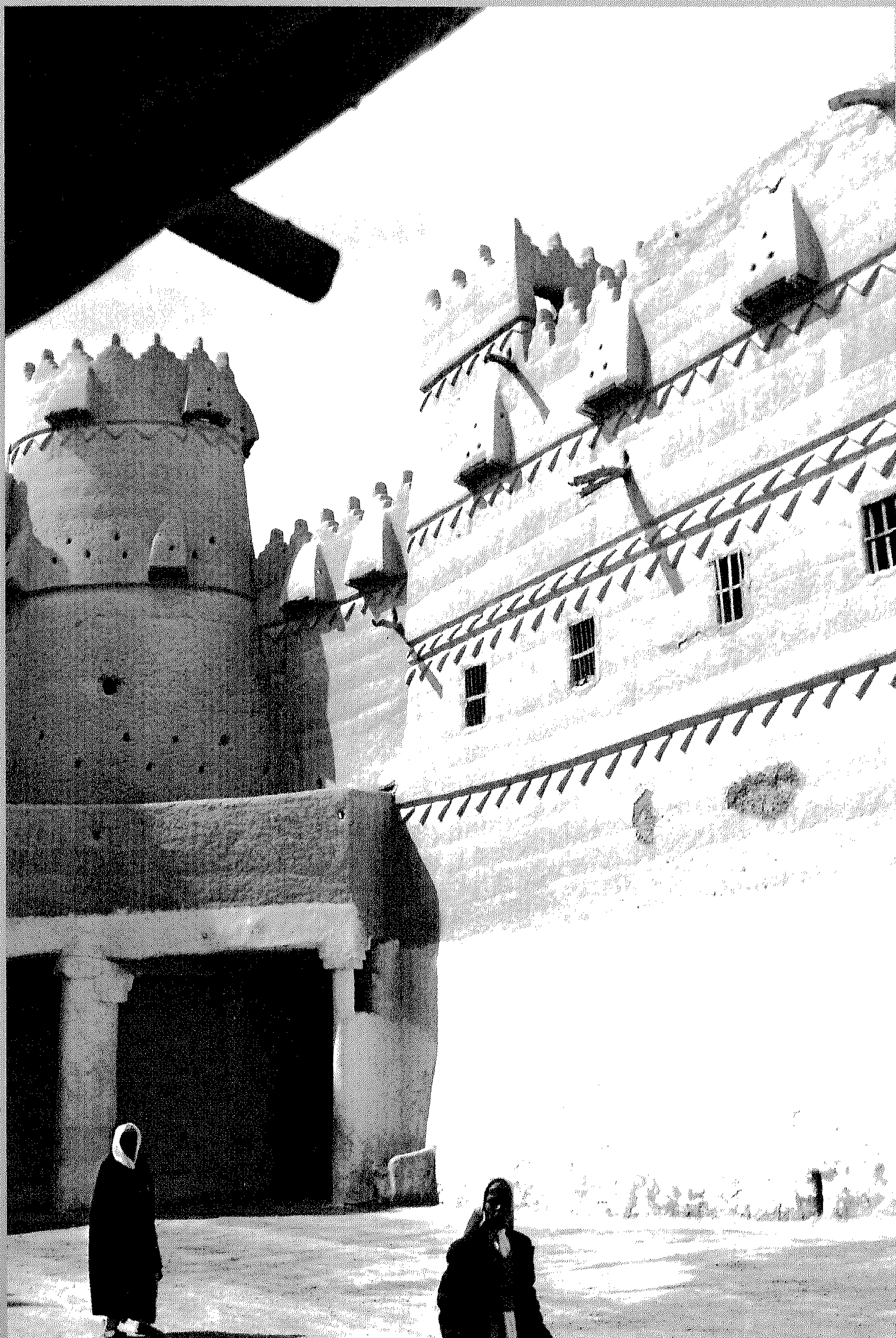


عبد الوهاب عزّام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م









جزء من القصر القديم في وسط
المدينة وتظهر البوابة الشرقية.
والترز، ١٣٦٨-١٣٦٩هـ
١٩٤٩-١٩٥٠م.

عبد الوهاب عزام*
١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م

خرجنا ضحى يوم نؤم بعض بساتين الأمراء في ظاهر البلد؛ فبينما نسير على الطريق الذي يمر بالقصور الملكية وقف السائق قائلاً: الشيوخ.. ورجع القهقرى؛ فعلمنا أن الملك عبد العزيز مجتاز، وانحاز السائق عن الطريق فنزلنا، ومر الملك فرآنا فسلم وأمر فوقفت السيارة فأسرعت وسلمت عليه؛ فقال من أين ؟.. قلت: من دار الضيافة إلى خارج البلد.. فقال : اليوم الخميس وهو يوم العلماء وأنا ذاهب للقائهم.

رأينا بستاناً للأمير سعود يسمى الناصرية، وآخر للأمير طلال يسمى الفاخرية. ورأينا سانيتين، ومكينة للري.. وفي هذه البساتين أشجار شتى وزروع وزهور وهي مسورة مقسمة منظمة؛ وقد أنفق عليها كثيراً حتى صلحت للزرع، وفيها مجالس أو مساكن للأمراء.. وفي العشية زرنا بستاناً آخر يسمى العليشة[1] للأمير سعود، وفيه عنب كثير وتين ، وفيه مجلس مشرف أخبرنا أن الملك كان يجلس فيه هو وأصحابه أيام الصيف، وفي هذا البستان مكينة للسقي.. ثم توجهنا إلى وادي حنيفة وهو واد طويل فسيح عليه قرى وبساتين كثيرة ، وعلى جوانبه عند الرياض نخل كثير وأبنية، وهناك بستان للأمير سعود يسمى البديعة[2] وفيه أبنية وأحواض، وقد نزل وفد الجامعة العربية في هذه البديعة حينما وفد على الرياض في هذا الشهر. ثم نزلت فيه بعد أشهر حينما رجعت إلى الرياض في صحبة معالي الأستاذ علي عبد الرازق باشا وزير الأوقاف.

ذهبنا بعد العصر إلى مجلس جلالة الملك عبد العزيز فسلمت عليه.. وجلست عن يمين الملك، فتحدث فنوناً من الأحاديث.. ذكرت البساتين فتحدث عن قلة الماء وأنهم يستعينون اليوم بالمكينات، وتحدث عن قلة المطر في السنين الأخيرة، وأنه نزل هذه السنة بعد أوانه فلم

---

* عبدالوهاب عزام أكاديمي ودبلوماسي مصري، من مواليد عام ١٨٩٤م/ ١٣١٢هـ، وخريج أزهري ..عمل مستشاراً للشئون الدينية في السفارة المصرية بلندن ١٩٢٣م/١٣٤٢هـ، ونال الدكتوراه في الآداب الفارسية، من جامعة لندن.. عمل عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية (القاهرة حالياً)، وعين وزيراً مفوضاً في المملكة العربية السعودية في عام ١٩٤٨م/١٣٦٧هـ، وبعد ذلك في باكستان، ثم عين سفيراً في المملكة سنة ١٩٥٤م.. ساهم في تأسيس جامعة الملك سعود ، وتوفي بالرياض ١٩٥٩م/١٣٧٨هـ.

وما أورده عزام عن الرياض جاء في كتاب أصدره عن رحلاته وزيارته للرياض في عام ١٩٤٨م. ينظر: عبد الوهاب عزام، رحلات عبد الوهاب عزام، الرحلات الثانية، القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

(١) الصحيح عليشة، كانت أرضا قاحلة فملكها رجل من أهل الرياض اسمه عليش بن راشد ، وأعطاها إلى رجل تعهدها فزرعها حتى أصبحت واحة غناء، كانت تأتيها سيول الشعاب المحيطة بها وتحير فيها ثم تفيض إلى جنوب الرياض وجنوب غربه حتى تصب في وادي حنيفة جنوباً ، ومالكها ليس له ذرية ذكور وإنما ذريته كلها إناث، إحداهن والدة الشيخ صالح بن محمد من آل الشيخ ، وتقع عليشة الآن في وسط الرياض .

(٢) البديعة : كانت أرضا فسيحة لا تصلح للسكن، إلى أن قام أحد سكان مدينة الرياض يحفر بها بئر وأخرج منها ماء عذباً، مما حدا بسكان الرياض أن يصفوا هذا العمل بالبدعة أي الخارق للعادة؛ حيث لم يدر بخلدهم أن هذا المكان يمكن أن يصلح للزرع؛ لهذا أطلق على المكان في البداية البدعة ثم تحول إلى صيغة المبالغة فأصبح البديعة وقد اشتهرت هذه البديعة بعد أن أقام بها الملك عبد العزيز قصراً للضيافة.

يزرع الناس به ولكن تنبت المراعي، وقال: إنه لم يخرج إلى البادية لتأخر المطر، والخروج في هذه الأيام لا يلائم لشدة الرياح.. وتحدث عن النقل فقال: إن السيارات لا تكفي، وإن سكة حديدية ستمد من الظهران إلى الخرج.

ذهبنا والساعة واحدة ليلاً إلى دار الأمير عبد الله بن عبد الرحمن -وهو أخو الملك-.. اخترقنا إليها مدينة الرياض، ودخلنا من أحد دراويزها، وخرجنا من آخر فدخلنا داراً واسعة، وسرنا إلى حجرة في وسطها يؤدي إليها دهليز مفروش.. والحجرة صغيرة حسنة الأثاث، أثاثها عصري.

وذهبنا ضحى (الجمعة) إلى منفوحة (وهي على أربعة أكيال إلى الجنوب من الرياض على الوادي).. رأيت آثار سور يحيط ربضاً واسعاً حول القرية، ثم أبنية القرية وهي أبنية كثيرة ولكنها مهجورة؛ فسكان القرية هجروها إلى الرياض، وليس بها إلا قليل من الزراع فيما سمعت. ومنفوحة بلد الأعشى الشاعر، وكنت سمعت أن بها داراً يقال لها دار الأعشى، ولما بلغناها سألنا الضابط الذي رافقنا عن الدار فلم يعرفها و لم يجد من يسأله فرجعنا، ثم قال لي سمو الأمير عبد الله بن عبد الرحمن حينما قابلته: كل الناس هناك يعرفون دار الأعشى.. وأشار بالعودة إلى منفوحة. فعدنا إليها بعد وسيأتي خبرها، وقال الأمير: إنه اشترى بئراً هناك اسمها خضرمة[1].

سرنا إلى الوادي - وادي حنيفة -، ورجعنا إلى الرياض، فذهبنا إلى القصر الملكي حتى حانت صلاة الجمعة، فدخلنا إلى مسجد في القصر في الطبقة العالية يدوي بقراءة القرآن.. كل مصل هناك في يده مصحف، فجلستُ حتى جاء الملك، وقام الناس، وقمتُ، فوضعتُ المصحف على الرف، وتقدمتُ فسلمت عليه، وقبل أن يجلس سلَّم عليَّ الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ووقف بيني وبين الملك فصلى، وسمعت الخطبة في مسجد متصل بالقصر، ولكن فاتني كثير منها، و لم أسمع القراءة في الصلاة لبعد الإمام عنا، وبعد الصلاة عدنا إلى دار الضيافة.

خرجنا عند الساعة العاشرة والنصف لنرى الدرعية -وهي على مسافة ثمانية عشر كيلاً شمال الرياض- فسرنا في طريق ممهد أكثرها حتى هبطنا الوادي، وسرنا نحو عشر دقائق في الوادي نرى النخيل ولا نرى القرية، فصعدنا في جبل على العدوة الشرقية فلم نرها، ولحقت بنا السيارة فسرنا في الوادي حتى قيل: هذه قصور البلد.. فرأينا بقايا أبنية من اللبن عالية فوق العدوة اليمنى وراء النخيل، فنزلنا، وصعدنا فإذا قرية على ربوة مشرفة على الوادي وبها جدران عالية وهي بقية دور وقصور، وفيها دور مسكونة.. وسار بنا بعض الناس إلى بقايا قصر فقال: إنه قصر الحكم[2].. وأشار شاب أن نذهب

(١) وهي ليست الخضرمة التي تقع في منطقة الخرج حالياً وهي المدينة التي اتخذها بنو الأخيضر مقراً لحكمهم عندما سيطروا على وسط الجزيرة في منتصف القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي .

(٢) قصر الحكم هذا المقصود به قصر الإمام عبد الله بن سعود الذي كان إمام الدعوة السلفية وحاكم الدولة السعودية الأولى في فترة الغزو المصري وهو الذي سقطت الدولة في عهده عام ١٢٣٣هـ .

إلى قصر سعد[1] إلى الشمال، وقال: إنه قصر الحكم كذلك.. وأشير إلى بقية بناء قيل: إنه كان المسجد.. والدرعية الحديثة المسكونة على عدوة الوادي الشرقية.

رافقنا ضابط سعودي إلى بقعة تسمى المعذر بها زروع تسقى بالسواني، فطفنا بها، وذهبنا إلى سانية[2] يعمل فيها: عشرة حمر، وستة في ناحية، وأربعة في أخرى.. ونظرت في السانية فإذا هي عميقة يبعد ماؤها نحو خمسة عشر متراً.. وكنت حدثت الضابط السعودي عن السواني وأسماء آلاتها فقال: فيها المحالة (وهي البكرة)، والرشا (حبل البئر)، والغرب (وهو الدلو الكبيرة التي يستقي بها وهو جلد معز كامل).. وسألته عن العرقاة فقال : الخشبة التي تعترض في فم الدلو تسمى العرقاة.. وفي كتب اللغة العرقوة والعرقاة.. وحدثته عن النبات، وذكرت أني جمعت ضروباً منه أمس في طريق الخرج، وعرفت أسماءها؛ فإذا هي الأسماء التي نعرفها في الشعر القديم وكتب اللغة والأدب، فأخذ نبتة ضعيفة لاصقة بالأرض وقال هذه الحوة وهي تؤكل.. وأخذ النبت الذي يسمى الزمير في مصر وقال: هذا الشيباني.. وأخذ نبتة أخرى لها نوار أصفر وقال: هذه العصبا.. رجعت إلى دار الضيافة، ومررنا بالبئر التي تسمى حَجْر اليمامة بلدة كانت أعظم قراها.

أرسل الأمير عبد الله سيارته يقودها السائق سرور، فسرت إلى منفوحة، فبلغنا الربض الفسيح حول القرية.. قال سرور: هذا الجانب يسمى خضرمة وفيه آبار.. وكان الأمير حدثني عنه، وسرنا إلى تل مربع من الطين مشقق الجوانب يُخيل لمن يراه من بعيد أن جوانبه مبنية، فصعدت عليه فإذا حفرة مدورة تامة الاستدارة عمقها نحو مترين، وفي جانب منها بقية درج من الحجر قيل: هذه دار الأعشى يعرفها الناس بهذا الاسم.

وهذا التل إلى الشمال من منفوحة منفصل عن أبنية البلد بعيد عنها نحو مئة متر، وفي الساحة قُلب متباعدة ذهبت إلى إحداها فرأيت ماءها بعيداً، وقيل: لعل هذه بئر خضرمة.. ومن تل الأعشى رأينا وراء منفوحة شطر الجنوب نخلاً قيل: إنها بستان الأمير منصور بن عبد العزيز واسمه الجو[3].. وشطر الغرب العدوة القصوى من وادي حنيفة قرية تسمى المصانع[4]، وسرنا إلى الجو فدخلنا بستاناً واسعاً أكثر ما فية نخل، وهناك أربع مكينات لسقيه، وبناء في جانب البستان مشرف. وسرنا بعد إلى وادي حنيفة فهبطناه عند المصانع وسرنا صوب الشمال والنخل والأبنية والسواني عن يمين وشمال، واتسع الوادي، وملنا نحو الغرب إلى واد آخر اسمه نمار[5] يلتقي بوادي حنيفة في هذه البقعة، وسرنا في





---

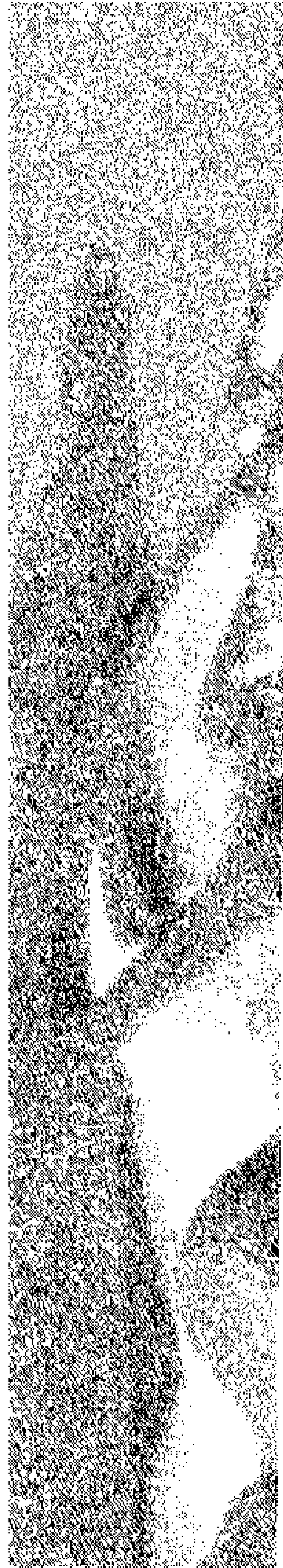
(١) هذا القصر لا يزال موجوداً حتى الآن، وجرى ترميمه عام ١٤٠٣هـ، وهو يرجع إلى سعد بن سعود .

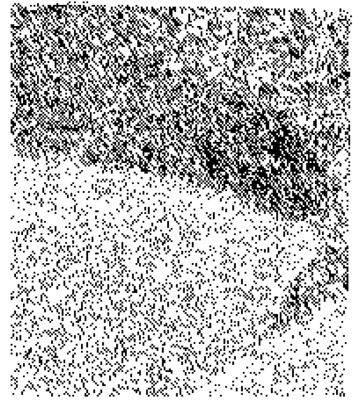
(٢) لعل مقصود المؤلف هو البئر لأن السانية هي أداة استخراج الماء من البئر ولعل هذا الخطأ كان بسبب عدم فهم الرحالة للفرق بين البئر والسانية.

(٣) يعرف بجو أو جو الخضارم أي الخضرمة، ثم عرف بجو منفوحة مؤخراً.. دخل الآن في منفوحة .

(٤) ينظر إلى هامش (١) ص١٨٣.

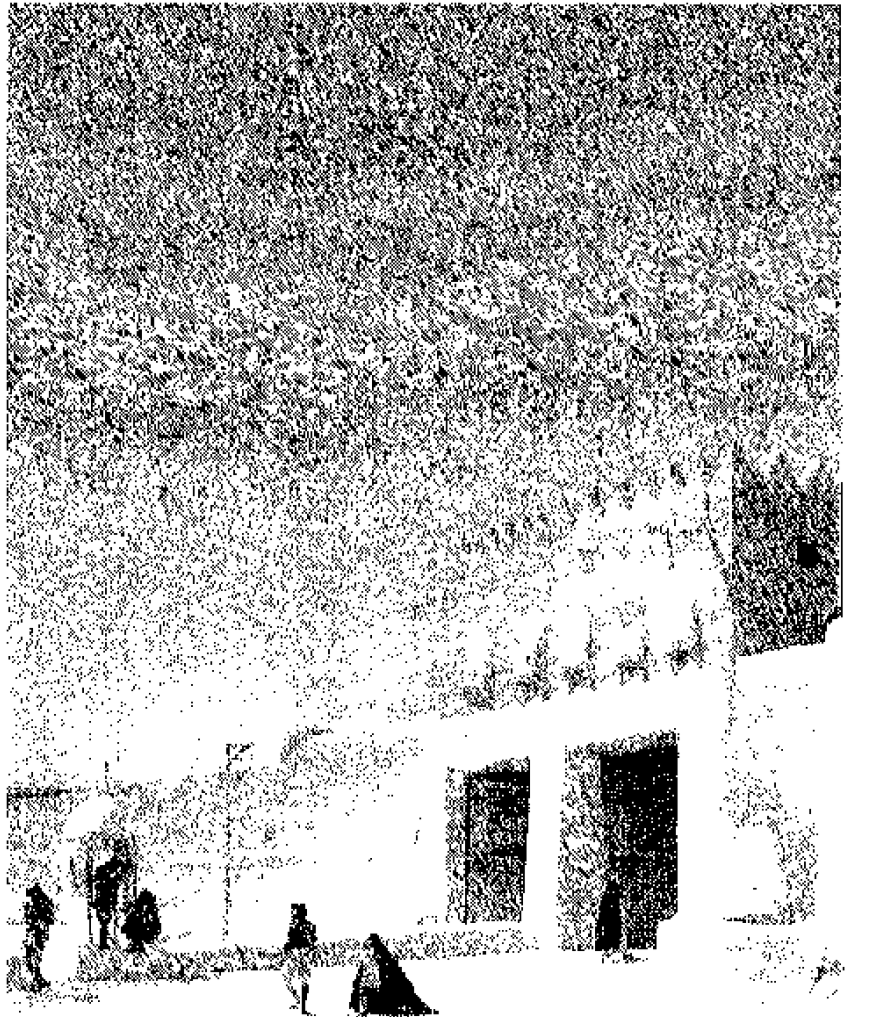
(٥) ينحدر هذا الوادي من جبال طويق ويصب شرقاً في وادي حنيفة، وهو من الروافد التي تغذي الوادي بالإضافة إلى الحائر ولبن والبطحاء.. طول هذا الوادي تقريباً ٣٥ كيلاً ، به الآن سد ومزارع كثيرة ، وهو إلى الجنوب من الدائري الغربي من الرياض.





الزخرفة الخارجية لأحد قصور المربع.
١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

بوابة الشميري (الأحساء) بعد تعديلها بحيث تسمح بمرور السيارات في الاتجاهين.
تويتشل، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.







بوابة قصر الأمير سعود بن عبدالعزيز ولي العهد (الملك فيما بعد).
والترز، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.



وادي نمار حتى رأينا زروعاً ونخلاً وبناء، وقيل: إنه واد طويل جداً.. ورجعنا إلى وادي حنيفة، وهو في هذا الموضع يشبه مجرى نهر كبير، ورأيت في الوادي سدوداً جانبية[1] من الطين أو الحجر يحتجز بها أهل البساتين شعيباً من الوادي لبساتينهم فإذا استغنوا عن الماء صرفوه إلى الوادي.

صعدنا إلى الشرق لنرى أطلالاً يقال: إنها آثار مسجد خالد بن الوليد – رضي الله عنه – وفيها بئر، وعلى مقربة منها أطلال فيها بقايا سور طويل وأحجار وتلال أخرى يقال: إنها قصر حنيفة.. وكلا الأثرين غربي مدينة الرياض.

رجعت إلى البديعة بعد شهرين وقد بتنا بها ليلتين، وآثرت المبيت على السطح فراراً من الحر، وأنساً بمرأى السماء صافية تتلألأ فيها النجوم قريبة يطول بينها وبين المتأمل الحديث، ويشغل الفكر حينا بعد الإصغاء إلى صرير السواني التي لا تفتر حتى يطلع الفجر، فتقف إجلالاً للأذان واستعداداً للصلاة.

ذهبنا إلى دار الضيافة القديمة ، وقد انتقل إليها الأمير حينما احترق جانب من قصر الملك، فاتخذ قصر الأمير مسكناً ، ونقلت الضيافة إلى قصر الأمير فيصل الذي نزلت فيه، وذهبنا إلى قصر الملك، وكان الموعد الساعة الثالثة؛ فجلست حتى قرئ التفسير والحديث من كتاب لأحد علماء الحنابلة اسمه ابن مفلح[2]، ثم قرئت خلاصة الأخبار التي تذاع من أرجاء العالم، وللإذاعة في القصر قُوَّام يسمعون ما يهم جلالة الملك من أخبارها ويقرءونها عليه.. بكرت إليها (منفوحة) وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف بعد طلوع الشمس بأقل من ساعة.. سرنا في عمارة الرياض وهي تتسع كل حين وتمتد، يرى زائر الرياض منها ما لم يره في زوراته الماضية، فلما فصلنا عن المدينة من جهة الجنوب لاحت منفوحة وهي على نحو خمسة أكيال منها، وجاوزنا أبنية منفوحة عن يميننا ثم عطفنا ذات اليمين شطر الغرب، فمررنا بالقرية من جنوبها، فرأينا إلى الجنوب والغرب قرية المصانع على وادي حنيفة.. قلت للسائق: أريد أن أدخل إلى ربض البلدة الشمالي، فدار بنا إلى الشمال من غربي البلدة حتى نزلنا في الربض الذي ذكرته في زيارتي الأولى، وجال الطرف يفتش عن تل من الطين فيه بقايا بناء قيل: إنه دار الأعشى.. فعرفته، ورقيت عليه، ورأيت فيه ركية واسعة لا ماء فيها ولم أدر ما هي؟.. ودرت على التل أعجب منه أهو تراب رُكِم وصار طينا بالمطر، ولكن فيه بقايا بناء؛ فهل بني على هذا التل حصن أو دار في الزمان القديم؟.. ليت الحفر والبحث يبين عن خفايا هذا التل.

---

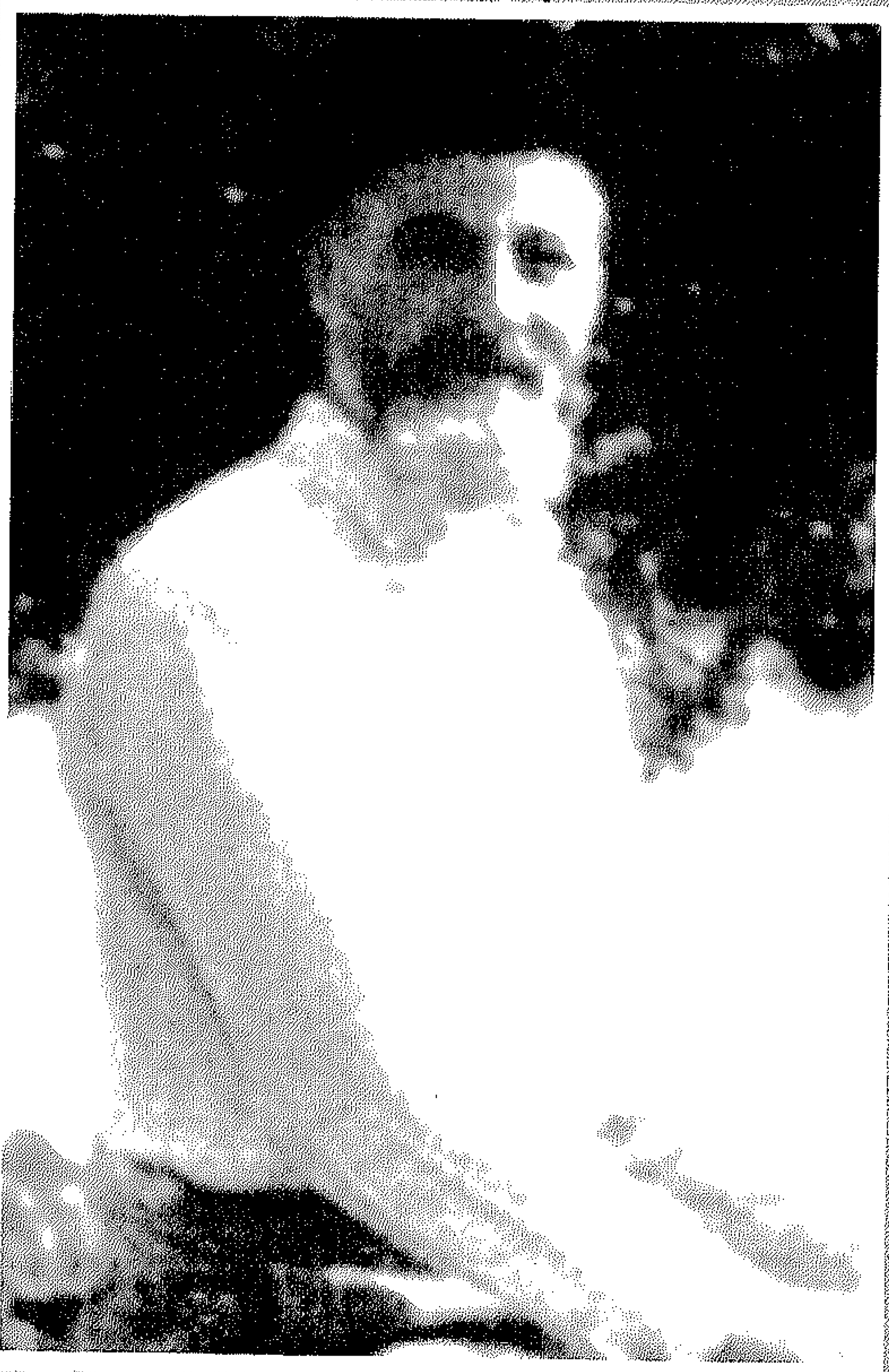
(١) هذه السدود ما زالت باقية وترجع في بنائها اعتماداً على الطريقة التي نفذت بها إلى العصور الإسلامية المبكرة أي من القرن الثالث الهجري وما بعده.

(٢) الكتاب اسمه الفروع ، والمؤلف هو إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح ، ولد عام ٨١٥هـ بدمشق ، وتوفي عام ٨٨٤هـ في الصالحية بدمشق (انظر: ابن حميد ، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ، تحقيق ابن عثيمين ، الجزء الأول ص ٦٠ - ٣٦).

الفصل الخامس

الرياض

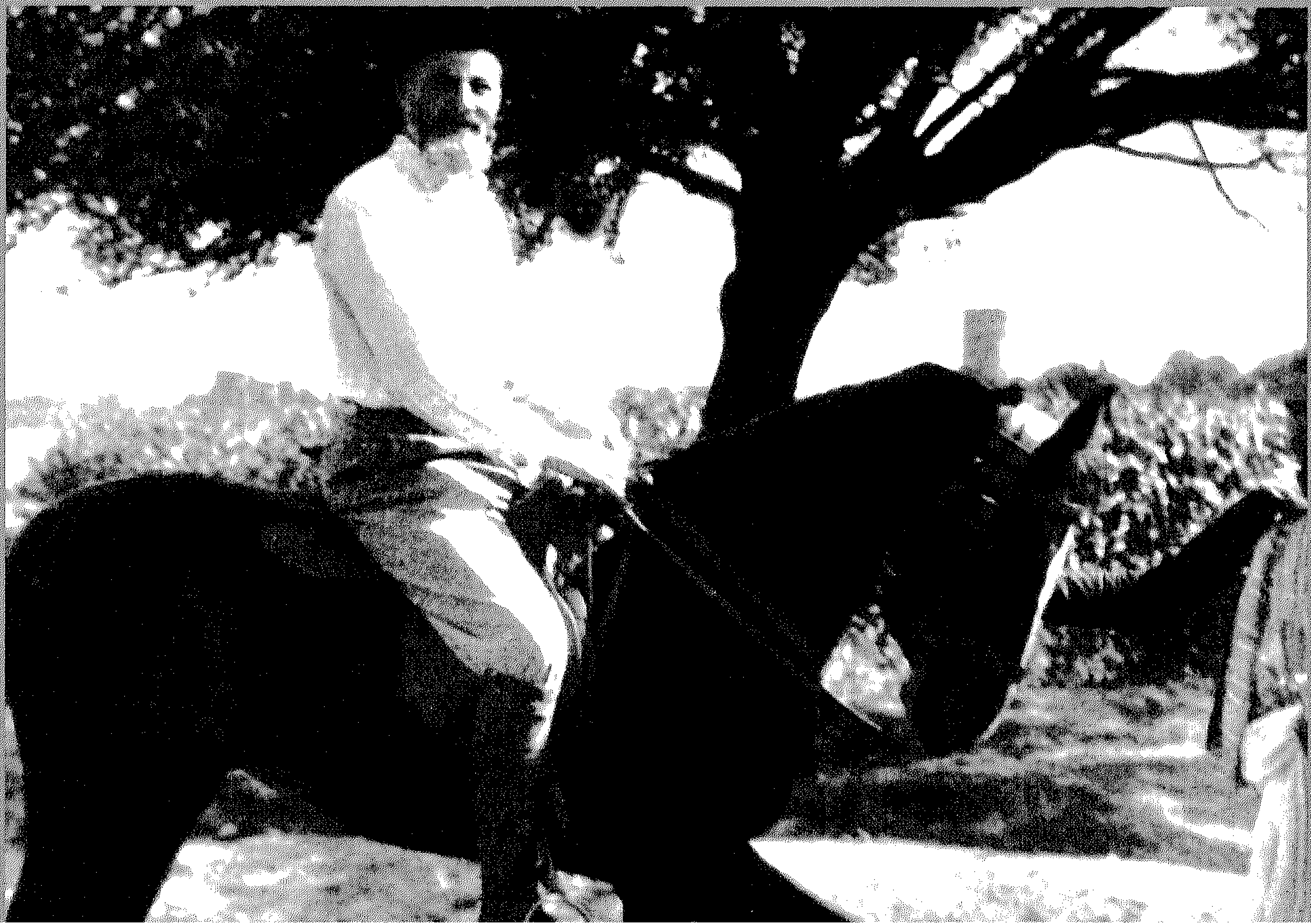
في القرن الرابع عشر
(العشرين الميلادي)
١٣٧٢-١٣٧٩هـ / ١٩٥٢ - ١٩٥٩م



د. فان در ميولين ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م







د. فان در ميولين*

D. Van Der Meulen

١٣٧٢هـ / ١٩٥٢م

وصلتني الدعوة لزيارة الملك عبدالعزيز بقصر المربع في الرياض بينما كنت أستمتع بالفرص العديدة التي سنحت لي بالخرج.. كانت زيارة الملك هي السبب الرئيس لمجيئي للمملكة العربية السعودية؛ ولذلك سررت عندما علمت بأن آمالي ستتحقق، وفي يوم الأحد ٦ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ الثاني من مارس من عام ١٩٥٢م قام جو ودينون كلارك بأخذي وبرام لمسافة أربعة وخمسين ميلاً بالسيارة إلى مدينة الرياض، ورأينا من بُعد الأماكن السابقة التي يفضل ابن سعود الذهاب إليها عندما يريد أن يخلد قليلاً للراحة والاستجمام.. سرنا بعربتنا عبر وادي حنيفة الذي يتكون من منخفض ضحل يقع بين الخرج والعاصمة الرياض، ومن حين لآخر كنا نقصد قمم بعض الهضاب المرتفعة قليلاً لنتجنب الانحناءات العريضة التي بأسفل الوادي، وكلما اقتربنا من الرياض تصبح الزراعة أقل.. ولا يعزى ذلك لعوامل الطبيعة فقط، وإنما للإنسان أيضاً.. وقد احتاج سكان العاصمة للكثير من الحطب؛ ولذلك نظفوا الصحراء من الخضرة بالقرب من العاصمة أولاً، ثم زحفوا أكثر بعداً لتتسع الدائرة.. وأمام سور المدينة شاهدنا بعض القوافل تحضر حطباً للسوق، وأذكر بأنني شاهدت شاحنة وحيدة في الصحراء قرب آبار يبرين التي تبعد حوالي مئتي ميل جنوباً، وذهبنا إلى الرجال لنسألهم عن سبب بعدهم عن الطريق العام المعبد، وأفادونا بأنهم قد حضروا من الرياض لجمع الحطب.. سألناهم كم يدفع لكم لقطع هذه المسافة بالشاحنة؟.. فأجابوا عندما نعود للمدينة بهذه الشاحنة المحملة بالحطب سيُدفع لنا أكثر من ستمائة ريال سعودي ثمناً للحطب.. وقد كان من الواضح لنا أن حاجة المدينة حتى للحطب لابد أن تكون قد ازدادت زيادة لا تقاس.

ومن النظرة الأولى لمدينة الرياض الحديثة شاهدنا ساريتي مذياع؛ الأمر الذي يشير لحدوث تغييرات بالمدينة.. والمنظر الثاني الذي لم يكن متوقعاً هو وجود منشأة حفر معسكر أمريكي للسيارات، وقد تحدثنا إلى رؤساء هذه المنشآت.. لقد كانت هنالك أربع وحدات من حفارات الآبار تعمل في الصحراء حول المدينة، وعندما يجدون الماء في عمق مناسب تُحفر الآبار وتُوضع مضخات الماء وتُنشأ الحدائق.. وقد علمنا بأن رغبة الفرد في امتلاك بئر وحديقة لنفسه انتشرت وسط طبقات أغنياء مدينة الرياض.. وعندما ظهرت مدينة الرياض للعيان كانت دون ألوان في خضم سديم الغبار

* د. فان در ميولين من مواليد عام ١٨٩٤م/١٣١٢هـ دبلوماسي هولندي مثل بلاده في المملكة العربية السعودية قنصلاً من عام ١٩٢٦م-١٩٣١م (١٣٤٥-١٣٥٠هـ) ثم عاد مرة أخرى ليمثل بلاده بالمملكة من عام ١٩٤١- ١٩٤٥م(١٣٦٠-١٣٦٥هـ)، وتوفي في عام ١٩٨٩م/١٤٠٩هـ وقد وردت المعلومات عن الرياض في كتاب لفان دار ميولين أصدره عام ١٩٥٧م/١٣٧٧هـ باللغة الإنجليزية بعنوان "آبار ابن سعود" ينظر:
D. Van Der Meulen the Wells of Ibn Sa'ud. London: the Camelot Press Ltd,1957, PP. 225-, PP. 240-246. ,

الناعم الذي كان يملأ الهواء، وقد بدأت تتضح تدريجياً معالم القلعة الكبيرة الرمادية اللون التي ترتفع فوق خطوط أفق المنازل ذات السطوح المستوية، وخلفها توجد مجموعة مباني قصر المربع الممتدة والبسيطة التي تقف منفردة في الصحراء بعيداً من المدينة، والطريق المعبد الذي كنا نسلكه في السابق قد تغير إلى الأفضل، ويبدأ من محطة السكة الحديدية موازياً للسور الشرقي ولكنه على مسافة بعيدة منه، ويؤدي إلى المطار، وقد تم تشييد مطار جديد من البناء المسلح من النمط المعروف في كل أرجاء العالم، طغت عليه لمحة محلية بتشييد مسجد بالقرب منه والذي لا يزال تحت التشييد، وللمسجد مئذنة رائعة، وفي الجهة المواجهة لمدخل المطار في الجانب الآخر لطريق الأسفلت العريض يوجد معسكر أمريكي كبير لمقاولة البناء والتشييد كانت تُسيّره شركة بيكر، وعند البوابة سمح لنا الحرس السعودي بدخول مقر الشركة الذي سيكون مكان إقامتنا خلال زيارتنا هذه للعاصمة.. والمعسكر يشابه تماماً المعسكرات الأخرى إذ كان مكان عمل وغير ممتع، وفي داخل هذا المعسكر توجد سقائف الصلب المستطيلة القصيرة أمام مخازن كبيرة تؤدي بدورها إلى مستودعات ضخمة من الآلات والمواد الثقيلة.. وكانت الأقسام السكنية والإدارية جذابة إذ كانت مزودة بغرف نوم مكيفة وغرف للنفايات ومكاتب، وقد رحبوا بي وبيرام ترحيباً شديداً وذلك لمقدمنا غير المخطط له لمدينة الرياض، والشكر في ذلك لجو كلارك التي هي الآن تبدو وكأنني لا أعرفها.. وقد قمت برحلتي القصيرة الأولى في نفس عصر ذلك اليوم مع أمريكي من معسكر بيكر وهم على الرغم من أن لديهم عملاً مع القصر الملكي لم يكونوا على صلة بقصر المربع، إذ إن الملك كان لا يفضل أن يقلق الأجانب راحته وسكينته.. وعندما سرنا بسيارتنا بمحاذاة جدران القصر القديم لم أستطع أن أتعرف عليه؛ إذ بدا لي أن الجدار الطيني بدعاماته المتكررة قد امتد ليضم مساحة شاسعة أكبر من ذي قبل.. ومن خلال منفذ في الجدار الشرقي الحديث يمكن للناظر أن يرى مباني صلبة ذات ألوان زاهية على سطوحها الخارجية، كما يمكنه أن يرى صفوفاً من الشرفات (البلكونات) والمبالغات غير الممتعة السائدة في كل الفلل الحديثة في الشرق الأوسط؛ وقد تمت إزالة الجدار القديم الذي يوجد في الخلف.. وبتشييد هذه الفلات الحديثة أمام القصر الأصلي أصبحت هذه المباني خلفية، وقد بدا لي بحزن أن قمم هذه المباني وشرفاتها التي تشق الأفق وأحزمة زخارفها التي تشبه الأسنان: كلها تلقي بظلالها على تلك الجدران الضخمة غير الزاهية، والتي تعد آثاراً تقليدية أرستقراطية للأسلوب النجدي.

توجد أمام الفيلا حديقة ملأى بالأشجار الصغيرة والناشئة وهي رقعة من الخضرة الغزيرة تكسوها الأزهار، وكانت الحديقة والفيلا في تناقض شديد مع جفاف باقي المجموعة السكنية بالمربع ويبدو أنهما تقدمان نفسيهما بصمت لنقد عابر السبيل، وكان القصر موقعاً صامتاً يوضح الشُقة بين قِدم ووقار ومكانة القديم وبين بهرجة الحديث، ويتجنب الطريق في منحناه العريض القصر القديم ويصل إلى أطراف المدينة حين يمتد تجاه الصحراء، وكان يوجد حي به صفّ من المنازل

لأبناء سعود الصغار وهذه المنازل متشابهة في أبعادها ومُشيدة بالأسلوب المعماري القديم الجيد.. ويوجد في زاوية الحي مسجد شُيد وفق الأفكار السلفية؛ إذ إن له زاوية مرتفعة فوق سطح السقف للأذان وغير مزود بمئذنة، وهذا الجزء من البقايا القديمة اللطيفة.. كان يوجد في الركن قرب المدينة القديمة، وفي الجانب المقابل في الجانب الصحراوي من الحي يوجد قصر المدينة الجديد الخاص بولي العهد، والذي يعرف بالحمراء، وقد قام ببنائه معماري سوري عصري.. وكان المنزل الثاني أيضاً حديثاً وهو فيلا لضيف الملك رشيد عالي الكيلاني القائد العراقي وكان يعيش في الفيلا المجاورة مدحت شيخ الأرض الطبيب الخاص للعائلة المالكة.

وفي طريقنا لقصر الناصرية وصلنا مرة أخرى إلى منطقة مكشوفة، وهذا القصر شُيد بأمر الأمير على هضبة صحراوية تمتد فوق منخفض وادي حنيفة الذي توجد فيه مدينة الرياض نفسها، والقصر أيضا محاط بجدار طيني عال قطع بعناية جزءاً كبيراً من الأرض الصحراوية.. وتحركنا بسيارتنا إلى البوابة الخارجية حيث وجدنا الحارس الذي سألنا عن أوراقنا المعتمدة، وبالداخل قدنا سيارتنا عبر شارع مستقيم به أشجار الطرفاء الناشئة والمزروعة في جداول ضحلة ينساب فيها الماء، وفي نهاية الشارع يوجد الجدار الداخلي، وعندما عبرنا من خلال بوابة وجدنا أنفسنا في حديقة بها شجيرات وحقول أزهار ومروج مخضرة يفصلها من الشارع ملعب للرياضة كان يلعب فيه الأمراء الشباب كرة القدم، وقد شُيد عند طرف الملعب مسجد أبيض بمئذنة ملونة بألوان زاهية وتلاصقه مدرسة للأطفال الأُمراء، وهنالك بوابة أخرى تؤدي إلى مزرعة الخضراوات وحظائر البقر الأمريكي.. وبداخل هذه الأسوار وعلى بعد مسافة توجد بئران عبارة عن حفرتين ضخمتين مربعتين مقطوعتين في الحجر الجيري، وقد تمت توسعتهما وتعميقهما عدة مرات؛ وذلك لانخفاض منسوب المياه.. ويحتاج القصر الجديد وحدائقه المحيطة به التي تزيد مساحتها عن مائة فدان إلى مياه كثيرة يصعب المواكبة مع متطلباتها الكثيرة، وقد كان عمق الآبار يتراوح بين عشرين واثنتين وعشرين قامة، وذلك حسب المعلومات التي وصلت إليّ.. والقامة هي المسافة بين أطراف الأصابع الوسطى لذراعين ممتدين للرجل، وعشرون قامة تعادل بالتقريب مائة وعشرين قدماً.. وقد نزلنا نفقاً عميقاً إلى مسافة من الصخر المحفور قريبة إلى مستوى مياه البئر، وتوجد هناك مضخات المياه التي ترفع الماء إلى السطح، ويوجد بالقرب من القصر عمال سوريون مهرة جاءوا من دمشق، وهم يقومون بقطع الأحجار الجيرية التي تجلب من الجبال ليرصفوها على أرضيات القصر، وقد أوشكوا على الفراغ من قاعة المآدب الكبرى التي يبلغ طولها مائة وتسعين ياردة، وقد استقبلت هذه القاعة حوالي ألفي ضيف في جلسة واحدة، وقد اشتهر الملك الكبير بكرمه الفياض، وهو يطعم آلاف الضيوف يومياً ولكن في أماكن منتشرة في كل المدينة، وقد اقتفى ابنه أثره في الكرم ولكن بأسلوب حديث.

غادرنا قصر الأمير سعود، ودلفنا بسيارتنا عبر جزء حديث من المدينة يقع شرق مدينة الرياض القديمة..





الملك عبدالعزيز بين عدد من أبنائه
في لقطة تذكارية على السطح في
قصر المربع.
ريتشي، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

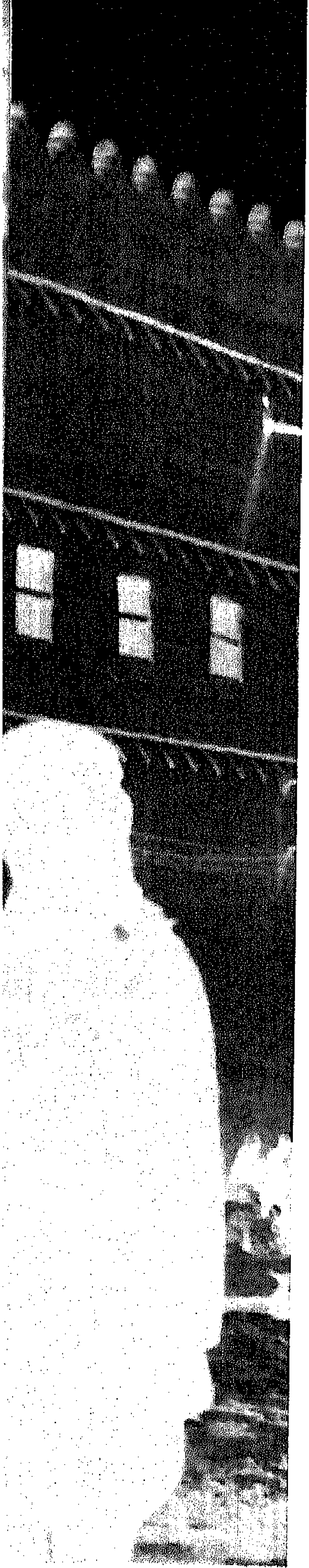


ويوجد في هذا الجزء حركة بناء نشطة، والبناء كان جزئياً من الطوب الطيني بالأسلوب النجدي وجزئياً من كتل الحجارة الجيرية التي تُقطع من الصخور القريبة من المدينة، وقد شُيّدت المدارس والمساجد والمنازل للأثرياء والمتاجر للرجال الذين قدموا من الأماكن النائية والقريبة صوب المدينة ذات الثراء المطرد.. وهذه عكست لي أجواء غير عادية من النشاط والتفاؤل لم تكن كذلك قبل سنين قلائل، حيث عرفتها مكاناً للتزمت، فقد كان الأذان يوقف فيها كل النشاطات خمس مرات في اليوم، وكانت مخيمات البدو توجد خلف المدينة على أطراف الصحراء. وكان بعض هؤلاء البدو يعانون مشقة في العيش.. وعندما وجدوا الماء ووجبات الطعام التي يقدمها الملك مجاناً في العاصمة استقروا بالمدينة ليعيشوا حياة تراخ وكسل، وسمع آخرون بالثراء الجديد للمدينة فحضروا لنيل نصيبهم منها بالتجارة أو العمل بصفتهم عمالاً.

عندما عرفت الرياض في ديسمبر من عام١٣٦٣هـ/١٩٤٤م كانت مدينة يربو عدد سكانها على خمسين ألف بقليل، ولابد أن عدد سكانها في عام ١٩٥٢م/١٣٧٢هـ قد وصل إلى ما يقارب مئتي ألف نسمة، ويبدو أن ازدياد عدد سكانها ليس له حدود.. وعندما كنت على أهبة الاستعداد لمقابلة الرجل الذي أدت إنجازاته إلى كل ذلك بدأت أفهم أكثر من ذي قبل لماذا فضل الملك ومعظم الأمراء العيش على بعد مسافة معقولة من الزحام؟

وفي صباح اليوم التالي الرابع من مارس من عام ١٩٥٢م الموافق ٨ جمادى الآخرة ١٣٧١هـ وصلت طائرة على متنها رئيس شركة أرامكو وبعض مستشاريه وذلك للمقابلة الرسمية الملكية، وأخذتنا سيارة من أرض المطار إلى بيت الضيافة الذي يقابل قصر المربع، وكان بيت الضيافة هو المبنى الذي أقمت فيه قبل سبع سنوات، وقد تم طلاء الجدار الطيني الخارجي البني اللون بألوان زاهية، وتمت توسعة المدخل ليبدو البيت أخاذاً للضيوف الذين حضروا من الغرب إلى هنا للاستمتاع بالكرم السعودي.

ارتدينا كلنا أزياء نجدية، ووقفنا في انتظار طويل، ولم يخبرنا أحد عن صحة الملك، لذلك انتظرنا للدعوة نقضي الوقت في شرب القهوة المرة الممزوجة بالهيل من أقداح صغيرة ليست لها مقابض، وعندما جاءت الإفادة أخيراً بأن جلالته على أتم استعداد لمقابلتنا خرجنا من بيت الضيافة وعبرنا الطريق إلى المبنى الطيني الأصلي من القصر. ويبدو لي أنه يوجد في فناء القصر عدد من سيارات الكاديلاك اللامعة، وبخلاف ذلك لم يتغير المكان كثيراً. ومررت مرة ثانية عبر أروقة معروفة لدي، كما صعدت عبر درجات من الطين معروفة لدي أيضاً.. وعبر الدرجات والأروقة يوجد حرس القصر الذين يرتدي بعضهم أزياء غربية بينما لا يزال البعض الآخر يرتدي الزي البدوي الفضفاض والجذاب.. وجلس البدو القرفصاء على الأرض مرتدين عباءات ذات درجات مختلفة من اللون البني ويلبسون أحزمة مطرزة ومذهبة في أسفل الجزء الأمامي، ويضعون سيوفهم

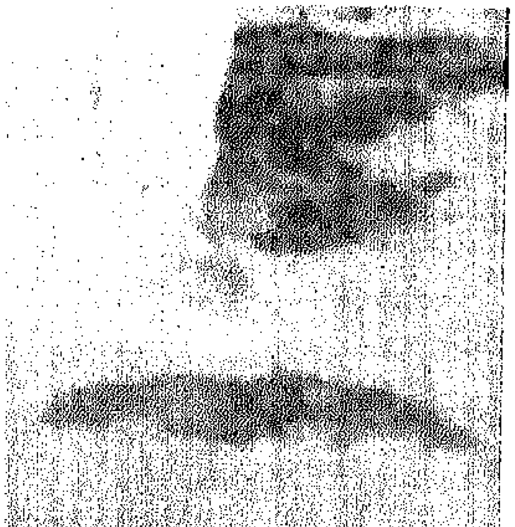


وأغمادها الفضية المقوسة على ركبهم. وقد توقع البدو أن نقوم بتحيتهم أولاً، وعلى كل لم يعيروا الأجانب اهتماماً كبيراً.. وكان يحدوني أمل كبير بأن يقوم الملك واثنان من أبنائه كنت على صلة بهما سابقاً باستقبالنا استقبالاً حاراً كما كان من ذي قبل.. وتم إدخالنا في حجرة سكرتير الملك.

ولكن عندما دخلت القاعة رأيت تغييراً. فقد كان الملك في طرف قصي و لم ينهض من مقعده في ترحاب وتحية، وقد قام بتحيتنا فقط الحراس الذين يرتدون أزياء غربية، وتراجع شيوخ البدو الذين يقفون قرب المدخل إلى الخلف بصمت ليفسحوا لنا الطريق ولكنهم لم يحيونا، و لم ينهض أحد من مقعده لأن الملك لم يعد يستطيع ذلك.

رجعت من قصر المربع إلى المعسكر الأمريكي، وهناك تبعتني رسالة من البلاط الملكي يحملها شاب حبشي وقد حمل تحيات جلالته، وقال لنا: إنه و سيارة كريسلر سيكون بخدمتي خلال مدة إقامتي في العاصمة.. وبعد انصراف الحضور قام السكرتير الخاص بتقديم دعوة لي بالنزول في بيت الضيافة الملكية، وذكر أن ذلك ليس أمراً ولكن لدي مطلق الحرية في البقاء حيث كنت أو الانتقال إلى بيت الضيافة.. وكان الاختيار صعباً نظراً لأن كلاً من المكانين له مزايا، ولكن قررت البقاء في المعسكر الأمريكي، وبعد منتصف الظهيرة قدت سيارتي الجديدة إلى قصر الناصرية.. قاد الشاب الحبشي سيارته عبر الصحراء التي تحيط بقصر المربع من جهة الشمال على بعد مسافة معقولة من السور وبدون أن يدخل في ضواحي المدينة.. جئنا عبر طريق الحصباء إلى المقر الجديد للأمير سعود.

كانت الطريق المزروعة بشجر الطرفاء التي تقع خلف البوابة الرئيسية لا تزال تقع في منطقة فضاء، ولكن حتى ذلك الصف من الشجيرات الصغيرة له قصة.. كان الملك عبد الله عاهل الأردن قد زار الرياض، وكان الأمير سعود في تلك الأثناء قد استعان بالأمريكان بمنطقة الخرج الذين كانت قنوات الري التابعة لهم تحيط بها ألوف من أشجار الطرفاء، وقد ذكروا أن قلع الأشجار ونقلها عبر الصحراء وإن تم ذلك بالليل سوف يهلك معظم الأشجار، ورد الأمير أنه سيكون سعيداً حتى وإن عاشت هذه الأشجار فقط لعدد من أيام زيارة عاهل المملكة المجاورة؛ ولذا فقد ظهر شارع تحيط به الأشجار الخضراء بين عشية وضحاها.. قدت سيارتي عبر الطريق الثانية في ذات الموقع. وكانت هذه الأشجار قد استغرقت وقتاً أطول لكي يشتد عودها ولكن كان من المتوقع أن تعيش لعدة سنوات.. عند بوابة السور الداخلي، قابلني ضابط طلب مني أن أترك السيارة ثم أتبعه لبقية الطريق، وكنت سعيداً جداً بذلك نظراً لأن مسيرنا كان عبر حديقة غناء، وما من شيء أجمل من حديقة في الصحراء، ومن الذي يجرؤ على لوم أمير عربي بأن يعتز ويفتخر بحديقته؟.. كان الماء يتدفق تدفقاً منتظماً ليروي التربة التي كانت بالأمس صحراء تحيط بالقصر، وتحت رعاية الخبراء الهنود ظهرت الأزهار والشجيرات والمروج الخضراء في مدة وجيزة من رحم الصحراء.. لقد زار الأمير سعود أمريكا ورأى روعة



قصر المربع، د. فان در ميولين، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م.



الحدائق، وكم كانت الحدائق أكثر روعة وبهاء في الجزيرة العربية.

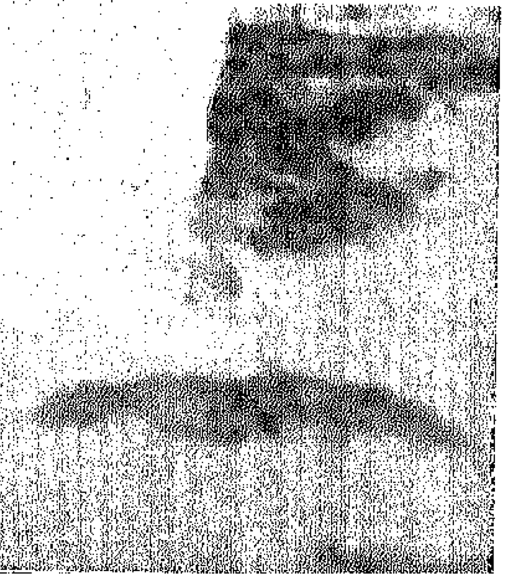
بالقرب من القصر سرنا عبر بلاط من الفسيفساء حيث وضعت الكراسي الفاخرة على جانبيه.. في أحد الجانبين كان هناك حوض سباحة من البلاط الأزرق مملوء بالماء النظيف وبالجانب الآخر تطل واجهة القصر. وبينما كنت جالساً هناك في انتظار مضيفنا فهمت لماذا يستعمل العرب الكلمة للحديقة 'الجنة' وجنة الفردوس.. ثمة إضافة نمطية في الذوق العربي هي أنواع الطيور المختلفة التي تحجز في أقفاص ثم تعلق على أعمدة طويلة حول جنبات حوض السباحة.. إن طيور البرية لن تأتي حتى تبلغ الشجيرات مستوى الأشجار، أما الطيور الحبيسة في الأقفاص تضمن سماع غناء وزقزقة الطيور حتى في تلك المرحلة المبكرة.

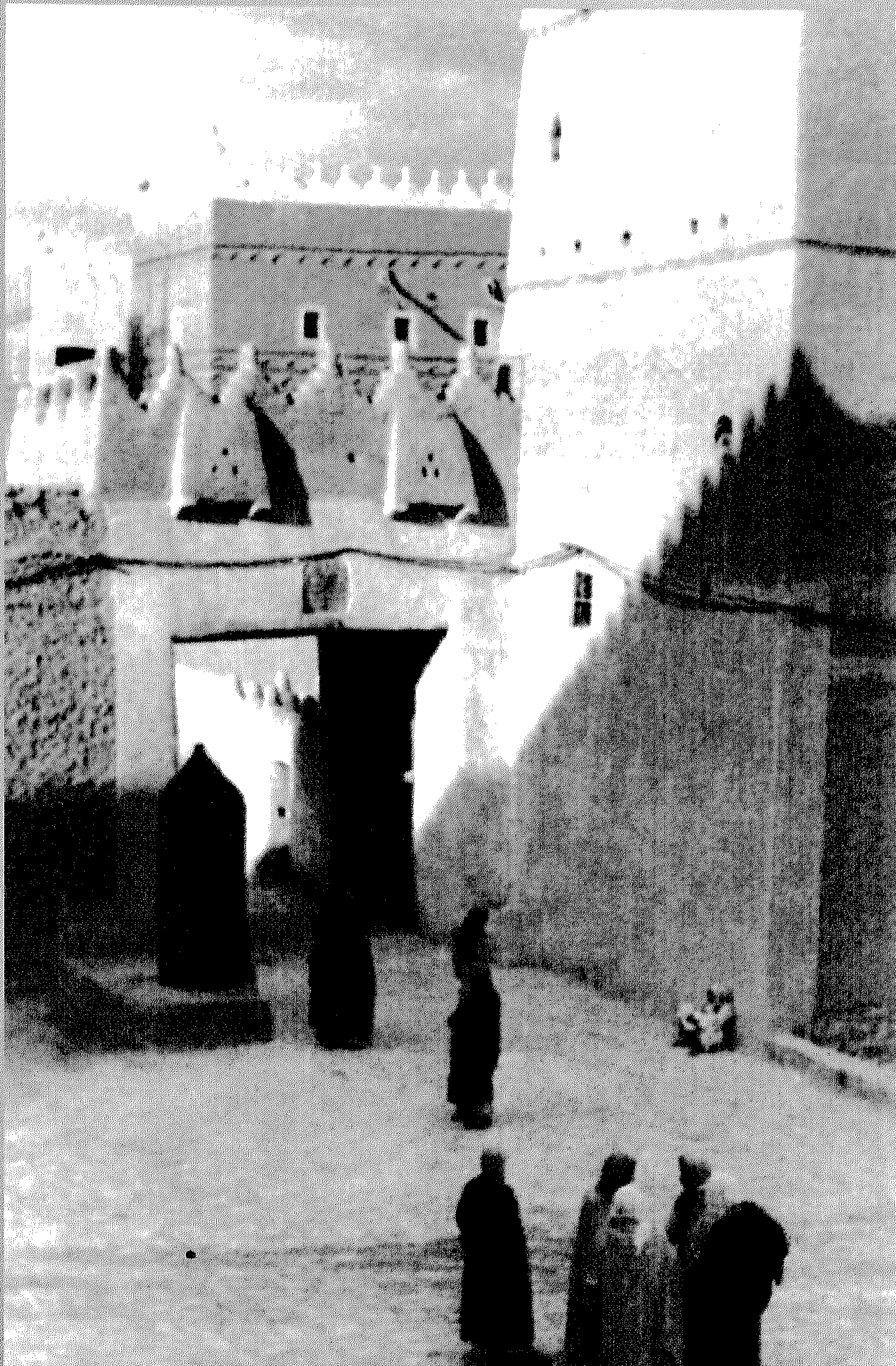
ما لبثنا طويلاً حتى قدم الأمير سعود صوبنا من ناحية القصر يتبعه عدد قليل من الضيوف العرب.. جاءنا ولي العهد حيث صافح الأمريكيين ثم استدار ليرحب بي وهو مبتسم.. طلب منا الجلوس.. النسيم العليل الطلق، والشمس التي مالت للمغيب، وجمال الحديقة، وخرير الماء الذي يتدفق فيضاً من أطراف حوض السباحة، وبهاء وجه الأمير كل ذلك جعل جو الحفل حميماً.. وقد كان أول سؤال يطرحه الأمير هو: إذا كنت قد زرت المملكة قبل ذلك؟.. قلت: نعم يا سمو الأمير.. وكان ذلك في نهاية عام ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م. وماذا رأيت آنذاك؟.. لا شيء سوى الرمال والحصباء ليس هناك حتى ورقة واحدة خضراء من النبات.. صدقت.. أجل كان ذلك قبل عام فقط، ولكن انظر الآن حولك، انظر إلى هذا القصر وهذه الحديقة.. هل تعجبانك؟.. قلت: ذلك فوق قدرتي على الوصف.. وكان ذلك فعلاً.. كان الحديث مشبعاً بالحرية والصراحة، وكان هناك شعور بالألفة والسجية بين الأصدقاء، وكانوا يتبادلون الطرائف والقصص التي كانت تتخللها ضحكات مجلجلة.. كان ذلك جانباً من الحياة العربية التي نعرف عنها نحن في الغرب فقط من خلال دراسة الثقافة وأدبيات شعوب الشرق.

قدَّم لنا الأمير في وقت لاحق الدعوة لصحبته في مرج يكسوه العشب المزهر حيث وجدنا موائد طويلة مكسوة بقماش أبيض وتعلوها الأطباق وأدوات الأكل التي تم ترتيبها على النمط الغربي.. أخذ الأمير مقعده، وكذلك أخذت الحاشية التي كنا جزءاً منها مقاعدها في المائدة الأولى، بينما جلس الضباط الرسميون الآخرون في الموائد الأخرى.. عرضت علينا أطعمة من كل شكل ولون من أصناف الطعام الشرق أوسطي والغربي، وكان الأمير نفسه يبدأ كل طبق مع ذكر كلمات من المدح والثناء.. ظللنا نتناول الوجبة ببطء واضعين في الحسبان تخصيص بعض الوقت للحوار على المائدة، وذلك يعد أمراً محدثاً في المملكة العربية السعودية حيث كانت العادة في السابق هي تناول الطعام بسرعة دون الكلام أثناءه.

بدأ الظلام يرخي سدوله علينا من الشجيرات التي كانت تحيط بالمنطقة.. وجه الأمير بعض التعليمات التي لم تكن مفهومة لي، وبينما كنا ننتظر في صمت لسماع







مدخل قصر المربع.
د. فان در ميولين،
١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.

إشارة بإنهاء الحفل، توهجت مئات المصابيح الكهربية الملونة.. كانت أعداد المصابيح تزداد ونحن ننظر إليها وبدأت تنتشر في صمت في جميع أنحاء الحديقة حتى بلغت أبعد طرف منها حيث كان القصر والمسجد الذي كان يقع في محاذاته، وفجأة بدأ الضوء ينبعث من المئذنة في جنح الظلام، وقد كانت المئذنة تتوشح ألواناً مختلفة (الأزرق، والأصفر، والأخضر، والأحمر) بينما كانت ترتدي جدران القصر اللون البرتقالي.. كان الصمت يخيم على المكان ونحن ننظر إلى هذا الوهج من الضوء ينشر جناحيه أكثر فأكثر حتى خيل إلينا أننا نجلس في حديقة تغطيها أزهار من الضوء.. جلس الأمير هناك تشع من وجهه علامة الرضا لما يرى من علامات التعجب التي ارتسمت على وجوهنا.. في هذه الأثناء أذن لنا بالخروج بينما بقي هو وضيوفه، وتوجهوا صوب المسجد لأداء صلاة المغرب، ومن أعلى المئذنة بدأ صوت ندي يجلجل من خلال مكبر حديث للصوت بالأذان: الله أكبر..

وجدت نفسي بعد عبور بوابة السور الخارجي في الصحراء حيث كانت مجموعة من البدو الذين كان يسهل تمييزهم بين وهج تلك الألوف من المصابيح الكهربية وجدران القصر والمسجد التي كانت تعكس فيضاً غامراً من الضوء.. كان هناك من الضياء ما يكفي ليظهر البريق على أجسامهم وثيابهم البالية.. هؤلاء البدو قد أفاقوا من غفلتهم وبدأوا يرون كيف يمكن أن تبدو الحياة لآخرين، وبالطبع يتمنون ذلك النمط من أسلوب العيش لأنفسهم، وأن من الممكن الحصول على أسلوب آخر للعيش.. إنهم يدركون الفقر الذين يجثم على صدورهم، وهم يتوقون بالتأكيد لعيش مختلف بعيداً عن الخوف والفاقة.. عيش يتناسب وكرامة الإنسان.. إن بعضاً ممن سبق لهم العمل في حقول البترول لن يهنأ لهم العيش مرة ثانية في خيام الصحراء.

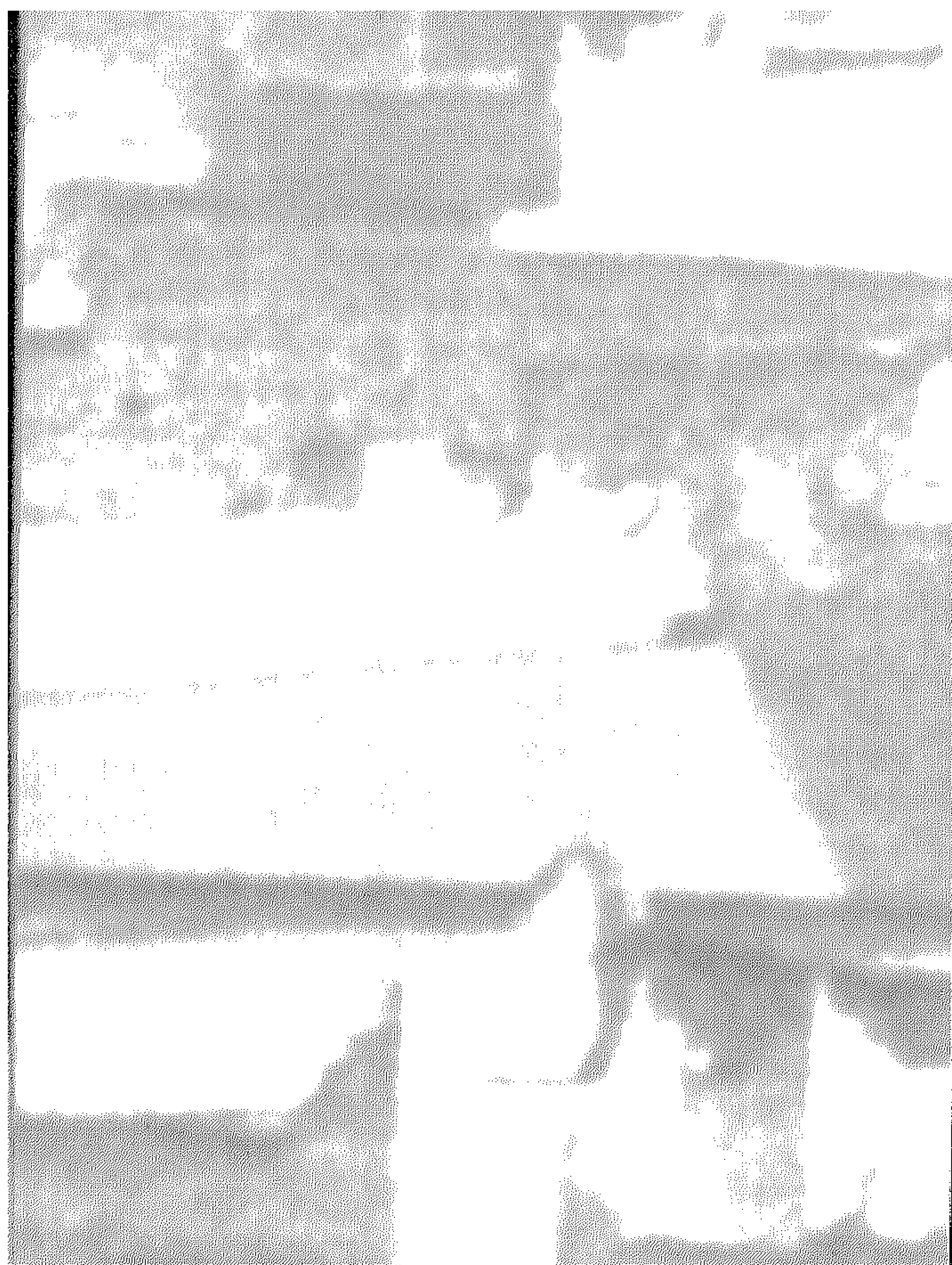
عندما رجعنا لمدينة الرياض كانت الشوارع خالية من المارة، وقد تجمع المصلون الرجال لأداء صلاة العشاء في المساجد أو أوصدوا عليهم أبواب ونوافذ مساكنهم.. بالنسبة لي كان ذلك اليوم يوماً للمقارنة والتباين.. عدت من الماضي إلى الحاضر، من المسكن المصنوع من لبن الطين للملك إلى الحديقة والمياه المتدفقة والأنوار التي تأخذ البصر في قصر الناصرية الذي يسكنه الأمير.. كانت بقية أيام زيارتي القصيرة للرياض مزدحمة بالأحداث.. لقد ساعدتني سيارة الملك لرؤية كافة المواقع في وادي حنيفة والأماكن المجاورة للعاصمة.. كنت في صباح كل يوم أقود سيارتي صوب الوديان الضيقة، وقد أدهشني عدد وطول السدود التي تحبس الماء عندما تنزل السيول من جبال طويق.. مضخات المياه قد حلت جزئياً مكان الآبار التي تستعمل فيها البكرات والدلاء المصنوعة من الجلد التي كانت تجرها الحيوانات لجلب الماء من الآبار.. حدائق الرجال الأثرياء تحتوي الآن على برك ذات جدران من البلاط وهي تروي الآن أفضل بكثير من ذي قبل.. في حواف أحواض السباحة هذه كنت أجلس أحياناً وأتحدث لعمال البساتين، وقد ذكروا لي نفس الرواية التي سمعتها في المدينة وعن الهضبة التي يغور فيها مستوى الماء.. هنا

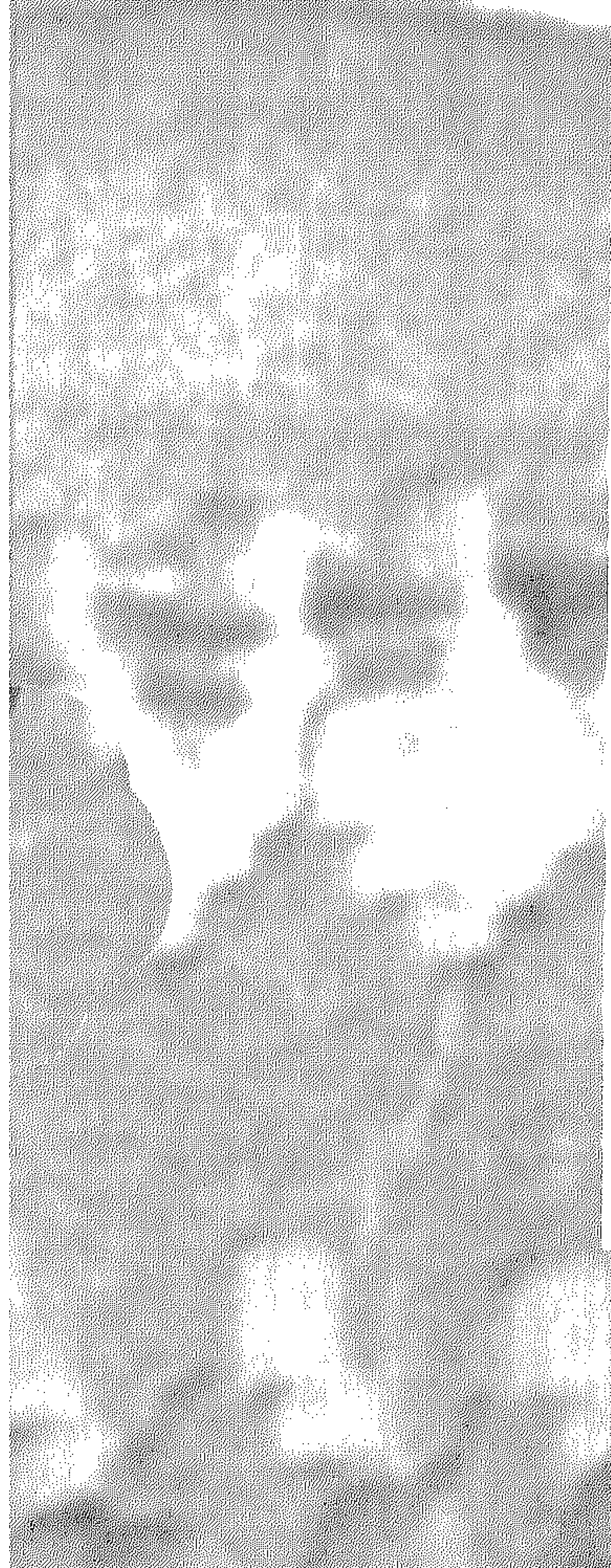


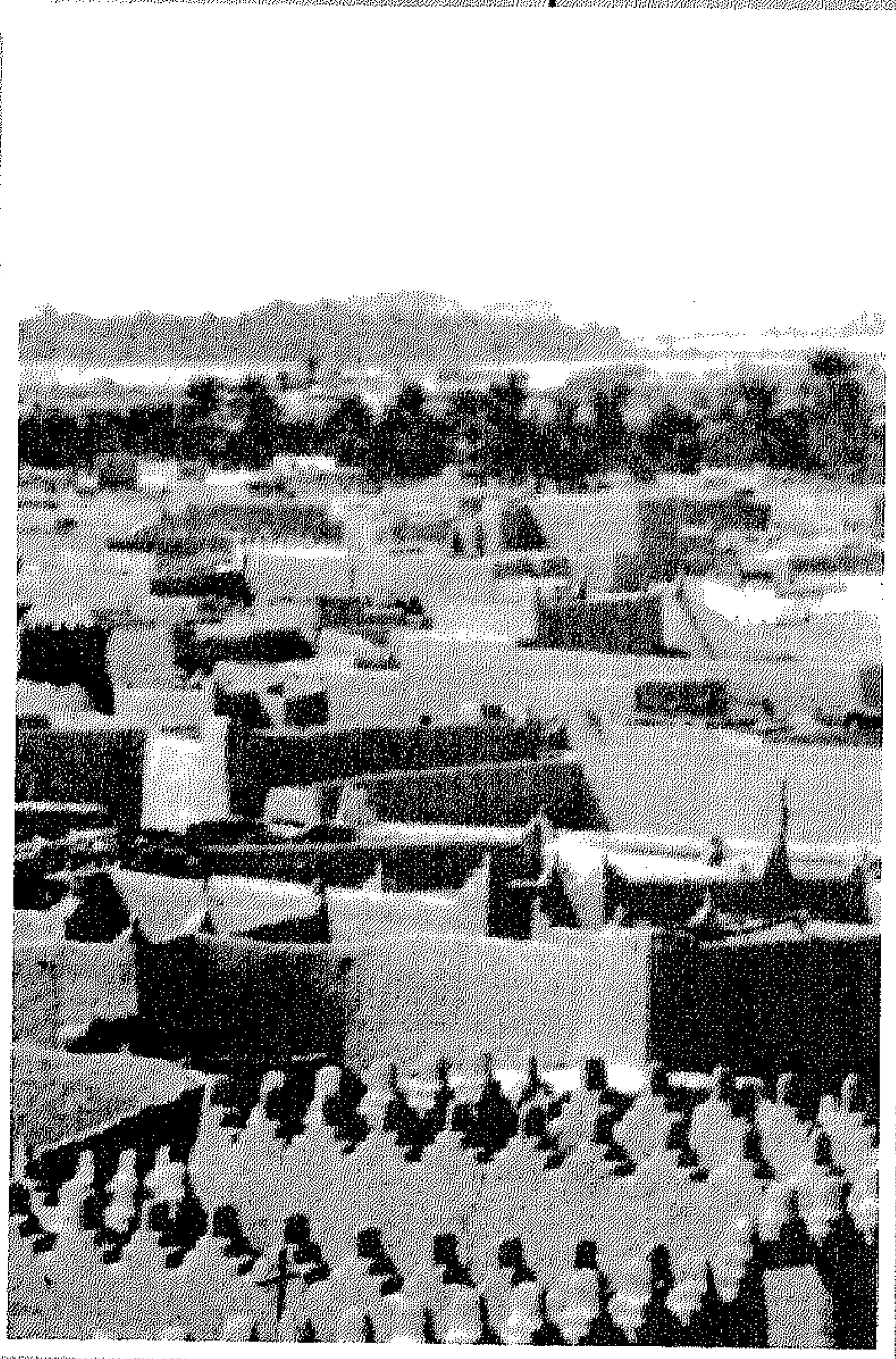
في هذه السلسلة من الواحات يبعث تدني مستوى الماء على الفاجعة لأصحاب بساتين النخيل الذين لا يستطيعون شراء مضخة تدار بالمحرك.

ذات يوم ذهبت إلى الدرعية حيث تحالف سعود الكبير[1] مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية. إن المدينة المدمرة لم يُعَد بناؤها، ولم يبق من قلاعها وقصر آل سعود والرجال العظماء الذين حملوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلا أنقاض تلك الجدران الطينية.. تبعد الدرعية عن مدينة الرياض الجديدة فقط بضعة أميال، وقد بنيت في وادي حنيفة في مكان تكثر فيه الحدائق، وقد انتابتني الدهشة عندما رأيت أن هناك الكثير من المباني لم تزل قائمة بالرغم من تعرضها للمطر والعواصف الرملية عبر السنين. هرع إلينا العاملون في الحدائق لكي يدلونا على منازل لفيصل وسعود آل سعود، وأين كان يعيش آل جلوي؟.. بعض أجزاء المباني التي ظلت صامدة في وجه الزمن كشف عن فرق في فن العمارة عمّا عليه فن العمارة اليوم.. النوافذ عبارة عن فتحات مثلثة الشكل بدون إطارات خشبية منتظمة في مجموعات ثلاثية تشمل المجموعة ست نوافذ أو مجموعات أكبر عبر طول المبنى.. الجدران قوية البنيان، والبيوت عبارة عن قلاع وقفت صامدة عدة أشهر أمام قذائف مدافع الحملة المصرية بقيادة إبراهيم باشا التي صوبها على مدينة آل سعود.

(١) الذي تحالف هو الإمام محمد بن سعود.



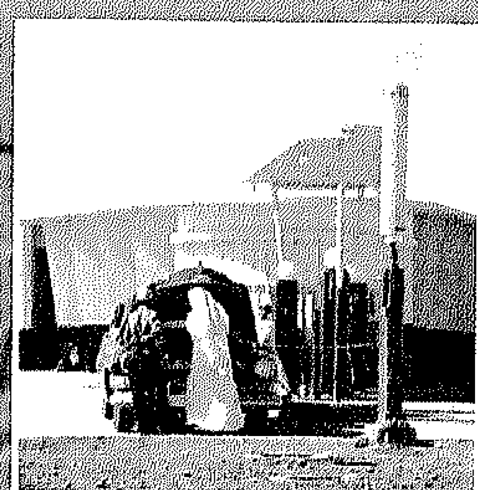






أمين المميز ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م





محطة توليد الكهرباء بمدينة الرياض وتبدو أعمدة الربط. والترز، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.



أمين المميز*

١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م

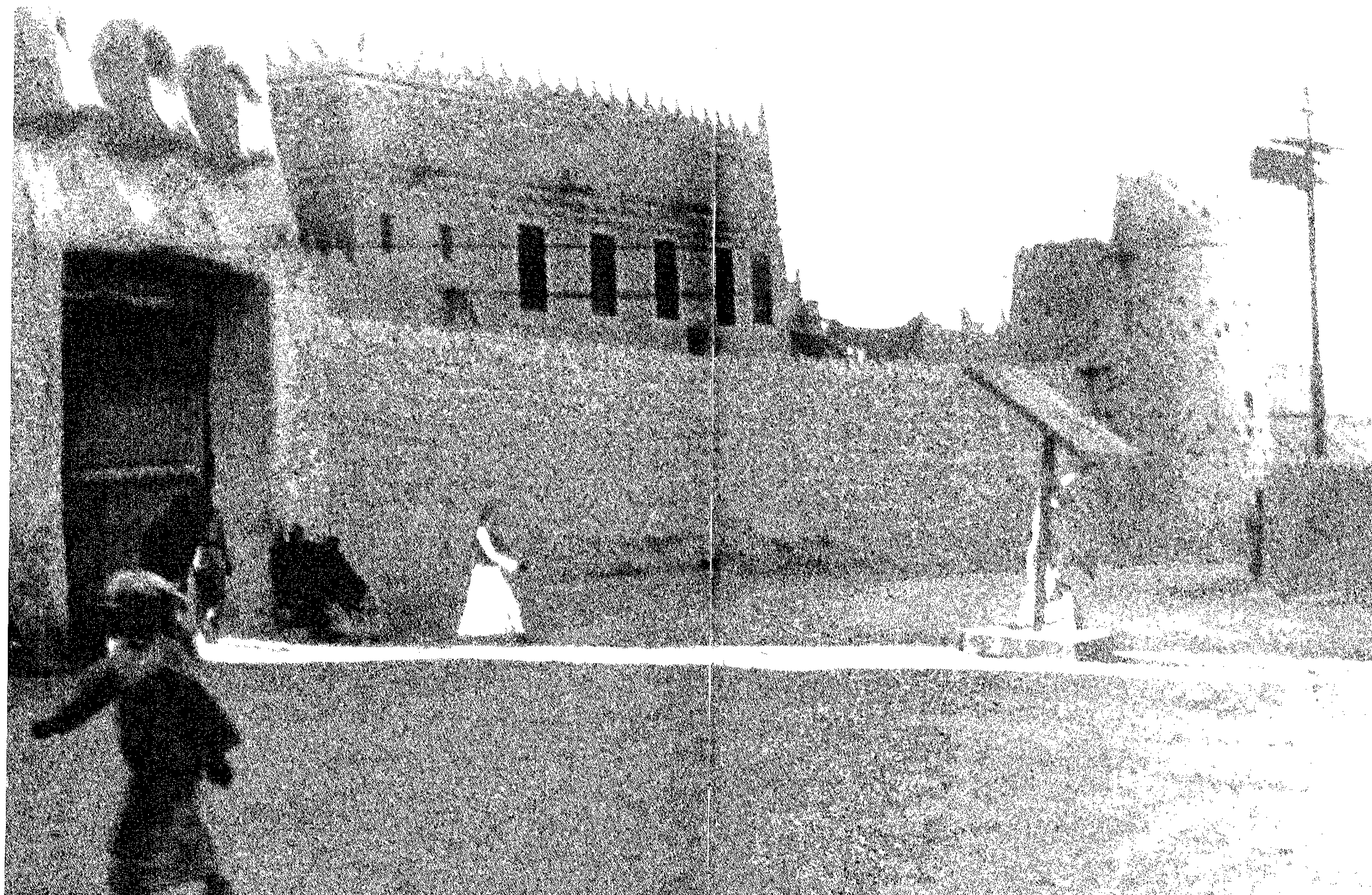
الثلاثاء ٢٩ رمضان ١٣٧٣ - ١ حزيران ١٩٥٤م.. حدد هذا اليوم موعداً لسفري إلى الرياض لتقديم أوراق اعتمادي، وقد قامت وزارة الخارجية بما يلزم لترتيب أمور السفر، وزودتني بالبطاقات اللازمة، وفي حوالي الساعة الرابعة صباحاً وصلت المطار، فاستقبلني مساعد مدير المراسم بوزارة الخارجية.. كانت الطائرة من نوع (سكاي ماستر) التي سبق أن حازت ثقتي حين نقلتني من بيروت إلى جدة بالسلامة.. أقلعت الطائرة من جدة حوالي الساعة الرابعة، وحطت بمطار الطائف حوالي الساعة الخامسة.. إن مطار الطائف بدائي ليس فيه أي أثر من آثار التسهيلات الحديثة للطيران؛ فلا مدرج، ولا برج، ولا إشارات أرضية، أو غير ذلك مما تقتضيه سلامة الملاحة الجوية.. حطت الطائرة على رقعة من الأرض لا تخلو من الصخور المتناثرة في أرجائها، وبعد أن نزل بعض المسافرين أقلعت ثانية متوجهة إلى الرياض.

تطلعت من نافذة الطائرة وهي تتهادى في السماء فلم أجد شيئاً يلفت النظر: صحراء قفر لا ترى فيها أثراً للحياة وليس فيها إلا كثبان الرمل وأخاديد السيول، وبعض الآكام والهضاب والتلال المبعثرة في بطاح البادية المترامية الأطراف.. بلغت الطائرة الرياض بنحو من ثلاث ساعات وهي أقل من المدة المقررة للطيران بين جدة والرياض، ويرجع السبب في ذلك إلى الأحوال الجوية المواتية.. مطار الرياض أفضل بكثير من مطار الطائف، وفيه كثير من الوسائل الحديثة.. أما مدرجه ولو أنه غير معبد إلا أن تسويته الترابية فنية.

كان باستقبالي في المطار رشدي ملحس رئيس الشعبة السياسية بديوان الملك سعود، وصحبني بسيارة خاصة إلى قصر (المربع)، وكان مرافقي يشرح لي معالم المدينة، وينورني عن الأبنية الواقعة على جانبي الطريق؛ فقال: إن نفوس الرياض كانت إلى ما قبل عشر سنوات عشرين ألف نسمة، أما الآن فقد جاوز تعدادها نصف مليون: هذه البناية الشاهقة هي بناية فندق الرياض الحديث الذي سيفتح قريباً، وهو من أحدث الفنادق: هذه ثكنة الجيش النظامي، وتلك البناية هي المستشفى العسكري، وهذه العمارة التي تشيد الآن هي قصر الأمير فهد بن عبدالعزيز، وتلك المجموعة من البنايات العصرية هي الكلية العسكرية، وذلك القصر ذو الطراز القديم هو قصر الأميرة (نورة) عمة الملك سعود، والقصر الذي يقابلنا هو "القصر الأحمر" الذي سيتخذه الملك ديواناً له.

ها نحن دخلنا إلى ساحة قصر المربع، وإلى اليمين من مدخل القصر يقع ديوان مجلس الوزراء.. وقصر المربع

* دبلوماسي عراقي عمل وزيراً مفوضاً لدى المملكة العربية السعودية عام ١٣٧٣-١٩٥٤م، وكانت مدة إقامته في حدود سنتين.. كتب مذكراته على هيئة يوميات، ونشرها في كتاب سماه «المملكة العربية السعودية كما عرفتها» ومنه نقل هذا الجزء، كما نشر قبل ذلك كتابين هما «الإنجليز كما عرفتهم» و «أمريكا كما رأيتها»، وقد حاز المؤلف عام ١٩٥٢م على الجائزة الأولى للمجمع العلمي العراقي. ينظر: أمين المميز، المملكة العربية السعودية كما عرفتها،ط١، بيروت: دار الكتب، ١٩٦٣م.



مظلمة شرطي الحدود في بداية دخول السيارات إلى الرياض.
مناير، ١٣٧١-١٣٧٤هـ،
١٩٥٢-١٩٥٤م

الطريق الموصلة إلى قصر الناصرية. والترز، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

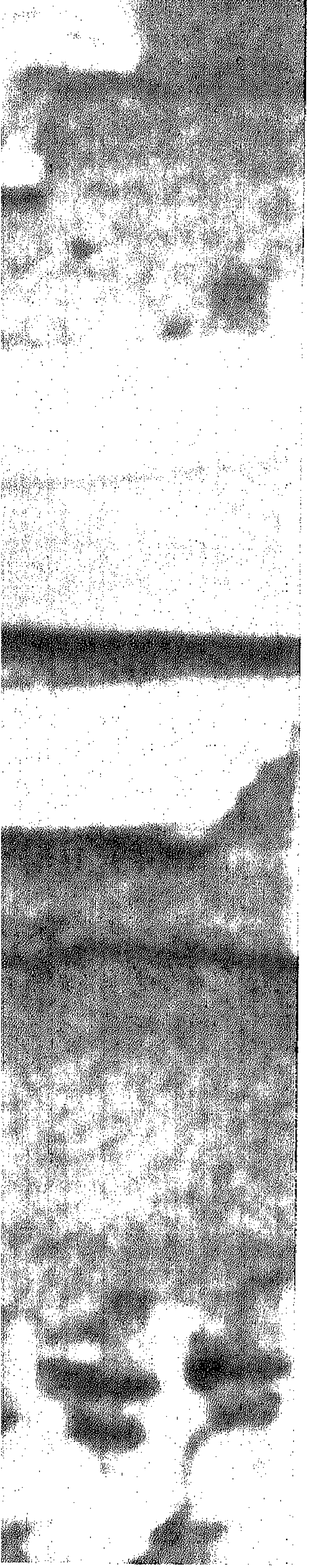


هـذه هـي دار الضيـافـة الملكـية في الرياض حيث ينزل ضيوف الملك البارزون.. وكان قد حل فيها أربعة من الملوك، ورئيس جمهورية: هم الملك عبد الله، والملك طلال، والملك حسين، والملك ظاهر شاه ملك الأفغان، وكميل شمعون رئيس جمهورية لبنان. ولا شك أنه إغراق في الإكرام والتقدير: أن أحل حيث حل الملوك ورؤساء الجمهوريات.

تقدمني مرافقي نحو صالة الاستقبال الفسيحة، وقد استقبلني فيها موجة منعشة من الهواء المبرد، بعد أن لفحني سَموم الرياض.. الصالة مفروشة بأفخر السجاد، ومـؤثـثـة بـالأثـاث المذهب مـن الـطـراز الـفـرنسي القـديم (ستيل).. شعرت أن مرافقي وقد أرهقه صوم ثمانية وعشرين يوماً كما أتعبته السنون العوادي يجب أن لا يتكلف أكثر مما تكلف؛ فشكرته على ما فعل، وودعني، وانصرف بعد أن اطمأن على راحتي في الجناح الذي أعد لإقامتي ، وبعد أن أخبرني بأن موعد تقديم أوراق الاعتماد سيكون بعد صلاة عصر هذا اليوم.

كانت الساعة العاشرة صباحاً أي بعد مرور ساعة ونصـف مـن وصـولي المربـع عـنـدمـا كـلـمـني رشـدي بالتلفون، وأخبرني بأن الملك سعود يرغب في استقبالي حالاً، ورجاني أن أكون حاضراً خلال ربع ساعة أو عشرين دقيقة على الأكثر..

وما هي إلا بضع دقائق حتى وصلت السيارة الملكية وفيها ضابط برتبة لواء قدم نفسه إليّ بأنه اللواء سعيد جودة ممثل جلالة الملك المعظم.. ركبت السيارة وهو إلى يساري تتقدمنا ثلة من الحرس على دراجات بخارية متوجهين نحو قصر بساتين الناصرية الذي يقع خارج الريـاض بمسافة بضعـة كيلومترات، ولما بلغنا المدخل الخارجي للقصر وجدت سرية من حرس الشرف أدت لي التحية، واستعرضتها استعراضاً خاطفاً دافعه الرأفة بحال هؤلاء الصائمين المعرضين لهذا السموم اللافح والشمس المحرقة.. بلغنا المدخل الداخلي للقصر حيث كان في استقبالي رشدي ملحس والرئيس عبد المنعم عقيل مرافق الملك وعدد من أفراد الحاشية والحجاب.. اصـطـحـبـني مـلـحس وعـقيل وتوجها بي نحو صالة العرض حيث جلس الملك سعود في صدرها وإلى يمين جلالته كرسي فخم، كما جلس إلى جهة الصالة اليمنى عدد من الوزراء والمستشارين، وكان وزير لبنان المفوض قد أشار عليّ بأن الملك سعود لا يستحسن حسر الرأس؛ ولذلك ارتديت الغترة لما دخلت عليه.. وما إن بلغت بضع مترات من الملك حتى قام ماداً يده إليّ مصافحاً، فسلمت عليه سلاماً عربياً رد عليه بمثله، ثم أشار عليّ بـالجلـوس إلى يمينـه، فـكـرر السلام والترحـاب، فرددت التحية بأحسن منها، ثم هنأته على صيامه ودعوت الله أن يجعله صياماً مقبولاً.. شعرت أن المقابلة قد طالت، فاستغرقت ساعة أو دونها بقليل.. وأن الملك صائم، فـقـلـت لـه: إن الأصـول تـقـضـي بـأن يـزود المـمـثـل الـدبـلـومـاسي المعـتـمـد مـن بـلـد إلى بـلـد آخـر بـأوراق اعتماده.. ولولا مراعاة هذه الأصول لما احتاج ممثل عربي معتمد من بلد عربي إلى بلد عربي أن يحمل معه أوراق اعـتـمـاده، فسـلـمـتـه مظروفين أحدهـما يتضـمـن كـتـاب اعـتـمـادي، والآخـر يتضـمـن كـتـاب اسـتـدعـاء





سلفي.. تسلمهما ونادى: يا خالد خذها.. فتقدم خالد أبو الوليد القرقني فاستلم المظروفين.. قام الملك وقمت وقام الوزراء والمستشارون، فتقدم الملك وتقدموا هم إليه، فقال: هؤلاء هم مستشارونا فتقدموا مني واحداً واحداً وسلموا عليّ، وكانوا: خالد أبو الوليد القرقني وجمال الحسيني والشيخ محمد سرور الصبان والشيخ عبد الرحمن الطبيشي، وآخر لم أتعرف عليه؛ إذ لم يعرفني أحد به ولا هو عرفني بنفسه، وقد لفت نظري غياب يوسف ياسين وهو نائب وزير الخارجية ويشترك عادة في مثل هذه المناسبات نيابة عن الأمير فيصل بوصفه وزيراً للخارجية.. وقبل أن أستأذن الملك بالانصراف تفضل ودعاني إلى الإفطار والعشاء على مائدته مساء هذا اليوم.

غادرت القصر بعد أن ودعت وفق المراسم المعتادة، ورافقني اللواء سعيد جودة والرئيس عبد المنعم عقيل إلى السيارة –وهنا حياني الرئيس المرافق مودعاً– ورافقني في السيارة اللواء سعيد الذي هو عراقي الأصل والمولد وقد ترك العراق إلى الحجاز منذ العهد العثماني.. وصلت قصر المربع وفق المراسيم التي أجريت لي لما غادرته إلى قصر بساتين الناصرية، فودعني مرافقي وانصرف وبقيت في المربع للقيلولة.. وقبيل الغروب حضر المرافق الأقدم ليصطحبني إلى القصر لحضور المأدبة الملكية.. ما إن اقتربنا من القصر حتى بدا من بعيد كأنه شعلة من نار تسطع في جبين البادية.. وقفت على المدخل الخارجي للقصر لأقرأ العبارات التي كتبت بالنيون على جبهته الخارجية.. إنها الآيات القرآنية الآتية:

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾﴿ولو لا إذْ دخلت جنتك قلت ما شاء الله...﴾﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقْبَى الدار﴾﴿وقل رب أدخلني مُدخل صدق ﴾.

التفت إلى الجبهة الداخلية من المدخل الرئيس للقصر وإذا بحكم وآيات أخرى قد سطرت بـ (النيون) أيضاً وهي " الحق أحق أن يتبع" و " هذا من فضل ربي" و "الله لطيف بعباده" .. بلغنا الحديقة الداخلية للقصر والشمس قد آذنت للمغيب، ولم يكن الملك قد خرج من القصر بعد؛ فأخذني الضابط المرافق نجوس حدائق القصر ونجوب ممراتها، ووقفنا برهة على حافة بركة السباحة.. خرج الملك يتبعه المرافقون والحجاب إلى الحديقة المعدة لجلوسه وقت الإفطار؛ وقد صفت كراسي في أطرافها الثلاثة؛ وفي الطرف الرابع وضع كرسي فخم وإلى جانبه جهاز التلفون.. تقدم الحاضرون وأنا معهم فسلمنا على الملك، ثم جلس وأشار عليّ بالجلوس إلى يمينه، وجلس إلى جنبي جمال الحسيني، ثم حضر عبد الله فيلبي وأخذ مكانه إلى جنب الحسيني، ولما حان وقت الإفطار سمى[1] الملك ودعاني وكلاً من جمال الحسيني وعبد الله فيلبي إلى المائدة الصغيرة التي لا تتسع إلا لأربعة أشخاص.

دخل الملك بحديث مع عبد الله فيلبي يبدو أنه تتمة لموضوع سبق أن تحدثا عنه، وكنت ألاحظ من سياقه بأن

(١) مصطلح دارج عند أهل نجد وهو يعني اختصاراً لكلمة "بسم الله" التي تسبق أكل المرء كما نصت على ذلك السنة المطهرة.

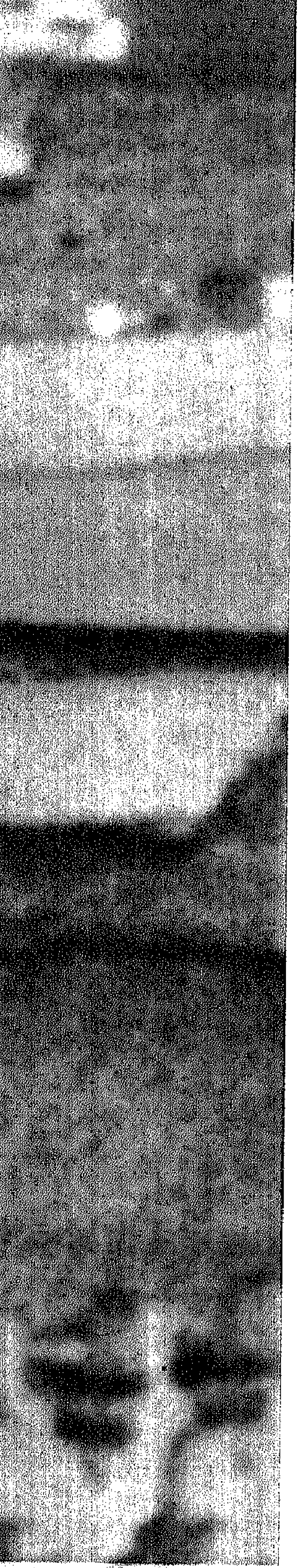
عبد الله فيلبي يصر على وجهة نظر معينة يظهر أنها كانت موضع أخذ ورد بينه وبين الملك، وكان فيلبي يقول للملك: نعم إنك الوحيد الذي تتمكن من أن تفعل شيئاً في هذا المضمار -فيما إذا عقدت العزم على ذلك- ولو لا حرصي على مصلحتكم وإخلاصي لكم لما جاهرت بهذا الرأي.. ولما انتهينا من الإفطار قام الملك وتوجه إلى مسجد القصر وأنا إلى يمينه ويتبعنا بقية الحاضرين ومعنا فيلبي لتأدية فريضة صلاة المغرب.. وبعد الصلاة توجهنا مع الملك إلى صالة الطعام يتبعنا الأمراء والوزراء وبقية الضيوف والزوار والضباط وبعض العمال ورجال العربان؛ فجلس الملك في المكان المعد له بصدر الطاولة، وجلست أنا إلى ركنها الأيمن، وجلس جمال الحسيني إلى الركن الأيسر، وجلس فيلبي إلى يميني بأمر من الملك، وأخذ الأمراء وبقية الحاضرين أمكنتهم على المائدة.. فرشت صالة الطعام بأفخر الأثاث المصنوع في كبريات مصانع الرياش الأوربية، ونسقت الموائد تنسيقاً غريباً أنيقاً ذا أبهة ملكية.. كان الملك مرحاً، يسبغ على ضيوفه حسن رعايته، وقد خص فيلبي بعطف خاص، وكان يداعبه بين الفينة والأخرى.. بدأ الملك بالحديث مع فيلبي وسأله: هل تعرفت على سعادة الوزير من قبل؟ .. فأجابه فيلبي: نحن أصدقاء قدماء طال عمرك.. فمال إليّ فيلبي وقال: أظن أننا التقينا آخر مرة في فندق بريسول في لندن سنة ١٩٤٦م في المأدبة التي أقيمت على شرف الملك عبد الله؟.. فأجبته بالإيجاب مثنياً على قوة ذاكرته.

الأربعاء ١ شوال - ٢ حزيران: أيقظني العبد في ساعة مبكرة من الصباح لأتهيأ لصلاة العيد، فارتديت الكسوة العربية التي أنعم عليّ بها الملك، واصطحبني رشدي ملحس إلى ظاهر الرياض، فقصدنا ساحة فسيحة أعدت لصلاة العيد يسمونها مسجد العيد.

لقد شقت السيارة طريقها بشق الأنفس، فقد اكتظ الشارع المؤدي إلى مسجد العيد بالناس، واصطفت فرق الإخوان على جانبي الشارع وهم متمنطقون البنادق أو السيوف وبعضهم شدوا الخناجر على البطون وتسلحوا بالعصي.. ولما بلغنا الساحة وجدناها غاصة على رحبها بالمصلين وقد افترشوا أرضها الصخرية، واصطفوا بصفوف منتظمة متراصة يصعب على المرء الولوج فيها أو اجتيازها.. إنه مشهد يلفت الأنظار، مشهد هؤلاء الألوف الذين غطوا رؤوسهم بالشماغ الأحمر المرقط بالأبيض، ولفوا عليه عمامة رفيعة من الخام الأبيض.

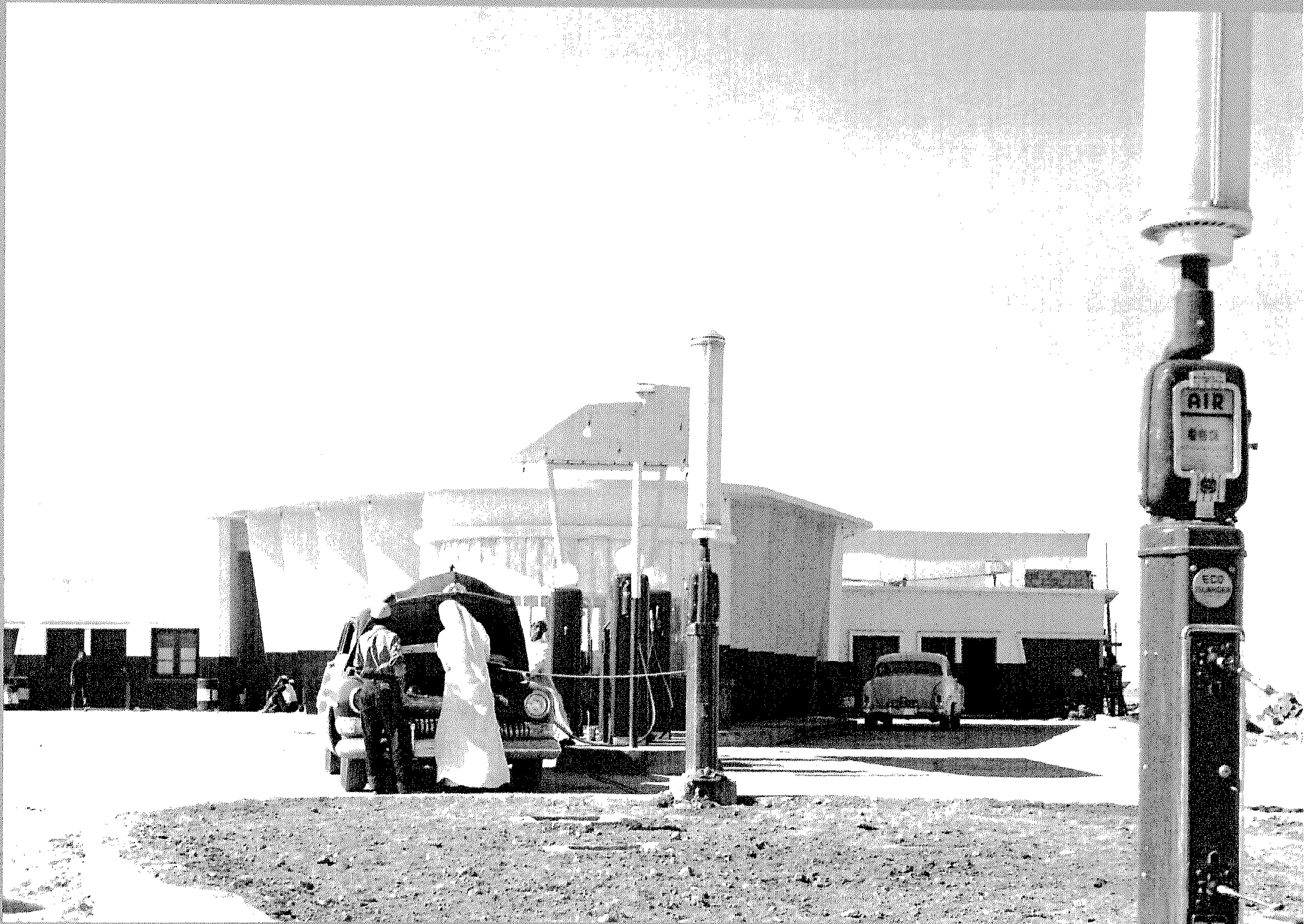
ثم قامت ضجة بين الواقفين على الباب، وعلت الأكف بالتصفيق إيذاناً بمقدم الملك، فدخل وهو محاط بعدد كبير من الخويا وهم بملابس موشاة بقصب الذهب يحملون البنادق والسيوف ومعهم الضباط ورجال الحرس ببزاتهم العسكرية، فتوجه الملك نحو المكان المخصص له أمام المنبر الذي اعتلته مكبرتان للصوت، فجلس على الأرض ليصغي بكل خشوع إلى القرآن الكريم، وجلس الأمراء والوزراء معهم في صف واحد خلف الملك.

ولما هَمَّ الملك بمغادرة مسجد العيد قال لي وهو يودعني: بأنه سيقصد المدينة ماشياً ليتفقد الرعية ويبارك لهم عيدهم.. فنادى رشدي وأمره بمرافقتي إلى قصر





إحدى محطات الوقود قرب مطار الرياض. والترز، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.



الديرة حيث سيستقبل المهنئين من الزعماء والعلماء وشيوخ القبائل ووجهاء القوم، فاستبقنا الموكب الملكي ووصلنا القصر قبل وصول الملك.. وكان هناك بعض الأمراء والوزراء بينهم الأمير فيصل بن تركي والشيخ محمد سرور الصبان والشيخ عبد الرحمن الطبيشي.. وفي صالة الاستقبال الفسيحة صفت الكراسي على جانبيها، ووضع في صدرها كرسيان ملكيان ضخمان يتوسطهما جهاز التلفون، ولما شرف الملك خرجت ومن معي من الأمراء والوزراء وغيرهم من علية القيوم. فاستقبلنا الملك من المدخل الرئيسي، وقد خصني جلالته برعاية وحدب جلب انتباه الحاضرين جميعاً، فلما صافحته ظل قابضاً على كفي إلى أن أجلسني على الكرسي الملكي إلى يمينه؛ وما إن جلسنا حتى جاء حامل القهوة وحامل الطيب، فتقهوينا وتطيبنا، وكان الأمير فيصل بن تركي بقامته الفارعة وهندامه الجميل واقفاً في خدمة الملك وإلى جنبه أمير آخر خجول الوجه بهي الطلعة يبدو في العقد الثاني من عمره، وهو الأمير سلمان ابن عبد العزيز أمير الرياض.

كان المهنئون يتوافدون تباعاً.. نادى الملك على رشدي ملحس قائلاً: يا رشدي خذ الضيف إلى مكان العيد.. أخذني رشدي إلى مكان العيد، وإذا به سطح فسيح من سطوح القصر نصبت فيه عشرات المناسف قطر الواحد منها متران تقريباً؛ وقد وضعت على مرافع علو المرفع قدمان تقريباً، وأحاط كل منسف أكثر من عشرة من الآكلين.. يأكلون بالأصابع الخمسة وبملء أفواههم من أكوام الرز المحمر تعلوها فطائم النياق كاملة أو مقطعة.. درنا بين هذه المناسف والناس يأكلون ويحمدون ويشكرون ويدعون، وأمير الرياض يتنقل بينهم يكرمهم وينثر عليهم ألطافه ويوزع بينهم ابتساماته.

نادى الملك على رشدي وأمره أن يصحبني.. رافقني رشدي إلى قصر المربع أطلب فيه قسطاً من الراحة، وودعني وانصرف دون أن يعلمني ماذا سيكون منهاج بقية النهار والليل.. فتغديت واسترحت تكيلت، (أي تقيلت من القيلولة)، ثم خرجت أطوف بالرياض لأتعرف على معالمها، ورغبت إلى السائق أن يأخذني إلى قلعة (المصمك) وهي أول ما وددت أن أشاهده في الرياض لما لها من مغزى في تاريخ البلاد الحديث.. تقع هذه القلعة في القسم القديم من الرياض، فدخلنا من الباب المسمى باب الثميري، ثم سلكت السيارة مسالك ضيقة.. لم ينج السائق بالرغم من براعته في السياقة من أن يرطمها جانباً بسيارة أخرى عارضته في الطريق الضيق، فلما بلغنا القلعة خرج حارسها يستقصي الخبر، فهمس السائق بأذنه بأني ضيف الملك، وأني وزير العراق أروم مشاهدة القلعة.. وبعد مشاورات ومناقشات بين السائق والحارس أمن الأخير بالقدر، ففتح الباب بنصف مصراع وأدخلني القلعة؛ ثم تركني السائق وذهب ليرفع تقريراً إلى ناظر الخاصة الملكية بالحادث الذي أصاب السيارة وليبرر بأن الذنب ليس ذنبه.

ومن أظرف ما رأيت في هذه القلعة هو الجهاز الذي كان يستعمل لإطفاء الباب إذا ما أشعل عدو النار فيه، فقد أعدت على سطح القلعة بركة تنفذ منها ميازيب

مسلطة فوق الباب، فإذا اشتعلت النار في الباب فتحت الميازيب لتطفئ النار[1].. ثم أخذني إلى دار جويسر ودار عجلان اللذين يبعدان قليلاً عن قلعة المصمك و لم يبق منهما إلا بعض الأطلال.. قصدت بعد ذلك مسجد الرياض الكبير الذي شيده الملك عبد العزيز في أواخر أيامه وهو من أوسع مساجد الرياض، ثم توجهت إلى قلب مدينة الرياض ومررت في محلة دخنة التي هي السوق الرئيس للبيع والشراء، وتشاهد أكوام الحبوب وأكداس التمور متراكمة أمام الحوانيت.. وكم كنت راغباً في التوغل في محلة «الشيخ» حيث يقطن علماء الوهابيين ورجال الدين وزعماء الأخوان، ولكني آثرت الابتعاد خشية المحاذير.. على أن الرياض القديمة ما زالت على حالتها المتأخرة و لم تتقدم كثيراً عما كانت عليه ليلة استعادها السعوديون من آل الرشيد: طرق وأزقة ضيقة ملتوية، وبيوت من الطين أبوابها من ألواح جذوع النخيل.. قلما ترى للدار شباكاً يطل على الطريق، إلا أن هناك فرقاً بيناً بين الرياض آنذاك.. والرياض اليوم هي هذه السيارات الفخمة من نوع كاديلاك ومن طراز فليتوود التي تتهادى في هذه الأزقة المتعرجة الوعرة، وقد كانت تشهد قبلاً الخيل والإبل.

أما وقد قدمت أوراق اعتمادي إلى الملك فقد أصبح بمقدوري الاتصال بالأوساط المختلفة، فصرت أقوم بنفسي بترتيب مواعيدي لمقابلة من أروم مقابلته، فأرسلت رسولاً إلى الأمير عبدالله بن عبد الرحمن عم الملك سعود وكبير مستشاريه أطلب موعداً لزيارته والسلام عليه، فحدد لي موعداً بعد العصر، فقصدت داره التي تقع في الرياض القديمة وهي واحدة من عدة عمارات وقصور يمتلكها الأمير.. وصلت القصر، ثم أدخلت على الأمير في مكتبه، فلاقاني ملاقاة ودية، ورحب بي أجمل ترحيب، وتركت النظرة الأولى انطباعاً طيباً في نفسي.. إنه كهل في العقد السادس أو نحوه من العمر، قصير القامة، نحيف البنية، رزين الحديث، تنم عيناه السوداوان عن ذكاء وقاد ممزوج بدهاء ومكر.

وقد كلمني بلهجة تقرب كثيراً من اللهجة العراقية، وكأني أصغي إلى بغدادي عريق من صوب الكرخ.. إنه جدي إلى أبعد الحدود، فلم تراود محياه ابتسامة من اللحظة التي قابلته فيها حتى اللحظة التي ودعته بها.. أدهشتني معلوماته الدقيقة عن العراق والبلاد العربية وأحوالها ورجالها وحكوماتها وظروفها ومشاكلها.. مع أن الرجل كما ذكر لم يغادر بلاده في حياته إلا يوم خرج مع أخيه الملك عبد العزيز لمقابلة الرئيس روزفلت على ظهر البارجة «كوينسي».

الخميس ٢ شوال – ٣ حزيران. خصصت صباح اليوم لإكمال طوافي وزياراتي ومشاهدة ما فاتني مشاهدته في اليومين السابقين من معالم الرياض الهامة، فطفت شوارعها الرئيسة وكلها مبلطة تبليطاً فنياً،

(١) الصحيح غير ما ذهب إليه المؤلف، ألا وهو أن هذه البركة كانت تملأ بالزيت المغلي أو الماء الحار، وتصب إذا ما هاجم مهاجم القلعة، وهي وسيلة معروفة قديماً وتوجد تقريباً في غالب القلاع الحربية.

وبعضها لا يقل سعة عن شوارع المدن الكبرى: الشارع المؤدي إلى المطار، الشارع المؤدي إلى محطة قطار الظهران، الشارع المؤدي إلى قصر بساتين الناصرية، الشوارع المؤدية إلى قصور الأمراء.. ومما استرعى انتباهي البذخ في السيارات وكثرتها في الشوارع وحتى في الطرق والأزقة الضيقة. رأيت ساحات فسيحة ازدحمت فيها السيارات المستعملة المعدة للبيع أو المهملة، ولاحظت أن أقدم ما فيها قد يكون أفضل من السيارات التي يتباهى بها شارع الرشيد في بغداد، ففي الرياض إذا أصاب السيارة عطب أو عطل فكثيراً ما تلقى إلى سقط المتاع بدلاً من أن يصلح المعطل أو يستبدل المعطوب.

تشيد العمارات والقصور والبنايات الحكومية بسرعة فائقة وهي منبثة في قلب الرياض وفي ضواحيها المترامية.. شاهدت مبنى وزارة المالية والوزارات الأخرى وبنايات الكلية العسكرية وبناية مستشفى الأمير سعود العسكري وثكنات الجيش ومسجد المطار ومنشآت المطار الأخرى، وتفقدت بناء الفندق الحديث الذي يمتلكه عبد الرحمن الطبيشي وزير الخاصة الملكية، والذي قال لي عنه المهندس المشرف: إنه سيكلف عدة ملايين من الدولارات.. وذلك لأن جهاز التكييف وحده قد كلف ربع مليون دولار.. ورأيت إلى جنب هذا الفندق بناية فخمة كان قد أنشأها الطبيشي لتكون مستشفى، ولكنه عدل عن ذلك، فأحالها إلى فندق من الدرجة الثانية، ورأيت بناية من أجمل ما رأيت في الرياض هي قصر خالد أبو الوليد القرقني.

ولعل أبرز ما يلفت نظر الزائر لهذه المدينة الصحراوية هو كثرة استعمال مكيفات الهواء التي صار القوم يستعملونها بإسراف كبير، فقد نصب في كل قصر وبيت ومكتب ومخزن ودكان أكثر مما تقتضيه الحاجة الطبيعية.. تلقيت عصر اليوم نبأً بأن الملك دعاني للعشاء في الناصرية.. قصدت القصر في الوقت المعين فوجدت المرافق الأقدم للملك بانتظاري على المدخل.. كان القصر هذا المساء أبهى وأزهى مما كان في الليلة الماضية، فقد ضوعفت الإنارة الكهربائية بمناسبة العيد فزادته بهجة وجمالاً.. تنزهنا في حديقة القصر قبل أن يؤذن المؤذن المغرب، ولما حان وقت الصلاة خرج الملك من مكتبه فرحب بي، ثم توجهنا جميعاً إلى مسجد القصر، وفي ردهة المسجد قدم إليّ ولده الكبير فهد، وهو شاب لطيف الملقى حلو الحديث.. وبعد الانتهاء من الصلاة قصدنا صالة الطعام، فأخذ الملك مقامه في صدر المائدة، وجلس جمال الحسيني في المكان الذي جلس فيه قبلاً، كما أشار إليّ أن أجلس على المقعد الذي إلى يمين جلالته، وكان الكرسي الذي إلى يميني خالياً، ولما دخل الشيخ يوسف ياسين بعد بضع دقائق من دخولنا هم بالجلوس بعيداً عني ولكن الملك نادى عليه: أن يجلس إلى جنبي.

غادرنا صالة الطعام نحو مستشرف القصر، وفي الرواق المؤدي إلى الطارمة وقف الملك ونادى على أحد الخدم: افتح هذا الباب يا ولد.. فتح الباب، وإذا هو باب صالة كبرى قال الملك عنها: بأنها الصالة المعدة للحفلات والمآدب الكبرى التي تقام أثناء زيارة الملوك والعظماء، وبمناسبة انتقال العرش إلينا كان يجلس فيها

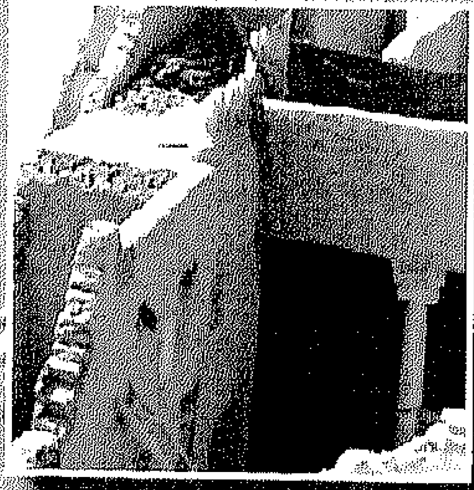
كل مرة ثلاثة آلاف شخص من البدو الذين جاؤوا للرياض لتهنئتنا.

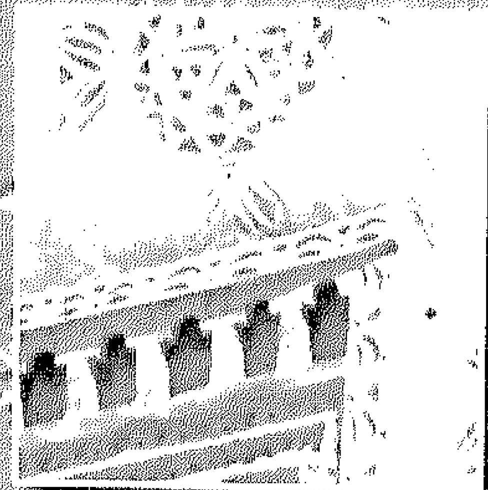
الجمعة ٣ شوال - ٤ حزيران غادرت المربع إلى مطار الرياض، وبعد بضع دقائق من وصولي المطار وصل الرئيس عبد المنعم عقيل المرافق الأقدم للملك سعود، فاعتذر عن التأخير، وقال: إنه قد بات في المربع ليرافقني من هناك، ولكني بكرت كثيراً في الخروج إلى المطار.

لما آن أوان السفر ودعني الشيخ يوسف والرئيس عبد المنعم وحمود الخلف مدير مطار الرياض.. استقللت الطائرة، وكانت من نوع داكوتا، فأقلعت من مطار الرياض الساعة الثانية عشرة عربية صباحاً، وبلغت جدة الساعة الرابعة بعد أن توقفت في الطائف خمس عشرة دقيقة.



محمد كامل حته ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م





الزخارف الداخلية لأحد المنازل التي أزيلت لتوسعة الطريق بالرياض. والترز، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.



محمد كامل حتة*

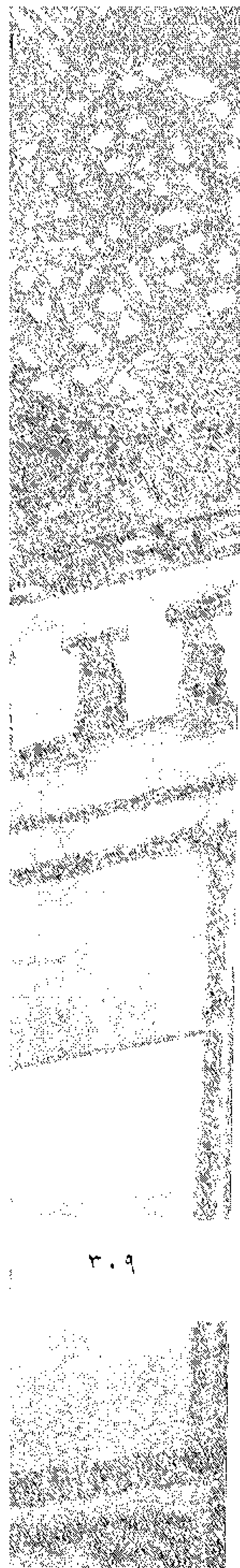
١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م

في فجر يوم الثلاثاء ٢ رجب ١٣٧٥ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٩٥٦ تحركت الطائرة من مطار جدة في طريقها إلى الرياض، وهي تقل أعضاء الوفد برئاسة الأستاذ أحمد زكي المدير العام للتعليم الثانوي، ويضم الوفد الأساتذة محمد عبد الرحمن عطية مدير مدارس الأهرام، ومحمد مختار شقير العضو الفني بإدارة الثقافة العامة، ومحيي الدين أبو شادي مدير العلاقات بإدارة الشئون العامة وكاتب هذه السطور.

وبعد نحو ثلاث ساعات كانت الطائرة تهبط بنا في مطار الرياض، وكان في استقبالنا بالمطار الشيخ صالح فضائلي التشريفاتي بالقصر الملكي، فصحبنا إلى فندق الرياض حيث نزلنا في ضيافة جلالة الملك، ثم حضر إلى الفندق سعادة الشيخ صالح إسلام رئيس التشريفات وقتئذ، وأبلغنا تحيات جلالة الملك ودعوتنا لتناول العشاء على مائدة جلالته، ونظم لنا جولة في الرياض في الفترة الباقية من النهار حتى موعد العشاء، وصحبنا في هذه الجولة الأستاذ ماجد مدني التشريفاتي، فخرجنا بالسيارات نجوب شوارع الرياض، ونأخذ فكرة عامة عن عاصمة البلاد.

إن الرياض عاصمة عجيبة في تكوينها ومعالمها؛ فإنك لتجد فيها كثيراً من المفارقات التي تصور مدى ما نالها وينالها من تطور سريع.. ما زال لسرعته يجمع بين الماضي والحاضر في إطار واحد.. تجد فيها صورة الرياض القديمة ، تلك البلدة التي كانت مقر الإمارة في عهد آل سعود، ثم صارت دولة بينهم وبين آل الرشيد فترة من الزمن حتى استردها الملك عبد العزيز على تلك الصورة التي كانت أشبه بالأساطير.. والرياض القديمة هذه ما زالت قائمة بمبانيها التي تشبه القلاع وبشوارعها الضيقة.. ومن هذه المباني القائمة ذلك القصر الذي شهد الموقعة الحاسمة بين الملك عبد العزيز والأمير عجلان ليلة فتح الرياض، ومنها كذلك قصر المربع الذي أنشأه الملك عبد العزيز والذي يبلغ عدد حجراته ألف حجرة.. هذه صورة للرياض القديمة، بل الرياض إلى ما قبل سنوات.. أما الرياض في صورتها الحديثة التي طغت على صورها القديمة فشيء آخر، وهنا نقف قليلاً عند نقطة هامة في تاريخ الرياض، ففي الليلة التي فتح فيها الملك عبد العزيز الرياض ولد الأمير سعود.. ومنذ تولى الأمير سعود ولاية العهد بدا تاريخ الرياض في عهدها الحديث، ثم حين تولى الملك انطلقت مشاريع النهضة والعمران تحيل هذه البلدة القديمة الثاوية في أعماق الصحراء إلى عاصمة من أكبر عواصم الشرق؛ فهذه الشوارع المسفلتة الواسعة التي تمتد في كل مكان وهذه العمائر الضخمة: كلية الملك عبد العزيز الحربية، والمستشفى العسكري،

* محمد كامل حتة كاتب وعضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب في مصر، ويعمل في ميدان الصحافة.. أصدر ٢٥ كتاباً في التاريخ والاجتماع والتراجم والرحلات.. نقلت هذه المقتطفات من كتابه المعنون بـ"في أرض المعجزات"، ثم طبع الكتاب مرة أخرى، وأصبح عنوانه "في ظلال الحرمين" .. ينظر: محمد كامل حتة، في أرض المعجزات، دار الكتاب المصري، (د.ت).



عملية شق أحد الطرق الواسعة
بمدينة الرياض.
١٣٧٤هـ/١٩٥٥م

المستشفى العسكري بمدينة الرياض. والترز، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.





والمستشفى العام، ودار البلدية، وقصور الناصرية والحمراء، ومرافق الكهرباء والماء، ودور الوزارات التي أوشكت على التمام، والمعاهد التعليمية، ودار المحكمة الشرعية، والإقطاعيات التي منحتها الحكومة للأفراد فقامت فيها العمائر والفيلات.. هذه المعالم الحديثة التي تسابق الزمن في ميادين النهضة والعمران، والتي تمت في سنوات قلائل هي الصورة الحديثة للرياض عاصمة المملكة العربية السعودية.. وأدينا صلاة المغرب جماعة في قصر الحمراء، وكان الملك سعود في جولة تفقدية خارج القصر، ثم وصل جلالته بعد نصف ساعة، ودخلنا عليه في قاعة فسيحة الأرجاء، فاستقبلنا بالبشر والترحاب.. وفي صباح اليوم التالي صحبنا الأستاذ خالد خليفة التشريفاتي في جولة نشاهد فيها بعض المرافق الهامة في الرياض؛ وبدأنا بزيارة المدرسة النموذجية لأنجال جلالة الملك، وهي في قصور الناصرية التي تعد من أجمل القصور بحدائقها الغناء ومبانيها الجميلة، وهذه المدرسة ليست قاصرة على أنجال الملك وأمراء الأسرة المالكة، ولكنها تضم عدداً كبيراً من أبناء الشعب؛ إذ يبلغ عدد تلاميذها ٢٢٣ تلميذاً، منهم ٨٣ من أبناء الأسرة المالكة، والباقون من أبناء الشعب.. وصادف دخولنا المدرسة موعد الإذاعة المدرسية، فاستمعنا إلى برنامج متنوع قدمه التلاميذ يشمل بعض الأحاديث الاجتماعية والثقافية والتمثيليات والأخبار العالمية والمحلية.. ودُعِيَ الأستاذ أحمد زكي إلى إلقاء كلمة في الإذاعة، ثم وجهت إليه عدة أسئلة عن الرحلة ومشاهدها، وعن رأيه في التعليم بالمملكة العربية السعودية، ومقارنته بالتعليم في مصر.. وشهدنا فصول الدراسة، وهي تتكون من ثلاثة أقسام: روضة، وابتدائي، وثانوي.. كما شهدنا ألوان النشاط الاجتماعي والثقافي والرياضي الذي خصص له نصيب كبير في برنامج الدراسة.. ويدير المدرسة الأستاذ عثمان الصالح، وتتألف هيئة التدريس والإشراف من ٢١ أستاذاً منهم ١٥ من المصريين.

ثم قصدنا إلى كلية الملك عبد العزيز الحربية، وقد أقيمت مبانيها على مساحة واسعة على أحدث طراز في العمارة، واستقبلنا هناك القائد علي زين العابدين مدير الكلية، وصحبنا إلى فصول الدراسة العلمية والعملية وإلى مساكن الطلبة وناديهم وإلى المسرح العسكري الذي أقيم في صالة فخمة تفوق أرقى صالات العرض العامة.

ويبلغ عدد الطلبة نحو مئة طالب يتناول كل منهم راتباً يبلغ ٤٥٠ ريالاً أي ٤٥ جنيهاً في الشهر.. عدا نفقات الدراسة والإقامة، وبالكلية ٣٠ أستاذاً من العسكريين والمدنيين أغلبهم من الضباط والمدرسين المصريين، وقد أقيمت لهم إلى جوار الكلية مساكن حديثة تتوافر فيها الكهرباء والماء وتكييف الهواء.. ولما كانت مدينة الرياض هي مركز النفوذ الديني في البلاد، وبها يقيم فضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم المفتي الأكبر (حفيد الإمام محمد بن عبد الوهاب) فقد كان للتعليم الديني فيها مقام ملحوظ؛ إذ يقوم بها المعهد الديني الكبير في قصر تبرع به الأمير فيصل ولي العهد، وقد تقرر إقامة جامعة الرياض الدينية واعتمد لإنشائها مليونان من الريالات.. وقد زرنا هذا المعهد الذي



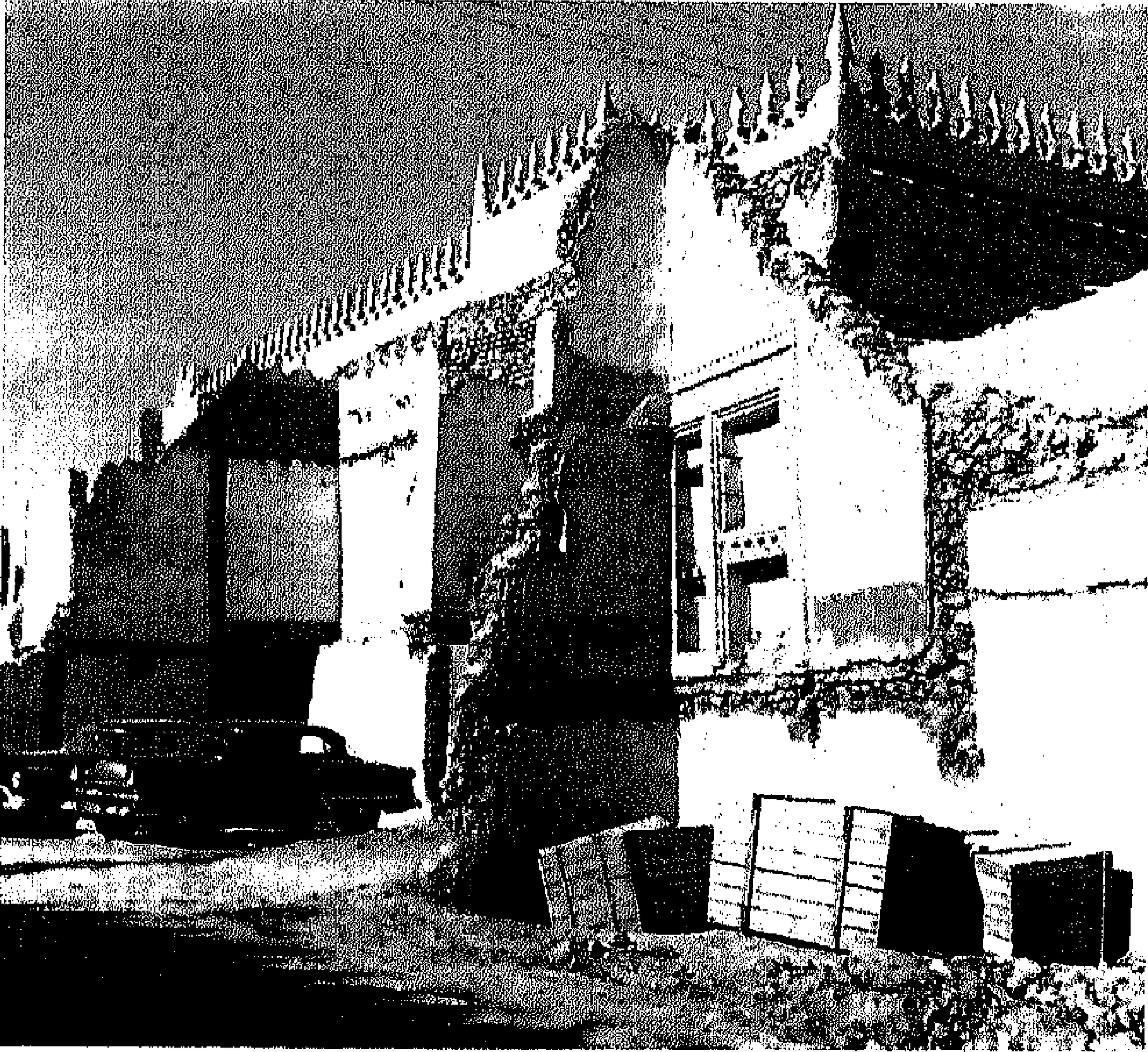
يشرف عليه فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، شقيق المفتي الأكبر، وتتبعه ستة معاهد أخرى في بريدة وشقراء وعنيزة والمجمعة والأحساء وسامطة، وتتبعه كذلك كلية للغة العربية، وأخرى للعلوم الشرعية.

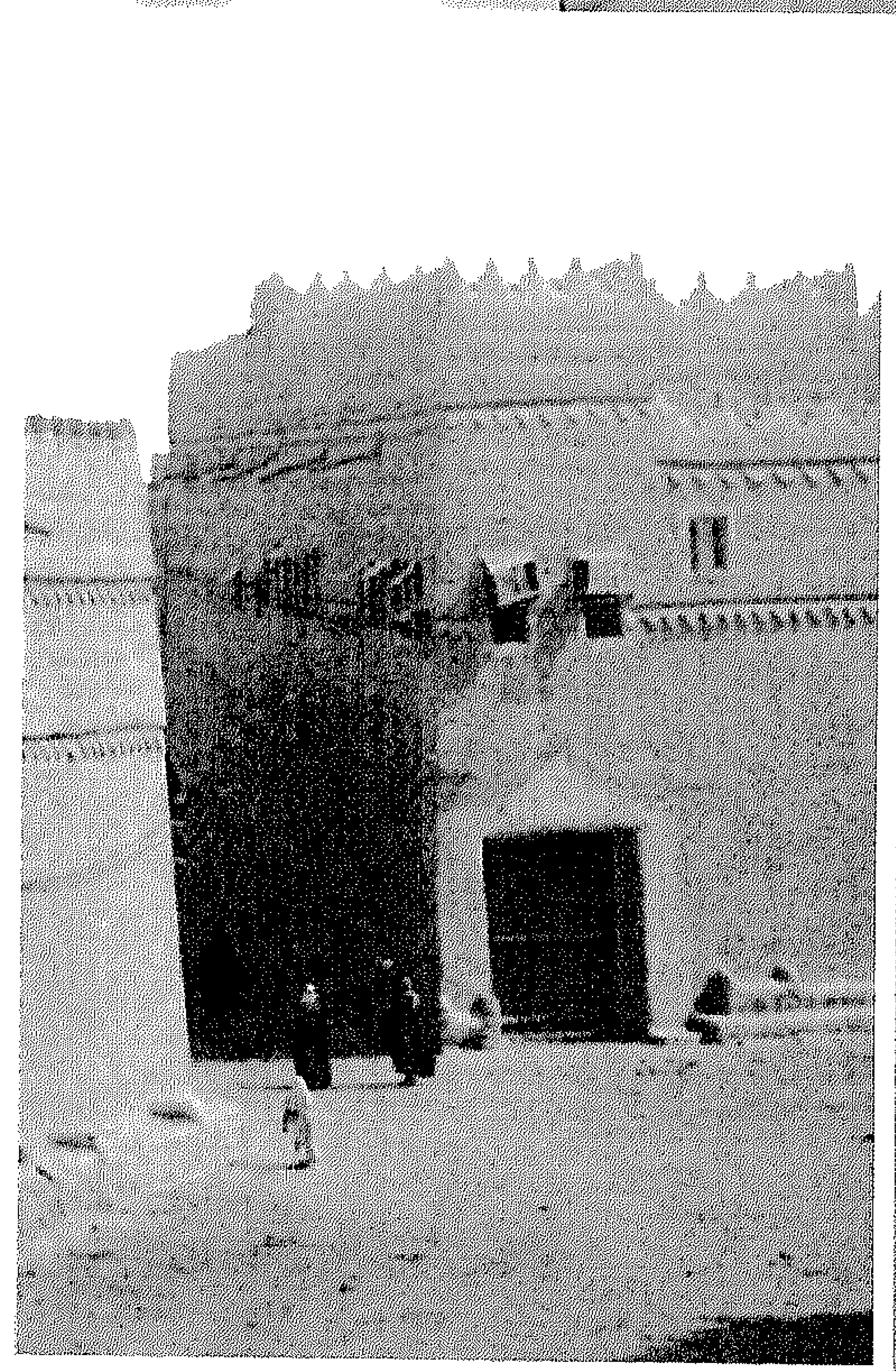
وتبلغ ميزانية هذا المعهد وفروعه ٧,٤٩٤,٨٩٠ ريال عربي أي نحو ٧٥٠ ألف جنيه، وعدد طلبتها ١٥٤٦ طالباً. منهم ٦١٥ طالباً في القسم التمهيدي، و٨٧٢ طالباً في القسم الثانوي، و٥٩ طالباً في كليتي الشريعة واللغة العربية، ويصرف لكل طالب راتب شهري يتراوح بين ٧٠ ريالاً و ٦٣٠ ريالاً.

وتتألف هيئة التدريس من ١١٤ أستاذاً منهم ٥٧ من أساتذة الأزهر عدا ٣٢ موظفاً للمراقبة والإدارة والأعمال الكتابية، وفي الرياض مستشفى الملك سعود العسكري، ويقوم في بناية فخمة تتوافر فيها أحدث الأجهزة للكشف والعلاج، ويضم نحو ٤٠٠ سرير، وقد بلغ عدد الذين عولجوا فيه خلال ستة أشهر ٥٠٠ شخص عدا الذين يترددون على عيادته الخارجية من العسكريين والمدنيين.. وخارج مدينة الرياض تقع محطة سكة الحديد التي تربط العاصمة بالمنطقة الشرقية حتى ميناء الدمام على الخليج العربي، وقد افتتح هذا الخط الحديدي الأول في المملكة يوم ١٩ محرم سنة ١٣٧١هـ في عهد المغفور له الملك عبد العزيز – رحمه الله – وبلغت نفقات إنشائه ٢٠٠ مليون ريال عربي، أي ٢٠ مليون جنيه، وبلغت موارد هذا الخط من أجور الركاب والبضائع نحو عشرة ملايين جنية في مدى خمس سنوات.. وبإنشاء هذا الخط الحديدي الذي يبلغ طوله ٥٥٦ كيلاً انتعشت الحياة الاقتصادية والاجتماعية على طول الطريق الذي يخترقه في هذه المنطقة، كما ساعد هذا الخط على تزويد الرياض بروافد النهضة الجبارة التي تقوم الآن في جميع الميادين، وتيسير المواصلات للحجاج القادمين من الشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسي.

وقد صرح لنا الأمير سلطان وزير المواصلات حين زرنا سموه في قصره بالرياض بأن وزارته تدرس مشروعاً لمد هذا الخط الحديدي إلى مكة والمدينة المنورة، وبذلك تتم شبكة المواصلات بين جميع أجزاء المملكة.. وبمناسبة الحديث عن المواصلات في المملكة العربية السعودية يجمل بنا أن نشير إلى المواصلات اللاسلكية، والبرقية والتلفونية؛ فإنها تعد من الأجهزة الهامة في هذه الدولة المترامية الأطراف، وكانت آخر مرحلة في المواصلات التلفونية هي تعميم التلفون الأوتوماتيكي.

بقايا بعض المنازل التي أزيلت لتوسعة الشارع في الرياض. والترز، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.





كارل تويتشل ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م





كارل تويتشل*

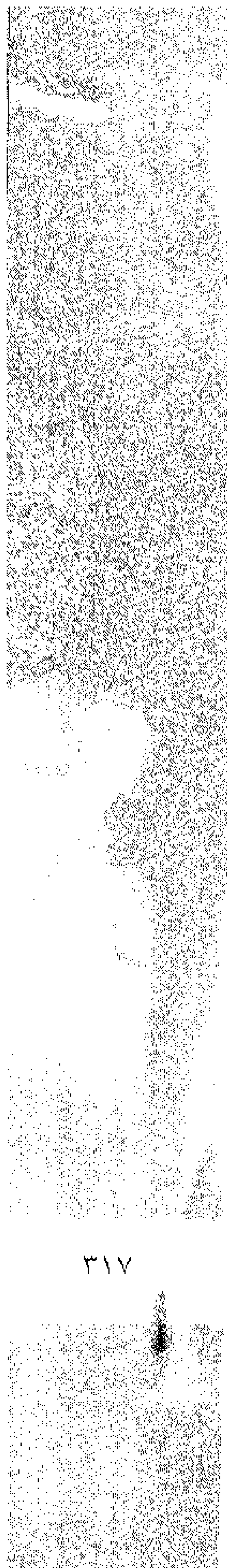
K. S. Twitchell

١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م

تقع الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية في وادي حنيفة على ارتفاع ١,٧٠٠ قدم فوق سطح البحر. لقد ازدادت وتوسعت بصورة هائلة في السنوات القليلة الماضية؛ ففي عام ١٩٤٦م قدر تعداد سكانها بنحو ٦٠,٠٠٠ نسمة، وفي عام ١٩٥٢م بنحو ٨٠,٠٠٠ نسمة، ووصل عدد سكانها في عام ١٩٥٧م ٣٥٠,٠٠٠ نسمة.. كان لانتقال أغلب الدوائر الحكومية للرياض، بالإضافة للتزايد الكبير في حجم التبادل التجاري مع منطقة الخليج العربي، وتدشين خط السكة الحديد، وتنامي حجم نشاط أغلب المرافق الحكومية بالمدينة: مؤشر وتفسير لهذا النماء أو التطور الهائل.. وكان لاكتشاف الاحتياطي الضخم للمياه السطحية دورٌ عظيم في التوسع السريع في الرقعة الجغرافية للمدينة؛ لتوفر إمكانية إقامة مزارع عامرة حول الأحزمة السكنية.. هذا وقد أولت الحكومة اهتماماً بالغاً بهذا الشأن بتخصيصها مبلغ ٤٦٤,٠٢٢ دولار في ميزانيتها عام ١٩٥٧م لمشروع سد الرياض.. شيدت القصور منذ سنوات طويلة في البداية بواسطة الملك عبد العزيز ابن سعود ومن ثم أبنائه الأمراء بعده.. أكبر تلك القصور الذي شيد على النمط القديم يسمى المربع أو القصر المربع.. شيد هذا القصر من طابقين من الطوب المجفف شمسياً وبسقف مستوٍ على النمطية السعودية المألوفة، وبشرفات سقف حول حافته.. هذا بالإضافة إلى العدد الكبير من المساكن الملكية الأخرى.. جميعها بساحات رئيسة لا شك في أنها تمثل التصاميم السامية القديمة في البناء.. هذا الطراز المعماري نقله العرب إلى إسبانيا التي منها انتشر في دول العالم الجديد، وظل متبعاً بأشكال مختلفة، ولكن بصورة ملحوظة في فناءات مباني المكسيك: أمريكا الجنوبية، والولايات المطلة على ساحل المحيط الهادي في الولايات المتحدة.. هذا النوع من البناء مغاير ومختلف جداً عن الأنماط المعمارية الحديثة المنتشرة حالياً بين الأبنية الحديثة التي تتميز بها أوروبا.. النوع القديم يعد أنموذجاً في نجد.

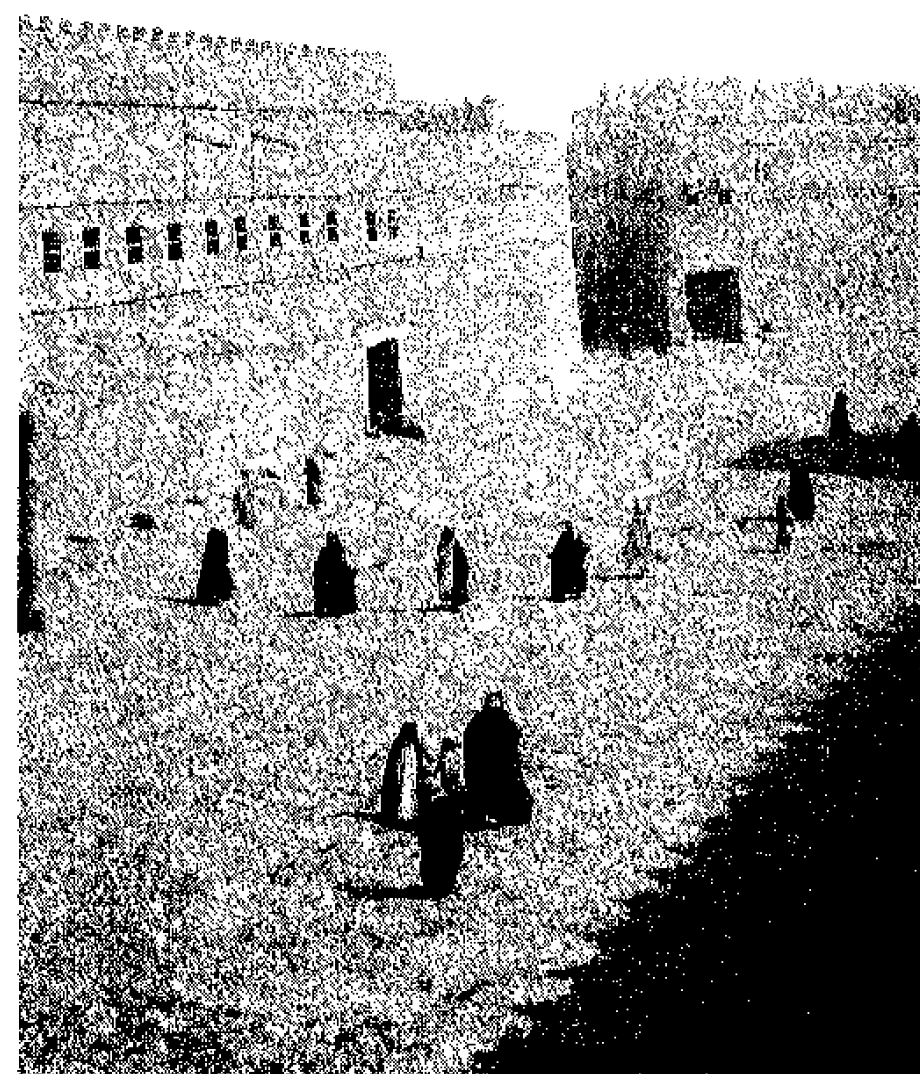
لقد بذلت جهود وافرة لتطوير الرياض وجعلها عاصمة جديرة بمكانة بلد إسلامي كبير. وذكرت التقارير بأن مبلغاً ضخماً وصل إلى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار قد أنفق لتحقيق هذا الهدف.. الملك سعود لديه

* كارل تويتشل مهندس أمريكي زار المملكة العربية السعودية لأول مرة عام ١٩٣٢م بتكليف من رجل الأعمال الأمريكي الشهير تشارلز كرين لمساعدة الملك عبد العزيز في استكشاف إمكانات المملكة المائية والمعدنية.. تجول في المناطق المختلفة من المملكة واستكشف إمكانات وجود النفط بها.. أدى دوراً رئيساً في تقديم الملك عبد العزيز للشركات الأمريكية ونجحت جهوده، وتم امتياز النفط للشركات الأمريكية التي أصبحت لاحقاً أرامكوب، وبقي يعمل في المملكة لفترة طويلة، كتب تجربته عما شهدته المملكة من تطور في كتاب خاص عن المملكة، ومن هذا الكتاب تم اقتباس ما كتبه عن الرياض.. ينظر كتابه:
K. S. Twitchell ,Saudi Arabia: With An Account of the Development of Its Natural Resources.
New York: Greenwood Press Publishers, 1969, PP., 116-121.



أحد شوارع الرياض.
تويتشل، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.

ساحة الصفاة.
تويتشل، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م.





فناء قصر الحكم ويبدو فيه الناس والسيارات. تويتشل، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.



قصران في الرياض، ومثله الأمير فيصل.. وتوجد كذلك العديد من القصور التي كانت لأمراء كبار في العائلة الملكية.. ولسنوات طويلة استخدمت كثير من القصور بصفتها بيوتاً للضيافة، ولكن كثيراً من بيوت الضيافة الفخمة قد اكتمل تشييدها.. إنها حديثة من كافة النواحي، بما في ذلك وسائل الإضاءة وأنابيب المياه التي كانت في الماضي لا وجود لها؛ ولكن هنالك سحر وجمال في البيئة القديمة؛ فالصورة الضخمة للملك عبد العزيز مع وزرائه ومستشاريه وأصدقائه وهم جالسون على الأرض حول مائدة الطعام التي حوت خروفاً في وسط الأرز البخاري، وكثيراً من أطباق الدجاج، والشوربة، والخضراوات، والفواكه والحلويات: جعلت الصورة لا تنسى.. إن مثل ذلك الجو العام المفعم بالمحبة يصعب استنساخه حول الموائد الحديثة بكراسيها في هذا الزمان.

ويستضيف الملك سعود يومياً في الرياض ما يقارب ١٠,٠٠٠ وما لا يقل عن ٨٠٠ ضيف، وأعتقد بأن هذه الأرقام الكبيرة تشمل الأعداد الضخمة من زعماء القبائل البدوية وشيوخ القبائل الذين يزورون الرياض دورياً لتسلم المعونات المالية السنوية.

يوجد إلى جانب بيوت الضيافة فندقان جديدان: فندق سكة الحديد[1]، وفندق المطار[2].. والاثنان معاً ذكرت التقارير اكتمالهما على نمط حديث وفخم، وإبان الفترة الأولى من عهده شيّد الملك عبد العزيز بالرياض محطة اتصال ماركوني ليسهل عليه الاتصال بجميع المدن الكبيرة.. الهواتف ركبت في أرجاء المدينة، وفي عام ١٩٥٦م افتُتح خط هاتفي جديد مكن من التحدث مع القاهرة.. يوجد الآن اتصال مباشر مع أمريكا وأوربا عن طريق الهاتف والبرق، وقد خصص مبلغ ٢٣٧,٤٨١ دولاراً في ميزانية عام ١٩٥٧م لتمويل مشروع هاتف الرياض.. الحاكم الحالي شديد الاهتمام بالصحة والتعليم، وقد شارف المستشفى الحكومي الفخم على الاكتمال حيث خصص مبلغ مقداره ٥٥١,٩٢٣ دولاراً لهذا الغرض، بينما أدرج مبلغ ١٧٧,٧٥٠ دولاراً في ميزانية عام ١٩٥٧م بغرض تمويل إنشاء أربعة مستوصفات هي الأخرى بالرياض.

ازداد عدد الحدائق والمنتزهات زيادة هائلة كما وُسعت الطرق وزُينت بزراعة الأشجار والشتول حولها، وأعتقد بأن هذه كان تمويلها ضمن مبلغ الـ ٦,١٢٠,٠٠٠ دولار الذي أدرج في ميزانية عام ١٩٥٧م لتمويل مشاريع الرياض.

كانت المصابيح أو اللمبات تضاء بالكيروسين المبخر بالهواء المضغوط من مضخات هوائية خاصة كانت في جميع الأحوال والأمكنة مصادر إضاءة القصور عندما

(١) يعرف فندق سكة الحديد هذا باسم فندق الرياض، وهو يعود في ملكيته للملك سعود، وعرف بفندق المحطة أيضاً لأنه قريب من محطة القطار قديماً.
(٢) فندق المطار هو فندق صحاري وهو من أقدم الفنادق في الرياض، ويليه في القدم فندق زهرة الشرق وكان ملكاً للأمير طلال بن عبد العزيز، والذي بناه مقاول يوناني كان قد بنى مستشفى المواساة في الإسكندرية، ثم تلا هذا الفندق فندق اليمامة وهو ملك للملك سعود.. وأخيراً آل إلى ملك ابن لادن. وبعد ذلك يأتي فندق الرياض الذي ذكرناه سابقاً.

السوق بمدينة الرياض. تويتشل، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.



زرت الرياض لأول مرة في عام ١٩٣٢م.. حالياً الكهرباء هي وسيلة الإضاءة، كما أنها مصدر الطاقة للأعداد المتزايدة من مضخات مياه الري.. فيما مضى كانت الحمير والثيران والجمال تستغل في رفع المياه في قِرَب (دلاء) مصنوعة من جلود الأغنام والأبقار، وفي عام ١٩٥٧م أدرج مبلغ قدره ١٠,٠٨٠,٠٠ دولار في الميزانية لتمويل إنشاء محطات إضافية لتوليد الطاقة الكهربية، وقد استغل خط سكة الحديد الجديد الذي يربط الرياض بمنطقة الخليج العربي في توريد الديزل في عربات صهريج من القطارات بغرض توفير وقود محطات توليد الطاقة الكهربية.. ولا شك في أن بنك الرياض حديث التأسيس قد سهل كثيراً من تيسير عمل المعاملات المالية للحكومة.

اكتملت أيضاً مبانٍ حديثة شيدت لتكون كلية الملك عبد العزيز الحربية، وهي فكرة المواطن السعودي الدكتور عمر خضرة المندوب الدائم للمملكة العربية السعودية بالأمم المتحدة، وقد شيدت مطابقة لأحسن المعاهد الغربية، وجهزت بكافة المعدات الضرورية لتدريب الضباط السعوديين في فنون الحرب.. هذا وتستطيع الكلية تدريب ٦٠٠ ضابط تقريباً كل سنة في علوم قوانين حركة القذائف البالستية وأسلحة الحرب الحديثة.. الضباط يبتعثون سنوياً إلى مصر، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية؛ لتلقي دراسات وتدريبات في جميع أوجه وفنون الحرب الحديثة.. هذا وقد دخلت المملكة العربية السعودية في اتفاقيات تعاقدية مع وزارة الدفاع بواشنطن؛ لتوفر للضباط السعوديين حق الدراسة لفترات تتراوح ما بين ستة شهور إلى سنة في العديد من القواعد العسكرية بأمريكا.

توجد عدة مصانع حربية تعمل على إنتاج أنواع مختلفة من الأسلحة والذخائر.. أعطت وزارة الدفاع اهتماماً خاصاً للمستشفيات العسكرية والعيادات المتنقلة وأنواع الخدمات الطبية الأخرى، وبأمر من الملك سعود نفذ مشروع الجامعة السعودية، وكانت جميع كلياتها وأقسامها حديثة الطابع، وأصبح المعهد الديني السعودي بمكتبته الضخمة مركزًا رئيساً للتعليم في كل البلد.

زيد عدد المدارس وتأهيل الأولية والثانوية التي أسست في الحقبة الماضية، كما تم تأسيس مدرسة لتعليم البنات مؤخراً، وأخيراً قامت زوجة الأمير فيصل برعاية دار للأيتام بمشاركة آخرين من العائلة الملكية.

تم تدشين خط السكة الحديد بطول ٣٥٧ ميلاً عبر حقول النفط الرئيسة إلى ميناء الدمام على الخليج العربي، وأجريت دراسة مسح لغرض مدّ خط سكة حديد ليربط عنيزة وبريدة والمدينة وجدة ومكة، وذكرت التقارير بأن عقد اتفاق التشييد قد وقع مع شركة موريسون وكندسون الأمريكية ولكن لم ترد أنباء بشأن الشروع في التنفيذ.

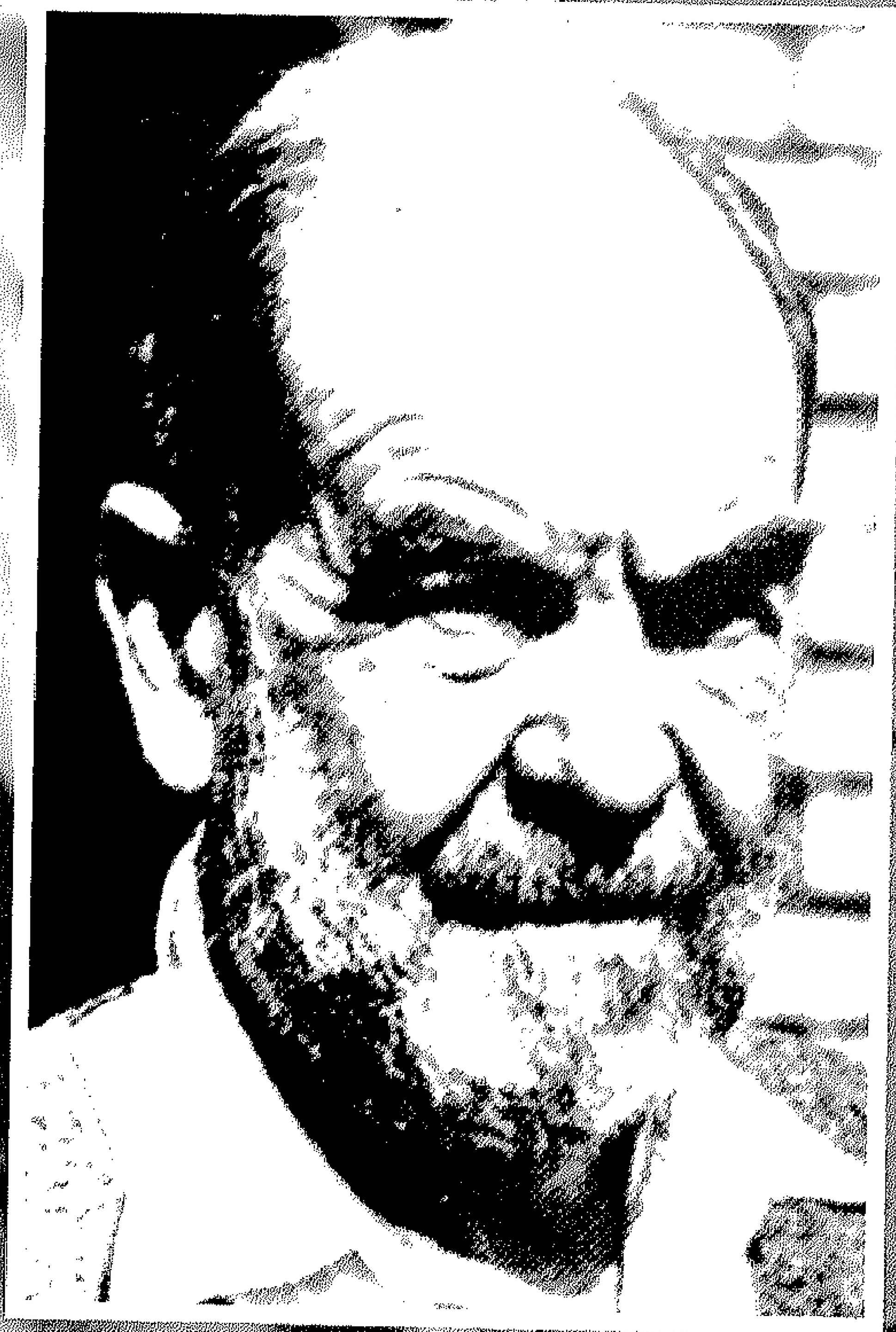
وعلى الرغم من أن الخدمات الجوية لم تؤسس إلا قبل سنوات قليلة، لكن يوجد الآن مطار حديث بمدرج مسفلت شمال الرياض حيث شيدته شركة بكتل

إنترناشونال.. هذا الميناء الجوي تتوافر فيه إضاءة جيدة لزوم العمليات الليلية.. إن التحول من الجمال بصفتها وسيلة نقل إلى الشاحنات ومن ثم إلى النقل الجوي كان سريعاً ومدهشاً؛ لأنه حدث في فترة وجيزة كانت بدايتها في عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.

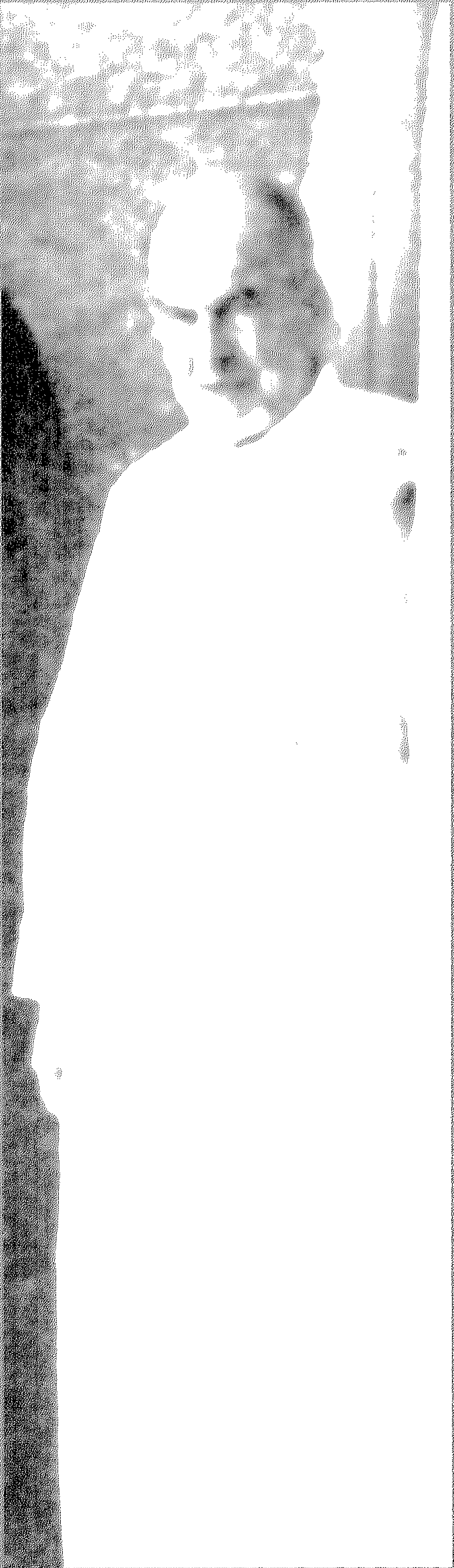
حركة السير بطيئة داخل وحول المدينة، ولكن مشروع تشييد الطريق العام قد سهل كثيراً انسياب حركة السير.. أما بشأن الطرق الواقعة حول الرياض فقد خصص ووفر له مبلغ قدره ١,٥٨٠,٩٨٥ دولاراً، ليسهل سرعة ونقل الفواكه والحبوب والخضراوات من المشاريع الزراعية ذائعة الصيت في الخرج التي تقع على بعد ٥٤ ميلاً جنوباً، وقد تم تدشين طريق مسفلت بعد تخصيص مبلغ ١,٦٢٠,٠٠٠ دولار من ميزانية عام ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م لهذا المشروع، وأنشئت محطات إذاعية تبث برامجها بالعربية من الرياض وكذلك من جدة ومكة، وذكرت التقارير بأن برامج تلك الإذاعات قد وسعت وزيدت.



الفناء الداخلي لقصر البديعة بالرياض.
تويتشل، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.



عبدالله فيلبي ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م



عبدالله فيلبي*
١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م

قبل مائة عام مضت لم يكن هناك أي أوروبي قد شاهد الرياض بالرغم من أن الكابتن ج. ف. سادلير قد مر بالقرب منها من ناحية الجنوب خلال مسيره من منفوحة إلى الدرعية عاصمة الوهابيين الأولى التي لم تلبث الرياض طويلاً أن حلّت محلها، وربما أنه كان معتقداً آنذاك أن يبقى المعقل الرئيس للمذهب التطهيري العربي إلى الأبد دون أن يطوله الفضول الغربي، وهو يقبع خلف سواتره الرملية غير القابلة للاختراق، ونفوره من الغرباء، وتمسكه الديني.

وعلى أي حال لم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً قبل سقوط هذا القناع لكي، يكشف عن أسرار وسط شبه الجزيرة العربية.. وخلال ستة أشهر الأخيرة من عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م قام وليم بالجريف بدءاً من غزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بالمرور مباشرة عبر قلب الجزيرة العربية حتى القطيف على ساحل الخليج العربي ممضياً في الرحلة خمسين يوماً (في الواقع ٣٨ يوماً اعتماداً على روايته) في الرياض نفسها.. وخلقت روايته للرحلة ضجة عميقة ومنحته شهرة سريعة بصفته مكتشفاً نادراً في حوليات الكشوف على الرغم من الشكوك من جانب خبراء مختصين.. وبعد بضع سنوات، وفي سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٥م سافرت بعثة بريطانية رسمية يرأسها السير لويس بلي المقيم الإنجليزي حينذاك في الخليج العربي من الكويت إلى الرياض وبالعكس ممضية بضعة أيام فقط في عاصمة الوهابيين في حديث مع الإمام المسن فيصل بن سعود[1] وخليفته المرتقب عبد الله الذي تسلم العرش عند وفاة والده بعد بضعة أشهر لاحقة.

نصف قرن قدر له أن يمضي قبل أن يأتي إلى الرياض زائر أوروبي آخر. وكان هذا هو الرحالة الدانمركي باركلي رونكيير الذي أمضى أقل من ثمان وأربعين ساعة في البلدة في ربيع الآخر ١٣٣٠هـ الموافق مارس عام ١٩١٢م، وفي ديسمبر من السنة نفسها قضى الكابتن. أ. ليتشمان، الذي قدم من دمشق أسبوعاً في القصر بصفته ضيف ابن سعود قبل أن يغادر الجزيرة العربية عبر الأحساء التي كانت تحت الاحتلال التركي، وأخيراً خلال خريف عام ١٩١٤م قضى وليم شكسبير الذي كان الممثل السياسي البريطاني في الكويت ثلاثة أيام في الرياض أثناء رحلته العظيمة من الكويت إلى السويس، وعند اندلاع الحرب أرسل مرة أخرى إلى ابن سعود ولكنه قتل في صفر ١٣٣٣هـ (الموافق يناير عام ١٩١٥م) إبان معركة جراب بين ابن سعود وقوات ابن رشيد.. ويجب أن يأتي ذكر للزيارة القصيرة للرياض في

* نشر فيلبي هذه المعلومات حول الرياض بمقالة كتبها لمجلة الشرق الأوسط التي يصدرها معهد الشرق الأوسط بواشنطن في عام ١٩٥٩م/١٣٧٩هـ. حولها ينظر: H. St. J. B. Philby Riyadh: Ancient and Modern. Middle East Journal,vol. 13,no. 2, Spring 1959; PP. 129-141.

(١) الصحيح أنه فيصل بن تركي بن عبدالله.

صيف عام ١٩١٧م التي قام بها الدكتور بول هاريسون، وهو منصر طبي أمريكي مشهور في الخليج العربي، والذي كان مدعواً من قبل ابن سعود ليعالج بعض الأمراض في العائلة المالكة.

هذه هي القائمة الكاملة لمن سبقني من الأوروبيين إلى الرياض التي وصلت إليها في ١٤ صفر ١٣٣٦هـ الموافق ثلاثين من نوفمبر لعام ١٩١٧م.. خمس وخمسون سنة تقريباً من يوم مغادرة بالجريف لذلك المكان، وسوف يتضح مما قلت أعلاه حول رحلاتهم المختلفة أنه لم يكن من بينهم -باستثناء واحد فقط- من كان لديه وقت كاف لاكتشاف كامل للعاصمة وما حولها، وليس من بينهم من حاول أن يزود العالم بأي شيء سوى وصف طفيف للمكان.. والاستثناء هو بالطبع بالجريف نفسه الذي لا يمكن بكل تأكيد أن يتهم بالشح في مسألة التفاصيل التاريخية والاجتماعية وحتى الجغرافية، والذي كتب عنه هوجارت، أعظم عالم في ذلك الوقت بمعارف الجزيرة العربية، في كتابه «اختراق الجزيرة العربية» المنشور سنة ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٥م: «تجول بالجريف في الرياض خمسين يوماً .. وكان مدركاً للمسؤولية العلمية في بقعة الوصول إليها غير سهل خلافاً لأي مكان آخر، وأوجد تحولاً فيما يتعلق بوصف وتعريف الظواهر الطبيعية والاجتماعية ودقة معلوماته الطبوغرافية العامة التي أيدها تقرير خلفه لويس بلي»[1].

وبخصوص وصفي للمكان القديم والنظام الذي أحببته جيداً والذي ما زلت أسفاً على انقضائه فإنني أمتلك ميزة على بالجريف الذي لم يعد إلى شبه الجزيرة العربية مطلقاً، وهي أنني أمضيت بقية حياتي في البلاد مشاهداً ومسجلاً تطورها خطوة خطوة، وعملية التغيير التي بدأت بصورة تدريجية ومتأنية.. إلا أنها اندفعت لاحقاً بسرعة متزايدة، وهي التي مكنت من تحقيق وانجاز

(١) شكك بعض الكتاب في صحة قيام بالجريف برحلته إلى وسط الجزيرة العربية فحين افترض بعضهم أنه وصل المنطقة الشرقية فقط واعتمد من هناك على معلومات شفهية في كتاباته عن المناطق الأخرى، نفى البعض الآخر مثل فيلبي ان يكون بالجريف قد قام بالرحلة أصلاً، فيقول مثلاً: أمضيت سنتي الأولى في العربية سبعين يوماً في الرياض، ورأيت جزءاً كبيراً من بقية البلاد، وكلما رأيت أكثر ازداد شكي فيما يتصل بصدق ومصداقية بالجريف لقد ذكرت من قبل أن زيارة كليف أوين للخرج تعد البعثة الأوروبية الأولى لتلك المحافظة، أما ما قبلها فكانت تعد أرضاً مجهولة بالرغم من أن بالجريف قد ادعى زيارة كل من الخرج والأفلاج عام ١٨٦٣م. وادعاؤه مشكوك في صحته حتى هذه المرحلة، وهذا ليس بالمقام المناسب لمناقشة ذلك بالتفصيل، ولكن لكوني تنقلت في كل أرجاء هذا البلد فإني أستطيع هنا أن أعبر عن قناعتي بأن بالجريف لم ير أبداً الخرج والأفلاج بل لم يصل حتى إلى الرياض أو القصيم، فإذا كان وصل إلى حائل تكون أبعد منطقة شاهدها في شبة الجزيرة العربية، وإني أعتقد أنه لم يفعل حتى هذه. إن قصته الرومانسية الذكية كانت ضرباً من الخيال ولكنها في رأيي أفضل قليلاً من كونها " قصة رسالة ".

ويشير لويس بلي إلى أن الإمام فيصل بن تركي أخبره أنه أول أوروبي يسمح له بدخول الرياض، وهو ما ينفيه بدول R. Bidwell في مقدمته لكتاب بلي ويشير إلى أن الحسد هو مرد ذلك النفي، مع ان رواية بلي عن الإمام فيصل قد تكون صحيحة ذلك أن بالجريف في زيارته للرياض كان متنكراً في زي تاجر عربي . ولعله من غير المنطقي أن تكون التفاصيل الدقيقة التي ذكرها بالجريف عن الرياض مختلقة أو معتمدة على روايات شفهية لأن بعضها لا يمكن إدراكه إلا بالملاحظة الدقيقة،وقد أشار شكسبير إلى أن خريطة بالجريف للرياض ممتازة، كما ذكر هوجارث D. Hogarth أن صحة رحلة بالجريف ليست مثاراً للنقاش.

انظر أيضاً: أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، " رحلة بالجريف إلى الجزيرة العربية "، في : مسائل من تاريخ الجزيرة العربية، ط١، الرياض: مؤسسة دار الأصالة، ١٤١٣هـ (ص ١٩٦- ٢١٢).

مشاهد التغيير التي تقابل زائر اليوم، وما تزال بعيدة عن الاكتمال، ولا يمكن التكهن بالمدى الذي سوف تصل إليه، ولكن البناء والبناء المطرد هي صفة اليوم.. ناهيك عن قول أي شيء عما يصاحب ذلك من عمليات هدم وإزالة المباني الطينية القديمة لتحل محلها العمارة الأوروبية المجلوبة الخرسانية والمرمرية.. وتتقدم التنمية المزدهرة بسرعة على طول الطرق المعبدة الممتدة بعيداً إلى داخل الصحراء في كل اتجاه مع مطالبات لا تُعد لمواقع مبانٍ عُلمت حدودها الآن بالفعل لمسافات بعيدة عن وسط المدينة مما يوحي بالثقة الظاهرية أن المشكلة الرئيسة والمهمة المتعلقة بإمدادات المياه سوف تحل جذرياً عما قريب.. على كل حال درجة التنمية هي التي تدهش المراقب وليس حدوثها، ويمكن للواحد أن يقول تقريباً: بأن بلدية الرياض تحاول أن تعمل كثيراً وبسرعة فائقة.

لقد كانت المدينة المسورة في بداية عهدي بها ذات أبعاد تبلغ ٧٠٠ ياردة تقريباً من الشمال إلى الجنوب، وحوالي ٦٥٠ ياردة من الشرق إلى الغرب، محاطة بحقول عظيمة من النخيل من جميع الجوانب ماعدا الجزء الشمالي الشرقي حيث السور الشرقي على حدود حافة مجرى وادي البطحاء، بينما يلاصق الجزء الشرقي للجدار الشمالي المقبرة العظيمة التي يرقد فيها الإمام تركي الذي اتخذ الرياض عاصمة للدولة بعد تدمير الدرعية من قبل إبراهيم باشا عام ١٢٣٣هـ الموافق ١٨١٨م.. وحفيده سعود بن فيصل.. مدفونين في قبورهم المهملة وغير المميزة.. وفي اتجاه الشمال من هذه المقبرة يمتد شريط طويل آخر من بساتين النخيل الغنية، بينما تنتشر حقول أخرى على الجانب الأيسر، أو شرقي حافة وادي البطحاء، وتسير في عمق معقول في اتجاه الشرق، بينما إلى الجنوب على الحافة نفسها يوجد شريط من الأرض الخالية خصص لمقبرة ملكية جديدة عند وفاة الإمام فيصل عام ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م –الذي يرقد هناك مع أولئك المنحدرين من سلالته الذين فارقوا الحياة منذ ذلك الحين– وباستثناء بعض المنازل القليلة والمتفرقة (وعلى وجه الخصوص قصر الشمسية الخاص بحفيد فيصل، سعود الكبير (لا يزال حياً).. (توفي عن عمر بلغ ٧٦ سنة خلال كتابة هذه الكلمات في ١٩٥٩/٢/٢٤م) الواقع على بعد حوالي ميل من المدينة.. وفي وسط حقول النخيل المجاورة لا توجد مساكن لسكان الرياض خارج البلدة المسورة نفسها التي ذكر أن سكانها كانوا لا يتجاوزون ٣٠,٠٠٠ نسمة على وجه التقدير.

لم يبق اليوم إلا قليل من الحزام الأخضر الكبير الذي كان يحيط بالبلدة؛ فقد عمل الأمن الذي وفره ابن سعود إضافة إلى توحيد المملكة العربية السعودية على جذب البدو وعناصر أخرى إلى العاصمة؛ لأنهم واثقون من كرم الأمراء التقليدي، والاعتناء الطبي بأمراضهم المختلفة كأمراض العيون والسل الرئوي علاوة على التعليم الديني المتوافر في كتاتيب المساجد عن طريق أبطال العقيدة السلفية.. لقد تحولت الزيارات القصيرة إلى المدينة إلى إقامة طويلة لوجود فرص العمل في الإنشاء أو الأعمال التنموية الأخرى.. يأتي البدو ببيوت الشعر، ويبنون جدراناً طينية حولهم لتقيهم من الرياح، وبعد ذلك تسقف الجدران لتوجد ظلالاً.. وتنشأ الأكواخ بالقرب

من أسوار البلدة، وتنمو لتصبح فللاً.. بينما بحث سكان الرياض من ميسوري الحال عن الراحة بعيداً عن أجزاء المدينة المتزاحمة التي فيها عاشوا عن طريق التوسع خارج الأسوار، وكان ذلك التوسع على حساب حقول النخيل.. إنهم كلما توسعوا ارتفعت قيمة الأرض بشكل قوي حتى تجاوزت قيمة محصول التمر وقطع النخل بدون رحمة؛ لتوفير أماكن للمنازل.. لم يكن هناك في تلك الأيام سؤال عن البحث عن متنفس من الازدحام الشديد في الأراضي الصحراوية الواقعة خلف البساتين، فلا زالت التقاليد القديمة تفرض على الغالبية ذلك التوجس الحذر من التعرض لعدوان؛ لذا ضحي بجمال الحزام الأخضر لاستيعاب السكان ذوي الزيادة المستمرة الذين جاء أغلبهم من العناصر المحلية لمملكة ابن سعود، و لم يكن الاحتياج قد بدأ بعد.. وحتى أولئك الأجانب الموجودون بالرياض كان يجب عليهم أن يتماشوا بدقة مع نمط لباس وسلوك الناس المحليين.

وكان ابن سعود نفسه هو الذي بدأ بإطلاق عملية التنمية في هذه الصحراء عندما انتقل في عام ١٣٥٧هـ الموافق ١٩٣٨م إلى خارج المدينة ليقيم في قصر جديد (المربع) مزود بالأبراج بني من أجله على موقع أحد التلال الصغيرة المحيطة ويعرف بالمربع والذي يبعد قليلاً من منزل ابن عمه في الشمسية، وربط بالمدينة بطريق خرساني للسيارات حيث قصر تركي القديم[١] وفيصل الذي بقي مركزاً للإدارة والحكم كما كان من قبل، مع عدم تغيير ما يحيط بالمسجد الكبير والسوق الرئيس القريبين من بعضهما جداً.. وفي الوقت نفسه بنى ولي العهد– الملك الحالي– لنفسه قصراً في موقع المربع أضيف إليه قصر واسع ليكون قصراً للضيافة الملكية، وتبع الأمير فيصل بقصر لنفسه على الطريق الأسمنتي في نصف المسافة بين المربع والبلدة.. علماً بانه لم يسكنه مطلقاً حيث أصبح هو الآخر كقصر ضيافة إضافي.. وبالمناسبة في تلك الأيام لم يكن أحد يزور الرياض إلا بإذن ملكي، وكان كل من قاموا بزياراتهم ضيوف الملك، وبعد انتهاء الحرب مباشرة –عندما وصل جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى من أبناء الملك سن الاستقرار والحياة الزوجية– بني نحو عشرين من القصور الملكية ذات الطراز المتماثل لسكناهم في حي جديد يسمى الفوطة على حساب بساتين النخيل المحيطة بقصر المربع من الجانب الشمالي الغربي، وفي كل هذه المخططات العمرانية كانت العمارة التقليدية في نجد ملتزماً بها التزاماً كاملاً، واستمرت المدينة المتوسعة بالمحافظة على شخصية قلبها الذي منه نمت إلى الخارج لتغطي مساحة تبلغ على الأقل عشرة أضعاف المدينة القديمة، وبعدد سكان يقارب ضعف سكان البلدة القديمة... وتحت الضغط استجاب الجدار الغربي مع بوابتيه لضغط البناء المتقدم نحو حلقة من الضواحي غير المتميزة تم بناؤها خلف حزام بساتين النخيل بواسطة مهاجرين من الأقاليم جاؤوا للبحث عن فرص العمل، وفي الجنوب الشرقي أيضاً أزيلت بعض بساتين النخيل من أجل توسعة حدود المدينة لتأمين مكان للجراج الملكي وورش إصلاح السيارات، بالإضافة إلى محطة اللاسلكي

(١) المعروف بقصر الحكم.

الجديدة (أنشئت عام ١٣٥٠هـ الموافق ١٩٣١م)، في حين أنشئت على حافة مجرى البطحاء الشرقي ضاحية كبيرة لتفي باحتياجات عدد جديد من السكان (السواقين والميكانيكيين) من بلاد إسلامية عديدة جذبتهم إلى المملكة العربية السعودية الأجور العالية المدفوعة مقابل خدماتهم.

تلك كانت رياض فترة الشفق وعتمة الليل لفقرها المدقع بين ليلة وبين بزوغ ازدهارها الحالي المفاجئ الذي لم يكن يحلم به أحد.. كان البترول بالطبع قد تم اكتشافه في الأحساء سلفاً، لكن عائداته لم تجد طريقها إلى الخزانة السعودية إلا في عام ١٣٦٦هـ الموافق ١٩٤٦م، ومنذ ذلك الوقت قرر الملك أن التقدم والتطور هو سنة العصر، فبدأ بمدينة الرياض نفسها التي ربطها حالاً بواسطة القطار ببعض الموانى المناسبة على الخليج العربي، وفي عام ١٣٦٥هـ الموافق ١٩٤٥م أهديت إليه طائرة داكوتا من قبل الرئيس روزفلت، وتمكن بصعوبة أن يقنع السلطات الدينية في العاصمة في مشروعية استخدامها من أجل تحسين اتصالات البلد؛ ولذا زودت الرياض بمدرج أرضي مناسب عند مسافة معقولة عن البلد، وفي شهر المحرم ١٣٧١هـ (الموافق شهر أكتوبر من عام ١٩٥١م) كان الاحتفال الرسمي لافتتاح الخط الحديدي (٥٥٠كم) عند وصول أول قطار من الدمام، ومنذ ذلك الحين تأكدت رؤيته المستقبلية، وتحسن اقتصاد الرياض جذرياً نتيجة انخفاض أسعار جميع السلع الأساسية، ومن ثم أصبح من المؤكد أنه لولا وجود السكة الحديدية لكان تطوير الرياض مستحيلاً تماماً، أو في أفضل الظروف ليس بأكثر من مشروع خيالي لمستقبل لا يمكن التكهن به على الإطلاق.

وإن لم يعش ابن سعود ليرى الثمرة الكاملة لمشروعه فهو على الأقل قد خلف لمن يأتي بعده إرثاً يشتمل على مفتاح الأرض الواعدة، وكان سعود نفسه معداً لذلك من خلال رحلاته الخارجية التي قام بها حديثاً؛ الشيء الذي مكّن من استيعاب إمكانية وفرض تطوير بلد تأكدت قدرته على توفير المال الكافي لجعل الصحراء تنفتح كالزهرة.. كان سعود يحظى بتذوق خاص للمباني الجميلة والحدائق المنمقة، وكان لا يزال ولياً للعهد حين أشرف على التجربة الحقيقية الأولى في تحديث الرياض.. وكان على بعد ثلاثة أميال غرب الرياض تقع حديقة الناصرية التي تبلغ مساحتها أربعة هكتارات، وكانت المكان المحبب للملك المسن لنزهاته العصرية، وقرر سعود أن يشيد عقاراً يتناسب مع مكانته العالمية وآرائه المتقدمة؛ فحفرت آبار أعمق في المنطقة المجاورة حيث جاءت بنتائج مدهشة، وتمت زراعة أشجار الفاكهة وأشجار الزينة المستوردة من أمريكا وأماكن أخرى على أيدي خبراء البساتين من الهند وبخارى، وسرعان ما بدأ خبراء البناء من الهند وسوريا في العمل لوضع أساسات ضخمة لقصر ضخم من طابقين، وقد استضاف فيه خلال سنة أو سنتين ضيوف والده القادمين من شتى أطراف المعمورة..

وسرعان ما تحولت حديقة البئر الصحراوية الصغيرة إلى متنزه تبلغ مساحته مائة هكتار من المروج الخضراء والأنهار اليانعة، وطرق مشجرة ومساحات بشجيرات



السوق في مدينة الرياض. تويتشل، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.



شارع في سوق الرياض. توينشل، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.



قصيرة مزهرة، وبرتقال وبساتين وأراضٍ مشجرة بأشجار زينة.. ناهيك عن مسابحها، وصالات التنس والملاحق الترويحية الأخرى، ويوجد، بجوار القصر نفسه وحوله، مسجد ومدرسة جميلة لأطفال القصر، وملعب كرة قدم كامل بمدرج مسقوف وأشياء أخرى.. وفي مرحلة متأخرة نوعاً ما أضيف إلى وسائل الترفيه في أرض القصر حديقة؛ ليوضع فيها واحد من كبار الزوار القادمين للرياض عن طريق الجو.. وقد كان أسداً من أفريقيا!

لقد تناولت الناصرية بالتفصيل نوعاً ما؛ لأنها بلا شك تمثل الخطوة الأولى نحو تحديث الرياض.. أدى قيامها إلى الشروع في عمل طريق جيد ليربطها بقصر المربع والمدينة بطريق مزدوج يفصله خط وسطي مزروع بالزهور، ومنه يتفرع طريق معبد مماثل يقود إلى محطة القطار في اتجاه واحد، وإلى المطار في اتجاه آخر.. في هذه الأثناء تفرع من هذه النواة المزيد من الشوارع الحديثة في كافة الاتجاهات حول المدينة القديمة، وإلى خارجها باتجاه قصر البديعة الصيفي في المجرى الرئيس لوادي حنيفة، وإلى حدائق ومنازل الأمراء الأخرى التي بدأت تنتشر فجأة وعلى نفس نمط الناصرية، وبعد ذلك بقليل شمل البرنامج الخطوط المعبدة العريضة التي تجعل الرحلة إلى الدرعية والخرج ممتعة بدلاً من تلك المتعبة في أيام الصحراء القديمة، وقد تم البدء حديثاً في عمل طرق سوف تقوم بربط الرياض بمكة المكرمة والخليج العربي.. ناهيك عن مراكز السكان الواقعة على امتداد هذه الطرق.

إن كيفية معاملة وسط المدينة القديمة التاريخي مسألة تتطلب اهتماماً كبيراً وعناية فائقة حيث كان واضحاً أن شوارعها الضيقة والملتوية غير ملائمة، وتمثل مشكلة جدية لحركة المرور. ولكن من الغريب أن أول مكان خضع لعملية هدم وإعادة إصلاح من قبل سعود كان هو الجامع الكبير[1] الذي يمثل الرمز في التاريخ الوهابي، والذي يعد متناسباً مع عقلية الوهابيين بسقفه المسطح ومناراته القصيرة، وهو الذي أسند إليه أبوه بوصفه مثلاً للأجيال الجديدة مهمة تحديث العاصمة السعودية، وقد شرع في البداية بتقطيعه أجزاء كخطوة أولى نحو تحديثه، وقد تم هدم المسجد المشيد من الطين وعدد من المنازل المجاورة له وسويت بالأرض، وأقام في مكانها المسجد الجديد المشيد من الخرسانة المسلحة بمنارتيه العاليتين وصفوف أعمدته الجميلة.. وحالاً لحق قصر الإمام تركي القديم ليحل محله مبنى ضخم ذو تصميم أجنبي، ويحتوي على مساكن ومجمع للمحاكم، ومكاتب لأمير منطقة الرياض، وصالات عامة واسعة لاستخدام الملك في المناسبات الاحتفالية.. حوانيت حديثة بدأت حالاً لتؤطر الشوارع الملتقية في وسط المدينة.. طرق حديثة شعت منه في كل اتجاه، وهدمت المنازل الطينية القديمة لتفسح المجال لخليفاتها المسلحة أو الحجرية؛ أسوار المدينة هدمت، ارتفعت عالياً قيمة الأرض في المدينة القديمة وجوارها المباشر.. وكان هناك حالة مثبتة جيداً لموقع عمارة مرغوبة تبادلتها الأيدي بسبعة آلاف ريال للمتر المربع (٢٠٠٠دولار).. في الحقيقة فإن العمارة

(١) هو جامع الرياض أو ما يعرف حالياً بجامع الإمام تركي بن عبدالله.



التاريخية الوحيدة التي تجاوزت حتى ذلك الحين الامتداد غير الطبيعي للعصر هي قلعة المصمك المشهورة التي بنيت منذ مائة عام بواسطة عبد الله[١] ابن الإمام فيصل وخليفته، والتي لا تزال تحمل في بابها الخشبي القاسي رأس الرمح المنكسر الذي يخلد انتصار ابن سعود عام ١٩٠٢م، والمستخدمة كسجن حتى عهد قريب.. في ذلك الدور فقد استبدلت الآن بسجن جديد ذي نمط حديث بعيداً خارج المنطقة المعروفة الآن بالرياض الجديدة[٢]، وقريباً من حديقة الحيوان الجديدة التي حلت محل حديقة الناصرية لتخفف على أحياء القصر من التجمعات الضخمة التي تؤمه لترى القرود والحيوانات الأخرى.

لقد جذب التطور السريع في حركة الطيران والسكك الحديدية –ناهيك عن السيارات– الزوار من جميع أرجاء العالم وبأعداد بدأت تفوق طاقة استيعاب الترتيبات التقليدية المخصصة لاستقبال الزوار.. ولكي توفر سكناً لهم تم إنشاء مالا يقل عن ثلاثة فنادق كبيرة من الدرجة الأولى في غضون الخمس سنوات الأخيرة: واحد بجوار محطة سكة الحديد[٣]، والآخران على طريق المطار[٤] الذي على طوله بنت الحكومة صفاً رهيباً من العمائر الحديثة العظيمة لسكنى وزراء الإدارة المختلفين والمؤسسات العسكرية، إضافة إلى موظفي الكلية والمستشفى العسكري.. أما صحة المجتمع المدني فقد كان يتم الاعتناء بها من خلال ثلاثة مستشفيات رئيسة: مستشفى الولادة، ومؤسسات صغيرة عديدة.. وليس هناك شيء يشكو منه شباب المدينة بخصوص كل من المدنية والدينية، بينما أنجزت حديثاً مدرسة جديدة وجيدة بالقرب من قصر الناصرية.. علماً بأنها لم تستخدم حتى الآن، وعندما تستخدم سوف تكون بكل تأكيد من بين أفضل الكليات في العالم من ناحية المرافق السكنية والتعليمية.. ويجب ألا يغيب عن بالنا ذكر جامعة الملك سعود الجديدة التي سجلت بداية معقولة في منطقة الرياض الجديدة إبان السنة الماضية، وأيضاً متحف الناصرية الذي اكتملت مبانيه.. إلا أنه لم يتسلم بعد المعروضات التي تم وضعها مؤقتاً في المتحف الموجود في مدينة جدة.. وقد لا يسمح المجال لأكثر من ذكر عابر لمبنى البلدية الجديد والمكتبة العامة في الرياض، أو ميدان السباق مع مدرجاته، أو ملاعب كرة القدم العديدة؛ ومراكز الترفيه الأخرى، أو الحدائق الجذابة التي تزيل رتابة المباني الحديثة في نقاط عديدة مختارة.. وكل ذلك يوضح أن هناك اهتماماً كبيراً من قبل السلطات المحلية تحت إشراف وتوجيه الملك نفسه بالمتطلبات الأساسية لمدينة حديثة سكانها حوالي ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، وتغطي

(١) الذي بنى المصمك كما أشرنا سابقاً هو ابن نعام من رجال ابن رشيد وكان ذلك عام ١٣١٢هـ.

(٢) أي منطقة الملز.

(٣) الفندق الذي بجوار المحطة هو الفندق المعروف بفندق الرياض، وعرف بفندق المحطة لقربه من محطة سكة القطار، ومقره الآن مكان وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.

(٤) وهما فندق صحاري وفندق زهرة الشرق، والفندق الآخر هو فندق اليمامة، وترتيب فنادق الرياض من حيث القدم هي: صحاري ثم زهرة الشرق ثم اليمامة وأخيراً الرياض.

مساحة تبلغ حوالي ١٠٠ هكتار. لا داعي أن نقول: إن مشكلة الماء لهذه المدينة الضخمة لم تغفل.. فكل هذه المساحة مغطاة بشبكة أنابيب جالبة للماء من مكانين في وادي حنيفة؛ بالإضافة إلى الآبار الأصلية التي تُشغّل الآن آلياً إضافة إلى عدد من الآبار الارتوازية ذات المخزون الجيد من المياه، ولا يمكن أن يكون الاستهلاك اليومي للماء في الرياض الحديثة أقل من عشرة ملايين جالون يومياً.

وأخيراً، حتى وإن كان الملك نفسه الذي قاد طريق تطور عاصمته ببنائه لقصره الصيفي ومتنزهه في الناصرية، فمن المحتمل أنه لم تَعْدُ تلك المحاولة أكثر من كونها تجربة للتمهيد لأشياء أعظم من ذلك، وعلى أي حال لم تمر عدة سنين حتى كان لديه الشجاعة ليأمر بإزالة كاملة لكل المباني لتفسح المجال لبناء قصر جديد يتماشى أكثر مع مكانة الحكم الذي أسس لنفسه مكاناً آمناً في مجموعة أمم العالم.. ولا بد من الاعتراف أيضاً، أن أرقى مجموعة للمباني في الرياض الحديثة هي مجموعة قصر الناصرية كما يشاهد ذلك من المرتفع عند الطرف الشرقي من حديقة ذات الأشجار المرتفعة.. المواد المستخدمة كاملة هي الخرسانة المائلة إلى اللون البني، التي تنسجم بسهولة مع خضرة الحدائق وتعطي انطباعاً بأنها مبنية بالحجر الرملي.. وتقوم في الوسط الكتلة المستوية المقببة الخاصة بسكن الملك الخاص محاطة بحدائق فاخرة، مزينة ببحيرات اصطناعية تجميلية وأعشاب مزهرة وأشجار.. على اليسار يوجد الديوان الملكي، والمسجد الكبير، والمتحف، وتوجد على اليمين المنازل الضخمة لنساء البلاط.. وإنه ليحق القول: إن الملك قد اكتسب بجدارة حقاً لقب «الباني»؛ فرياض اليوم هي حقاً تذكار لإنجازاته، وإذ لا يوجد أكثر من نصف درزن من الأوروبيين كان لديهم امتياز رؤية المدينة المسورة القديمة ذات الذكرى الخالدة قبل أن أراها: فإن عشرات الألوف أصبح لديهم الآن متعة قياس التقدم الذي حقق منذ تلك الأيام البعيدة في هدوء تام.

وحتى لو تجاوز التحول المادي للرياض الأحلام البريئة لأولئك الذين عرفوها قديماً فإن ذلك قد اقترن بثورة اجتماعية وروحية كانت مدهشة كثيراً حتى لأولئك الذين عرفوا الرجال الذين أقاموا المملكة العربية السعودية.

لقد نظمت حياة البلاد ونشاطاتها –منذ عام ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ولمدة تقارب ثلاثين عاماً– التعاليم الدينية؛ ففي الساعات المحددة للصلاة تتوقف جميع الأعمال، تقفل جميع بوابات المدينة سواء للخروج أو الدخول، ويتجه جميع السكان الرجال إلى المساجد.. المتخلفون يُحَثون في طريقهم بواسطة المحتسبين وأحياناً بواسطة تشجيع المتحمسين الذين كان واجبهم أن يتأكدوا أن كل رجل صلّى في المسجد (لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد).. وفي تلك الأيام كان كل واحد يعيش بجوار أحد المساجد.. واليوم جميع ذلك تغير، ويوجد وفرة في المساجد من أجل حاجة السكان المتزايدة بكثافة، ولكن لا يوجد بوابات لتقفل، والجموع المختلطة كبُرت على الرعاة أن يسوقوها في الاتجاهات الصحيحة.. وعندما يكون الناس عائدين إلى منازلهم في ساعات الذروة يكون من النادر ألا نلاحظ

انطلاق أجهزة التنبيه وأصوات حركة السيارات، بالإضافة إلى ذلك فقد توقف اعتبار أداء الصلاة في أول أوقاتها شيئاً إجبارياً.

في تلك الأيام كان من المفترض أن يكون كل شخص وهابي المذهب[1]، والمسلمون يجب أن يلتزموا بنظام معين في اللباس، وحتى الكافر كان مطلوباً منه أن يرتدي اللباس العربي في الرياض.. كل ذلك الآن تغير، واليوم يرى المرء في السوق العديد من الناس -إن لم يكن أغلبهم- وهم يرتدون ملابس أوروبية بالقدر نفسه الذي يشاهد فيه الزي العربي، وإنه مما يحمد للأسرة المالكة وأبناء الطبقة العليا والوسطى ذوي الأصول الوطنية أنهم - باستثناء الخف أو الصندل- لم يتخلوا عن ارتداء الملابس العربية الأصيلة والجميلة، كما صار كافة جنود الجيش والشرطة يرتدون البدل الأوروبية، مع أنهم لم يطوروا بعد طرازاً ثابتاً في مسألة غطاء الرأس، مضوا في البدلة وبقي غطاء الرأس التقليدي.

لقد قام النفط بجذب أعداد ضخمة من المهاجرين من البلدان المجاورة حتى أن سمة المدينة الأساسية وسكانها قد تغيرت تغيراً جذرياً؛ فقد يكون هؤلاء موظفين وعمالاً باحثين عن العمل، أو تجاراً وأصحاب دكاكين باحثين عن مكاسب سهلة، أو صناعيين مهتمين بفرص البناء أو تطوير مصانع.. وفوق الجميع هناك أساتذة المدارس وخبراء التقنية من كافة الأنواع الذين يمارسون تأثيراً قوياً في تقديم الطريقة الغربية للأجيال الصغيرة بخلاف بعض الاستثناءات.. الجميع يرتدون ملابس أوروبية، وفي الواقع إنهم غير مميزين عن الغربيين في طريقة حياتهم.. يرتادون المقاهي والمطاعم التي تعد أشياء جديدة في الرياض بينما لم تكن من قبل موجودة لأنه كان من غير اللائق الأكل في الأماكن العامة.. ونساؤهم تتجول بحرية حول السوق متسوقات أو زائرات متى ما سنحت لهن الفرصة للتسوق أو الزيارة، وهن يرتدين العباءات والحجاب الأكثر شفافية مما ترتديه النساء المحليات.

(١) درج المؤلفون والرحالة الأجانب على استخدام كلمة Wahhabism لتعني الوهابية وتشير إلى الحركة الإصلاحية التي قامت في شبة الجزيرة العربية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب والإمام محمد بن سعود عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م، وهي ليست مذهباً جديداً، بل هي مذهب السلف الصالح من أهل السنة والجماعة، وهي دعوة إلى العودة بالناس إلى أصول العقيدة الإسلامية كما كانت في عهد الرسول محمد ﷺ وخلفائه الراشدين.



طريق المطار بمدينة الرياض ويظهر مجموعة من الوزارات في يسار الصورة بعضها تحت الإنشاء.
الشرقي، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

المراجع

١ – جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب : خمسة قرون من المغامرة، نقله إلى العربية قدري قلعجي، وقدم له حمد الجاسر.
٢ – توركيل هانس، من كوبنهاجن إلى صنعاء : ترجمة محمد أحمد الرعدي.
٣ – محمد كامل ضاهر، الدعوة الوهابية وأثرها في الفكر الإسلامي الحديث.
٤ – جون لويس بوركهارت، رحلات في شبة الجزيرة العربية، ترجمة عبد العزيز بن صالح الهلابي وعبد الرحمن عبد الله الشيخ.
٥ – J.I. Burch hardt, Notes on the Bedouins and wahhabys London 1830.
٦ – السيد أحمد مرسي مع الكابتن سادلير في رحلته من القطيف إلى ينبع عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، مجلة الدارة.
٧ – عوض البادي، صفحات من الاستشراق الفنلندي، مجلة الفيصل.
٨ – زاهر عبد الرحمن عثمان ، وضع تاريخ العمران بمدينة الرياض، مجلة الدارة.
٩ – نوال محمد عبد الله، التغيير في المنطقة المركزية لمدينة الرياض، مجلة الدارة.
١٠ – رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩م، الكابتن ج. فورستر سادلير، ترجمة أنس الرفاعي.
١١ – W. G. Palgrave, Personal Narrative of A Year's Journey Through Central and Eastern Arabia.
١٢ – عبد الله البسام، علماء نجد خلال ثمانية قرون.
١٣ – ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد.
١٤ – الليفتنانت كولونيل لويس بلي، رحلة إلى الرياض، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ و عويضة بن متيريك الجهني.
١٥ – Barclay Raunkiaer, through Wahhabis Land on Camelback.
١٦ – محمد بن عبدالله بن بليهد، صحيح الأخبار.
١٧ – Leachman, G.E. A journey through central arabia. journal of his royal Geographical society.

١٨ – عبد المحسن بن محمد بن معمر، إمارة العيينة وتاريخ آل معمر.
١٩ – William facy, Riyade: the old city from its origins until the 1950.
٢٠ – Paul w. Harrison, al - Riyadh, the captial of the nejd : ths moslem world.
٢١ – يوميات هاميلتون عن رحلته إلى نجد ١٣٣٥هـ / ١٩١٧م، ترجمة : عصام ضياء الدين السيد علي.
٢٢ – H. st. G. B. Philby, The heart of arabia: A record of travel and exploration.
٢٣ – H. Sw. B. Philby, Arabia of the Wahhabis.
٢٤ – Ameen Rihani. Ibn sa'oud of arabia: his people an his land.
٢٥ – القوافل / رحلات الإرسالية الأمريكية في مدن الخليج والجزيرة العربية ١٩٠١ – ١٩٢٦، ترجمة و إعداد خالد البسام.
٢٦ – محمد شفيق أفندي مصطفى، في قلب نجد والحجاز سلسلة مقالات سياسية – اجتماعية – دينية .
٢٧ – Leopold Mohammad weiss, Riyadh die stadtdes konigs ibn Saud.
٢٨ – H.S.J.B. philby, a pilgrim in arabia. London: Robert hale limited.
٢٩ – سمير عطا الله قافلة الحبر : الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج.
٣٠ – Gerald de Gaury, Arabia phoenix: an account of a visit to ibn Saud chieftain of the austere wahhabis powerful a Arabian king.
٣١ – Geraldine Rendele, A cross Saudi Arabia. Geographical magazine.
٣٢ – هـ . ر.ب. ديكسون، الكويت وجاراتها، ترجمة فتوح الخترش.
٣٣ – إيجيرو ناكانو، الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية، ترجمة : سارة تاكاهاشي.
٣٤ – آر. إس. هنسي، تقرير لم ينشر عن زيارة البعثة للرياض.
٣٥ – عبد الوهاب عزام، رحلات عبد الوهاب عزام.
٣٦ – ابن حميد، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة، تحقيق ابن عثيمين.
٣٧ – D. van der meulen the wells of Ibn Sa'ud.
٣٨ – أمين المميز، المملكة العربية السعودية كما عرفتها.
٣٩ – محمد كامل حتة، في أرض المعجزات.
٤٠ – K. S. Twitchell, Saudi Arabia: with an account of the development of its natural resources
٤١ – H. st. G. B. Philby, Riyadh: Ancient and Modern.
٤٢ – أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، رحلة بالجريف إلى الجزيرة العربية، في مسائل من تاريخ الجزيرة العربية.

المحتويات

تقديم ٥
المقدمة ٧

القسم الأول: الرياض في القرن الثالث عشر (التاسع عشر الميلادي) ١٣
الفصل الأول: ١٢٣٤-١٢٨١هـ/١٨١٩-١٨٦٥م ١٥

جورج فورستر سادلير ١٢٣٤هـ/١٨١٩م ١٧
وليم جيفورد بالجريف ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م ٢١
لويس بلي ١٢٨١هـ/١٨٦٥م ٤٣

القسم الثاني: الرياض في القرن الرابع عشر (العشرين الميلادي) ٤٧
الفصل الأول: ١٣٣٠-١٣٣٧هـ/١٩١٢-١٩١٨م ٤٩

باركلي رونكيير ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ٥١
جيرارد ليتشمان ١٣٣٠هـ/١٩١٢م ٥٧
وليم شكسبير ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ٦٩
بول هاريسون ١٣٣٦هـ/١٩١٧م ٧٩
آر. إي. إيه. هاميلتون ١٣٣٦هـ/١٩١٧م ٨٣
هاري سانت جون فيلبي
(عبدالله فيلبي) ٣٦-١٣٣٧هـ/١٧-١٩١٨م ٨٩

الفصل الثاني: ١٣٤١-١٣٤٩هـ/١٩٢٢-١٩٣٠م ١٣١

أمين الريحاني ١٣٤١هـ/١٩٢٢م ١٣٣
لويس ديم ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م ١٤٩
محمد شفيق أفندي مصطفى ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م ١٥٥
ليوبولد فايس (محمد أسد) ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م ١٦٣

الفصل الثالث: الرياض في القرن الرابع عشر (العشرين الميلادي) ١٣٥١-١٣٥٨هـ/١٩٣١-١٩٣٩م ١٦٩

عبدالله فيلبي ١٣٥١هـ/١٩٣١م ١٧١
غيرالد ديغوري ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م ١٨٧
غيرالد ديغوري ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م ٢٠٠
جيرالدين رندل ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م ٢١٥
هارولد ديكسون ١٣٥٥هـ/١٩٣٧م ٢٣٣
إيجيرو ناكانو ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ٢٤٣

الفصل الرابع: الرياض في القرن الرابع عشر (العشرين الميلادي) ١٣٦٦-١٣٦٧هـ/١٩٤٦-١٩٤٨م ٢٥٧

آر. إس. هنسي ١٣٦٦هـ/١٩٤٦م ٢٥٩
عبد الوهاب عزام ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ٢٦٥

الفصل الخامس: الرياض في القرن الرابع عشر (العشرين الميلادي) ١٣٧٢-١٣٧٩هـ/١٩٥٢-١٩٥٩م ٢٧٥

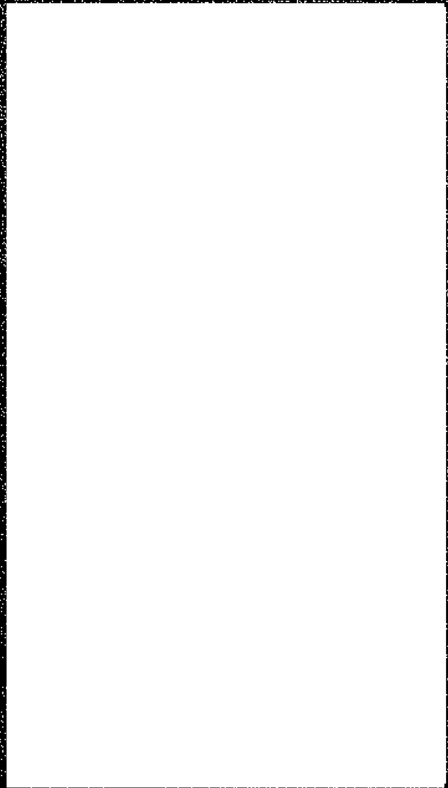
د. فان در ميولين ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م ٢٧٧
أمين المميز ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م ٢٩١
محمد كامل حتة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ٣٠٥
كارل تويتشل ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م ٣١٣
عبدالله فيلبي ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م ٣٢٣

المراجع ٣٣٧
المحتويات ٣٣٩

التنضيد والإخراج والتنفيذ الطباعي: مؤسسة مرينا لخدمات الطباعة – ص.ب: ٢٩٩٧١ الرياض ١١٤٦٧ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٧٦١٥٥١ – ٢٩٣٢٤٩٥ فاكس: ٤٧٣٠٧٦٧ بريد إلكتروني: marina@ogertel.com

Typesetting, layout & printing : Marina Printing Services P.O. Box: 29971, Riyadh 11467 Kingdom of Saudi Arabia
Tel: 4761551 - 2932495 Fax: 4730767 - E-mail: marina@ogertel.com





٩٩٦٠-٩٢٣٠-٦-١

